التربيـــة الإســـلامية
فـــــى
ســـــورة النســـاء

تأليف
الدكتور على عبد الحليم محمود
من علماء الأزهر

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

رقم الإيداع

٩٦/١٣١٠١

الترقيم الدولى

I.S.B.N.

977-265-150-5

أمل

شركة الأمل للتجهيزات الفنية

عامر شماخ وشركاه

ت: ٧٦١٩٦٢

دار التوزيع والنشر الإسلامية

٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢ ص ب ١٦٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى الراغبين في أن يربوا أنفسهم وأبناءهم وغيرهم من الناس تربية إسلامية نابعة من مصدري الإسلام الأساسيين:

القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وإلى المؤمنات المسلمات الصالحات اللائي يعانين في تربية أنفسهن وغيرهن تربية إسلامية.

وإلى كل من يحاول معرفة أبعاد التربية الإسلامية معرفة مؤصَّلة تعتمد الكتاب والسنة مرجعين رئيسين.

إلى هؤلاء أقدم هذا الكتاب، راجيا الله تبارك وتعالى أن ينفع المسلمين بما جاء فيه مما قصد به وجه الله.

علي عبد الحليم محمود

غرة المحرم من عام ١٤١٩ هـ

٢٧/٤/١٩٩٨م

بين يَدَىْ هذه السلسلة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه والمتمسكين بسنته إلى يوم الدين.

وبعـد

فإن هذه السلسلة «التربية فى القرآن الكريم» عمل تطلب منى جهدا ووقتا، أرجو أن أكون قد وفَّيْتُ به بعض ما علىّ من واجب نحو ما عَلَّمنى ربى من كتابه وسنة رسوله ﷺ، وأن أكون قد حظيت من أجله بعون من الله تعالى وتسديد.

وقد قلتُ فى مقدمة كل حلقة من حلقاته الخمس التى صدرت إنه عمل كبير يحتاج إلى جهد أكثر من واحد من الناس، لأن استنباط المواقف التربوية العامة أو الخاصة بالدعوة إلى الله من آيات القرآن الكريم عمل غير مسبوق - فى حدود ما أعلم - ولو كان مسبوقا لمهّد السابق للاحق ويسَّر له معالم يهتدى بها فى طريقه.

ومن أجل هذا احتاجت كل حلقة من حلقات هذه السلسلة منىّ إلى وقت وجهد وطويل تدبر لما فى الآيات الكريمة من مواقف تربوية عامة أو خاصة.

ولقد كان فضل الله وتوفيقه عونا لى على إنجاز خمس حلقات من هذه السلسلة ذات الحلقات السبع، وهى:

- التربية الإسلامية فى سورة المائدة.
- والتربية الإسلامية فى سورة النور.
- والتربية الإسلامية فى سورة آل عمران.
- والتربية الإسلامية فى سورة الأحزاب.
- والتربية الإسلامية فى سورة الأنفال.

وهذا الكتاب هو الحلقة السادسة وموضوعه:

- التربية الإسلامية فى سورة النساء.

ويبقى من هذه السلسلة حلقة واحدة هي: - التربية الإسلامية في سورة التوبة «براءة».

أسأل الله تعالى أن يمنحني من الأسباب ما أستطيع به أن أخرجها للناس، بحيث يكون فيها النفع في الدنيا والآخرة.

● وقد سبق لي أن نبهت - في الحلقات السابقة - إلى أن المواقف التربوية التي أستنبطها من الآيات الكريمة تتجه إلى نوعين من القرَّاء:

- **الأول منهما هو**: المسلمون عموما.

- **والآخـر هـو**: الدعاة إلى الله والعاملون في مجال الحركة الإسلامية على وجه الخصوص.

وكلا النوعين يستطيع أن ينتفع بهذه الاستنباطات التربوية في دينه ودنياه، ما دام قد أخلص فيما يقرأ ويتدبر، وما دام مستعدا لأن يؤدي واجبه نحو ربه طائعا مختارا، ممارسا للدعـوة إلى الله؛ لينقل بهـا الناس من الضـلال إلى الهـدى أو من الكفـر إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

● وأرجو الله تبارك وتعالى أن يزداد المؤمنون إيمانا بقراءة هذا الكتاب، ويزدادوا به هدى وفقها وفهما للدين وللدعوة والحركة، وأن يصبحوا أكثر امتثالا لما أمر الله به، وأشد اجتنابا لما نهى الله عنه، وبذلك تسهل الدعوة إلى هذا الدين والحركة به في الناس وفي الآفاق حتى يصبح الدين كله لله، فلا يعبد غيره في الأرض.

● أما غير المؤمنين إذا قرأوا هذا الكتاب وأمثاله، فلعل الله تعالى أن يجعل ذلك سببا في هدايتهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم فيصبحوا في زمرة المؤمنين، إنه سبحانه على ما يشاء قدير.

● وأحب أن أنبه إلى ما سبق أن قلته في تقديم الحلقة الأولى من هذه السلسلة: «**التربية الإسلامية في سورة المائدة**» في إجمال فيما يلي:

● اشتركت جميع الأديان والشرائع التي جاءت من عند الله تعالى في إرساء دعامتين أساسيتين يقوم عليهما بناء التعليم والتربية، وصياغة الإنسان المؤمن الذي يرضى عنه خالقه سبحانه وتعالى، هاتان الدعامتان هما:

- توحيد الله تبارك وتعالى إلهًا وربًّا وخالقا ورازقا، وعبادته سبحانه وفق ما شرع وأوحى على لسان رسله عليهم السلام، بدليل أن كل نبي أو رسول قال لقومه كما أمره ربه:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾(١).

– وطاعة الله تعالى فى كل ما أمر به، أو نهى عنه، بدليل أن كل نبى أو رسول طالب قومه بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله فقالوا لأقوامهم ما أمرهم الله تعالى به، فبعضهم قال لقومه: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢] وبعضهم قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ٢٠] وبعضهم قال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٩٢] وبعضهم قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(٢).

● وما طالب الأنبياء والرسل عليهم السلام أقوامهم بتوحيد الله تعالى وطاعته إلا لما فى الالتزام بذلك من أهمية بالغة فى تربية الإنسان تربية إيمانية صحيحة، تقربه من ربه وتمكنه من إعمار الأرض التى استخلفه الله تعالى فيها، وتحقق له سعادة الدنيا والآخرة.

● وإذا كانت مفردات التربية الإسلامية للإنسان – كما أوضحت ذلك فى سلسلة «مفردات التربية الإسلامية» مما اهتم الإسلام بإبرازها فى آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ، فإن ذلك يعنى وجوب أن يتكامل بناء الفرد المسلم لتتكون منه الأسرة المسلمة فالمجتمع المسلم القادر على قيادة موكب الحضارة والإنسانية الراشدة الصالحة.

– وقد استطعنا فى تلك السلسلة أن نحصى من هذه المفردات عشرا هى: التربية الروحية، والتربية الخلقية، والتربية العقلية، والتربية الجسمية أو البدنية، والتربية الدينية، والتربية الاجتماعية، والتربية السياسية، والتربية الاقتصادية، والتربية الجهادية، والتربية الجمالية(٣).

● ومن أجل أن نعرف التربية الصحيحة المتكاملة للإنسان، كان اتجاهنا إلى القرآن الكريم، وإلى شرحه وتفصيله؛ السنة النبوية المطهرة، إذ يصعب فهم القرآن الكريم فهما علميا عمليا إلا بالسنة النبوية التى أكد الرسول ﷺ مكانتها من القرآن الكريم فى عدد من

---

(١) وردت هذه الآية الكريمة بنصها فى سورة الأعراف أربع مرات فى الآيات: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، وفى سورة هود ثلاث مرات فى الآيات: ٥٠، ٦١، ٨٤، وفى سورة «المؤمنون» مرتين فى الآيتين: ٢٣، ٣٢.

(٢) وردت هذه الآيات الكريمة فى السور التالية:
آل عمران: ٣٢، ١٣٢، والنساء: ٥٩ والمائدة: ٩٢، والأنفال: ١، ٢٠، ٤٦، والنور: ٥٤، ٥٦، ومحمد: ٣٣، والمجادلة: ١٣، والتغابن: ١٢، ونوح: ٣، ثم فى آل عمران: ٥٠، والشعراء: ١٠٨، ١١٠، ١٢٦، ١٣١، ١٤٤، ١٥٠، ١٦٣، ١٧٩، وفى سورة الزخرف: ٦٣.

(٣) صدر من هذه السلسلة ثلاث حلقات: التربية الروحية والتربية الخلقية، والتربية العقلية ونسأل الله العون فى إصدار باقيها.

أحاديثه الشريفة التى نذكر منها:

- ما رواه الإمام أحمد وأبو داود بسنديهما عن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إنى أوتيتُ الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلى، ولا كل ذى ناب من السبع، ولا لقطة من مال معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروهم، فإن لم يقروهم فلهم أن يعقبوهم بمثل قراهم».

- وما رواه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم بأسانيدهم عن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يقعد الرجل متكئا على أريكته يُحَدَّث بحديث من حديثى فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرَّمناه، ألا وإن ما حرَّم رسول الله فعل ما حرَّم الله».

- ورواه الطبرانى فى «الكبير»، والبيهقى فى «شعب الإيمان» بسنديهما عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيتُ مكان التوراة السبع الطوال[1]، وأعطيتُ مكان الزبور المئين[2]، وأعطيتُ مكان الإنجيل المثانى[3]، وفُضلتُ بالمفصَّل»[4].

ولعل هذه الأحاديث النبوية الشريفة ترد على أولئك الأغرار الذين تحدث عنهم النبى ﷺ قبل أربعة عشر قرنا من الزمان، فوصفهم بأنهم جلوس على الأرائك شبعانون يرفضون السنة النبوية مكتفين بالقرآن الكريم، وأعجب من ذلك أن بعضهم يسمون أنفسهم: القرآنيين!!

- ومن أجل انتقاء أفضل المناهج وأحسنها وأكملها فى تربية الإنسان.

- ومن أجل تربية المسلمين جميعا صغارهم وكبارهم، أفرادهم وجماعاتهم على منهج الإسلام فى التربية.

- ومن أجل التأكيد على تميز المسلمين عن غيرهم من الناس فى التربية الشاملة المتكاملة؛

---

(١) السبع الطوال هى سور: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس.

(٢) المئون هن: كل سورة من سور القرآن تزيد آياتها على مائة آية.

(٣) المثانى هن: كل سورة تقل عن مائة آية - ما عدا المُفصَّل، وتطلق كلمة المثانى على سورة الفاتحة.

(٤) المفصَّل هو: السور القرآنية الكريمة ابتداء من سورة الحشر إلى آخر سورة الناس.

من أجل ذلك كان توجهي إلى القرآن الكريم والسنة النبوية نستنبطهما عن التربية الإسلامية؛ أهدافها ووسائلها وأبعادها وأنواعها وخصائصها، ليكون المسلمون على علم ومعرفة بهذا الكنز الثمين.

● ومن أجل بناء الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم والدولة المسلمة كان من الضروري للمسلمين النافع لهم في دينهم ودنياهم أن يتربوا ويتعلموا من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ليستوعبوا الأهداف النبيلة الصحيحة والقيم الثابتة الرفيعة، لينطلقوا بعد ذلك في مجالات العلم والمعرفة ليعمروا الأرض التي استخلفهم الله تعالى فيها بالإيمان والعلم، لتكون لهم بذلك أرقى حضارة إنسانية من خلال مجتمع إنساني فاضل صالح لممارسة الحياة الإنسانية الكريمة له ولغيره من الناس.

● ولا يستطيع المسلمون أن يتعلموا من مصدر أو مرجع للعلم والثقافة والمعرفة، ولا أن يتربوا تربية صحيحة كما يجدون ذلك في القرآن الكريم وفي سنة المعصوم ﷺ. فلقد أورد أبو بكر الانباري(١) رحمه بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم».

قال العلماء في تفسير هذا الحديث: إنه مَثَل، شبَّه القرآن بصنيع صنعه الله عز وجل للناس، لهم فيه خير ومنافع ثم دعاهم إليه. فالقرآن الكريم مأدبة صنعها الله ثم دعا إليها عباده.

● وقد أجمع العلماء على أن أهم ما يحتاج إليه الإنسان من التعلم والعلم والتعليم والتأدب من أجل أن يحيا حياة إنسانية كريمة، ومن أجل أن يلقى ربه وهو عنه راض ليحيا حياة أبدية سعيدة، هو ما يصحح به عقيدته وعبادته وتعامله مع الناس، وقد أجمل العلماء ذلك كله في علمين:

– علم التوحيد، أي توحيد الله تعالى إلها وربا وخالقا ورازقا وباعثا ومحاسبا ومجازيا....

– وعلم أفعال العبيد، أي الأعمال الصالحة التي تعود على الإنسان بالنفع في دينه ودنياه في تعامله مع ربه ومع نفسه ومع الناس.

(١) هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار أبو بكر الانباري (٢٧١ – ٣٢٨ هـ) من اعلم أهل زمانه باللغة والأدب، ومن أكثر الناس حفظا؛ كان يحفظ ثلاثمائة ألف شاهد في القرآن، ولد في الأنبار على الفرات وتوفي ببغداد، وله كتب كثيرة من أجلها كتابه: غريب الحديث.

ويدخل فى هذين العلمين جميع العلوم والمعارف مما له صلة بحياة الإنسان الدنيوية والأخروية.

● والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد تكفلا ببيان ذلك لمن تدبر ووعى، بيانا لم يسبق فيه ببيان ولم يلحقه فى ذلك منهج أو كتاب، وهذا من فضل الله على الامة الإسلامية التى أورثها الله الكتاب وجعله خاتم الكتب وأتمها وأكملها وارضاها لله تعالى.

● وللقرآن الكريم وللسنة النبوية منهج فى التربية لايضاهيه منهج سابق أو لاحق، فقد تفرد بخصائص ما اجتمعت فى منهج آخر ومن تلك الخصائص(١):

- أنه من عند الله تبارك وتعالى، وغيره من عند الناس، وما كان من عند الله فهو الاتم الأكمل والأوفق للناس.

- وأنه شامل لا ينقصه شيء مما يعود على الإنسانية بالخير فى الدين والدنيا.

- وأنه متكامل لا يستغنى بجزء منه عن غيره من أجزائه أو سائره، وإنما هو منظومة متناسقة الأجزاء يكمل بعضها بعضا.

- وأنه متوازن فى توجيه جوانب شخصية الإنسان وتربيتها جميعا، بحيث لا يطغى اهتمامه بجانب منها على حساب جانب آخر، كما عرف ذلك فى مناهج التربية معظمها، فهو متوازن فى تربية الروح والخلق والعقل والبدن والحسّ الاجتماعى والوعى السياسى والرشد الاقتصادى وحب الجهاد وحب الجمال.

- وأنه إيجابى لا يرضى من مسلم أن يتواكل أو يكون عالة على غيره ما دام قادرا على العمل والكسب، ولا يقبل منه عدم المبالاة بمصالح الآخرين، ويفرض عليه من النظم والقوانين ما يمكنه من ممارسة حقوقه ويوجب عليه القيام بواجباته.

- وأنه يجمع بين المثالية فى إرساء القيم الرفيعة، والواقعية باعترافه بواقع الإنسان وواقع الحياة التى يحياها فيضع له النظام الذى لا يعجزه الالتزام به ولا يشق عليه ولا يكلفه ما لا يطيق.

- وأنه يعنى بتربية الإنسان فرداً وعضوا فى أسرة أو مسئولا عنها، وعضوا فى المجتمع أو مسئولا عن قطاع من قطاعاته، وعضوا فى دولة مسلمة أو مسئولا عن أى مرفق من مرافقها، ومتعلما، وعالما ومعلما، وداعية إلى الله ومتحركا بدعوة الله فى الناس والآفاق، لا يتوقف عن ذلك حتى يلقى الله.

---

(١) فصلنا هذه الخصائص فى الحلقة الأولى من هذه السلسلة: التربية الإسلامية فى سورة المائدة.

بين يَدَىْ هذا الكتاب

هذا الكتاب هو الحلقة السادسة من سلسلة «التربية فى القرآن» وهو: «التربية الإسلامية فى سورة النساء».

● وهذه السورة الكريمة هى سورة المجتمع المسلم بكل ظروفه وملابساته، بما له من حقوق وما عليه من واجبات، ومهما كان واضحا فى السورة الكريمة من اهتمام بالمرأة وبالنساء عموما حتى سميت السورة سورة النساء، واهتمام بقضايا المرأة؛ فإن ذلك لا ينفى عن السورة أنها سورة المجتمع المسلم بل الدولة المسلمة فى علاقاتها بمن فيها من المسلمين وغيرهم، وبمن يحيط بها من الآخرين؛ وذلك أن المرأة محضن الأسرة والأسرة نواة المجتمع والدولة.

● وما جاء فى السورة عن اليهود والنصارى وعن كيفية التعامل معهم، وما جاء فيها عن المنافقين وضعاف الإيمان وعن أسلوب التعامل معهم أيضا، كل ذلك يؤكد أن المجتمع المسلم بل الدولة المسلمة ليست بمعزل عما يحيط بها من ناس وأحداث؛ وذلك أن المجتمع المسلم يحسن التعامل مع الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم ومن ضعف إيمانه منهم ومن تخاذل عن واجب أو قعد عنه، فالسورة بهذه الإحاطة والشمول سورة الدعوة إلى الله والحركة بالإسلام فى كل اتجاه، وكل ذلك يؤكد أن هذه السورة هى المَعْنِيّة بالمجتمع المسلم فى صورته التى ينشدها الإسلام.

● ومما يؤكد أنها سورة المجتمع المسلم أنها قد اشتملت على عدد كبير من الآيات الكريمة التى تستهدف تطهير المجتمع من الآفات التى تعصف به، وأهم هذه الآفات هى الشرك بالله تعالى وعقوق الوالدين، والتجافى عن القرابات والتجاهل لحاجات اليتامى ومن إليهم من ذوى الحاجة المادية أو المعنوية، أى تطهيره من الرذائل كلها، ومما حرم الله على عباده، مع إقرار القيم التى لا يقوم المجتمع الراشد إلا بها، كل ذلك ليستطيع المجتمع المسلم أن يشق طريقه فى ممارسة الحياة الإنسانية الكريمة.

● ومن أجل أنها سورة المجتمع المسلم فى بنائه الصحيح، فقد حفلت بكثير من القيم العامة والقيم التربوية التى لا غنى لمجتمع إنسانى عنها: ولو شئتُ أن أقول عن هذه السورة الكريمة: إنها سورة الدعوة إلى الله والحركة بالإسلام فى الناس والآفاق ما جاوزت الصواب

فى شىء، لأن المجتمع المسلم بل الدولة المسلمة لا تُعَبِّر عن نفسها إلا بالدعوة إلى الله والحركة بدينه فى كل زمان ومكان.

ولقد قلتُ أكثر من مرة فى أكثر من كتاب لى(1): إن الأمة المسلمة عندما تتوقف عن الدعوة إلى الله والحركة بالإسلام تضعف بل تنهار، مع فقدها لصفتها وهى أنها خير أمة أخرجت للناس، لأن خيرية الأمة الإسلامية - كما حددها القرآن الكريم - إنما كانت بسبب إيمانها ودعوتها إلى الله أى أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .... ﴾ [آل عمران: ١١٠].

- ولأن هذه السورة الكريمة دعوة غير مباشرة للمسلمين بأن يدعوا إلى الله على بصيرة، وأن يتحركوا بالدين فى جميع الناس جاءت حافلة بالأحاديث عن أهل الأديان السابقة، وعن الطوائف والجاليات التى يختلط بها المسلمون، وجاءت مهتمة بالحديث عن الحرب والجهاد فى سبيل الله وعن أدب الحرب ونظام الصلاة فى الحرب وفى الخوف، انطلاقا من أن الدعوة إلى الله والحركة بدينه قد يعترضها من العوائق والعقبات ما يجعل الحرب ضرورة والجهاد فرض عَيْن، فجاءت السورة الكريمة غنية بالقيم التربوية التى تحكم هذه الدعوة وتلك الحركة، والحرب من أجل نشر دين الله تعالى.

- ولأن اليهود فى تاريخهم الطويل يمثلون تعنتا وعنادا مع رسلهم فى الماضى ومع محمد ﷺ، اهتمت السورة الكريمة بأن تصف اليهود وتوضح جوانب من تعنتهم وعنادهم، وبأن توضح أسلوب التعامل معهم.

ويهود الأمس كيهود اليوم لم يتغيروا فهم أهل تعنت وعناد، وخيانة وغدر، وتجبر عند القدرة واستخذاء عند العجز. وهم دائما شوكة فى جُنوب المؤمنين عموما مسلمين ونصارى، وفى جُنوب من يقف فى طريقهم على وجه الخصوص، التآمر وتأليب الأطراف كلها ضد عدوهم هو ديدنهم فى كل عصر ومصر، وفى كل مكان وزمان، من أجل هذا كله رسمت آيات السورة الكريمة خطوات التعامل معهم بوصفهم ذاك، وبأنهم أهل كتاب أنزل على موسى عليه السلام، على الرغم مما أدخلوه على هذا الكتاب من تحريف وتبديل.

---

(1) انظر لنا من الكتب التى تردد فيها هذا القول:
- فقه الدعوة إلى الله.
- فقه الدعوة الفردية.
- فقه المسئولية.
- فقه الأخوة فى الإسلام.
- عالمية الدعوة الإسلامية.
- المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله.

● وبسبب أن أى مجتمع إنسانى لا يخلو من المنافقين، كما لا يخلو فى الغالب من ضعاف الإيمان الذين يؤثرون مصالحهم الخاصة على مصالح المسلمين العامة بل على مصلحة الدين نفسه؛ كان اهتمام هذه السورة الكريمة بالتعامل مع هؤلاء المنافقين بهذا الأسلوب من التعامل، وكان ذلك على أمل أن تأسرهم هذه المعاملة فيخرجون من بحر النفاق الآسن الذين يسبحون فيه على غير هدى.

وكان التعامل مع ضعاف الإيمان والمتخاذلين بأسلوب فيه رحمة وتقدير لطبائع الإنسان وضعفه على أمل أن يخرجوا من أسباب هذا الضعف وذاك التخاذل، ليعودوا بفضل الله مؤمنين أقوياء يعتزون بانتمائهم إلى هذا الدين مهما بذلوا وضحوا، ويوالون الله ورسوله ومنهج الحق بدلا من نظرتهم الضيقة إلى مصالحهم الذاتية.

وفى هذا التحول عند أولئك وهؤلاء نحو الحق ومنهجه ما يسعد الدعاة إلى الله والمتحركين بالإسلام فى الناس، بل سعادة للمجتمع المسلم كله فهو حريص على كسب الناس لا على التباعد عنهم والحكم عليهم بأنهم لا يستجيبون.

● ولكى يسود الأمان والسلام بين أصحاب الأديان عموما أكدت هذه السورة الكريمة على أن منهج الأنبياء والمرسلين جميعا واحد ودعوتهم واحدة لأن إلههم واحد وأوامره باتباع الحق لا تتغير، ووحدة المنهج نابعة من أن مصدره واحد هو الله المعبود بحق سبحانه وتعالى، من أجل ذلك جاء التصريح بوحدة المنهج بين الرسل جميعا من نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام.

فالله تعالى يقول لمحمد ﷺ ليخبر بذلك أهل الأديان جميعا: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣] وما بعدها، فيعلم أهل الأديان أن محمدا ليس بدْعًا من الرسل، ولم يجئ الناس إلا بمنهج الله ونظامه فهو مبلغ عن ربه أمين فى هذا التبليغ بشهادة الله تعالى وملائكته، وكفى بالله شهيدا.

ويعلمهم بأن كل منهج من عند الله إنما يقوم على تبشير المؤمنين الذين استجابوا للمنهج بما أعد الله لهم فى الآخرة من نعيم مقيم وبما يمكن أن يجريه على أيديهم من نصر وتأييد يؤدى إلى تمكين دين الله فى الأرض.

كما يقوم المنهج على إنذار الكفار الذين لم يستجيبوا لدعوة الحق فعصوا الله ورسوله، وإخبارهم بما أعده الله لهم من عذاب شديد يوم القيامة، وما يمكن أن يجريه عليهم من هزائم وعقوبات دنيوية.

تلك قاعدة عامة فى مناهج الله تعالى التى أوحاها إلى رسله عليهم السلام: التبشير والإنذار، للمؤمنين والكافرين.

● وإذا شئنا أن نختار للسورة الكريمة كلها عنوانا أكثر تفصيلا من تسميتها سورة النساء، لنخرس به الأدعياء الذين يزعمون أن أسماء السور لا تطابق موضوعاتها، قلنا إن العنوان المفصل لها هو: « سورة المجتمع المسلم والدولة المسلمة فى تعاملها مع الحياة والأحياء فى السلم وفى الحرب » ولعل فى ذلك رداً على أولئك الغافلين المغرورين الذين يتهمون سور القرآن الطوال بأنها تفقد وحدة الموضوع.

على أن التدبر فى تسمية السورة باسم: سورة النساء يؤكد أن التسمية ملائمة – وإن لا داعى للتعليل، ولكنها الرغبة فى إبطال حجة الخصم – إذ يمكن أن يقال: إن النساء فى كل مجتمع هن القواعد الأساسية التى تقوم عليها الأسرة، مشمولة بحنان الحضانة وعميم الرعاية.

وهذه الأسرة التى تحضنها المرأة وترعاها: هى وحدة المجتمع ووحدة الدولة نفسها، فالنساء جزء من كل لا يتكامل هذا الكل إلا به، ولا يستغنى عنه بحال، أفيكثر والحال هذه أن تسمى السورة « سورة النساء »؟.

كلمات حول سورة النساء

أولا : فى مكانة سورة النساء

● روى ابن مردويه[1] فى مسنده بسنده عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت سورة النساء قال رسول الله ﷺ : «لا حَبْسَ» أى للمرأة بعد نزول هذه السورة، وذلك أن المرأة قبل الإسلام كانت فى حبوس كثيرة فرضها عليها المجتمع فلما جاء الإسلام حررها من هذه الحبوس جميعا، وأعطاها كامل حقوقها المادية والمعنوية؛ فقد كانت المرأة تحبس على رجل بعينه لا تملك أن ترفضه فأعطاها الإسلام حق الرفض لمن لا تريد، فلا تكره على الزواج منه .

وكانت تحبس عن الميراث من مورثيها، فاصبحت فى الإسلام صاحبة فرض فى التركة أمًّا كانت أو زوجة أو بنتًا أو أختًا .

وكانت تحبس عن التزوج بعد وفاة زوجها، فقد كان يلقى عليها أحد أبناء زوجها أو أحد أقربائه ثوبه فيحبسها بذلك عن الزواج، وقد لا يتزوجها هو!!! فلما جاء الإسلام حررها من ذلك وأعطاها حق التزوج بعد انقضاء عدتها من زوجها المتوفى .

وقد تكفلت هذه السورة الكريمة ببيان هذه الأحكام التى حررت المرأة من هذه الحبوس، ولذلك قال الرسول ﷺ عند نزول هذه السورة : «لا حبس» .

● روى الحاكم[2] فى مستدركه بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : إنّ فى سورة النساء لخمس آيات ما يسرنى بها أن لى الدنيا وما فيها :

- ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا .... ﴾ .

---

(١) هو أحمد بن موسى بن مردويه الأصبهانى (٣٢٣ - ٤١٠ هـ) ويقال له ابن مرديه الكبير وكنيته ابو بكر، حافظ للحديث مفسر للقرآن مؤرخ من أهل أصبهان له كتاب فى تفسير القرآن، وآخر فى التاريخ وله مسند ومستخرج فى السنة النبوية المطهرة .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن حمدويه النيسابورى (٣٢١ - ٤٠٥هـ) يعرف بابن البَيِّع من أكابر حفاظ الحديث له : «المستدرك على الصحيحين» و «الصحيح» فى الحديث، «ومعرفة علوم الحديث» و «الإكليل» و«المدخل» .

- و ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ... ﴾ .

- و ﴿ إنَّ اللَّهَ لا يغفرُ أن يُشركَ به ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمن يشاءُ ... ﴾ .

- و ﴿ ولو أنَّهم إذ ظلموا أنفسَهم جاءوك فاستغفروا اللَّهَ واستغفر لهم الرسولُ لوجدوا اللَّهَ توابًا رحيمًا ﴾ .

- و ﴿ ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسهُ ثمَّ يستغفر اللَّهَ يجد اللَّهَ غفورًا رحيمًا ﴾ .

● وروى عبد الرزاق[1] فى « الجامع الكبير » بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : خمس آيات من النساء لهن أحبُّ إلىَّ من الدنيا جميعا :

- ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ... ﴾ .

- و ﴿ وإن تكُ حسنةً يضاعفها ... ﴾ .

- و ﴿ إنَّ اللَّهَ لا يغفرُ أن يُشركَ به ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمن يشاءُ ... ﴾ .

- و ﴿ ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسهُ ثمَّ يستغفر اللَّهَ يجد اللَّهَ غفورًا رحيمًا ﴾ .

- و ﴿ والذين آمنوا باللَّه ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان اللَّهُ غفورًا رحيمًا ﴾ .

● وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ثمانى آيات نزلت فى سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت :

الأولى : ﴿ يريدُ اللَّهُ ليبيِّنَ لكم ويهديكم سننَ الذين من قبلكم ويتوبَ عليكم واللَّهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾ .

والثانية : ﴿ واللَّهُ يريدُ أن يتوبَ عليكم ويريدُ الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيمًا ﴾ .

والثالثة : ﴿ يريدُ اللَّهُ أن يخفِّفَ عنكم وخُلقَ الإنسانُ ضعيفًا ﴾ .

ثم ذكر قول ابن مسعود فى الخمسة الباقية .

---

(١) هو عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميرى الصنعانى (١٢٦ - ٢١١ هـ) من حفاظ الحديث الثقات من أهل صنعاء له كتاب « الجامع الكبير » فى الحديث ويسمى « المصنَّف » وله كتاب مخطوط فى تفسير القرآن الكريم .

● وروى البيهقى بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال: «من أخذ السَّبْع فهو حَبْر» أى السبع الطوال وهن: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس.

وقد روى البيهقى بسنده عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيتُ مكان التوراة السبع الطوال».

ثانيًا: فى نزول سورة النساء

قال علماء أسباب النزول: نزلت هذه السورة بالمدينة إلا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح فى شأن عثمان بن طلحة وهى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ...﴾ وهذه الأمانات هى مفاتيح الكعبة، وكانت فى يد عثمان بن طلحة فى الجاهلية، فأبقاها الرسول ﷺ معه كما كانت.

- ومن الأدلة على أن سورة النساء مدنية:

● ما رواه البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ، تعنى بَنَى بها، ولا خلاف بين العلماء فى أن النبى ﷺ بَنَى بعائشة رضى الله عنها بالمدينة فى السنة الأولى من الهجرة. وكان ذلك فى شوال.

● وأن أحكامها أنسب لظروف المسلمين فى المدينة وقد أصبحت لهم قوة تمنعهم ونظام يجمع شملهم، وتشريعات يقتضيها هذا الوضع الجديد الذى اتسع مداه فاحتاج إلى تلك الأحكام.

● وأن قول من قال: إن السورة مكية مستشهدا على قوله هذا بأن الخطاب فيها للناس ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ...﴾ مُدَّعيا أن كل خطاب قرآنى بيأيها الناس مكى، هذا الادعاء بهذا التعليل فيه تساهل؛ لأن سورة البقرة مدنية وفيها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ....﴾ [البقرة: ٢١]، و ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا....﴾ [البقرة: ١٦٨].

● ولا وجه لتخصيص الخطاب بـ: يأيها الناس بأهل مكة وحدهم؛ لأن المأمور به فى هذه السورة سورة النساء هو تقوى الله تعالى، وهو أمر يتجه لأهل مكة وغيرهم فى سائر الأرضين إلى يوم القيامة.

- وقد اتفق علماء الأصول من المفسرين على أن لفظ الناس عام يفيد الاستغراق لجميع الناس، فهو خطاب لجميع المكلفين.

- وإذا كان لفظ الناس عاما فى كل أحد، والأمر بالتقوى عامًا يشمل كل أحد، وإذا كانت العلة فى تكليفهم هى كونهم خلقوا من نفس واحدة؛ كان القول بتخصيص أهل مكة بهذا الخطاب فى غاية البُعْد.

- وقال فخر الدين الرازى فى تفسيره: «مفاتيح الغيب» ما مجمله: أن الله تعالى جعل بداية سورة النساء وهى رابعة السور فى النصف الأول من القرآن: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ [النساء: ١] وعلل الأمر بالتقوى بما يدل على معرفة المبدأ وهو خلق الله الناس من نفس واحدة.

وأنه سبحانه جعل بداية سورة الحج - وهى الرابعة فى النصف الثانى من القرآن الكريم: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ** ﴾ [الحج: ١] وعلل الأمر بالتقوى بما يدل على معرفة المنتهى والمعاد، وهذا يدل على كمال قدرة الخالق وكمال علمه وحكمته سبحانه وتعالى.

فجعل سبحانه وتعالى صدر هاتين السورتين دلالة على معرفة المبدأ والمعاد.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور - رحمه الله - فى تفسيره: «التحرير والتنوير».

وقد نزلت سورة النساء بعد سورة آل عمران؛ لأن فيها من تفاصيل الأحكام ما من شأنه أن يكون بعد استقرار المسلمين بالمدينة وانتظام أحوالهم وأَمْنهم من أعدائهم، وفيها آية التيمُّم، والتيمُّم شرع فى غزوة المريسيع سنة خمس - وقيل سنة ست - من الهجرة.

والذى يظهر أن نزولها كان فى حدود سنة سبع وطالت مدة نزولها، ويؤيد ذلك أن كثيرا من الأحكام التى جاءت فيها مفصلة تقدّمت مجملة فى سورة البقرة، من أحكام الأيتام والنساء والمواريث، فمعظم ما فى سورة النساء شرائع تفصيلية فى معظم نواحى حياة المسلمين الاجتماعية، من نظم الأموال والمعاشرة ونظم الحكم وغير ذلك.

ثالثًا: فى تسمية السورة

- الأشهر فى كلام السلف - رضى الله عنهم - أن اسمها «سورة النساء» لما رواه البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: «ما نزلت سورة البقرة وسورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ».

وسورة النساء هو الاسم المعروف فى المصاحف وكتب السنة وكتب التفسير.

– وذكر الفيروزأبادى فى كتابه: «بصائر ذوى التمييز...» أن هذه السورة تسمى سورة النساء الكبرى، وسورة الطلاق تسمى سورة النساء الصغرى.

– وروى البخارى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه ما يفيد بأن اسم هذه السورة: سورة النساء الطُّولى، وسورة الطلاق اسمها سورة النساء القُصْرَى.

والأصح الأول.

● وإضافة النساء إلى السورة «سورة النساء» حكمته أن السورة حَفَلت بأحكام تخص النساء زوجات وبنات وأمهات، من حيث حكم الزواج وحكم الميراث وغير ذلك من الأحكام.

● وعدد آيات السورة مائة وخمس وسبعون آية فى عدد أهل المدينة ومكة والبصرة.

وعدها أهل الكوفة مائة وستا وسبعين آية.

وعدها أهل الشام مائة وسبعا وسبعين آية.

● وهى السورة الرابعة فى ترتيب المصحف.

والثالثة والتسعون فى ترتيب النزول، ومكانها فى ترتيب النزول بعد سورة الممتحنة، وقبل سورة الزلزلة.

الموضوعات التى اشتملت عليها سورة النساء

يمكننا أن نختار للسورة كلها موضوعا واحدا هو: الأسرة والمجتمع من خلال منهج الإسلام فى تنظيم العلاقات الاجتماعية.

ويمكن أن نجعلها موضوعات مجملة نفصل بها هذا الموضوع الموحد بعض التفصيل، انتظاراً لما سوف نفصله عند الكلام على هذه الموضوعات وارتباطها بعدد معين من السورة الكريمة، وهذه الموضوعات هى:

الموضوع الأول:

حقوق المرأة وحقوق المجتمع وواجبات كلّ

فقد بدأت السورة بتقرير أن الله تبارك وتعالى خَلق الناس جميعا من نفس واحدة، واقتضت حكمته أن يتكاثر الناس عن طريق الزواج، وإقرار صلات الأرحام لما تؤدى إليه من تكافل فى مجال الأسرة، ثم وسَّعتْ الآيات الكريمة دائرة التكافل والرعاية لأفراد المجتمع فطالبت برعاية اليتامى وجعلت لهم حقا على المجتمع كله أفرادا وأُسرًا أو جماعات.

ثم استمرت الآيات فى تقرير حقوق النساء فى مجال الزوجية فأقرتْ لهن حقوقا مادية وأخرى معنوية كحقها فى المهر والميراث وحقها فى حسن العشرة، وتحديد من يحل لها أن تتزوج منه، ومن يحرم عليها الزواج به، وأوضحت واجباتها نحو الزوج. وأقرت حق القوامة للزوج، وأقرت التحكيم عند التنازع والمخاصمة بين الزوجين.

- وقد اشتمل على تفصيل هذه الأحكام خمس وثلاثون آية من أول السورة الكريمة.

الموضوع الثانى:

تطهير المجتمع من الشرك والرذائل

فقد أمرت الآيات الكريمة بعبادة الله وحده، وبالإحسان إلى الوالدين وذوى القربى واليتامى والجيران، وكل ذى حاجة، وحذرت من البخل وجحود نعم الله تعالى، ومن الرياء، ومن مصاحبة الشيطان الداعى دائماً إلى الكفر وإلى الرذائل والشرور، ونهت عن السكر عند أداء الصلاة، وشرعت التيمم عند فقد الماء حقيقة أو حكما.

● وذلك فى الآيات من الآية السادسة والثلاثين إلى الآية الثالثة والأربعين.

والموضوع الثالث:

محاجة اليهود من أهل الكتاب، بالتعريف بدينهم وأحوالهم فيه، وتوضيح أخلاقهم ومساوئها، وما استحقوه من وعيد الله تعالى وعقابه بسبب هذه الانحرافات عن الحق، وبسبب ممارسة الرذائل، ليعلم الله تعالى المسلمين سننه فى الذين يتصفون بهذه الصفات من وعيد وعقاب، وسننه فى المؤمنين الذين يعملون الصالحات.

● وذلك فى الآيات من الآية الرابعة والأربعين إلى الآية السابعة والخمسين.

والموضوع الرابع:

بعض الدعائم التى تقوم عليها الحكومة الإسلامية وأهم هذه الدعائم هى:

- الأخلاقيات الرفيعة؛ كالأمانة والعدل، وطاعة الله ورسوله وولى الأمر، والاحتكام إلى منهج الله وسنة رسوله ﷺ عند التنازع، وتوضيح ما أعد الله من جزاء حسن على الطاعات.
- ومن هذه الدعائم؛ الجهاد فى سبيل الله، ومواجهة أعداء الله ورسوله دون خوف على نفس أو مال أو ولد.
- ومن هذه الدعائم: الآداب الاجتماعية العامة التى يجب أن تسود المجتمع المسلم فى علاقات أفراده فيما بينهم وفى علاقاتهم بحكامهم، وعلاقاتهم بالدول المجاورة لهم.

● وذلك فى الآيات الكريمة من الآية الثامنة والخمسين إلى الآية السابعة والثمانين.

والموضوع الخامس:

المنافقون فى المجتمع، صفاتهم وأحوالهم، وأسلوب التعامل معهم، مع التحذير من الوقوع فى أى خطأ فى التعامل معهم، على أمل أن يهديهم الله تعالى بهذه المعاملة الحسنة.

وبيان عقوبة قتل النفس فى حالتى القتل عمداً والقتل خطأً.

● وذلك فى الآيات الكريمة من الآية الثامنة والثمانين إلى الآية الثالثة والتسعين.

والموضوع السادس:

أدب القتال فى سبيل الله، ورفض البقاء على الظلم، وذلك فى النداء على المؤنين

وخطابهم بأسلوب الأمر بأن يتبينوا فى قتالهم من يرغب فى السلام من الناس ومن يخدع المؤمنين، والابتعاد عن أن يكون القتال للمغنم، مع ضرورة الاستمرار فى القتال لرفع الظلم عن المظلومين وتأمين الحياة الكريمة للناس جميعهم، وجواز قصر الصلاة عند الحرب أو الخوف.

● وذلك فى الآيات الكريمة من الآية الرابعة والتسعين إلى الآية الرابعة بعد المائة.

والموضوع السابع:

رفض المحاباة مع الالتزام بالحق

وهو من أهم المبادئ فى إرساء قواعد العدل فى المجتمع وهو جوهر الإسلام ولُبُّه، وذلك فى قصة يهودى تآمر على ظلمه بعض المسلمين، وتأنيب لهؤلاء المسلمين الذين حاولوا إلصاق تهمة به، هو برىء منها، ووجوب اتباع الرسول ﷺ وعدم مخالفته فى شىء، وبيان عاقبة من يشاقق الرسول ويتبع غير سبيل المؤمنين.

● وذلك فى الآيات الكريمة من الآية الخامسة بعد المائة إلى الآية الخامسة عشرة بعد المائة.

والموضوع الثامن:

رحمة الله بعباده تتسع لمغفرة كل ذنب إلاَّ الشرك به سبحانه وتعالى، وتلك الآية هى من الآيات التى قال عنها عدد من الصحابة، إنها خير مما طلعت عليه الشمس، وتحذير من الشيطان وتضليله وتزويره، وبيان لجزاء الله تعالى لمن أشرك به، وجزاء من آمن بالله وعمل الصالحات، وإقرار لمبدأ: من عمل سوءا يجز به وأن الرجال والنساء فى تطبيق هذا المبدأ سواء.

● وذلك فى الآيات الكريمة من الآية السادسة عشرة بعد المائة إلى الآية السادسة والعشرين بعد المائة.

والموضوع التاسع:

بعض الأحكام التى تتعلق بالنساء وذلك ببيان حكم التزوج بيتامى النساء، ومعاملة الزوجة الناشز، وتقرير أن العدل بين أكثر من زوجة غير مستطاع، وجواز الطلاق، وتقرير أن الأمر كله بيد الله، وأن تقواه هى الأصل وهى المنجى، والكفر به سبحانه هو الضياع والبوار

وخسران الدنيا والآخرة.

● وذلك فى الآيات الكريمة من الآية السابعة والعشرين بعد المائة إلى الآية الرابعة والثلاثين بعد المائة.

والموضوع العاشر:

وصايا للمؤمنين من أجل تأمين المجتمع المسلم وهى وصايا كثيرة أهمها الوصية بإقامة العدل ولو على النفس والوالدين والأقربين، والوصية بتجديد الإيمان والاستمرار عليه، والوصية بالتحذير من الكفر عموما والكفر بعد الإيمان على وجه الخصوص، والوصية بعدم القعود فى مجالس الذين يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها، والتعريف ببعض صفات المنافقين، ورفض اتخاذ غير المؤمنين أولياء، والوصية بتنقية المجتمع من الألفاظ السيئة - فضلا عن الأعمال السيئة - مع بيان جزاء الكافرين والمنافقين والمؤمنين.

● وذلك فى الآيات الكريمة من الآية الخامسة والثلاثين بعد المائة إلى الآية الثانية والخمسين بعد المائة.

والموضوع الحادى عشر:

اليهود وتحديهم للحق وبيان أن ذلك شأن اليهود دائما فكما طلبوا من الرسول ﷺ ما ليس بمعقول، كانوا قد فعلوا مع نبيهم موسى عليه السلام مثل ذلك إذ قالوا له: أرنا الله جهرة، مع بيان دعاواهم الكاذبة وصفاتهم الرذلة التى من أبرزها تحديهم للحق فى جميع الأحوال، مع بيان أنهم على الرغم من ذلك كله منهم المؤمنون ومنهم الكافرون وسوف يجزى الله كلا منهم بما فعل.

● وذلك فى الآيات الكريمة من الآية الثالثة والخمسين بعد المائة إلى الآية الثانية والستين بعد المائة.

والموضوع الثانى عشر:

وحدة منهج الرسل جميعا عليهم الصلاة والسلام وذلك ببيان أن محمدا ﷺ كغيره من الأنبياء والرسل الذين أوحى الله إليهم وأمرهم بتبليغ الناس، فالرسل جميعا إلههم واحد، ودينهم واحد، ومنهجهم واحد إذ يقوم على توحيد الله وعبادته وفق ما شرع وممارسة العمل

الصالح، وبيان أن الكفار والظالمين عموما لهم من الأنبياء موقف واحد هو التحدى والتكذيب والتعنت والتعذيب.

● وذلك فى الآيات الكريمة من الآية الثالثة والستين بعد المائة إلى الآية السبعين بعد المائة.

والموضوع الثالث عشر:

تقرير أن أهل الكتاب فى معظمهم أهل مغالاة وذلك أن اليهود قالوا على الله الكذب واتهموا المسيح ابن مريم وأمه، وافتروا قائلين إن الآلهة ثلاثة زاعمين أن المسيح ابن الله، مع أن المسيح نفسه لن يستكبر أن يكون عبداً لله تعالى مع تأكيد جزاء الله تعالى للمؤمنين والكافرين.

● وذلك فى الآيات الكريمة من الآية الحادية والسبعين بعد المائة إلى الآية الثالثة والسبعين بعد المائة.

والموضوع الرابع عشر:

تقرير أن ما جاء به محمد ﷺ للناس إنما هو برهان من الله على صدق رسالته، وهو فى الوقت نفسه نور مبين لمن استضاء بهديه فى الحياة، مع بيان جزاء من آمن بهذا الدين واعتصم بالله تعالى، بأن الله تعالى سيدخلهم فى رحمته ويهديهم بإيمانهم إلى الصراط المستقيم.

● وذلك فى الآيتين الكريمتين الرابعة والسبعين بعد المائة والخامسة والسبعين بعد المائة.

والموضوع الخامس عشر:

بيان حكم الكلالة، وهو من مات وليس له والد أو ولد كيف يورث؟ وكيف توزع تركته بين ورثته من إخوة وإخوات؟

● وذلك فى الآية الأخيرة من السورة الكريمة وهى الآية السادسة والسبعون بعد المائة.

وأما تفصيل ما أجملناه فى هذه الموضوعات الخمس عشرة فذلك ما يتكفل به تفسيرنا لآيات السورة الكريمة وهو صلب هذا الكتاب، ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد.

إجمالي القيم التربوية في سورة النساء

نحاول هنا أن نجمل القيم التربوية فى هذه السورة الكريمة، كما أجملنا موضوعاتها، انتظاراً لما سوف نفصله من هذه القيم وتلك الموضوعات ونحن نفسر الآيات الكريمة تفصيلا .

ومجمل القيم التربوية فى تصورنا هو :

أولا : القيم التى تتصل بالأسرة

وأهم هذه القيم ثلاثة :

الأولى : ما تتصل بالأسرة، الزوج والزوجة وما ينبغى أن يسود العلاقة بينهما من مودة ورحمة، وتبادل للحقوق والواجبات فى الوقت الذى كانت فيه المرأة قبل الإسلام بغير حقوق، سواء أكانت حقوقًا مادية كالذمة المالية، وما يتعلق بها، أم معنوية كحسن العشرة والفراق بالمعروف .

والثانية : البر بالأيتام والأرامل والصغار والضعاف، وبالأرحام جميعا، قربت أنواع قراباتهم أو بعدت .

والثالثة : تقدير بل تقرير حرية الإرادة فى بناء الأسرة فلا زواج بالإكراه، ولا حبس للزوجة على مكروه أو ضرر أو سوء معاملة، ولا حرمان لها من الميراث، فضلا عن تحريرها من أن تكون شيئًا موروثا .

ثانيًا : القيم التى تتصل بالمجتمع

وهى قيم كثيرة متنوعة نذكر منها فى هذا الإجمال ما يلى :

القيمة الأولى : احترام المال وتوضيح ما يتصل به من معاملات؛ مثل : قبوله هدية، ومنع وضعه فى أيدى السفهاء، وتقسيم تركة المتوفى بعدالة لم يسبق بها الإسلام ولا لحق فيها – وهى نظام المواريث – وتهديد من يخل بنظام الإسلام للأموال؛ لحفظ حقوق الناس جميعا .

والثانية : تحريم الفواحش ووضع عقوبة لمن ارتكب إحداها، لتنقية المجتمع من الزناة والمنحرفين والشواذ، وكل من يعبث بالفطرة التى فطر الله الناس عليها، إذ كان فى بعض

الرجال آفة اللواط، وفى بعض النساء آفة السحاق.

والثالثة: تحريم أكل أموال الناس بالباطل، أو التطلع إلى ما فى أيدى الناس، وهذا حاجز حصين بين الناس وتعاديهم وانتشار الشر فيما بينهم.

وكل هذه القيم جعلها القرآن الكريم نابعة من عبادة الله وحده، وعدم الالتجاء إلى شرع غير شرعه فيما يحل للإنسان وما يحرم عليه.

والرابعة: التحذير الدائم من اليهود وأعمالهم وسوء نواياهم نحو الإسلام والمسلمين، إذ المجتمع المسلم لا يستطيع أن يتطهر تماما من ذنوبه وآثامه، ويتجه نحو الحق والعمل به إلا إذا تخلص تماماً من الطعنات التى توجه إليه من أعدائه بالحذر منهم، وبتحذير أفراده من أن يتصفوا بصفات اليهود وهى كلها صفات راذلة.

وقد أشارت السورة الكريمة إلى عدد من هذه الصفات، سوف نوردها عند شرحنا للآيات الكريمة بإذن الله تعالى.

وقد صنف الله تعالى اليهود أعداء للمسلمين ووصفهم بأنهم يشترون الضلالة بالهدى ويحبون إضلال المسلمين ويفضلون عليهم أهل الوثنية والشرك بالله.

ولا يستطيع مجتمع مسلم فى أى زمان ومكان أن يعيش آمنا فاعلا للخير ما داموا معه أو حوله اليهود فهم لا يفتئون يكيدون له ويبيتون له الشر؛ شهد على ذلك تاريخهم مع المسلمين من يوم ظهر دين الإسلام وإلى اليوم وغد.

والخامسة: التحذير من طائفة لا تقل خطرا عن اليهود وهم المنافقون، وصفاتهم معروفة، وهى صفات سيئة فى مجملها وتفصيلاتها على السواء، تفسد الحياة الاجتماعية كلها، وقد ذكرت الآيات الكريمة عددا منها سنورده ونحن نشرح الآيات بإذن الله تعالى.

وتعد هذه السورة فى مجال الحديث عن المنافقين من أكثر سور القرآن اهتماما بهم وبالتحذير منهم، ولا يفوقها فى ذلك إلا سورة التوبة[1].

والسادسة: تحرير الإيمان من أسباب الضعف التى تصيبه، وأقوى الأسباب التى تضعف الإيمان هى ارتكاب المعاصى، ومن أكبر هذه المعاصى ترك شرع الله ومنهجه، والأخذ من غيره، إذ ليس بمؤمن من يفعل هذا، لأن فى هذا الترك إفساداً للمجتمع وللحياة الإنسانية

(١) وهى الحلقة السابعة من هذه السلسلة.

كلها، وترك هذا المنهج يعنى ترك طاعة الله ورسوله، وذلك يعنى أن يسود الظلم وأن يشيع الفساد، ولا إيمان مع شيء من ذلك.

والقيمة السابعة: احترام أهل العلم والتخصص والالتجاء إليهم لأخذ آرائهم والعمل بها، وبخاصة إذا كانوا أهل إيمان واستقامة، إذ لكل مجال من المجالات رجاله المتخصصون فيه، وما أسوأ أن يغتر الإنسان بنفسه فيقول فى غير ما يعلم، أو يعمل على غير علم.

والثامنة: تحريم دم الإنسان فى حالة السلم، وفرض عقوبة على قاتله سواء أكان قتله عمدا أم خطأ، أما فى الحرب فهناك أحكام أخرى تناسب قتل من أراد شرا بالمسلمين.

والتاسعة: مشروعية الهجرة بالعقيدة من أرض لا تتاح فيها حرية العقيدة، وهذه المشروعية قائمة فى كل زمان ومكان وهى فى جوهرها تعزيز لحرية الإرادة عند الإنسان بمنحه الحق فى أن يعبر عن عقيدته بالأسلوب الذى لا يضر غيره من الناس.

والعاشرة: إحقاق الحق، والالتزام بأدائه حتى لو كان الطرف الآخر عدوا، ورفع الظلم عن المظلومين – فضلا عن ظلمهم – حتى لو كان هؤلاء المظلومون يهودا – وهم أَلَدُّ أعداء المسلمين – لأن الظلم كله حرام.

والقيمة الحادية عشرة: تقرير أن الأصل فى الجزاء هو العمل نفسه، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وليس الأمر بالأمانىِّ الجوفاء، ولا المحاباة ولا الكيل بمكيالين أو الوزن بميزانين، وإنما هى العدالة والاستقامة على شرع الله الذى يحفظ لكل ذى حق حقه حتى لو كان من الكافرين.

والقيمة الثانية عشرة: تأكيد أن الآداب الاجتماعية التى جاءت فى السورة الكريمة –وهى كثيرة – يجب أن يتعامل بها المسلمون فيما بينهم، وأن يتعاملوا بها مع كل الناس إلا من استثنى منهم لظرف خاص فله معاملة تخصه. وهى عادلة كذلك لأن الذى شرعها هو الله تبارك وتعالى.

ثالثًا:

لست بحاجة إلى أن أؤكد أن الأخذ بهذه القيم التى جاءت فى هذه السورة، وفى القرآن الكريم كله، هو الذى يربى الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم والدولة المسلمة

تربية صحيحة سليمة ترضى الله تبارك وتعالى، وتهيئ للفرد والأسرة والمجتمع والدولة بناءً صحيحا لروحه وخلقه وعقله وبدنه، وحسّه الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والجهادى والجمالى؛ بحيث يصبح المجتمع الذى يكفل لمن يعيش فيه من المسلمين وغير المسلمين؛ إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وتحقيق الأمن للناس جميعًا، بل يحقق سعادة الدنيا والآخرة لكل من أخذ بهذه القيم.

تفسير آيات السورة الكريمة

وبيان ما فيها من قيم تربوية عامة

وقيم تربوية فى مجالى الدعوة والحركة

١ - الآيات الكريمة من الآية الأولى إلى الآية العاشرة

التعايش الحسن، ورعاية الضعفاء وحسن التصرف فى المال

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ① وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيراً ② وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا ③ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ④ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ⑤ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ⑥ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ⑦ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ⑧ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ⑨ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١ - ١٠].

- اشتملت هذه الآيات الكريمة على توضيح الأواصر التى تربط بين الناس، وتعطف بعضهم على بعض، مثل آصرة الخالق الواحد سبحانه وتعالى، وآصرة الأصل الواحد «النفس الواحدة» آدم عليه السلام، وآصرة الأسرة أبوين وإخوة وأبناء، وآصرة الأقارب والأرحام.

واهتمت الآيات بوجوب رعاية الأيتام والضعفاء، وأوجبت صيانة المرأة وحمايتها من أى ظلم يقع عليها، وصيانة الأموال من أن تقع فى أيدى السفهاء.

ودعت إلى التعاطف مع الأيتام والأقرباء ومواساتهم بشىء من مال المتوفى إذا حضروا قسمة التركة، كما حذرت من أكل أموال اليتامى وتوعدت من يفعل ذلك بالعذاب فى الدنيا والآخرة، وسوف نوضح ذلك فيما يلى:

● **التفسير والشرح لهذه الآيات الكريمة:**

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ... ﴾

نداء على الجنس البشرى كله - أى أمة الدعوة - والمسلمون داخلون فى هذا النداء وإن كانوا أمة الإجابة، نداء عليهم جميعا وأمرهم بتقوى الله.

● والتقوى هى جعل النفس فى وقاية مما يخاف، أى حفظها عما يؤثم ويوقع فى الخطأ، وهو أمر صريح بهذه التقوى.

والتقوى تكون بترك المحظور الذى نهى الله عنه، وبفعل المأمور به الذى أوجبه الله تعالى، كما تكون بترك بعض المباحات وما لا بأس به حذرا مما به بأس.

● وعبارة: **﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ﴾** أمر واجب الطاعة لأنه صادر ممن له الأمر سبحانه وتعالى، وتقوى الرب سبحانه تعنى أمورا هامة منها:

عبادته وحده لا شريك له،

والالتزام بكل ما أمر به،

والاجتناب لكل ما نهى عنه،

ورعاية حقوقه وحقوق الناس،

فمن فعل ذلك نجا بإذن الله من عقاب الله تعالى.

● ولله تعالى أن يأمر عباده بالتقوى أمراً مطلقًا غير معلل، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: **﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ... ﴾** [النساء: ١٣١].

ولكن من رحمة الله تعالى بعباده وعطفه عليهم أن أمرهم فى كثير من آيات القرآن الكريم

بالتقوى أمرًا مُعَلَّلاً، ليحثهم على استعمال عقولهم، مع أن تقواه سبحانه لا تحتاج إلى تعليل ولا إلى تبرير فهو سبحانه الخالق الرازق المدبر المحيى المميت الذى إليه المصير.

● وبعض العلماء يرون أن الامر بالتقوى فى هذه الآية الكريمة مُعَلَّل بانه سبحانه خلق الناس، أى أبدعهم على غير أصل سابق ولا مثال يُحتذَى، وليس ذلك النوع من الخلق إلا لله وحده. وخلقهم من نفس واحدة أى أوجدهم من آدم عليه السلام.

وقال هؤلاء العلماء: ما دام الله تعالى قد خلق الناس فإن ذلك الخلق علة لوجوب الانقياد له والخضوع لتكاليفه، وتلك هى تقواه سبحانه وتعالى؛ وذلك أن الإيجاد هو غاية الإنعام ونهاية الإحسان، لما فيه من الوجود بعد العدم والقدرة بعد العجز والعلم بعد الجهل، وكل تلك نعم من الله، فهى علة فى وجوب الانقياد له وطاعته أى تقواه.

ومن هنا نفقه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم ﴾.

● قوله تعالى: ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً ... ﴾.

النفس الواحدة هى أبونا آدم عليه السلام.

والزوج هى حواء عليها السلام خلقها من آدم أخرجها من ضلعه.

وبث - أى نشر - منهما أى آدم وحواء عن طريق التناسل رجالا كثيرا ونساء، منهما مباشرة ومن أبنائهما وأبناء أبنائهم إلى أن تقوم الساعة.

ونحب أن نتوقف هنا لنرصد دلالات وأهدافا لهذه الآية الكريمة توجهنا إلى الحق وإلى الإيمان وإلى الصراط المستقيم.

أما الدلالات فهى:

١ - تدل الآية الكريمة على أن الخالق لهذا الإنسان خالق واحد هو الله تعالى، والناس جميعا مخلوقون له أى: وحدة الخالق سبحانه وتعالى.

٢ - وتدل على أن الأب لهذه الإنسانية جمعاء واحد وهو آدم عليه السلام الذى خلق الله منه حواء وفطرهما على الاتصال الجنسى، فتناسلا فكان الناس رجالاً كثيرًا ونساءً، أى: وحدة الأصل ووحدة الرحم الذى تَلَقَّى هذه النطفة.

٣ – وتدل على أن المرأة من الرجل، وليست خلقا آخر أقل من الرجل أو أحقر كما تقول بذلك بعض الحضارات[١]. فالمرأة صنو الرجل وهى فى الأصل زوجه ثم أمه ثم أخته ثم ابنته وهكذا، فعلام هذا التقليل من شأن المرأة؟

وكيف ساغ لأولئك المضللين أن يزعموا أن الإسلام لم ينظر إلى المرأة كنظرته إلى الرجل؟

٤ – وتدل على أن الأساس للحياة الإنسانية كلها أصلها ومحضنها الطبيعى هو: الأسرة الصغيرة المكونة من زوجين وما يرزقهما الله تعالى من أبناء.

فالأسرة وحدة المجتمع، وهى تربط الإنسانية برباط وثيق، وبغير هذه الأسرة فلا أمن ولا استقرار، ولا صحة نفسية لأى إنسان، بل لا حياة إنسانية كريمة للبشر جميعا.

تلك هى بعض الدلالات من هذه الآية الكريمة.

أما الأهداف فهى:

١ – أن يكون التلقى للمنهج عن الخالق سبحانه وتعالى بوساطة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأن يكون هذا المنهج وحده هو ما فيه صلاح الإنسانية كلها فى الدنيا والآخرة.

٢ – وأن تُلْغَى الفروق بين الناس من حيث ألوانهم وأعراقهم لأن أصلهم جميعا واحد هو آدم وحواء عليهما السلام، وفى ذلك ما يرفع كثيرا من الظلم المادى والأدبى الذى يمارسه الرجل الأبيض ضد الرجل الأسود أو الأصفر أو الأحمر، فالتفاضل بينهم بالتقوى.

٣ – وأن تحترم المرأة وتُعْرف لها حقوقها – كما قررها الإسلام فى هذه السورة سورة النساء وغيرها من سور القرآن وكلمات النبى ﷺ – زوجة وأمًا وأختا وبنتا، فالنساء شقائق الرجال كما قال ذلك المعصوم ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال» رواه أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها.

٤ – وأن يحل الوئام والسلام بين أبناء الأب الواحد والأم الواحدة محل الخصام والتنازع والحروب، والصراعات الدولية التى تحركها مشاعر التباعد وتعالى الرجل الأبيض على غيره.

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾.

---

(١) انظر فى تفصيل ما قالته تلك الحضارات عن المرأة: كتابنا المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله.

● اتقوا الله أى خافوا عقابه،

وفى صدر الآية: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ وهذا من تأكيد الأمر بالتقوى، ولفظ الرب: يدل على التربية والإحسان إلى مَنْ يُرَبَّى،

ولفظ الله: يدل على الهيبة، فكأنه رغبهم فى التقوى أولا، ثم أرهبهم من تركها.

● و ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾.

أى يسأل بعضكم بعضا بالله وبالرحم، إذ كان من عادتهم أن يقولوا: ناشدتك الله والرحم أن تفعل كذا أولا تفعل كذا.

● وتقوى الله تكون بالتزام طاعته واجتناب معصيته.

● وتقوى الأرحام تكون بوصلها ومراعاة حقوقها، أى: اتقوا الله فاطيعوه، واتقوا الأرحام فصلُوها.

والرحم مشتقة من الرحمة، واستدلوا على ذلك بما رواه أبو داود بسنده عن عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: أنا الرحمن، وهى الرحم، اشتققتُ لها اسما من اسمى، مَنْ وصَلَها وصلته ومن قطعها بَتَتُّه» وفى رواية قطعته، وبما رواه أحمد بسنده عن أبى بكرة نفيع بن الحارث رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منْ ذنب أحرى أن يُعجِّل الله تبارك وتعالى العقوبة لصاحبه فى الدنيا مع ما يُدَّخر له فى الآخرة، من البَغْى وقطيعة الرحم».

فثبت بدلالة الكتاب والسنة وجوب صلة الرحم واستحقاق الثواب بها، وهذا الأصل العظيم فى الدين قد بنى الأحناف عليه حُكْمين هامين:

أحدهما: أنَّ مَنْ ملك ذا رحم محرم منه، عتق عليه.

والآخر: أن الهبَة لذى الرحم المحرم لا يجوز الرجوع فيها.

وتعليلهم لهذين الحكمين هو: أنّ فى عدم العتق وفى الرجوع فى الهبة إيحاش يورث قطيعة الرحم، وهذه القطيعة للرحم حرام.

● ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

الرقيب هو المراقب لجميع الأفعال، ومن كان هكذا وجب أن يُخاف ويُرْجَى.

وفي هذا تهديد ووعيد لمن لم يتق الله، ولمن لم يصل رحمه اى لم يتق الله فيها.

● ومعنى الآية كلها في إجمال: أيها الناس جميعا الذين اشتركتم في أن ربكم واحد، وأصلكم واحد - ووحدة الخالق ووحدة الأصل أدعى أن تعطف بعضكم على بعض فضلا عن أن يظلم بعضكم بعضا..

فاتقوا الله بعبادته وحده، واتقوه في رعاية حقوق الأرحام، ومن لم يتق الله تعالى منكم فإن الله تعالى رقيب عليه يحاسبه ويجزيه على عمله من جنس عمله.

﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ﴾.

الخطاب لكل مسلم عموما، ولمن كان متصرفا في مال اليتيم على وجه الخصوص، وأمرهم بأن يؤتوا اليتامى أموالهم.

قال مقاتل والكلبي: نزلت في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ اليتيم طلب المال فمنعه عمه، فنزلت؛ فقال العم: نعوذ بالله من الحوب الكبير، ورَدَّ المال، فقال النبي ﷺ: «من يوقَ شُحَّ نفسه، ورجع به هكذا فإنه يَحُل داره» يعني جنته.

● واليتيم من فُقِد أبوه في حال صغره، كأنه قد بقي منفردا لا يجد من يدفع عنه، واليتيم تشمل الذكر والأنثى.

● وإيتاء الأموال لليتامى يكون بوجهين:

أحدهما: إجراء الطعام والكسوة ما دامت الولاية عليه.

والآخر: دفع المال إليه وتمكينه منه عندما يكبر ويرشد.

وإيتاء اليتامى أموالهم من وجوه تقوى الله تعالى في حقوق الأرحام.

﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ﴾.

هذا الجزء من الآية الكريمة له معان عدة منها:

١ - لا تتبدلوا الشاة السمينة من مال اليتيم بالهزيلة ولا الدرهم الطيب بالزيف، وكانوا في الجاهلية يفعلون هذا ويقولون: رأس برأس، فنهاهم عن ذلك.

٢ - لا تأكلوا أموال اليتامى وهي محرمة خبيثة، وتتركوا الطيب وهو ما لكم.

٣ - لا تتعجلوا أكل الخبيث من أموالهم وتدعوا انتظار الرزق الحلال من عند الله تعالى.

﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴾ .

اى لا تأخذوا أموالهم كلها أو بعضها وتضموها إلى أموالكم، فإن هذا الضم أكل لها وهو حرام، لذلك تحرز المسلمون عن خلط مال اليتيم بأموالهم، وشقُّوا فى ذلك على أنفسهم، مع أن النهى ليس موجها إلى مجرد الضم أو الخلط، ولكنه موجه إلى الأكل والاستيلاء ظلما على أموال اليتامى، وقد كانت هذه الأمور المنهى عنها موجودة فى الجاهلية، وقد خوطب بهذا النهى قوم حديثو عهد بهذه الجاهلية .

وقد روى أن المسلمين بعد نزول هذه الآية تجنبوا مخالطة أموال اليتامى، فنزل قول الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٠] .

﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ .

الضمير فى إنه يعود إلى عدم تسليم أموال اليتامى إليهم، وأكل أموالهم أو مخالطتها بأموال أوليائهم على وجه الطمع فى أموال اليتامى، كل ذلك كان وسوف يظل حوبا - أى إثما أو جرما - كبيرا، وما ينبغى لأحد أن يوقع نفسه فى ذلك .

- ومعنى الآية الكريمة فى إجمال : أعطوا اليتامى أموالهم التى تحت أيديكم ولا تعطوهم الردىء من المال أو العقار أو نحوه وتأخذوا فى مقابله الجيد من أموالهم، ولا تخلطوا أموالهم إلى أموالكم على وجه الطمع، لأن ذلك كله من الإثم الذى لا يجوز أن توقعوا أنفسكم فى العقاب بسببه .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا ﴾ .

- ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ﴾ .

القسط : العدل، ومن لا يقسط هو من لا يعدل .

والعدل فى هذه الآية يعنى العدل فى مهور اليتامى اللاتى فى ولاية أقربائهن، وجواب الشرط هو : فانكحوا ما طاب لكم من النساء .

وقد روى البخارى بسنده أن عروة بن الزبير رضى الله عنهما، سأل عائشة رضى الله عنها

عن هذه الآية فقالت: «يا ابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله، ويعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها، فلا يعطيها مثل ما يعطيها غيره. فنُهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن. ويبلغوا بهن أعلى سُنَنِهن فى الصداق، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء غيرهن. ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا فى مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط؛ من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال».

وهذا أحسن وأصح ما قيل فى معنى هذه الآية الكريمة.

- وقال مجاهد[١]: الآية تحذير من الزنا، وذلك أنهم كانوا يتحرجون عن أكل أموال اليتامى ولا يتحرجون من الزنا، فقيل لهم: إن كنتم تخافون من أموال اليتامى فخافوا من الزنا؛ لأن الزنا أفدح وأشنع، وفى النكاح مبعدة عن السِّفاح، وقد أباحه الله لكم.

والتفسير الذى روته عائشة رضى الله عنها أرجح وأولى.

- ويرى بعض العلماء أن هذه الآية ليست هى المثبتة لمشروعية النكاح، لأن الأمر فيها معلق على حالة الخوف من الجور فى يتامى النساء، فهو أمر للإرشاد.

وأما مشروعية النكاح فمقررة من باب الإباحة الأصلية لما عليه الناس من التزاوج، مع إبطال ما حرمه الإسلام من الزواج، مثل:

١ - نكاح المقْت: أى زواج الرجل من امرأة أبيه بعد موت أبيه.

٢ - ونكاح المحرمات عموما كالأخت والبنت...

٣ - ونكاح المحرمات من الرضاعة.

---

(١) هو مجاهد بن جبر - وقيل جبير - تابعى جليل ولد سنة ٢١ هـ بمكة وبها مات سنة ١٠٣ هـ فقيه ورع متعبد زاهد مات وهو ساجد، من سادة العلماء وأجلائهم، قال عنه الذهبى: شيخ القراء والمفسرين أخذ التفسير عن ابن عباس رضى الله عنهما، وقرأ عليه القرآن ثلاث مرات يقف عند كل آية يسأله: «فيم نزلت وكيف كانت...؟».

٤ – والنكاح بغير مهر، وغير ذلك من الأنكحة الباطلة.

﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ أى ما حسن لديكم، أو ما حل لكم الزواج منهن بشروط النكاح التى جاء بها الإسلام كالمهر والإشهاد.. إلخ. ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ أى أباح التزوج من اثنتين أو ثلاث أو أربع فإن خيف عدم العدل بينهن فواحدة، فالأربع حدٌّ أقصى لمن يجمعهن الرجل فى عصمته من النساء.

وهذا هو الذى كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون، وهو الذى أجمعت عليه الأمة، وقد أمر به النبى ﷺ عندما نزلت هذه الآية حيث قال: «من كان يمسك أكثر من أربع فليختر منهن أربعا» فقد روى أبو داود بسنده عن الحارث بن قيس رضى الله عنه قال: أسلمت وعندى ثمانى نسوة فذكرت ذلك للنبى ﷺ فقال: «اختر منهن أربعا».

وأخرج مالك فى مُوَطَّئه، وأبو داود بسنده عن الحارث الأسدى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال لغيلان بن أمية الثقفى وقد أسلم وتحته عشر نسوة: «اختر منهن أربعا وفارق سائرهن».

- وقالت الرافضة وبعض أهل الظاهر ممن شددوا فى فهم الكتاب والسنة، وخالفوا ما أجمع عليه سلف الأمة، قالوا: إن هذه الآية تبيح الزواج من تسع نساء، وعَضَّد ذلك القول لديهم أن النبى ﷺ نكح تسعا جمع بينهن فى عصمته، وهم فى ذلك القول واهمون، لزعمهم أن كلمة مَثْنى مثل كلمة اثنين، وكلمة: ثُلاث مثل كلمة ثلاث، ورُباع مثل أربع، فهؤلاء تِسْع والواو بين الكلمات تفيد الجمع!!! وهذا رأى شاذ.

– وأكثر شذوذا من هؤلاء بعض أهل الظاهر الذين قالوا بإباحة الزواج من ثمانى عشرة، لأن تلك الصيغ الواردة فى القرآن الكريم: مثنى وثُلاث ورباع» تفيد التكرار، لأن الواو للجمع كذلك!!!

- وهذا كله من الجهل بالدين؛ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والجهل باللسان العربى.

- وأما ما أبيح للنبى ﷺ من التزوج بأكثر من أربع فذلك من الأحكام الخاصة به ﷺ وهى كثيرة بسبب مقام النبوة، ومن هذه الأحكام على سبيل المثال: أن قيام الليل بالنسبة له ﷺ فريضة، وبالنسبة لسائر الأمة نافلة.

– وأكثر شذوذا من هؤلاء وأولئك من قالوا: إن الزواج مباح بأى عدد من النساء، كأنهم عموا وصموا عن الكتاب والسنة وأعمال الصحابة رضى الله عنهم.

● وقد شرع الله تعدد الزوجات لمن يقدر على ذلك ماديا ومعنويا، ولمن يستطيع العدل بين أكثر من زوجة، وإنما شرع ذلك لتحقيق مصالح كثيرة أفاض فيها العلماء، ونحن نشير هنا إلى بعضها فيما يلي :

١ – إن في هذا التعدد تكثيراً لأعداد الأمة المسلمة بازدياد المواليد، وهذه الكثرة هي موضع التباهي لرسول الله ﷺ يوم القيامة، فقد روى البيهقي بسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم . . . » ولا تكون كثرة الولد إلا بكثرة الزوجات .

وروى ابن مردويه بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « تناكحوا تكثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة » .

٢ – وإن تعدد الزوجات يعين على كفالة الرجال للنساء، وبخاصة أن النساء في الغالب أكثر عددا من الرجال .

٣ – وإن الرجال يتعرضون للموت في الحرب بأكثر مما تتعرض له النساء فيصبح الرجال أقل عددا من النساء، فيضحى تعدد الزوجات علاجا لعدم التوازن في العدد .

٤ – وإن الرجال أقصر أعمارا من النساء في الغالب لأسباب كثيرة فكان التعدد سببا في التوازن أيضاً .

٥ – ولأن تعدد الزوجات يمنع أو يحد من الطلاق فمن لم يرض عن إحدى زوجاته ربما وجد ما يرضيه عند أخرى، فلا يلجأ حينئذ لفراقها، وبخاصة إذا كانت ذات ولد .

٦ – ولأن الشريعة قد حرمت الزنا، بل حرمت أسبابه ودواعيه لما يجر إليه الزنا من الفساد، وبعض الرجال قد لا تكفيه امرأة واحدة لفطرة فطره الله عليها، ولأنه يحال بينه وبين زوجته الواحدة بالحيض والحمل والنفاس والمرض ونحو ذلك، فكان التعدد مخرجا من جريمة الزنا .

٧ – ولأن تعدد الزوجات جاءت به كل الشرائع التي سبقت الإسلام ومن زعم غير ذلك فهو منسوب إلى الجهل أو الكذب على الحق ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾، أي فواحدة فقط لكل من يخاف عدم العدل بين الزوجتين أو الزوجات، أي عدم التسوية في النفقة والكسوة والبشاشة والمعاشرة، وترك الضر في كل ما يدخل تحت قدرة المكلف وطوقه، دون ميل القلب .

أى ففى الواحدة مقنع، فمن خاف عدم العدل ولم يقنع بالواحدة ففى الإماء متسع - وكان امتلاك الإماء معروفا بل شائعا فى أوقات كثيرة من تاريخ الإنسانية، وإن كان الإسلام قد حرص على تحرير الرقيق بأسلوبين فاعلين: الأول منهما تجفيف منابعه، والآخر: التحبيب فى العتق طلبا لرضا الله تبارك وتعالى.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾.

أى أقرب إلى أن لا تميلوا عن الحق وتجوروا، وهذا هو المختار عند كثير من المفسرين، قال فخر الدين الرازى: روت عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ فى قوله تعالى: **﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾** قال: «لا يجوروا» وفى رواية أخرى «أن لا يميلوا».

● وللذين ينعون على الإسلام إباحة تعدد الزوجات نقول:

- إن التعدد أفضل من أن تظل امرأة بلا زوج، فربما فسدت وأفسدت.

- والتعدد أفضل من زوجة واحدة مع عدد من الخليلات كما هو مشاهد فى المجتمعات الغربية التى لا تعدد فيها.

- والتعدد أفضل من أن تشيع الفاحشة فى المجتمع بسبب بعض الرجال الذين لا تكفيهم امرأة واحدة.

● ومعنى الآية الكريمة: أنه عند الخوف من عدم إنصاف اليتيمة بالزواج منها بمهر أقل أو الطمع فى مالها، فإن فى تعدد الزوجات حلاً لمن كان يحب أن يتزوج ويخشى الوقوع فى الزنا.

● ولتعدد الزوجات شرطان:

أحدهما: عدم الوقوع فى الجور بعدم العدل بين الزوجات.

والآخر: ألا يزيد عدد الزوجات على أربع.

﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾

● **﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ...﴾**

الخطاب والأمر للأزواج أولا، ثم للأولياء، ثم لكل من بيده حق لامرأة يمسكه عنها، كما كان الأمر بإيتاء اليتامى أموالهم، وذلك أن اليتيم والمرأة كانا مستضعفين فى الجاهلية،

فمن الشائع عندهم انّ حَقَّيْن مغبون أصحابهما : مال اليتيم، ومال النساء؛ ومن أجل ذلك حرس الإسلام هذين الحقين أشد حراسة فامر بإيتائهما لأصحابهما، والأمر للوجوب.

و ﴿النساء﴾ فى الآية تعنى الزوجات أولا، وكل امرأة عموما.

والصدقات: المهور جمع صدقة وهى المهر.

والنحلة: العطيةُ بلا قصد عوض أى الهدية، إذ ليس المهر عوضا عن منفعة الرجل بالمرأة عند التأمل والتحقيق، لأن النكاح عقد يقصد به استمرار المعاشرة الحسنة والرابطة الوثيقة وتبادل الحقوق والواجبات بين الزوجين.

● ولو جعل المهر عوضا عن المنفعة لكان عوضا عظيما كثيرا متجدداً ربما لا يقدر عليه سائر الناس، ولكن الله تعالى جعله حقا وهدية واجبة على الأزواج نحو زوجاتهم إكراما لهن، وهذا هو الفارق بين المهر فى النكاح والأجر فى المخادنة والسفاح إذ يعد هذا الأجر فى مقابل منفعة مؤقتة محرمة.

وفى تاريخ النكاح نسوق هذه المعلومات:

- كان النكاح عند الناس هو اختصاص المرأة برجل معين تكون له وحده، وكان ذلك ينال بالقوة والقهر لهذه المرأة وذويها.

- ثم اعتاض الناس عن القوة والقهر ببذل الأثمان للأولياء فكان ذلك بيعا للمرأة يُسَاوِم فيها وليُّها.

- ثم أكرم الإسلام وكرمها بعقد النكاح الذى أوجب لها المهر والإشهار، وأعطاها حق الرفض، وجعلها حليلة وشريكة للرجل فى شئونه، وأوجب على الرجل حسن عشرتها.

● وقد تميز عقد النكاح بهذه الشروط وتلك الآداب عن بقية أنواع المعاشرة المذمومة شرعا، ومنها:

- المعاشرة الناشئة عن الشهوة بين الرجل والمرأة على انفراد وفى خفية عن الأهل.

- والزنا الذى تأخذ عليه المرأة أجرا، وأحيانا يأخذ الرجل الأجر على الزنا بامرأة ترغب فيه.

- والمخادنة أو المخادعة وهى زنًا مستمر بين رجل وامرأة يتخذ كل منهما الآخر خليلا أو خدينا.

- والضِّماد وهو: أن تتخذ المرأة رجلا خليلا لها فى سنة القحط لينفق عليها، مع أنها متزوجة، وكان ذلك الضماد بعلم الزوج.

- والزنا بالإماء فى مقابل أجر.

● كل ذلك حرمه الإسلام، وجاء فى مكانه بعقد النكاح بشروطه وآدابه التى تقدر المرأة وتحترم علاقتها بالرجل وتحافظ لها على إنسانيتها، وتبعد بها عن أن تكون مجرد متعة مؤقتة لأى رجل.

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾

أى إن طابت أنفسهن لكم بشىء من هذا المال الذى أعطيتموه للنساء فكلوه أى انتفعوا به انتفاعا لا رجوع فيه.

و﴿هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ أى سائغا لا يُعقبُ نغَصًا.

وقيل: الهنىء الذى يلذه الآكل، والمرىء الذى تحمد عاقبته.

● واختلف الفقهاء فى رجوع المرأة فى هبتها بعض صداقها أو كله، فقال بعضهم: لا رجوع لها. وقال آخرون: لها الرجوع لأنها لو طابت نفسها ما رجعت، فإن رجعت فمعنى ذلك أنه لم تطب نفسها.

وقد كتب عمر بن الخطاب إلى قضاته: «إن النساء يعطين رغبة ورهبة، فأيما امرأة أعطته ثم أرادت أن ترجع فذلك لها».

● وهذه الآية تدل على وجوب الصداق للمرأة وهو مجمع عليه دون خلاف فيه، ولا حد لأكثره، وهناك حد لأقله - كما سنبين -.

● ومعنى الآية الكريمة فى إجمال: أعطوا النساء مهورهن عطية خالصة ليست فى مقابل منفعة لأن عقد النكاح أجَلُّ وأنبل من أن يكون المهر عوضا عن المنفعة، فإن طابت نفس إحدى النساء عن مالها أو بعضه وأعطته لزوجها فذلك سائغ، وله أن يأخذه دون عوض لاحق.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ...﴾.

النهى موجه إلى كل الناس. والسفهاء: جمع سفيه وهو الذى لا يحسن التصرف فى المال لصغر سنّه أو اختلال تصرفه وهو المحجور عن التصرف فى ماله حفاظا على ماله.

● ﴿أَمْوَالَكُمُ﴾ فى هذا الخطاب إشارة إلى أن المال وإن كان لرجل بعينه إلا أننا عند التدبر فى هذا الخطاب نجد المال مالاً لكل الناس، لأنه إن أُحْسِن التصرف فيه عاد بالنفع على الناس وإنْ أُسيء فيه التصرف كان خسارة للناس كلهم.

ومن حسن التصرف فى المال عدم تمكين السفهاء منه.

﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ أى لا يحصل قيامكم ومعاشكم وصلاحكم إلا بهذا المال.

﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ أى افرضوا لهم ما يكفل لهم النفقة والكسوة، وهؤلاء هم كل من يلزم الرجلُ الإنفاق عليه من زوجة وأبناء، وقد أجمع العلماء على وجوب النفقة على الأهل والعيال، فقد روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة ما تَرَك غنىً(١) واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول».

﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ أى ادعوا لهم بقولكم: بارك الله فيكم، وأنا ناظر إليكم، وهذا الاحتياط يرجع نفعه إليكم، ونحوها.

وقيل معناه: عدوهم وعدا حسنا بقولكم: إن رشدتم دفعنا إليكم أموالكم، ويقول الأب لابنه: مالى إليك مصيره، وأنت إن شاء الله صاحبه إذا ملكت رشدك وعرفت تصرفك.

وقيل: القول المعروف هو الخالى من المن والأذى.

● ومعنى هذه الآية الكريمة: نَهْى مَنْ بيده المال عن إعطائه لمن لا يحسن التصرف فيه، لأن المال على الحقيقة مال صاحبه ومال الناس جميعا، وإفساده بأيدى السفهاء تضييع لمصالح الناس جميعا، والمحافظة عليه مصلحة للناس جميعا.

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ﴾ أى اختبروا قدرتهم على حسن التصرف فى المال فإن كان ولداً دفع إليه من المال ما يتصرف فيه من غير إجحاف فى نفقة الدار شهرا كاملا، وإن كانت بنتا فوض

(١) وفى رواية: عن ظهر غنى، وهى رواية مسلم واحمد والنَّسَائى، باسانيدهم عن حكيم بن حزام رضى الله عنه.

إليهما ما يُفَوَّض إلى ربة المنزل بحسب أحوال الزمان والبيوت، فإن أحسنا فى هذا الاختبار سَلَّم إليهما أموالهما، وإلا حجر الأموال حتى يأنس منهما الرشد.

وقال الحسن وقتادة: الاختبار يعنى فى الدين، وبذلك قال الإمام الشافعى رحمه الله.

﴿بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ أى التزوج وهو كناية عن الخروج من حالة الصبا، ولذلك علامات معروفة وهى الاحتلام للولد والحيض للبنت، وقال بعض العلماء: إنما يكون ذلك ببلوغ كل منهما خمسة عشر عاما، ولكن الحد الفاصل هو الاحتلام والحيض.

عندئذ تدفع إليهم أموالهم، وذلك بشرطين: الاول: بلوغ النكاح. والآخر: إيناس الرشد منهم.

﴿وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

- نهى الله تعالى عن أكل أموال اليتامى مطلقًا وفى كل حال، ووَصَف هذا الاكل بأنه إسراف فى هذا المال، والإسراف محرم.

ونهى عن أكل أموالهم طمعا فيها قبل أن يكبروا، فتسلم إليهم أموالهم، وذلك الاكل حرام أيضا.

﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى أن على ولى اليتيم أن يلتزم بذلك.

- والاكل بالمعروف أى بغير إسراف، فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: من كان من الاوصياء غنيًا فليستعف بماله ولا يتوسع بمال محجوره، ومن كان فقيرا فإنه يُقتِّر على نفسه لئلا يمد يده إلى مال يتيمه، واستحسنه النحاس[1] والكيا الطبرى الهراسى[2] فى أحكام القرآن.

---

(١) هو أحمد بن محمد النحاس المرادى المصرى (.... - ٣٢٨ هـ) مفسّر نحوى أديب ولد ومات فى مصر وزار العراق واجتمع بعلمائه، صنف: «تفسير القرآن» و «إعراب القرآن» و «ناسخ القرآن ومنسوخه» و «شرح المعلقات السبع» وغيرها من الكتب.

(٢) هو على بن على الطبرى (٤٥٠ - ٥٠٤ هـ) نسبة إلى طبرستان قرب الرى ولقبه «الكيا» بمعنى الكبير بالفارسية والهراسى نسبة إلى صنع الهريسة أو بيعها، شافعى المذهب، له كتاب: أحكام القرآن الكريم.

وقال الكيا الطبرى: «توهم متوهمون من السلف أن للوصى أن يأكل من مال الصبى قدرا لا ينتهى إلى حد السَّرَف، وذلك خلاف ما أمر الله به فى قوله تعالى: ﴿لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ....﴾ [النساء: ٢٩]، ولا يتحقق ذلك فى مال اليتيم. فقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ يرجع إلى أكل مال نفسه دون مال اليتيم، فمعناه: ولا تأكلوا مال اليتيم مع أموالكم، بل اقتصروا على أكل أموالكم، وقد دَلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ وبَانَ بقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الاقتصار على البُلغة حتى لا يحتاج إلى أكل مال اليتيم، فهذا تمام معنى الآية[1].

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

هذا أمر للأوصياء بأن يشهدوا آخرين على أنهم دفعوا لليتامى أو المحجور عليهم أموالهم، وهذا الإشهاد له فوائد نذكر منها:

- الاستجابة لأمر الله تعالى وطاعته وعلى ذلك يثاب المؤمن.

- وبراءة الأوصياء بدفع التهمة والشبهة عن أنفسهم.

- وضبط ما يدفع وتوثيقه والإشهاد عليه حتى لا يدعى اليتيم أو المحجور أنه لم يأخذ ماله.

وسواء أكان المال المدفوع للمحجور ماله بعد أن بلغ وأُونِسَ منه الرشد، أو كان قرضا اقترضه الوصى، فإن الإشهاد على ذلك مطلوب لبراءة الذمة، ولكى يمكن التقاضى؛ لو وقع خلاف بين الوصى والمحجور.

وهذا الأمر للوجوب عند بعض العلماء وللندب عند بعضهم.

● وكما أوجب الشارع على الوصى أن يحفظ مال اليتيم كذلك أوجب عليه أن يحفظ بدنه، وخُلقه، قال القرطبى: وقد روى أن رجلا قال للنبى ﷺ: إن فى حجرى يتيماً أآكل من ماله؟ قال: «نعم غير مُتأثلٍ – أى جامع – مالاً ولا واق مالك بماله» قال: يا رسول الله، أفاضربه؟ قال: «ما كنت ضاربًا منه ولدك».

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن الكريم ٥/ ٤٣ ط وزارة الثقافة – بالجمهورية العربية المتحدة ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٧م.

قال ابن العربى عن هذا الحديث: وإن يثبت مسندا فليس يجد أحد عنه ملتحدا – أى منصرفا[1] –.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أى كفى بالله حاسبا لاعمالكم ومجازيا بها، وفى هذا التعبير القرآنى وعيد لكل جاحد حق.

ونلخص معنى هذه الآية الكريمة: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ بما يلى:

على الأوصياء أن يختبروا صلاحية اليتامى للحفاظ على أموالهم بعد بلوغهم مبلغ الرجال والنساء، فإن أنسوا منهم رشدا فليدفعوا إليهم أموالهم دون أن يسرفوا فيها، ولا أن يبادروا بإنفاقها قبل أن يكبر اليتامى، وإنما على الأغنياء من الأوصياء أن يتعففوا عن أموال اليتامى، وعلى الفقراء منهم أن ياكلوا منها بالمعروف. وعند دفع الأموال إليهم بعد البلوغ وإيناس سن الرشد، فإن على الأوصياء أن يشهدوا على ذلك حتى لا تضيع الحقوق وتشيع التهم، والله سبحانه رقيب على ذلك ومحاسب عليه.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

- هذه الآية الكريمة هى قاعدة الإرث العامة التى جاء بها الإسلام خاتم الأديان وأتمها وأكملها، تلك القاعدة هى التى أعطت للنساء نصيبا من التركة كن محرومات منه قبل الإسلام كما كان محروما منه الصغار، وهذه القاعدة جعلت الإرث حقا لذوى القربى بدرجة قرب كل منهم من الميت، سواء أكان الوارث صاحب فرض أو كان ممن يعطى لتطييب خاطره لما تربطه بالمورث من قرابة لم تبلغ به حد أصحاب الفروض.
- وقد كان الناس قبل الإسلام قد اعتادوا توريث الأقوياء وحرمان الضعفاء، وإبقاءهم عالة على هؤلاء الأقوياء، وبخاصة النساء والصغار واليتامى، حيث كان أكثر الورثة يستبد بالميراث ويحرم إخوته، حيث لا يملكون ضده شيئا يفعلونه خشية الطرد والعداوة، وكذلك كانت معظم النظم، ولا يزال بعضها يورث الكبير وحده حتى اليوم.

---

(1) السابق: د/ ٤٥.

● والنساء على وجه الخصوص – ومع هذا الحرمان من الميراث – كُنَّ يجدن فى أنفسهن وظروفهن ضعفا، ويخفن الضيعة إن تخلى عنهن أولياؤهن عند انحراف الزوج أو مفارقته لها، فكن يخضعن لإرادة أوليائهن فى هذا الحرمان، لأنهن يعتمدن عليهم عند ظلم الأزواج لهن.

● وكان العرب فى الجاهلية يجعلون أموالهم بالوصية لعظماء القبائل ومن يتشرفون بالانتساب إليهم، أو لأحلافهم، وكانوا إذا لم يوصوا وتركوا مالاً يعطى لأبناء الميت من البنين دون البنات وربما أعطى المال لعصبته من إخوة وأبناء عم دون البنات.

أما الزوجات فكُنَّ يُورَّثْنَ ولا يَرِثْن.

وربما كان الميراث بالتبنى، ولكن لا يكون للنساء بحال.

● وبعد أن هاجر النبى ﷺ إلى المدينة وبقى أقارب المهاجرين المشركون بمكة أصبح التوريث بالهجرة، فالمهاجر يرث المهاجر، وبالحلف، وبالمعاقدة، وبالإخوة التى آخاها الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، ونزل فى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ ....﴾ [النساء: ٣٣].

● وشرع الله تعالى وجوب الوصية للوالدين والأقربين بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾

[البقرة: ١٨٠].

● ثم توالد المسلمون ولحق بهم آباؤهم وأبناؤهم مؤمنين، فشرع الله تعالى الميراث بالقرابة، وجعل للنساء حظوظا فى ذلك، فأتم الكلمة وأسبغ النعمة، وأوضح أن حكمة الميراث هى صرف المال إلى القرابة بالولادة وما دونها.

● وقد كان قوله تعالى: ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ أول إعطاء لحق الإرث للنساء فى المجتمع.

وهذه الآية الكريمة جاءت كالمقدمة لتشريع الميراث فجاءت مجملة. ثم جاء بعدها تفصيل الميراث ببيان نصيب كل ذى نصيب من الرجال والنساء على السواء.

وقد روى الطبرى فى سبب نزول هذه الآية: أن أوس بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه توفى وترك امرأة يقال لها: كُحَّة – وهى لغة فى القُحَّة أى الخالصة – فجاءت رسول الله ﷺ

فقالت: إن زوجي قُتل معك يوم أُحد، وهاتان بنتاه وقد استوفى عمهما مالهما، فما ترى يا رسول الله؟ فوالله ما تنكحان أبدا إلا ولهما مال، فقال رسول الله ﷺ: «يقضي الله في ذلك»؛ فنزلت سورة النساء وفيها: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ...﴾، قال جابر بن عبد الله، فقال لي رسول الله ﷺ: «ادع لي المرأة وصاحبها» فقال لعمهما: «أعطهما الثلثين وأعْطِ أمهما الثمن وما بقي فلك».

وروى أن النبي ﷺ لما دعا العم - أو ابني العم - قالا له: يا رسول الله لا نعطي من لا يركب فرسا ولا يحمل كَلاًّ ولا ينكي عدوا، فقال: «انصرف أو انصرفا حتى أنظر ما يحدث فيهن» فنزلت الآية: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ..﴾. وجعلت للنساء نصيبا، وروى أن هذه الآية لما نزلت أرسل النبي ﷺ إلى وَلِيّ البنتين، فقال له: «لا تفرق من مال أبيهما شيئا فإن الله قد جعل لهن نصيبا».

● فإن كان ما تركه المورث غير قابل للقسمة لما في القسمة من إضرار بالمال فلا يقسم، لقوله تعالى: ﴿... غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ [النساء: ١٢]، ولقول النبي ﷺ فيما رواه أحمد وابن ماجة بسنديهما عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لا ضرر ولا ضرار» وما رواه الدار قطني بسنده عن محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «لا تعْضية على أهل الميراث إلا ما حمل القَسْم» قال أبو عبيد: هو أن يموت الرجل ويدع شيئا إن قسم بين ورثته كان في ذلك ضرر على جميعهم أو على بعضهم، يقول: فلا يقسم، وذلك مثل الجوهرة، والحَمَّام، والطيلسان وما أشبه ذلك - والتعضية: التفريق.

● وقد اتفق الفقهاء على أن القسمة تسقط فيما تبطل بقسمته المنفعة أو ينقص به المال.

● والمعنى العام لهذه الآية الكريمة: إقرار حق النساء في الميراث مما قل من هذا الميراث أو كثر، على أنه نصيب لهن فرضه الله تعالى بعد أن لم يكن لهن شيء.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

● وهذا أمر موجه للورثة يطالبهم بأن يعطوا بعض الأسهم لمن حضر القسمة من ذوي قرباهم من غير أصحاب الفروض في الإرث، ممن يكون من شأنهم أن يحضروا مجالس الفصل بين الأقرباء وهو أمر للندب لا للوجوب، كما يرى ذلك جمهور العلماء، فهو صدقة منهم على ذوي قرباهم، وليس في الصدقات ما هو واجب إلا الزكاة، وعدا ذلك نوافل وتطوع.

فقد روى مسلم بسنده عن طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه قال: جاء أعرابى فسأل رسول الله ﷺ عما فرض الله، فأخبره رسول الله ﷺ عن: الصلاة والصوم والزكاة، وفى كل واحدة يقول الرجل لرسول الله ﷺ: هل علىّ غيرها؟ فيقول له رسول الله ﷺ: «لا إلاّ أن تطوّع».

وبهذا قال الائمة مالك وأبو حنيفة وفقهاء الامصار.

﴿ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ أى أعطوهم إن كانت التركة تتحمل العطاء، أو اعتذروا إليهم إن كانت التركة قليلة، وقد قال العلماء: إن العطاء من القليل فيه أجر عظيم.

والآية الكريمة مبينة لاستحقاق الورثة أنصباءهم واستحباب مشاركة من لا نصيب له ممن حضرهم من أقرباء الميت، قال الحسن رحمه الله: ولكن الناس شَحُّوا.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: أمر الله المؤمنين عند قسمة مواريثهم أن يصلوا أرحامهم ويتاماهم ومساكينهم من الوصية، فإن لم تكن وصية، وصلوهم من الميراث، أى أن هذا الرضخ -العطاء- على جهة الندب والترغيب فى فعل الخير.

وقال بعض العلماء: إن هذا العطاء على جهة الفرض، وهو قول مرجوح.

﴿ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ قال سعيد بن جبير يقال لهم: خذوا بورك لكم، وقيل: يعطونهم ويقومون لهم: ودِدْنا أن لو كان أكثر من هذا.

وإن لم يعطوا شيئا قيل لهم قول جميل، وقدم لهم أنواع اعتذار، وذلك تطييبا لخاطرهم وتسلية لهم على ما حرموا من مال قريبهم.

- ومعنى الآية الكريمة: أن من دعم الروابط والقرابات فى المجتمع المسلم أن يعطى مَنْ حضر قسمة التركة من أقرباء الميت ومن اليتامى والمساكين - من غير أصحاب الفروض - بما لا يضر التركة، وأن يقال لهم قول معروف يذهب عنهم الحزن والندم.

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾.

- هذه الآية فيها ثلاثة أوامر من الله تعالى للناس:

أحدها: الأمر بخشية الله أى خوف عذابه.

والثاني: الامر بتقوى الله أى طاعته والوقاية من عذابه.

والثالث: الأمر بالقول السديد - أى العدل والصواب -.

وهى موعظة لكل مَنْ أُمر أو نُهى أو حُذِّر، أو رُغِّب فى الآيات السابقة، وهم: الأوصياء والرجال الذين يحرمون النساء ميراثهن، ويحرمون الصغار ونحوهم من اليتامى والمساكين؛ أى افعلوا باليتامى والنساء والصغار ما تحبون أن يفعل بأبنائكم من بعدكم، بذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما.

وقد روى محمد بن كعب القرظى[1] عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «مَنْ أَحْسَنَ الصدقة جاز على الصراط. ومن قضى حاجة أرملة أخلف الله له فى تركته».

وقال ابن عطية: إن الرجل إذا ترك ورثة مستقلين بأنفسهم أغنياء حُسن أن يُندب إلى الوصية، ويحمل على أن يقدم لنفسه، وإذا ترك ورثة ضعفاء مهملين مُقلين حسُن أن يندب إلى الترك لهم والاحتياط، فإن أجره فى قصد ذلك كأجره فى المساكين.

فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «... إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس».

﴿ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ أى ليتقوا الله فى أموال الناس وليحسنوا إليهم القول.

والسديد: العدل والصواب، وقيل معناه فليتقوا الله وليقولوا للمريض الذى أشفى: أن يخرج من ماله ما عليه من حقوق واجبة، ثم يوصى لقرابته بحيث لا يضر ورثته الصغار.

● ومعنى الآية الكريمة: أن الله تعالى أمر كل مَنْ بيده مال لنفسه، أو مال هو وصى عليه أمره أن يخشى الله فى إنفاق هذا المال، فيوجهه إلى اليتامى والنساء والصغار، وليتق الله فى أموال الناس وليحسن القول إليهم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾.

قال الواحدى فى كتابه: أسباب النزول: نزلت فى رجل من غطفان يقال له: مرثد بن زيد، وَلِىَ مال ابن أخيه وهو يتيم صغير، فأكله، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية.

---

(١) هو محمد بن كعب بن سليم القرظى وكنيته أبو حمزة (... - ١١٨ هـ) من علماء المدنية وعُبَّادها، كان عالما بالقرآن الكريم والفقه، روى عن ابن عباس وابن عمر وزيد بن أرقم رضى الله عنهم. مات بالمدينة سنة ١١٨هـ، وكان عمره ثمانين سنة، وقيل فى موته: إنه مات وهو يَقُص فى المسجد إذ سقط عليه وعلى أصحابه سقف، فمات هو وجماعة من أصحابه تحت الهدم.

والمراد عموما: الأوصياء الذين يأكلون ما لم يبح لهم من مال اليتيم.

وقيل: نزلت في الكفار الذين كانوا لا يورثون النساء، ولا الصغار.

﴿ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ هذا تشنيع عليهم بما هو مضاد لمكارم الاخلاق، سُميّ المأكول نارا باعتبار ما سيكون، وقد روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: حدثنا النبى ﷺ عن ليلة أُسْرِىَ به قال: «رأيت قوما لهم مشافر كمشافر الإبل، وقد وُكل بهم من يأخذ بمشافرهم، ثم يجعل فى أفواههم صخرا من نار يخرج من أسافلهم، فقلت يا جبريل: من هؤلاء؟ قال: هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما».

﴿ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ أى نارا مستعرة يوم القيامة.

● ومعنى الآية الكريمة: أن الله تعالى يخبر عن آكلى أموال اليتامى بأنهم فى أسوأ حال، فهم يأكلون فى بطونهم النار فى الدنيا وسيصلون النار المُسَعَّرة فى الآخرة.

● **المواقف التربية العامة فى هذه الآيات الكريمة.**

يتعلم المسلمون من هذه الآيات كثيرا من الحقوق والواجبات التى لو التزم الناس بها لاستقرت الحياة الاجتماعية وسادها العدل والوئام والمودة والرحمة، ولو أخذوا بما فيها لعلا الحق وزهق الباطل وأنصف كل مظلوم - وهكذا شأن آيات القرآن الكريم كلها - وفى تفصيل هذه المواقف التربوية نقول:

١ - يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ ما يلى:

أ - أن ربهم واحد، وأصلهم واحد، وأن الأسرة التى ينتمون إليها واحدة وهى: آدم وحواء عليهما السلام.

ومقتضى ذلك أن يتقاربوا ويتحابوا ويتعاونوا على البر والتقوى وأن يتكافلوا ويتراحموا فهم جميعا إخوة لأنهم أبناء رجل واحد وهذا الذى قرره الإسلام هو الذى يجب أن تتعهد بتنفيذه البشرية جمعاء، حتى تعيش سلاما حقيقيا وأمنا جيدا كالذى يعيشه أبناء الأسرة الواحدة.

ب - ويتعلم المسلمون أن تقوى الله عز وجل واجبة على العقلاء من الناس، لأنه سبحانه الخالق الرازق المربى الذى سخر السموات والأرض وما فيهن من أجل الإنسان.

وأن تقواه سبحانه وتعالى واجبة لأنه سبحانه صاحب المنهج الذى أوجب اتباعه على خلقه جميعا، وهو الرقيب عليهم أخذوا به أو تركوه، وهو الحسيب المجازى كُلاً بما عمل، فإن خلا عمل من تقوى الله فذلك هو الخسران فى الدنيا والآخرة.

جـ - وأن علاقة القرابة والأرحام واجبة الرعاية والتقدير، لأن الله تعالى أمر بذلك، ولأن فى رعاية القرابة وأداء حقوقها استقرارا للمجتمع وترسيخا للقيم الفاضلة التى يجب أن تسود فيه؛ فقد روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم[1] فقالت: هذا مقام العائذ من القطيعة، قال: نعم أما تَرْضَيْن أن أصل مَن وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلك لك، ثم قال رسول الله ﷺ: اقرءوا إن شئتم:

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾

[محمد: ٢٢ - ٢٤].

وروى مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الرحم معلقة بالعرش تقول: مَنْ وصلنى وصله الله ومَنْ قطعنى قطعه الله».

وروى مسلم بسنده عن جبير بن مطعم رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع رحم».

وروى مسلم بسنده عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يُبْسَط له فى رزقه، ويُنْسأ له فى أثره فليصل رحمه».

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى وأحسن إليهم ويسيئون إلىّ، وأحلم عنهم ويجهلون علىّ،

---

(١) المراد بالرحم: القرابة عموما وقرابة النسب خصوصا.

فقال: لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل(١) ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك».

وروى أبو يعلى فى مسنده بسنده عن رجل من خثعم أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الأعمال إلى الله إيمان بالله، ثم صلة الرحم، ثم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأبغض الأعمال إلى الله الإشراك بالله ثم قطيعة الرحم».

٢ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ [النساء: ٢ - ٤] ما يلى:

أ - أن اليتيم جزء من المجتمع، وأنه تجب رعايته وصيانة ماله وحقوقه، وذلك استجابة لأمر الله تعالى ولا يأمر إلا بالخير وبما فيه مصلحة اليتيم والمجتمع كله، وذلك أن المجتمع المسلم مجتمع جهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، والجهاد مَدْعاة للاستشهاد فى سبيل الله، وبذلك فهو مجتمع يكثر فيه اليتامى، ومن هنا كانت رعايتهم موضع اهتمام الإسلام وجزءاً أساسيًا من التدين الصحيح.

ب - وأن كل طمع فى شىء من أموال اليتامى، بحيلة من الحيل، يعد من أكبر الظلم الموجب لمرتكبه عقاب الله، وذلك أن الآية الكريمة تقرر: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾، ولأن الرسول ﷺ يقول، فيما رواه البخارى بسنده عن سهل بن سعد رضى الله عنه: «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى.

وروى أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم إنى أُحَرِّج حق الضعيفين؛ اليتيم والمرأة».

جـ - وأن النساء فى شريعة الإسلام قد حظين بالمكانة التى لم تكن متاحة لهن من قبل، وما كان ذلك إلا لتستقيم الحياة الأسرية خصوصا والحياة الاجتماعية عموما فى ظل

(١) المل: الرماد الحار.

المنهج الإسلامي للحياة، ذلك المنهج الذى حرم العدوان على مال اليتيم ومال المرأة، وأوجب للمرأة مهرا من حقها، وأوجب معاشرتها بالحسنى، وأوجب حقوقا فى موريثها، وأوجب لها من الرعاية والعناية والبر ما لا يُقادَرُ قدره.

وبنى العلاقة بينها وبين زوجها على المودة والرحمة وتبادل الحقوق والواجبات.

د - وأن الإسلام حين أباح للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة حتى أربع، فإنه شرط لهذه الإباحة شرطين:

أحدهما: القدرة على النفقة والمعاشرة.

الثانى: العدل فى الإنفاق والمبيت بين الزوجتين أو الزوجات. ومن لم يستطع الوفاء بهذين الشرطين فليس له أن يتزوج إلا من واحدة فقط.

هـ - وأن التعدد فى الزوجات لم يخترعه الإسلام حتى يعاب به عند أصحاب الهوى، وإنما وجد فى المجتمع العربى بل فى المجتمعات كلها فنظمه ووضع له الشروط والآداب.

وأن هذا التعدد خير ألف مرة من المخادنة ونحوها من العلاقات الآثمة بين الرجل والمرأة، وأنه علاج لمواجهة فقد الأزواج فى الحروب وترمل النساء، وعلاج لرجل فطره الله على أن لا تكفيه امرأة واحدة. وهو قطع للزنا الذى هو من أفحش الفواحش.

على أن التعدد ليس أصلا فى الزواج كما يقول بذلك بعض الذين لا يتدبرون، وإلا ما كان له شروط، وإنما هو رخصة يلجأ إليها بعض الناس عند وجود الدواعى.

و - ورعاية أرملة فى الإسلام ومنهجه لا تقل أهمية فى الحصول على رضا الله وثوابه من الجهاد فى سبيل الله تعالى، فقد روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... والساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله.

٣ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ**

غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [النساء: ٥، ٦] ما يلى:

أ - الحرص على المال وترشيد إنفاقه سواء أكان مال اليتيم أم مال أى أحد، إذ المال كله على وجه الحقيقة ملك للمجتمع كله، ولذلك لا يجوز أن يعطى للسفهاء فيبددونه فتفوت بذلك مصلحة المجتمع كله، لا مصلحة اليتيم وحده.

وهؤلاء السفهاء هم الذين يسيئون التصرف فى المال سواء أكانوا أبناء أم آباء أم أزواجا أم غيرهم، والأصل أن المال قوام الحياة أو تقوم به الحياة كما وصفه الله تعالى، وقمة الوعى الاقتصادى هى جعل المحافظة على المال واجبا شرعيا، سواء أكان المال ملكا للإنسان أم كان وصيا على صاحبه ليتمه أو صغره أو سفاهته.

ب - وأن السفيه الذى يسىء التصرف فى المال لا يحرم من المال مطلقا وإلا ضاع، وإنما يرزق فيه ويكسى وتقضى له حاجاته الاساسية، ولكن لا يعطى فى يده مالا خشية أن يسىء استخدامه فيضيع المال على صاحبه وعلى المجتمع. ولنا أن نتصور اليوم أن المال أمسك عن السفهاء، وعندئذ تتوفر للمجتمع أموال كثيرة كان ينفقها السفهاء على المسكرات والمخدرات ولعب الميسر والمراهنات، وكل هذه الأنواع من الإنفاق تعود على الأفراد وعلى المجتمع بأبلغ الأضرار.

الا ليت الذين يضعون المال فى أيدى السفهاء يلتزمون بما أمر الله به فى هذا المال ويدركون المعنى العميق لقوله تعالى:

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ... ﴾.

جـ - وأن وضع المال فى يد اليتيم أو الصغير وانتقاله من الوصى إلى صاحب المال، مشروط بشرطين أوضحناهما آنفا - وذلك خشية أن يضيع المال على صاحبه وعلى المجتمع، وكل ذلك أوجبه الإسلام حفاظا على المال لصاحبه وللمجتمع.

د - وأن تقوى الله فى مال اليتيم توجب على الوصى أو الولى الا يتحايل على الاستفادة من ماله قبل أن يكبر، وله - إن كان الوصى فقيرا -أن يأكل من هذا المال بالمعروف، وإن كان غنيًا فعليه أن يعف عن أخذ شىء من مال اليتيم.

والله تعالى شاهد على هذه الحقوق آمر بصيانتها، والمجتمع كله يعلم أن مال فلان

اليتيم في يد فلان الوصي عليه، لذلك كان الإشهاد على دفع مال اليتيم إليه أمرا واجبا بنص القرآن الكريم، عند بلوغ اليتيم مبلغ النكاح وإيناس الرشد منه: ﴿ **فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا** ﴾.

هـ - وأن شرع الله في التعامل بالمال واجب النفاذ، لما يحققه من تكافل بين المسلمين، إذ إن المال لو سار في اتجاهه الصحيح أفاد الفرد والأسرة والمجتمع، وهذه الفائدة هي التكافل الذي يسعى الإسلام إلى تحقيقه بين الناس كما تدل على ذلك آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ.

- فقد قال الله تعالى في ترشيد إنفاق المال: ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا** ﴾ [الإسراء: ٢٩].

- وقال جل شأنه: ﴿ **وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا** ﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

- وروى البخاري بسنده عن حكيم بن حزام رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بحقه بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى».

٤ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ﴾ [النساء: ٧ - ١٠] ما يلي:

أ - أن الشريعة الإسلامية قد أعطت للمرأة حقوق كانت محرومة منها في العصور التي سبقت الإسلام في معظم الحضارات، وأن أهم هذه الحقوق هي أن ترث الوالدين والزوج والولد والأخ و... بعد أن كانت هي شخصيا تُورث كالمتاع ونحوه، وأصبح حقها في الميراث ثابتا قلَّ هذا الميراث أو كثر، وأن الله تعالى قد جعل ذلك فرضا لها لا يمنعه منها إلا ظالم مخالف لشرع الله تعالى ومنهجه.

ب - وأن هذا التوريث للمرأة تكريم لها من جانب، واعتراف بحقوقها من جانب آخر، وإرساء لقواعد الاستقرار في المجتمع من جانب ثالث، ورفع لظلم كان واقعا على المرأة من ذويها وأقرب الناس إليها من جانب رابع. تلك حقيقة من الحقائق التي جاء بها الإسلام لأول مرة في تاريخ الإنسان على هذه الأرض.

جـ - وأن هذا التوريث للمرأة تكريم لها وإعزاز وتأمين لمستقبلها يوم تفقد عائلها، إذ تجد حينئذ من المال ما تنفق منه وتستقل بذاتها بدلا من أن تدفعها الحاجة إلى مخالب الذئاب البشرية التي تجيد استغلال حاجة المحتاج، فضلا عما يتسبب فيه هذا المال الموروث من زواج آخر، إذ جرت عادة الأزواج أن يرغبوا في المرأة ذات المال، وأن يحجموا عن التزوج بمن كانت فقيرة ذات حاجة، وهذا من تأمين مستقبلها.

د - وأن نظام التوريث في الشريعة الإسلامية فضلا عما فيه من إيصال الحقوق لأصحابها، فإنه نظام لم يغفل شأن أقرباء الميت الذين لا يرثونه لسبب من الأسباب كأن يحجب من كانت قرابته ألصق بالميت من كانت قرابته أبعد، وإنما جعل لهؤلاء إذا حضروا قسمة التركة عطاء يرضيهم إذا لم يضر هذا العطاء بأصحاب الفروض وإذا سمحت التركة بذلك. وأوجب لهؤلاء القول الحسن وتطييب الخاطر، وتلك هي روح الإسلام وفلسفته في وجوب المحافظة على العلاقات الطيبة بين أبناء الأسرة الواحدة، بل بين أبناء المجتمع كله حتى يعيش الناس بغير أحقاد ولا ضغائن.

هـ - وأن هذا العدل في التوزيع، وذلك البر في التعامل مع الناس، قد أمر الله تعالى به دعمًا لحسن الروابط بين الناس، وعظة لكل من كان في يده مال لغيره تحمله على توصيله إليه وبخاصة إذا كان أصحاب المال ضعافا كالنساء والصغار واليتامى لا يستطيعون الدفاع عن أموالهم، ووجه العظة هو تذكير هؤلاء الأوصياء بأنهم قد يتركون من خلفهم ذرية ضعافا تضيع حقوقهم في يد ظالم أو طامع، وهي عظة تخوفهم من أن يقعوا في ظلم غيرهم.

و - وتخويف من أكل أموال اليتامى وتهديد لمن أكل مال غيره عموما بعذاب من الله تعالى، وذلك أن اليتيم إذا ظلم وضاع حقه، فإن الأسرة تصبح محضنا لبعض الحاقدين الذين لا يثقون في أقربائهم وأوليائهم، ومعنى ذلك أن يصبح المجتمع مسرحا لبعض المنحرفين الذين ضُيعوا، وليس هناك من تخويف أكبر من وصف الله

تعالى لآكلة مال اليتيم فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾.

● **المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة.**

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية المنطلقون بها فى الناس وفى الآفاق من هذه الآيات كثيرا من آداب الدعوة والحركة، وكثيرا من وسائلهما وأساليبهما ومن ذلك ما نشير إليه فيما يلى:

١ - يتعلمون من الآيتين الأوليين: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ① وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ١، ٢] ما يلى:

أ - أن الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم - أى أمة الإجابة وأمة الدعوة - مطالبون بتقوى الله تعالى إذا أرادوا لأنفسهم الخير فى الدنيا والآخرة.

● فالمؤمنون مطالبون بتقوى الله لأن لهم مطالب تخصهم، وينفردون بها دون غير المؤمنين؛ فهم يريدون الفلاح فى الدنيا والآخرة، وطريق ذلك هو تقوى الله ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٩][(١)].

- وإذا أرادوا أن تقوم حياتهم على التعلم والعلم فعليهم بتقوى الله: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

- وإذا أرادوا الخروج من المآزق مع الرزق الواسع فليتقوا الله ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ② وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .... ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

- وإذا أرادوا تيسير أمورهم كلها فليتقوا الله ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤].

- وإذا أرادوا أن تكفر عنهم سيئاتهم ويعظم أجرهم عند الله فعليهم بتقوى الله ﴿ وَمَن

---

(١) وجاء ربط التقوى بالفلاح فى عشر آيات غير تلك الآية هى: آل عمران: ١٣٠ و٢٠٠، والمائدة: ٢٥، ٩٠، ١٠٠، والأعراف: ٦٩، والأنفال: ٤٥، والحج: ٧٧، والنور: ٣١، والجمعة: ١٠.

يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ [الطلاق : ٥] .

– وإذا أرادوا أن تعمل عقولهم وتتدبر فى عظيم صنع الله ليجنوا من هذا التدبر صفاء العقل والروح والقلب فعليهم بتقوى الله ، ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٦] .

– وإذا أرادوا معية الله وأن يكون معهم فى كل أمورهم يوفقهم ويعينهم وينصرهم فى كل معركة ومع أى عدو ، فليتقوا الله ، ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٤] .

– وإذا أرادوا التزود بأحسن الزاد فى الدنيا ليصحبهم فى الآخرة فعليهم بالتقوى ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

– وإذا أرادوا رحمة الله ومغفرته وجنته فالطريق إلى ذلك هو تقوى الله ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الانعام : ١٥٥] ، ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ .... ﴾ [محمد : ١٥] .

● وغير المؤمنين من عامة الناس الذين لم يدخلوا فى الإيمان بحاجة إلى تقوى الله ليهتدوا إلى الله وإلى الحق وإلى الإيمان ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا .... ﴾ [النساء : ١] ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : ١] .

● هكذا ينبغى أن يفسر الدعاة إلى الله تقوى الله .

ب – وعلى الدعاة إلى الله والمتحركين بالإسلام فى الناس والآفاق أن يركزوا فى مقولاتهم وأعمالهم وجمعهم الناس وتوجيههم نحو الحق والهدى ، أن يركزوا على وحدة الإنسانية جمعاء ، تلك الوحدة التى تمثلت فى وحدة الخالق سبحانه وتعالى ، ووحدة الأصل والأسرة ، ووحدة التوجه إلى الحق وإيثاره على الباطل لما فى اتباع الحق من خير يعود عليهم فى دينهم ودنياهم ، وذلك أن الناس الذين تجمع بينهم هذه الوحدة ، ما ينبغى أن يتفرقوا أو يختلفوا ، وهم أبناء لأب واحد وأم واحدة ، وإنما عليهم أن يتحدوا ويتعاونوا على البر والتقوى .

ولو استطاعت الإنسانية أن تعتز بالانتماء إلى هذه الوحدة لحلت كثيرا من مشكلاتها وأزالت كثيرا من أسباب صراعاتها وحروبها، ولا يعزز ذلك فى الإنسانية إلا أن يدينوا بخاتم الأديان وأتمها وأكملها وأرضاها لله دينا.

إن على الدعاة إلى الله أن يعالجوا هذه القضية من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وما أكثر هذه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، فليشمر الدعاة إلى هذا المجال الذى يجنب الإنسانية كلها كثيرا من ويلاتها وصراعاتها ومشكلاتها وعجزها عن مواصلة الوئام والسلام فى كثير من الأقاليم وعلى مستوى العالم كله.

جـ - وعلى الدعاة والحركيين أن يذكروا الناس دائمًا أن العمل من أجل الإسلام وتحكيم منهجه فى الحياة يحتاج أول ما يحتاج إلى توحيد الله تعالى، ثم توحيد الكلمة على الحق، ثم توحيد الصفوف فى مواجهة أعداء الله، ثم توحيد الغاية وهى أن تكون كلمة الله هى العليا.

وكل هذه الأنواع من التوحيد لها فى نفوس الناس رصيد وافر من أنهم لخالق واحد ولرب واحد ولأب واحد، وسمات إنسانية واحدة.

فإذا اتحدوا على المنهج الإلهى فقد فازوا فى الدنيا بسعادة العيش الآمن والحياة الإنسانية الكريمة، وفازوا فى الآخرة برضا الله تعالى وجنته.

د - وعلى الدعاة إلى الله والمتحركين بالإسلام أن يعلموا الناس أن المجتمع الآمن المستقر، هو المجتمع الذى يرعى الضعفاء فيه من أيتام وصغار ونساء، فيحفظ حقوقهم ويؤديها إليهم تقربا إلى الله أولا، وسعيا لتأمين المجتمع وتنقيته من الحقد والجريمة بعد ذلك.

وعلى المجتمع أن يواجه من يأكلون أموال اليتامى ظلما ويهضمون حقوق النساء، يواجههم بالقوة والحسم الذى يحملهم حملا على إيتاء كل ذى حق حقه، ممهدين لهذه القوة بالكلمة الطيبة والقول اللين والموعظة الحسنة، فتلك هى مهمة الدعاة إلى الله والمتحركين بالإسلام فى الناس والآفاق.

هـ - وعلى الدعاة أن يوجهوا الناس إلى أن صلة الأرحام ورعايتها أصل من أصول هذا الدين العظيم، وأنَّ صلة الرحم بركة فى الرزق ومنسأة فى الأثر، وهو مما يعطف الناس بعضهم على بعض ويزيل عنهم أسباب الجفوة والتنافر. وعليهم أن يوضحوا

أن العمل من أجل الإسلام يحتاج دائمًا إلى مجموعات يحب بعضها بعضا ويتعاون بعضها مع بعض على البر والتقوى فى السلم وفى الحرب.

● وحسب الأرحام شرفا ومكانة أن تقواها عطفت فى الآية الكريمة على تقوى الله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾.

● فكيف تُتَّقَى الأرحام؟

هذا ما يجب أن يوضحه الدعاة إلى الله ويبصروا الناس به، وتقوى الأرحام تعنى أمورا عديدة من أهمها عندى ما أذكره فيما يلى:

– الإحساس بأهمية الأرحام فى ربط الناس بعضهم ببعض؛ الإخوة والأقارب والمجتمع كله، بل الإنسانية كلها.

– وأداء حقوق الأرحام مادية ومعنوية، من حفظ أموالهم والعمل على إيصالها كاملة إليهم بل إيصال كل حقوقهم إليهم من مال وبر وعطف وعناية، وهذا فى مجمله هو ما يسمى فى الإسلام بصلة الرحم.

– وصلة الرحم تعنى تقديم الخدمة والعون إليهم دون أن يطلبوا، والمبادرة إلى برهم ومودتهم، إذ ليس الواصل للرحم هو الذى يصل من وصله منهم، ولكنه الذى يصل من قطعه منهم، فقد روى البخارى وأبو داود والترمذى وأحمد بأسانيدهم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الواصل بالمكافئ ولكنَّ الواصل الذى إذا انقطعت رحمه وصلها».

وروى البيهقى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس شىء أُطيع الله تعالى فيه أعجل ثوابا من صلة الرحم، وليس شىء أعجل عقابا من البغى وقطيعة الرحم...».

– والحذر كل الحذر من قطيعة الأرحام فإنها من الكبائر التى تعجل عقاب الله كما جاء فى الحديث الشريف، ولأنها تؤدى بمن يقطعها إلى أن يقطعه الله تعالى، روى الترمذى الكبير بسنده عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: «أنا خلقت الرحم، وشققت لها اسما من اسمى، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها ومن بتَّها بتته».

و – وعلى الدعاة إلى الله والمتحركين بالإسلام فى الناس والآفاق أن يحذروا بشدة من المساس بشىء من أموال اليتامى، وذلك أن اليتيم إنسان فقد سنده الخاص وهو أبوه، فلابد له فى المجتمع المسلم من سندين:

أحدهما: مادى وهو المحافظة على ماله، أو مده بالمال إن لم يكن صاحب مال.

والآخر: معنوى برعايته وتفقد أحواله، وكفالته وتوفير العيش الكريم له.

● والمجتمع الذى يضيع فيه اليتيم مجتمع آثم متخلف حضاريا وفاسد خلقيا ومتفكك اجتماعيا، وفاقد لأبرز ما يميز المجتمع المسلم وهو رعاية الضعيف وكفالته.

٢ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا** ﴾ [النساء: ٣، ٤] ما يلى:

أ – أنَّ طمع أىّ وَصىّ على إحدى اليتيمات فى أن ينقص شيئا من حقها حرام، حتى لو كان يريد الزواج منها.

وهذا الطمع يأخذ شكل إعطائها مهرا أقل مما تستحق بحكم أنه وليها ويريد الزواج منها، هذا الوصى الطامع تعلمه الآية الكريمة أن له فى الزوجات الآخريات متسعا إذ يستطيع أن يتزوج من واحدة إلى أربع، مادام قادراً على العشرة الزوجية وعلى الإنفاق، وعلى العدل بين أكثر من زوجة، فإن تخلف أحد هذه الشروط فالزواج يكون من واحدة فقط.

ب – ويستطيع الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية أن يوضحوا للناس حكمة إباحة تعدد الزوجات – على نحو ما بينا آنفاً – ويستطيعون الرد على من يتهمون الإسلام ومنهجه فى هذا التعدد، لأنهم أقدر الناس على رد الشبهات الموجهة ضد الإسلام أو ضد أى تشريع من تشريعاته، بما آتاهم الله تعالى من علم وحكمة وبما أوتوا هم من استعداد وتأهيل.

وقد أشرنا إلى هذه المفتريات من قبل، وفَنَّدْنا أقاويلهم بما وسعنا من جهد وبما وفق الله إليه من رد.

● **ونستطيع هنا أن نقول: إن رغبة الرجل فى زوجة أخرى فى ظل ما ذكرنا من شروط الجمع**

بين زوجتين أو زوجات، خير له ولها وللمجتمع كله من العلاقات الجنسية الآثمة كالمخادنة والمسافحة ونحو ذلك من العلاقات المحرمة.

والذى يرغب فى زوجة أخرى قد يكون الباعث على ذلك لديه واحداً من الأسباب الجوهرية مثل:

- أن تكون الزوجة الأولى عقيماً.
- أو أن يكون بها عائق يحول بينها وبين علاقة الزوجية من مرض أو كبر سن أو نحو ذلك.
- أو أن تكون من النوع الذى لا يرغب فى العلاقة الزوجية لمرض نفسى أو نحوه.
- أو أن يكون الرجل له من الطاقة الجنسية ما لا تحتمله زوجة واحدة.

● وفى كل هذه الحالات التى يعدد الرجل فيها الزوجات يكون أو تكون زوجته غير موافقة على الطلاق بل تفضل أن يتزوج وأن تظل هى فى عصمته، عندئذ يكون التعدد علاجا لنوعين من الخطأ: خطأ الطلاق الذى هو أبغض الحلال إلى الله، وخطأ الوقوع فى الزنا لو منع هذا الرجل من الزواج من أخرى.

● كما أن التعدد فى ظل شريعة الله ونظامه وشروطه رخصة أباحها الله لمواجهة حاجة فطرية فى الرجل ليس من مصلحته كبتها ولا تركها على هواها. وإنما الحل فى الزواج الآخر أو التَّسَرِّى.

وقد يعيب بعض قصار النظر على الإسلام أنه أباح التسرى!!!

● والدعاة إلى الله أعرف الناس بأسباب هذه الإباحة للتسرى، وبمبرراتها؛ فالتسرى إنما يكون بأمة مسترقة يملكها من يتسرى بها ملك يمين، ومن المعروف أن الإسلام عندما جاء وجد الرق والاسترقاق ظاهرة غير ضئيلة فى المجتمع، وكان هذا الاسترقاق عن طريق الحرب، وما أكثر الحروب فى هذه المجتمعات!!!

عندئذ عالج الإسلام الرق عن طريقين:

طريق الحث على تحرير العبيد والترغيب فى ذلك وجعله قُربة إلى الله تعالى طمعا فى أن يحررهم الله من النار يوم القيامة، فجعل الإسلام القضاء على الرق هدفا حين جعل عتق العبيد كفارة عن عدد من الذنوب كالقتل الخطأ، وتعمد فطر يوم من شهر رمضان، والحنث فى اليمين، والظهار ونحو ذلك.

- والأمة التى يتسرى بها مالكها يكسبها بهذا التسرى حقوقا لم تكن لها من قبل، فهى إذا ولدت من مالكها صارت أم ولد له واكتسبت بهذه الأمومة حقين:

أحدهما: أنه لا يملك أن يبيعها، إذ كيف يبيع أم ولده؟

والآخر: أنها تصبح حرة بعد موته إذا لم يحررها فى حياته، أما ولدها فهو حر من يوم ولد.

- **وهذا التَّسَرى أفضل للأمة وللمجتمع كله.**

أما أنه أفضل لها فبالنظر إلى أنها امرأة فطرها الله على الحاجة إلى رجل لإشباع غريزتها، فلو تركت دون تحقيق هذه الرغبة عاشت مكبوتة محرومة من التعبير عن فطرتها، أو عبرت عنها بطريق غير مشروع.

وأما أن هذا التسرى **أفضل للمجتمع كله، فلأنه يحول** بين المجتمع وإشاعة الفاحشة فيه.

وليس فى التشريع الإسلامى ما يحرم الإنسان رجلا أو امرأة من التعبير عن فطرته وحاجاته الجسدية، وليس فيه ما يسمح له بأن يعبر عنها بأسلوب حرمه الله كالزنا واللواط والسحاق ونحوه، وتلك من روعة التشريع الإسلامى فى التعامل مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها.

- فالتعدد عند الحاجة إليه متلائم مع ما فطر الله عليه الرجل والمرأة من طاقة جنسية وقدرة على الإنجاب، فمن الواقع المشاهد فى الحياة الإنسانية كلها أن فترة قدرة المرأة على الحمل والولادة تنتهى عند بلوغها الخمسين من عمرها فى الغالب، بينما تستمر قدرة الرجل على الإنجاب إلى السبعين وما بعدها من سنوات عمره، وهنا نجد تزوجه بامرأة ثانية يعطيه فرصة إنجاب قد تزيد على عشرين سنة بعد بلوغ زوجته الأولى السن التى لا تحمل فيها ولا تلد، ومن المقرر بين العلماء كافة -باستثناء الراغبين فى تقليص عدد المسلمين عن طريق تحديد النسل- أن الولد أكبر ثروة فى الحياة الخاصة والعامة، وأنها أهم ما فى المجتمع من مقومات.

جـ- وليس لأحد أن يُحَرِّم تعدد الزوجات الذى أباحه الله فى ظل شروط وآداب بعينها، وإن تعلق بعضهم باستحالة العدل بين الزوجتين أو الزوجات -والعدل شرط فى التعدد- مستندين إلى قوله تعالى: ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ** ﴾ [النساء: ١٢٩]؛ لأن استنادهم إلى

هذه الآية الكريمة ليس صحيحا فيما ذهبوا إليه، لان الآية تعترف بما فى الفطرة البشرية من استحالة العدل المطلق فتطالب بعدم الميل كل الميل، أما بعض الميل أو قليله فذلك ما لا سبيل إلى مقاومته، والمطلوب العدل النسبى لا العدل المطلق، أى العدل فى الإنفاق وفى العشرة الزوجية والتعامل بالإحسان، ولنا فى رسول الله ﷺ الاسوة الحسنة فقد روى أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يَقْسِم بين نسائه فيعدل، ويقول: اللهم هذه قسمتى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك».

فليس لهؤلاء المحرمين للتعدد مستند تقوم عليه دعاواهم.

د - وعلى الدعاة إلى الله والمتحركين بالإسلام فى الناس أن لا يفتُروا عن توضيح ما كرَّم الله به المرأة من أنواع التكريم، ليواجهوا بذلك تلك الدعاوى الكاذبة التى يروجها الزاعمون أن المرأة لم تنل حقوقها فى الإسلام ولم تحظ بحريتها.

ففى هاتين الآيتين الكريمتين من حقوق المرأة التى أنشأها لها الإسلام ولم تكن لها من قبل؛ ما نشير إليه فيما يلى:

- أوجب لها حق الرعاية يتيمة فى ولاية من له الولاية عليها وحاسبه على التفريط فى هذه الرعاية.

- وأوجب المحافظة على أموالها صغيرة وكبيرة بحيث لا يستولى أحد على مالها إلا برضاها، حتى لو تعلل بمختلف العلل، كالتزوج بها مثلاً.

- وأوجب لها أن تتزوج بإرادتها ودون إكراه، وأعطاها حق رفض الزواج بمن لا ترغب فيه.

- وأوجب لها مهراً مناسباً لها ولأمثالها لا تظلم منه شيئاً إلا أن تطيب نفسها ببعضه لمن تشاء، وجعل هذا المهر منحة من الزوج لها، وليس ملكا لوليها.

أين هذا من بعض الانظمة التى تدفع فيه المرأة مالاً للرجل ليتزوج بها!!!

- وأعطاها الحق فى التصرف فى هذا المهر وفى أى مال تملكه، تصرفا مطلقا كما يتصرف كل مالك فى ملكه فلها أن تبيع وأن تشترى وأن تهب وان تتصدق.

- وأوجب لها العدل إن تزوج زوجها بغيرها العدل فى حدود الإمكان فى النفقة والمبيت وحسن المعاشرة.

● هذه الحقوق فى هاتين الآيتين وحدهما، أما سائر حقوقها فهى كثيرة، وقد تكفلت آيات سورة النساء بتوضيحها، على نحو ما سنبين فى شرحنا للآيات.

هـ - وأن تلك المعاملة التى حددتها هاتان الآيتان، إنما هى لصالح الفرد والأسرة والمجتمع كله؛ فهذه التشريعات العديدة، مثل:

- رفع الظلم عن المرأة بإعطائها كل هذه الحقوق.

- وإباحة التعدد للزوج إن دعت إلى ذلك حاجة.

- وإباحة التسرى، وما يضمنه لأم الولد من حقوق.

- وجواز قبول الزوج مال زوجته إذا طابت به نفسها.

كل ذلك إنما شرَّعه الله اتقاءً للجور على المرأة والمجتمع، وإقراراً للعدل بين أفراد المجتمع جميعاً.

٣ - ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا** ﴾ [النساء: ٥، ٦] ما يلى:

أ - أن الحرص على المال وعدم تمكين السفهاء منه مطلب شرعى عام فى كل مال، سواء أكان ليتيم أم لغيره، وذلك أن المال على وجه الحقيقة حق للناس جميعاً إذ جعله الله قواما للحياة وداوله بين الناس، فلا يجوز إهداره أو تمكين السفهاء منه لينفقوه فى غير وجهه، ولذلك نسب المال فى الآية الكريمة إلى الولى وإلى كل متصرف فيه «أموالكم التى جعل الله لكم قياما» وإنفاق هذا المال فى وجوهه هو الذى يحقق للمجتمع التكافل، ولا يسوغ بحال أن يبدده السفهاء.

ب - وأن هؤلاء السفهاء وإن حرموا -مؤقتا- من التصرف فى أموالهم حتى تزول عنهم أعراض السَّفه، فإن لهم حقا على المجتمع من طعام وشراب وكسوة ومسكن وسائر مرافق الحياة الإنسانية، بل لهم حق الكلمة الطيبة والقول بالمعروف، لأن سفههم هذا لا يسقط عنهم حقوقهم الإنسانية، ولا صفتهم الاجتماعية، فهم من الإسلام

موضع رعاية واهتمام يحتاجون كالمرضى إلى العلاج.

جـ - ومن رحمة التشريع الإسلامى بالإنسان أن يحافظ له على كل مقومات إنسانيته، وعلى حقه فى حياة إنسانية كريمة مهما كان سفيها يحرم من التصرف فى المال، أو صغيراً يناط التصرف فى ماله بأحد أوليائه -بشرط الإحسان فى التصرف- أو مريضا أو غائبا، كل إنسان يجب أن يحيا حياة إنسانية كريمة، هذا هو الأصل، ولكن عندما يجرم يعاقب بجريمته حماية له وللمجتمع كله، ولا يعفى من هذه العقوبة إلا صاحب عذر شرعى، وبتلك العقوبات يرتدع المجرم ويأمن المجتمع كله.

د - وأن العلاقة بين أولياء اليتامى الذين يتصرفون فى أموال اليتامى، وبين اليتامى أنفسهم علاقة مرسومة الأبعاد محدَّدة المعالم، لها أسس واضحة.

● وهذه الأسس -كما جاءت فى آية: «وابتلوا اليتامى...» هى:

- أن مال اليتيم لابد أن يصل إليه كاملاً.

- وأن الولى ليس له أن ينفق من مال اليتيم إلا فى حدود عدم الإسراف من جانب. وعدم الطمع فيه من جانب آخر.

- وأن الولى مطالب بأن يتأكد من أهلية اليتيم عند تسلم أمواله بأن يبلغ مبلغ الرجال أو النساء وأن يعرف عنه الرشد فى التصرف.

- وأن ولى اليتيم ليس له أن يأكل من ماله شيئا إلا إذا كان الولى فقيرا. وعندئذ يأكل من مال اليتيم بالمعروف مع تقوى الله.

- وأن يشهد الولى على اليتيم عند تسليمه ماله لتبرئة الذمة ودفع الشبهات، وإن كان الله تعالى هو الرقيب الحسيب.

هـ - وأن هذه الأسس التى تقوم عليها العلاقة بين ولى اليتيم واليتيم من الناحية المالية هى التى تضمن للمجتمع تبادل الحقوق والواجبات، وتحمى تطبيق العدل والإحسان، وتخرج التكافل الاجتماعى إلى حيز الوجود، وكل ذلك يضمن أن لا يضيع فى المجتمع أحد، ولا يظلم أحد، لأنه مع هذا التشريع لا يضيع حق ضعيف أو يتيم أو امرأة.

٤ - ويتعلم رجال الدعوة والحركة من قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً ﴿٧﴾ وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴿٨﴾ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴿٩﴾ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ [النساء: ٧-١٠] ما يلى:

أ - أن للمرأة حقا فى الميراث أنشأه الإسلام بعد أن لم يكن، على نحو من العدالة يؤمن لها حاضرها ومستقبلها وينشئ لها ذمة مالية كانت محرومة منها دهوراً طويلة، فهى صاحبة حق فيما ترك والداها والأقربون إليها، مهما كان هذا المتروك قليلاً.

وذلك أن القاعدة فى الإرث فى الإسلام أن يرث المتوفَّى أقرب الناس إليه ثم الذين يلونهم وهكذا، كل منهم حسب نصيبه التى أوضحته الآيات الكريمة الآتية فيما بعد، وتلك القاعدة فى الإرث تستهدف تحقيق التكافل بين أفراد الأسرة الواحدة أولاً، ثم تمتد إلى غيرها من الأسر القريبة كالعمومة والخئولة، ثم تمتد فتشمل المجتمع كله.

والأساس المنطقى الذى تقوم عليه قاعدة الميراث هو: أن من ورث ميراثا أكبر ممن سواه كان عليه من الأعباء بالنسبة للأسرة أكثر ممن ورث ميراثا أقل، وبهذا يفهم، لماذا يرث الذكر مثل حظ الأنثيين.

والقرابة فى الإسلام لها مكانتها الرفيعة وقدرها العالى فبسببها تكون نفقة القريب على القريب واجبة، وبسببها يكون التضامن معه فى الديات والعقول وأروش الجنايات ونحوها، فإذا كان القريب يرث قريبه، فأولى به أن يعوله عند الحاجة، وأن يعقل عنه إذا جنى، وينصره ظالما فيرده عن الظلم، وينصره مظلوما فيأخذ له حقه.

ب - وأن القاعدة الذهبية التى حرصت عليها شريعة الإسلام هى تبادل الحقوق والواجبات من أجل بناء مجتمع مسلم سليم من العيوب خالٍ من جحود القريب لقريبه، مجتمع متضامن متكافل لا يضيع فيه الضعيف.

إنه نظام يولد بين أفراد الأسرة مشاعر التراحم والتعاطف والود، وهذه مشاعر إنسانية فطرية لاشك أن الحاجة إليها ماسة فى كل حين.

ولاشك أن نظام التوريث الذى سوف نفصله فيما بعد، من أهم ما يقوى هذا التكافل

بين أفراد الأسرة الواحدة فالمجتمع كله كما أوضحنا آنفا .

جـ - وأن مما يعد من التكافل أن توسع دائرة العطاء من تركة الميت لتشمل بعض الأقرباء الذين ليس لهم حق فى الميراث تطييبا لخواطرهم ومراعاة لحق قراباتهم، لتصبح مظلة التكافل شاملة لأكبر عدد من أقرباء المتوفَّى .

وهذا الإعطاء فرض أو مندوب إليه كما يرى ذلك بعض العلماء، غير أن الأقرب إلى روح التشريع الإسلامى فى توسيع دائرة التكافل أن هذه الآية ليست منسوخة كما يدعى ذلك بعض المفسرين، وإنما هى محكمة مستمرة الحكم إلى يوم الدين لما تنطوى عليه من نظرة إنسانية راحمة لكل من يمت إلى الميت بقرابة .

- وأن القول المعروف مطلوب عند العطاء وعند العجز عن العطاء، بل القول المعروف مطلب قرآنى فى أحوال كثيرة مثل :

- التعريض بخطبة المتوفى عنها زوجها دون التصريح، فهذا من القول المعروف .
- ورزق اليتامى وكسوتهم قبل أن يحسنوا التصرف فى أموالهم مع القول المعروف .
- ورزق الأقربين غير الوارثين، مع قول معروف مصاحب لهذا العطاء .
- والقول المعروف الذى يجب أن يوجه للوالدين إن هما حاولا حمل ولدهما على الشرك بالله، مع وجوب المعاملة الحسنة لهما .

إلى غير ذلك من المواقف التى يحسن فيها القول المعروف وهى معظم مواقف الحياة . كما يرى ذلك الإسلام .

د - وأن من تحدثه نفسه بأن يأخذ شيئاً من أموال اليتامى والضعفاء، يجب أن يتصور أنه لو ترك من بعده أبناء من صلبه سوف يعتدى على أموالهم ولا يلقون من الرعاية ما يستحقون، وهذا التصور يخيف ويفزع .

والله تعالى يحذر من تحدثه نفسه بذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ . [النساء : ٩]

ويفهم من الآية الكريمة حَثُّ الناس جميعا على أن يحموا الحق من الظلم، وأن يأخذوا على أيدى الأولياء والأوصياء على اليتامى والضعفاء، حراسة لأموالهم، ومحافظة على حقوقهم، وتأمينا للمجتمع من ظلم هؤلاء والأوصياء الطامعين فى أكل أموال اليتامى ظلما،

فهؤلاء يفسدون العلاقات بين الناس فى المجتمع.

وأن كل مسلم مطالب بتقوى الله تعالى فى أموال الناس عموما يتامى أو غير يتامى، رجالاً أو نساء، مساكين أو أهل يسار، فتقوى الله فى أموال الناس مطلب فى كل حال.

هـ - ويستطيع الدعاة إلى الله أن يخوفوا وينفروا كل طامع فى أكل مال اليتيم ظلما بما هدد الله تعالى به وخوف منه وهو نوعان من العقاب:

أحدهما: دنيَوِىّ وهو أنه بهذا إنما يأكل فى بطنه نارا، وكيف يهنأ من يأكل فى بطنه ناراً؟ بل كيف ينجو من هذا العذاب؟ بل كيف يصبر على آلامه؟

والآخر: عذاب أخروى وهو أشد وأنكى، وأبقى، وهو عذاب السعير أى النار المستعرة، ومن يقوى على تحمل ذلك؟

● إن الدعاة إلى الله يجدون فى هذا التصوير القرآنى ما يستطيعون به أن يخوفوا من أكل مال اليتيم.

٢ - الآيات الكريمة من الآية الحادية عشرة إلى الآية الرابعة عشرة

نظام الإرث فى الإسلام

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

- تتحدث هذه الآيات الكريمة عن نظام التوريث الذى جاء به الإسلام شاملاً متكاملاً، متجاوبا مع الفطرة الإنسانية داعما لوحدة الأسرة مقويا لأسباب القرابة، ملائما لطبيعة الأعباء الملقاة على الورثة، محققا للعدالة فى توزيع الثروة على أكبر عدد من الأفراد متضمنا لعديد من المزايا الاقتصادية والاجتماعية على مستوى الأسرة وعلى مستوى المجتمع كله، ولا عجب فهو وضع عليم حكيم حليم.

وهذا النظام الذى أوحاه الله تعالى إلى خاتم رسله محمد ﷺ ليس فيه محاباة لكبير على حساب صغير، ولا لرجل على حساب امرأة، ولا لأحد على حساب آخر، ولذلك كان الأخذ به والالتزام بحدوده من صميم الإيمان، وهو فى الوقت نفسه الذى يحقق صالح الفرد والمجتمع فى الحاضر والمستقبل.

● **تفصيل وشرح لهذه الآيات الكريمة :**

● الآية الاولى من هذه الآيات : ﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء : ١١] وهى خاصة بالورثة من الاصول آباء وأجداد، ومن الفروع أبناء وأحفاد، على نحو ما سنفصل بإذن الله تعالى .

● والآية الثانية من هذه الآيات : ﴿ **وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ** ﴾ [النساء : ١٢] وهى خاصة بالزوجية وما يترتب عليها من ميراث وببعض حالات الكلالة[١] .

● وهاتان الآيتان الكريمتان ركن من أركان الدين، وهما من أمهات الآيات الكريمة الجامعة، فقد اشتملتا على علم الفرائض، وهو ثلث العلم أو نصفه؛ كما روى الدارقطنى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تعلموا القرآن وعلموه الناس، وتعلموا الفرائض وعلموها الناس، وتعلموا العلم وعلموه الناس، فإنى امرؤ مقبوض، وإن العلم سيقبض، وتظهر الفتن حتى يختلف الاثنان فى الفريضة لا يجدان من يفصل بينهما » .

وروى الدارقطنى بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « العلم ثلاثة؛ وما سوى ذلك فهو فضل : آية مُحْكَمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة » .

---

(١) الكلالة هو مَنْ يموت وليس له والد أو ولد يرثه، وحينئذ يرثه أقرباؤه، وفق نظام معين اشتملت عليه هذه الآية والآية الأخيرة من السورة الكريمة ذات الرقم : ١٧٦ .

● وفى سبب نزول آيات المواريث : روى البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما أن نزول ذلك كان من أجل أن المال كان للولد، والوصية للوالدين، فنسخ ذلك بهذه الآيات، وأخرجا فى الصحيحين بسنديهما عن جابر رضى الله عنه قال: عادنى رسول الله ﷺ وأبو بكر فى بنى سلمة يمشيان، فوجدانى لا أعقل، فدعا بماء فتوضأ، ثم رَشَّ علىَّ منه فأفقتُ؛ فقلت: كيف أصنع يا رسول الله فى مالى؟ فنزلت: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ.... ﴾ [النساء: ١١] .

● ونحاول فى هذه الصفحات أن نترتب الحديث فى الإرث على نحو يجمع أطرافه، فنتحدث عن: أسباب الإرث، وعن موانعه، وعن الحقوق التى تخرج من التركة قبل تقسيمها على مستحقيها سائلين الله تعالى التوفيق:

أولاً : أسباب الإرث

وهى : - الزواج الصحيح، ولا يشترط الدخول بالزوجة.

- والنَّسَب الحقيقى : وهو كل صلة سببها الولادة، كصلة الابن أو البنت بأبيها وصلة الأخ بأخيه أو أخته والعمة بابن أخيها أو بنته، ويطلق على هذا النسب: الأرحام.

- والنَّسَب الحكمى -ويسمى الولاء-: وهو كل صلة بمن كان عبدا بمن كان سيده ثم أعتقه.

- وجعل بعض العلماء الإسلام واعتبروه سببا للإرث ومثلوا لذلك ببيت المال.

ثانياً : موانع الإرث:

وهى كما جاء فى السنة النبوية وأجمعت عليه الأمة:

- ميراث النبى ﷺ، فليس لورثته حق فيه، وإنما هو كله صدقة على المسلمين وينفق فى صالحهم.

- والقاتل عن عمد فهو لا يرث المقتول إن كان صاحب حق فى إرثه، فهو لا يرث مالا، ولا دية لأنه قتل مورثه.

- والقاتل خطأ لا يرث من دية المقتول شيئًا ولكن يرث فى ماله.

- واختلاف الدين فلا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم.

- والرِّق، فلا يرث عبد سيده.

ثالثاً: الحقوق التى تُخرج من التركة قبل تقسيمها على مستحقيها:

- ما يكفى لتكفين المورث وتجهيزه، وتكفين من تجب عليه نفقته أثناء حياته لو مات قبل توزيع التركة.

- وما تُقْضَى به ديونه كلها.

- وتنفيذ الوصية التى أوصى بها الميت بشرطين: ألا تكون فى أكثر من الثلث، وألا تكون لوارث.

● وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة الفرائض كلها فى الميراث، وهى فرائض أقر الرسول ﷺ بإلحاقها بأهلها، وهذه الفرائض هى:

النِّصف، والربع، والثمن، والثلثان، والثلث، والسدس.

● **فالنصف فرض لخمسة من الورثة:**

- ابنة الصلب عندما تكون الوارثة الوحيدة ولم يحجبها وارث آخر.

- وابنة الابن، إذا انفردت ولم يحجبها وارث آخر.

- والأخت الشقيقة، إذا انفردت ولم يحجبها وارث آخر.

- والأخت لأب، إذا انفردت ولم تحجب.

- والزوج إذا انفرد ولم يحجبه حاجب، فقد ينزل نصيبه وهى النصف إلى الربع إن كان لزوجته ولد.

● **والربع فرض لصنفين:**

- الزوج مع من حجبه عن النصف إلى الربع وهو ولد زوجته.

- والزوجة أو الزوجات، مع عدم وجود الحاجب.

● **والثمن فرض لصنف واحد هو:**

الزوجة عند وجود الحاجب أى ولد المتوفى ذكراً كان هذا الولد أو أنثى.

● **والثلثان، وهو فرض لأربعة أصناف من الورثة:**

- **لاثنتين فأكثر من بنات الصلب مع عدم الحاجب.**

- **ولاثنتين فأكثر من بنات الابن إذا لم يحجبن.**

- **وللأختين فأكثر إذا كن شقيقات للمتوفى، إذا لم يحجبن.**

- **وللأختين فأكثر إذا كن أخوات لأب، ولم يحجبن.**

● **والثلث فرض لصنفين:**

- الأم مع عدم الولد أو ولد الابن، وعند عدم الاثنتين فصاعدا من الإخوة والأخوات.

- وللاثنين فصاعدا من ولد الأم.

وهذا هو ثلث كل المال.

أما ثلث الباقي من التركة فذلك للأم عندما يموت المتوفى ويترك زوجا أو زوجة وأبوين، فللزوج النصف، وللأم ثلث ما بقى، وللأب ثُلُثا ما بقى.

وكذلك الشأن في ثلث ما بقى من التركة في مسألة: الجدّ مع الإخوة إذا كان معهم ذو سهم، وكان ثلث ما يبقى أحْظى له.

● **والسدس فرض لسبعة أصناف:**

- الأبوان.

- والجد مع ولد الابن.

- وولد الابن.

- والجدة أو الجدات إذا اجتمعن.

- وبنت الابن أو بنات الابن مع بنت الصلب.

- والأخوات للأب مع الأخت الشقيقة.

- والواحد من ولد الأم ذكرا كان أم أنثى.

وكل هذه الفروض مأخوذة من كتاب الله تعالى، ما عدا فرض الجدة والجدات فإنه مأخوذ من السنة النبوية(١).

---

(١) ذكر هذا التحديد القرطبي في تفسيره، وهو تجميع جيد لأصحاب هذه الأنصبة، وضبط دقيق لها ولأصحابها، ويكاد يكفي في التوريث.

● ولنشرع في تفصيل الآية الأولى وتفسيرها، قال الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ....﴾.

﴿يُوصِيكُمُ﴾ أي يأمركم، لأن الوصية هي الأمر بما فيه نفع المأمور. والوصية دليل على اهتمام الآمر بالمأمور.

﴿فِي أَوْلادِكُمْ﴾ أي في إرث أولادكم؛ صغاراً كانوا أو كباراً، ذكوراً أو إناثا، أو أجنَّة أو غائبين، لأن كل أولئك يتناولهم لفظ ﴿أَوْلادِكُمْ﴾.

﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ....﴾ أي ضعفه، وهذا تأكيد لقضية أن الميراث لم يعد من حق الذكر وحده -كما كان الحال من قبل- وإنما أصبحت الأنثى شريكة له، وقد كانت محرومة من قبل من هذا الميراث.

﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾.

أي أن البنات يرثن من آبائهن على النحو التالي:

- البنت الواحدة ترث النصف إذا انفردت ولم تحجب.

- والبنتان فأكثر، لهما الثلثان، إذا انفردن ولم يُحجَبْن.

﴿وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ﴾.

- الأب والأم إن كان للميت ولد يرث كل واحد منهما السدس.

- والأب والأم إذا لم يكن للميت ولد؛ ترث الأم الثلث والأب الثلثين الباقيين، وقد سكتت الآية عن بيان ذلك لأنه معروف.

- والأم وحدها لها السدس إن كان للميت إخوة أو أخوات اثنان فصاعدا، إذ يحجبون نصيبها من الثلث إلى السدس، وللإخوة بقية المال إن لم يكن للميت أبٌ، فإن كان له أبٌ حجب الإخوة، وأخذ الباقي في رأي.

وفي رأي آخر يأخذ الإخوة السدس الذي حجبوا عنه الأم. فتأخذ الأم السدس، والإخوة السدس، والباقي للأب وهو الثلثان.

﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ أي لا تقسم التركة إلا بعد سداد الدين وتنفيذ الوصية

-كما أوضحنا ذلك آنفا-.

﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى أن الذين ورثوا فى هذه الآية هم الآباء والأبناء، وهم أصحاب الصلة الموجبة للميراث، فهم أحق بمال مورثهم -بغض النظر عما كان شائعا فى المجتمع الجاهلى قبل الإسلام-.

● وقد فرض الله هذا النظام فى التوريث وهو فى صالح الناس، ولو كانت عقولهم لا تدرك هذه المصلحة، فإن الله تعالى أقر ذلك النظام بعلمه وبحكمته، وفرضه عليهم لما فيه من صالحهم وصالح آبائهم وأبنائهم، إنه عليم حكيم سبحانه وتعالى. ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

● تلك فريضة الميراث التى سببها عقد النكاح أو العصمة، ولم يكن الأزواج يتوارثون فى الجاهلية، فكان الزوج يحرم من ميراث زوجته إذا لم يكن لها ولد منه، وعندئذ يئول ميراثها إلى أقربائها من آباء وإخوة أو أعمام.

وإن كان لها أولاد من زوجها ورثها أولادها فقط، وحرم زوجها، هذا إذا كان أولادها كباراً، فإن كانوا صغاراً ورثها أقرباؤها دون زوجها وأولادها الصغار.

● وأما الزوجة فلم تكن ترث من زوجها شيئاً سواء أكان لها ولد منه أو لم يكن لها، بل هى نفسها موروثة.

فجاء الإسلام فقرر حق الميراث بالزوجية، فجعل للرجل نصف ما تركته زوجته إن لم يكن لها ولد، فإن كان لها ولد فله الربع، سواء أكان ولدها منه أو من زوج سابق.

وكل ذلك بعد إخراج قيمة الدين من التركة وبعد تنفيذ الوصية -على نحو ما بينا.

﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ...﴾.

هذا هو حق الزوجة فى تركة زوجها كما قررها الإسلام، لها ربع تركته إن لم يكن له ولد ولها الثمن إن كان له ولد، سواء أكان ولد هذا منها أو من سواها.

● وهذا الفرض للزوجة ربعا أو ثمنا -على نحو ما أوضحنا- لها ولغيرها من زوجات زوجها يقسمنه فيما بينهن، بحيث لا يزيد نصيب جميع الزوجات عنه بعد إخراج الدين وتنفيذ الوصية.

﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ .

● الكلالة من الرجال والنساء من مات وليس له ولد أو والد .

● وهذا المتوفى (الكلالة) يورث على النحو التالى :

– إخوته لأمه واحد أو أكثر: للاثنين منها لكل واحد السدس، وللثلاثة وما فوق المشاركة فى الثلث .

● ولم يكن الإخوة لأم يورثون إطلاقا قبل الإسلام، مثل سائر القرابات التى سببها الأم –كما أوضحنا ذلك من قبل– كل ذلك بعد تسديد الدين وتنفيذ الوصية .

– وبقية تركة الكلالة تذهب للإخوة الأشقاء وللأعمام أو بنى الأعمام كل حسب نصيبه .

﴿ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾

غير مضار أى أن الميت لا يجوز له أن يوصى وصية تضر بورثته لأى سبب من الأسباب، ومضارته لورثته تكون بأحد عمين :

– أن يوصى بأكثر من الثلث، وعندئذ لا تنفذ وصيته إلا فى حدود الثلث فحسب .

– أو أن يوصى فى حدود الثلث ولكن بقصد الإضرار ببعض الورثة، وبعض العلماء يرون إبطال هذه الوصية، وبعضهم يرى أن تنفذ فى الثلث ويرفع الضرر عن المضار .

● وقد سكتت الآيات عن ميراث ذوى الأرحام، وميراث الموالى والأحلاف، لأن آيات أخرى سوف تبينها فى هذه السورة الكريمة وفى غيرها من السور .

● وكل ما سكت عنه القرآن الكريم من أصحاب الحق فى الميراث، بينته السنة النبوية، كتوريث العصبة بما رواه أصحاب الصحيح بأسانيدهم عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: « ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فهو لأَوْلى رجل ذكر » .

وما رواه الخمسة غير النسائى بأسانيدهم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن مات وترك مالاً، فماله لموالى العصبة، ومن ترك كَلاًّ أو ضياعا فأنا وَليُّه » .

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

«حدود الله» هى الأعمال التى لا يحل لمسلم أن يخالفها .

﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ . . .** ﴾ أى أن ذلك هو جزاء من يتابع حدود الله ويلتزم بها .

﴿ **وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا . . .** ﴾ أى أن ذلك جــزاء معصية الله ورسوله، والتعدى على حدوده بتعطيلها، أو عدم الالتزام بها .

● والمعنى العام الذى تستهدفه هذه الآيات الكريمة الأربعة هو : توضيح نظام التوريث الذى جاء به الإسلام، وتحديد نصيب كل وارث، وإدخال المرأة -لأول مرة بين الوارثين والمورِّثين وجعلها صاحبة ذمة مالية كالرجل- وبيان أسباب الميراث ونظام حجب بعض الورثة لبعض، مع تأكيد أن هذا النظام هو من حدود الله تعالى التى لا يجوز تعديها، بل الواجب الالتزام بها، لأنها أمر الله، ولأن فيها ما يحقق مصالح الناس فى دنياهم بإقرار العدل ورفع الظلم، وفى أخراهم برضا الله تعالى عنهم لما قدموا من طاعة له والتزام بحدوده .

وفى الآيات الكريمة تهديد ووعيد لمن يتعدى هذه الحدود فيعطلها إن كانت له سلطة تنفيذها أو تعطيلها. أو لا يلتزم بها فى حياته وممارساته، تهديد ووعيد بالعذاب الذى يلحق الإهانة بمن يوقع عليه ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ وحسب ذلك المتعدى هذا العذاب المصحوب بالإهانة فى يوم لا ينقضى وإنما هو دائم سرمدى!!!

● **المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة :**

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة أن منهج الإسلام ونظامه فى الحياة يحقق للمتمسكين به سعادة الدنيا والآخرة، وأن مخالفة هذا المنهج أو تعطيل جزء منه فيه خسارة الدنيا والآخرة، فالقرآن الكريم منهج حياة المسلمين والسنة النبوية المفصلة له، قد تناول الحديث عن كل ما له صلة بحياة الناس، ونظم ذلك أدق تنظيم وأوفاه، كما سنبين ذلك فيما يلى :

١ – يتعلم المسلمون من هاتين الآيتين الكريمتين ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ﴾ إلى ﴿اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ما يلى:

أ – أن كل خير وكل مصلحة للإنسان فى معاشة ومعادة، إنما هى فى الحقيقة نصيحة موجهة إليه من خالقه سبحانه وتعالى أو أمْرٌ أمره الله به أو نهيٌ نهاه عنه، وحينما تتعلق الوصية بالأولاد وهم ألصق بآبائهم وأحب إليهم، فإن الله تعالى لا يدع حقوق الأولاد فى ميراث آبائهم متروكة للهوى وللقيم الجائرة –حيث كانوا يورثون الولد الاكبر دون الصغير ويحرمون البنت حرمانا مطلقا– وإنما يضع لهم تشريعا عادلاً يحقق مصالحهم فى حاضرهم ومستقبلهم، فينادى عليهم بقوله: «يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين....» الآية.

ب – وأن للولد نصيبا فى ميراث أبيه يعدل نصيب بنتين، وليس هذا محاباة للولد لأن الولد أكثر من البنت فى تحمل أعباء الحياة والاسرة فهو مطالب بتكوين بيت مسلم وهذا له تكاليفه، أما البنت فليست مطالبة بذلك وإنما يطالب به زوجها، والولد يعول أخته أو أخواته إن كن فى حاجة إلى معونة.

وتلك عدالة ليس فيها محاباة لأحد، ولاجور على أحد، لأن القاعدة العامة فى الحصول على المال والإنفاق على من هم أهل لأن ينفق عليهم هى: «أن الغُنم بالغُرم» أى أن الذى يعود عليه الغنم من شيء يتحمل ما فيه من غُرم.

جـ – ومن تمام العدالة التى أوجبها الله تعالى حق الوالدين فى ميراث أبنائهم، لو توفوا قبل والديهم، ولذلك الإرث نظام دقيق خلاصته:

– أن الولد أو البنت إذا توفيا ولم يكن لهما أبناء، فإن مالهما كله يذهب إلى الوالدين للأم الثلث وللأب الثلثان.

– أما إن توفى أحد الأبناء وله ولد أو بنت أو أكثر، فإن لأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك.

– ومن توفى من الأبناء وله أخوة –وقد مات أبوه– فلأمه السدس، والباقى للإخوة؛ للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن كان الأب حيًّا حجب الإخوة.

وهذا العدل لم يكن معروفا قبل الإسلام، وإنما كانت تحرك ذلك كله الأهواء والقيم الجائرة.

د - ومن تمام العدل أن يكون لكل واحد من الزوجين حق فى ميراث الآخر، وما كان ذلك معمولا به قبل الإسلام، فقد كانت المرأة لا ترث من زوجها شيئًا، وكان زوجها لا يرث منها وإنما يذهب المال إلى أقربائها -على نحو ما بينا آنفا- فأصبح النظام الإسلامى يورث الزوج نصف ما تركته زوجته إن لم يكن لها ولد، فإن كان لها ولد فله الربع فقط.

وأصبح للزوجة ربع ما تركه زوجها إن لم يكن له ولد، فإن كان له ولد فلها الثمن -على نحو ما أوضحنا آنفا- سواء أكان الولد من الزوجية أم من زوجية سابقة.

هـ - وكذلك ترث الأخت من أخيها الذى ليس له ولد ولا والد، ولم يكن لها هذا الحق من قبل، فهى امرأة وهى محرومة من الميراث بهذا الوصف، فانصفت الأخت كما أنصفت البنت وكما أُنصفت الزوجة والأم والجدة، وكل امرأة لها حق فى مال مورثها، وهذا التشريع الذى يحفظ الحقوق ويؤمن الحاضر والمستقبل.

٢ - ويتعلم المسلمون من الآيتين الأخيرتين من هذه الآيات الأربع الكريمة، من قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ...وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ما يلى:

أ - أن شرع الله ونظامه ومنهجه واجب التنفيذ والالتزام، وأن المؤمن مطالب بطاعة الله تعالى فيما أمره به وفيما نهاه عنه، وأن الله تعالى يجزى على هذه الطاعة خير الجزاء، وذلك بجنات تجرى من تحتها الأنهار مع خلود فيها إلى أبد الآبدين.

ب - وأن طاعة رسول الله ﷺ فيما بلَّغَ عن ربه سبحانه وتعالى من طاعة الله تعالى، فهى واجبة يثاب على فعلها، كما دلت على ذلك هذه الآية الكريمة ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... ﴾ الآية، ولقوله تعالى فى سورة أخرى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر: ٧].

جـ - وأن معصية الله تعالى، وتعدى حدوده أو تعطيلها، يعرض العاصى لعقاب الله، فيدخله ناراً خالداً فيها ومع الخلود يكون عذابه مهينا له ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

د - وأن معصية رسول الله ﷺ كمعصية الله سبحانه وتعالى يستحق صاحبها عقاب الله تعالى بدليل هذه الآية الكريمة، ولقوله تعالى عن الرسول ﷺ: ﴿ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ

فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] . ولقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٦، ٢١٧] .

● **المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة، فى هذه الآيات الأربع الكريمة، وهى كثيرة يتزود منها الدعاة إلى الله، والمتحركون بالإسلام فى الناس والآفاق، بحيث يكون لهم خير زاد ويوضح لهم معالم طريقهم، ومن ذلك:**

١ - يتعلمون من الآيتين الكريمتين: **«يوصيكم الله فى أولادكم ....» إلى قوله تعالى: «... والله عليم حليم»** ما يلى:

أ - أن يبصروا الناس مسلمين وغير مسلمين بأن نظام التوريث فى الإسلام جاء خاليا من كل عيوب الأنظمة السابقة، وبخاصة أن تلك الأنظمة لم تكن عادلة ولم تكن تحكمها قيم صحيحة، سواء فى توريث الولد الأكبر وحرمان البنت والولد الصغير، أو فى حرمان البنت والأخت والأم والزوجة من أى ميراث.

أما نظام الإسلام فقد أنشأ للمرأة ولليتيم وللضعيف حقوقا فى الميراث والتعامل وألزم بها المؤمنين وهذا دليل على أنه من عند العليم الحكيم.

ب - وأن يبصروا الناس بأن نظام التوريث فى الإسلام رَاعَى الأصل فى تكوين الأسرة الإنسانية كلها، وهذا الأصل هو أن الإنسانية كلها من نفس واحدة، وبالتالى فلا مبرر لأن يظلم الأخ أخاه أو أخته، ولا مبرر لأن يظلم الرجل المرأة، لأنهما معا قوام الحياة، وكل منهما لا يصلح دون الآخر، ولم يميز كبيرا على صغير ولا مقاتلا على من لا يستطيع حمل السلاح ولا رجلا على امرأة، وتلك هى عدالة العليم الحكيم. فإذا بصر الناس بذلك المنهج ازدادوا به تمسكا.

جـ - وأن على الدعاة إلى الله أن ينادوا بأعلى صوت بأن الإسلام قد أنصف المرأة فى كل أوضاعها؛ بنتا وأختا وبنت ابن، وزوجة وأمًّا وجدة، وأعطاها من الحقوق ما كانت محرومة منه فى ظل نظم وحضارات وأديان كثيرة، وما على الدعاة إلى الله إلا أن يقدموا للمعترضين نظام التوريث ليلجم باطلهم ويزهقه ويفند افتراءاتهم ويقضى عليها، فكيف يسوغ لمبطل مضلل أن يرى هذا النظام فى توريث المرأة ثم يقول: **إن الإسلام حرم المرأة من حقوقها، وحد من حريتها!!! كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا.**

د - وان نظام الإسلام فى التوريث يحقق فوائد جليلة للفرد وللاسرة وللمجتمع فى حاضره ومستقبله المنظور ومستقبله البعيد غير المنظور، ومن ذلك ما نشير إلى بعضه فيما يلى :

أولا : مراعاة الفطرة الإنسانية التى فطر الله الناس عليها من حب الأبناء والتعلق بهم بوصفهم امتدادا للإنسان فى الحياة، وأنهم قطع منه يراها تمشى على الارض، فجعل لهم فى الميراث نصيبا أكبر من سواهم من الاقارب فهم أولى بمال أبيهم، وفى الوقت نفسه لم يحرم الأصول وهم الوالدان، ولم يحرم القرابات القريبة بسبب النسب أو الزواج.

وآية عدله أنه لم يحرم المرأة لانها امرأة كما كان الناس يفعلون من قبل.

ثانيا : إيقاظ حب العمل وحب الكسب فى الإنسان وتأكيد حبه لتأمين أبنائه من بعده، بأن يتركهم أغنياء خير له ولهم من أن يتركهم عالة يتكففون الناس، فقد روى مسلم بسنده عن سعد بن خولة رضى الله عنه قال: عادنى رسول الله ﷺ -فى حجة الوداع- من وجع أشفيت على الموت، فقلت : يا رسول الله، بلغنى ما ترى من الوجع وأنا ذو مال، ولا يرثنى إلا ابنة لى واحدة، أفأتصدق بثلثى مالى؟.

قال : لا .

قلت : أفأتصدق بشطره؟

قال : لا، الثلث، والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس . . . » .

ثالثاً : أنه نظام لا يحبس المال فى يد وارث واحد كالابن الكبير مثلا، وإنما يفرقه بين الورثة بعدالة فيصبح مال عدد غير قليل من الناس بعد أن كان فى يد واحدة هى يد المورث .

وفى هذا التفريق والتوزيع تداول هو بكل تأكيد فى صالح الفرد والأسرة والمجتمع كله -كما تقول بذلك نظريات اقتصادية معروفة- وبهذا سبق الإسلام هذه النظريات جميعا، وعلم الإنسانية منذ جاء كيف يكون تداول المال بين الناس؟

هذا ما يستطيع الدعاة إلى الله أن يواجهوا به كل من أراد أن ينتقص من نظام الإسلام ومنهجه فى الحياة، ما عليهم إلا التدبر فى هذا النظام وهم أهل علم وفكر وحكمة وممارستهم للدعوة والحركة بالإسلام تعلمهم كل يوم جديدا مفيدا مرضيا لله تعالى .

هـ - وعلى الدعاة إلى الله أن يؤكدوا للناس أن طاعة الله ورسوله تحمل الخير لهم فى الدنيا بإقرار العدل والمرحمة ومقاومة الجور والإجحاف، والبعد عن الوقوع فى ظلم الضعيفين اليتيم والمرأة، وفى هذا سيادة لهم على الحياة وحسن ضبط لإيقاع الأحياء فيها، مع الجزاء الكريم يوم القيامة عند رب رحيم.

و - وأن ينبهوا على أن معصية الله ورسوله إثم ومعصية وتخريب لنظام الحياة الدنيا وإشاعة الظلم وحرمان أصحاب الحقوق من حقوقهم، وتضييع المرأة التى هى قاعدة الأسرة ومحضنها، ومع ذلك فلهذه المعصية جزاء فى جهنم وعذاب مهين لمن يقع عليه.

تلك مقالات للدعاة غنية بالمعانى والمضامين يستطيع الدعاة أن يواجهوا بها أعداء الإسلام والمسلمين.

٣ - الآيات الكريمة من الآية الخامسة عشرة إلى الآية الثامنة عشرة

تطهير المجتمع المسلم من الفاحشة بفرض عقاب مع فتح باب التوبة لمن أراد أن يقلع عن هذا الذنب

﴿ وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

- تتحدث هذه الآيات الكريمة عن وجوب عفة الافراد فى المجتمع عن الفواحش، وتفرض عقوبة على من قارف شيئاً من هذه الفواحش، مع فتح باب التوبة أمام من ندم وعزم على ألا يعود، وبادر بالتوبة ورد الحقوق إلى أصحابها، وتقرر الآيات الكريمة أن التوبة لا تنفع، ولا تقبل مع الإصرار على الذنب أو المضى فى ارتكاب الآثام حتى دُنُوّ الموت، كما لا تقبل توبة الذين يموتون على الكفر، فإن لهؤلاء وأولئك عذابا أليما أعده الله لهم، وهو فى انتظارهم.

- **التفصيل والشرح لهذه الآيات الكريمة:**

﴿ وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴾

الفاحشة: الزنا، ويدخل فيه السحاق بين النساء واللواط بين الرجال.

والفاحشة: كل فعل قبيح نهى عنه الشرع.

ومن وقعت من النساء فى إتيان هذه الفاحشة، كان إثبات هذه الجريمة عليها بالإقرار أو

بشهادة أربعة من المسلمين العدول ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنكُمْ﴾ .

والحكم الخاص بمن ثبتت عليها جريمة الزنا هو إمساك هذه الزانية فى البيت أى حبسها فيه محافظة عليها وقمعا للشر والفساد فى المجتمع، وتظل هكذا محبوسة حتى يأتيها الموت، أو يجعل الله لها سبيلا فى حياة زوجية شرعية بعد التوبة والإنابة، هكذا قال بعض علماء التفسير.

وقال آخرون: إن هاتين الآيتين منسوختان بما جاء فى سورة النور من حد الزانى والزانية إذا كانا محصنين كما ثبت ذلك فى السنة النبوية بالرجم حتى الموت، وبما جاء من جلد كل واحد منهما مائة جلدة إذا كانا غير محصنين وعلى ذلك يكون قوله تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ بمعنى أن ينزل فيهن تشريعا وقد نزل فى سورة النور وهى بعد سورة النساء كما قال بذلك علماء ترتيب سور القرآن الكريم بحسب النزول.

وقال أبو مسلم الأصفهانى[1] من علماء التفسير: إنه لا نسخ للآيتين، لأن الآية الأولى فى المسافحات من النساء والثانية فيمن يعملون عمل قوم لوط من الرجال.

وحكمة حبس المسافحات -فى رأى أبى مسلم- هو أن المرأة التى تعتاد المسافحة؛ تأبى الرجال وتكره معاشرتهم أى لا ترضى أن تكون حرثا لنسل فتعاقب بإمساكها ومنعها من مخالطة النساء إلى أن تموت، أو تكره السحاق وتميل إلى الرجال فتقبل على زوجها إن كانت متزوجة أو تتزوج إن كانت غير ذات زوج.

ورأى أبى مسلم هو الراجح بين آراء المفسرين فى هاتين الآيتين.

● والسحاق جريمة كالزنا وإن اختلف العقاب فى الجريمتين، وورود عقوبة هذه الجريمة وهى الحبس حتى الموت أو التوبة والزواج على الرغم من أن هذه الجريمة لم تقع فى عهد النبى ﷺ، ولم يشهد بها شهود ولا ثبتت على أحد، ليس معناه أنها لا تقع من بعض النساء، وإنما معناه أن المجتمع الإنسانى قابل لأن تقع فيه هذه الجريمة، والإعجاز فى منهج الإسلام هو أن يضع عقوبة لجريمة يحتمل أن تقع!!!

وأما عقوبة جريمة اللواط فهى القتل فى أرجح الأقوال، لما رواه أبو داود والترمذى وغيرهما

---

(١) هو محمد بن بحر الأصفهانى (٢٥٤- ٣٢٢هـ) كنيته أبو مسلم ولى أصفهان وبلاد فارس للمقتدر العباسى واستمر واليا إلى أن دخل ابن يوبه أصفهان فعزله سنة ٣٢١هـ من مشاهير الكتاب، وكان عالما بالتفسير، من كتبه: «جامع التأويل» فى أربعة عشر مجلدا، وله باع فى عديد من صنوف العلم -ويقال إنه كان معتزليا-.

بأسانيدهم عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ وَجَدْتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوه» وفى رواية: «اقتلوا الفاعل والمفعول به» وهذه الرواية لأهل السنن الأربعة(١).

وقد أجمع الصحابة رضوان الله عليهم على قتله، وإن اختلفوا فى كيفية القتل، فأبو بكر الصديق قال: يرمى من شاهق، وعلى بن أبى طالب قال: يهدم عليه حائط، وابن عباس قال: يقتلان بالحجارة، فالإجماع على القتل والاختلاف على كيفيته.

﴿ وَالَّلذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾

﴿ يَأْتِيَانِهَا ﴾ أى الفاحشة من زنا أو لواط، وعقوبة الزنا معروفة للمحصن وهى الرجم حتى الموت بعد الإقرار أو شهادة أربعة عدول، وإن كانا غير محصنين فعقوبتها الإيذاء وهو الجلد مائة جلدة.

وقد قال بعض العلماء -كما ذكرنا ذلك آنفا- إن قتل من يعمل عمل قوم لوط هو إلقاؤه من شاهق.... إلخ.

وعند إيقاع العقوبة بمن يستحقها فليس لأحد أن يذكره بما ارتكب من جرم ولا يعيره به، لأن الله تعالى تواب رحيم.

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

أى أن التوبة مضمون قبولها عند الله للذين يعملون السيئات فى حالة الجهالة أى الحماقة، التوبة بشروطها من: إقلاع عن المعصية، وندم على فعلها، وعزم على عدم العودة إليها. والبراءة من حق صاحبها برد حقه إليه إن كان الذنب متعلقا بحق أحد الناس.

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

أى ليس قبول التوبة للذين يرتكبون المعاصى، ثم لا يقلعون عنها ولا يندمون عليها، ولا يبادرون بالتوبة إلى الله.

---

(١) هم: أبو داود، والنسائى، والترمذى، وابن ماجة، فإن كلا منهم جمع فى الحديث النبوى كتابا سماه: «سنن».

﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ...﴾ أى أنه ينتظر غير تائب عما فعل حتى يدنو أجله ويرى بوادر الموت، فيقول: إنى تبت الآن. فتلك توبة غير صحيحة وغير مقبولة عند الله لأنها لم تستوف شروط التوبة.

﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ...﴾ أى لا تقبل توبة من مات على الكفر، وإنما لهؤلاء وأولئك عند الله عذاب أليم.

● **المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة:**

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة ما يلى:

١ - أن المجتمع المسلم الذى حرص الإسلام على تطهيره من أعمال الجاهلية والجهل، وعلى تخليصه من الظلم الذى كان يقع على الضعفاء؛ المرأة واليتيم والصغير.

هذا المجتمع المسلم لابد كذلك أن يتطهر من الفواحش، وأكبرها الزنا والسحاق واللواط، فلابد من عقوبة على هذه الجرائم تتلاءم مع ضخامة الجريمة التى تلوث المجتمع وتهدد الاستقرار والأمن فيه.

٢ - وأن هذه العقوبات على تلك الجرائم قد حددها الله تعالى وفصلها رسوله الخاتم ﷺ، وأن العقوبة إذا لم تحدد كانت الجريمة أقل من أن يطبق فيها الحدّ، وعندئذ يكون الإيذاء أو التعزير بالحبس ونحوه من أنواع الإيذاء.

وتظل هذه العقوبات قائمة منفذة حتى يتوب من أجرم توبة مستوفية للشروط المعروفة لها، وأنه لا تساهل فى تطبيق شرع الله فضلا عن تعطيله أو تطبيقه على مجرم دون آخر، فإن ذلك كله يعد من جرائم الحاكم التى توجب عزله فضلا عن عقابه.

٣ - وأن هذه العقوبة للمسافحات واللائطين هى فى صميم إصلاح المجتمع وحسم أسباب الشر والفاحشة فيه:

فالمسافحة تحبس حتى يتوفاها الموت أو تتوب وتعدل عن شذوذها، لأن اختلاطها بغيرها من النساء مفسدة لهن، وإشاعة لظاهرة الشذوذ والانحراف من الفطرة عن المجتمع وتلك الفطرة التى فطر الله المرأة عليها هى أن تكون حرثا للنسل.

وكذلك عقوبة اللائطين من الرجال وهى الأذى، هاتان العقوبتان -كما يرى بعض علماء التفسير- كانتا مؤقتتين إلى أن نزلت العقوبات الخاصة بالزنا للرجل والمرأة فى سورة النور إذا كانا غير محصنين، أما عقوبة المحصنين فهو الرجم كما أوضحت ذلك السنة النبوية.

● أما هؤلاء النساء المحبوسات فى البيوت فقد تحددت لهن عقوبة وردت بها السنة النبوية الصحيحة فقد روى مسلم والإمام أحمد وابن ماجة بأسانيدهم عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خُذوا عَنِّى، خذوا عنى، قد جعل الله لهن سبيلا؛ البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة- وفى رواية: وتغريب عام- والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة- وفى رواية والرجم-».

والمعروف أن رسول الله ﷺ رجم ولم يجمع مع الرجم الجلد كما هو ثابت فى قصة ماعز والغامدية.

فقد روى مسلم بسنده عن بريدة بن الحصيب بن عبدالله الأسلمى[1] رضى الله عنه قال: جاء ماعز بن مالك إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله طَهِّرْنى، فقال: ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه، قال: فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرنى، فقال رسول الله ﷺ: ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه، قال فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرنى، فقال رسول الله ﷺ: مثل ذلك، حتى إذا كانت الرابعة قال رسول الله ﷺ: فيم أطهرك؟ فقال: من الزنى، فسأل رسول الله ﷺ: أبه جنون فأخبره أنه ليس بمجنون، فقال: أشرب خمراً؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر، قال: فقال رسول الله ﷺ: أزنيتَ؟ فقال: نعم، فأمر به فرجم».

فكان الناس فيه فرقتين: قائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز، إنه جاء إلى النبى فوضع يده فى يده ثم قال: اقتلنى بالحجارة، فقال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس فسَلَّم ثم جلس فقال: استغفروا لماعز بن مالك، فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك، فقال رسول الله ﷺ: «لقد تاب توبة لو قُسِّمت بين أمة لوسعتهم... فجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله: إنى زنيت فطهرنى، وأنه ردها، فلما كان الغد، قالت: يا رسول الله لِمَ تردنى؟ لعلك أن تردنى كما رددت ماعزاً، فو الله إنى لحبلى، قال: أما لا فاذهبى حتى تلدى، فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال: اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه، فلما فطمته أتته بالصبى

---

(١) هو بريدة بن الحصيب بن عبدالله بن الحارث الأسلمى من أكابر الصحابة رضى الله عنهم أسلم قبل بدر ولم يشهدها، وشهد خيبر وفتح مكة، واستعمله النبى ﷺ على صدقات قومه، سكن المدينة ثم انتقل إلى البصرة ثم خرج إلى سجستان ثم إلى مَرْو فاستوطنها فى إمارة يزيد بن معاوية بن أبى سفيان إلى أن مات سنة ٦٣ هـ - له ١٧٦ حديثاً.

في يده كسرة خبز، فقالت : هذا يا نبي الله قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها، فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها، فيقبل خالد بن الوليد بحجر، فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبها، فسمع نبي الله ﷺ سبه إياها، فقال : مهلاً يا خالد، فو الذي نفسي بيده لقد تابت توبة لوتابها صاحب مَكْسٍ لغفر له، ثم أمر بها فصُلى عليها ودفنت ».

وأما الرجال الشاذون جنسيا، فلهم الأذى كنص الآية الكريمة على أن بعض المفسرين يرون هذه الجريمة « اللواطة » كجريمة الزنا في العقاب، فيكون عقاب اللائط المحض الرجم، وغير المحصن الجلد مائة جلدة.

ومنهم من يرى أن الموت للمحصن يجب أن يكون كما عذب الله قوم لوط، بأن يُلْقى من مكان مرتفع ثم يهال عليه التراب والحجارة حتى يموت، وغير المحصن يجلد مائة جلدة.

٤ – ويتعلم المسلمون من الآيتين الأخيرتين: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ... أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ما يلي :

أ – أن المؤمن إذا أخطأ – وكل ابن آدم خطاء – ثم تاب عن خطئه مقلعا نادما عازما على ألا يعود، رادًا الحقوق إلى أصحابها إن كان خطؤه متعلقا بحقوق العباد، فإن الله تعالى يقبل توبته فهو سبحانه التواب الرحيم.

ب – وأن فتح باب التوبة أمام المخطئين من علامات رحمة الله بعباده وإحسانه إليهم، بشرط المبادرة إلى التوبة بشروطها.

جـ – وأن الذين يستمرئون الخطأ ويستمرون على ممارسته حتى تدنو منهم آجالهم فلا تقبل منهم توبة كأولئك الذين ماتوا على الكفر فلهم جميعاً أعد الله عذابا أليما.

● **المواقف التربوية الخاصة في مجالي الدعوة والحركة في هذه الآيات الكريمة كثيرة نذكر منها ما يفتح الله به فيما يلي :**

١ – يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون في الحركة الإسلامية من الآيتين الأوليين : ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ..... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ ما يلي :

أ – أن تنظيم المجتمع وترشيده وتوجيهه نحو ما يصلحه في معاشه ومعاده يقوم على دعامتين :

الأولى: تطهير المجتمع من الرجس والجريمة بكل أنواعها وبخاصة: الزنا واللواطة والمسافحة والسحاق وكل أنواع الشذوذ فى علاقات الرجال والنساء فى المجتمع، وذلك واجب كل فرد على حدة، وواجب الاسرة وواجب المجتمع وواجب الدولة.

والثانية: الالتزام بمنهج الله ونظامه فى علاقة الرجل بالمرأة وعلاقة الرجل بالرجل، وعلاقة المرأة بالمرأة، ففى هذا الالتزام رقى للمجتمع وتقدم له فى كل مجال من مجالات الحياة.

ب - وأن من تنظيم المجتمع وترشيد سلوك أفراده، أن يطبق قانون الله فى الثواب والعقاب، فكل جريمة يترتب عليها إهدار حق مادى أو معنوى لأحد من الناس قد وضع الله تعالى لها عقابا، وتنفيذ هذه العقوبات هو الذى يحمى المجتمع من المجرمين الذين يضرون بحاضره ومستقبله.

٢ - ويتعلمون من هاتين الآيتين الكريمتين فى مجال تأمين المجتمع ضد جرائم المنحرفين من أبنائه، ما يلى:

أ - أن العدل والامان ان تكون لكل جريمة عقوبة تناسبها وأن العقوبات التى وضعها لتلك الجرائم هى أنسب العقوبات لان واضعها هو رب الناس وخالقهم وراحمهم الذى سخر لهم ومن أجلهم ما فى السموات والأرض.

ب - وأن الذين يزعمون أن الزنا واللواط والسحاق وغيرها من جرائم الشذوذ بالفطرة الإنسانية هو من الأمور الشخصية التى يمارسها الإنسان كما يشاء، هؤلاء الزاعمون منحرفون غافلون عن وظيفة الإنسان فى المجتمع، وغافلون عن أن أى انحراف عن الفطرة وأى تعطيل لها عدوان على المجتمع وتهديد للحرث والنسل، وبذلك تبطل دعاواهم ويتضح تزويرهم.

جـ - وأن المجتمعات التى أباحت هذا الشذوذ والانحراف تعانى اليوم ما تعانيه من الحيرة والضلال والضياع وشيوع اليأس الذى يؤدى إلى التخلص من الحياة، أو إلى حياة مليئة بالقلق والاضطراب والاكتئاب والعقد النفسية المختلفة الانواع.

د - وأن هذه المجتمعات التى اعتبرت الشذوذ من أنواع الحرية الشخصية، فقدت الإحساس بالأسرة، بل بالبنوة والأبوة والأمومة، ففى هذه المجتمعات اختلطت الأنساب وكثيراً ما يعجز الفرد عن الانتساب لأبيه لكثرة زنا أمه وربما عجز عن الانتساب إلى أمه؛ لأنها تلده وتدفع به إلى دار حضانة، ولإقرار مبدأ الإجهاض لمن حملت سفاحا!!!

وحسبك بمجتمع يفقد الأسرة ويفقد الانتماء إلى أبوين!!! ويقنن الشذوذ ويبيح كل أنواع الزنا، ويرى ذلك من الحرية الشخصية!!!

و – وأن فى نوادى العراة، ونوادى الشاذين جنسيا، ونوادى عبدة الشيطان، والزواج من المحارم، فى ذلك ما يؤكد أن الناس –إلا قليلا منهم– قد خرجوا عن فطرتهم التى فطرهم الله عليها، ووجدوا من المؤيدين لهم من يسكتون على هذا الشذوذ طمعا فى الحصول على أصواتهم فى الانتخابات، بل وجدوا من يشجعونهم على هذا الشذوذ والانحراف من القائمين على أجهزة الإعلام ووسائله، بل وجدوا من بعض رؤساء الدول الكبرى مَنْ يدافع عن الشواذ والمنحرفين!!!

٣ – ويتعلم الدعاة والحركيون من الآيتين الأخيرتين:﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ .... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ .... أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ما يلى:

أ – أن قبول الله تعالى لتوبة التائبين تعنى أن يتخلق المسلمون فيما بينهم بالتسامح والعفو، فلا أحد أغير من الله عز وجل، وإذا كان سبحانه وتعالى يعفو عمن عصاه وخالف منهجه وانتهك محارمه، إذا تاب وأناب وندم وعزم على ألا يعود لخطئه، فإن المسلمين فيما بينهم يجب أن يكون هذا تعاملهم.

ب – وأن المسلمين ليس لهم أن يعيروا إنسانا بخطأ ارتكبه ثم تاب عنه، بل ليس لهم أن يذكروه به، وذلك أن تذكير المخطئ بخطئه فضلا عن تعييره به يحول بين هذا المخطئ وبين أن يسلك فى المجتمع سلوكا طيبا، بل ربما هيأ له الانتكاس إلى الخطأ، والانعزال عن المجتمع، وربما حمل العداء لهذا المجتمع والرغبة فى تحدّى قوانينه ونظمه.

جـ – وأن منهج الإسلام فى الجرائم والعقوبات منهج يقوم على أساس راسخ وهو المحافظة على الأفراد والمجتمع، حتى لو أخطأ الأفراد، فإنه يفتح أمامهم باب التوبة، حرصا منه على أن يندمجوا فى المجتمع وقد تطهروا من هذه الجرائم وعادوا إلى التجاوب مع الفطرة التى فطرهم الله عليها.

٤ – ويتعلم الدعاة والحركيون من الآية الأخيرة من هذه الآيات:﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ.... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ .... أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ما يلى:

أ - أن توبة المضطر غير مقبولة، والمضطر فى هذه الآية الكريمة هو: من عمل السيئة بوعى وإرادة، ولم تحدثه نفسه بالتوبة إلا بعد أن وجد نفسه وقد حيل بينه وبين الذنوب لضيق الوقت أو دنو الأجل.

وهذا الرفض للتوبة فى السعة والانتظار حتى اللحظات الأخيرة من العمر معروف قبل الإسلام من أيام فرعون الذى آمن عندما أدركه الغرق، فلم يقبل الله إيمانه، كما نفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ** ﴾ [يونس: ٩٠-٩٢] فذلك إيمان المضطر وهو يشبه توبة المضطر، وكل ذلك غير مقبول.

ب - وأن هذا المضطر للتوبة عدو لنفسه أولا، وعدو للمجتمع الذى يعيش فيه بعد ذلك، فهو سادر غافل يعمل السيئات عن علم لا عن جهالة، ويمارسها عن وعى وإرادة، ولا يتوب عنها من قريب.

وكل سيئة يمارسها مسىء تهدم لبنة من لبنات كيان الإنسان ومن بناء المجتمع، والسيئة مرفوضة شرعاً وعقلاً، وعرفاً إنسانياً فكل سيئة تدل على ضيق أفق صاحبها وأنانيته وإيثار مصلحته على مصلحة المجتمع كله.

وما من مجتمع يقبل السيئات أو يرضى عنها إلا عندما تختل لديه الرؤى، فلا يرى السيئة على حقيقتها، إذ حقيقة السيئة أنها تغم المسىء فى دينه ودنياه وتسىء إليه وإلى المجتمع الذى يعيش فيه.

جـ - وأن الرافض للتوبة حتى يضطر إليها غافل جاهل لا يدرك حقيقة نفسه ولا حقيقة ما يحيط به، ولا يدرك حقيقة الأخطاء التى يمارسها فترديه فى حاضره ومستقبله، هذا الرافض للتوبة إلا مضطرا مثله مثل من مات على الكفر وكان فى وسعه أن يدخل فى زمرة الإيمان والعمل الصالح، هؤلاء وأولئك أعدّ الله لهم يوم القيامة عذاباً أليماً، وحسبهم خسرانا وضياعاً أن يكون العذاب الأليم قد أُعدَّ لهم فى دار يخلدون فيها إلى الأبد.

إنّ ذلك يعلّم كل ذى عقل أن التوبة عن الخطأ ما ينبغى أن تترك حتى آخر فرصة، لأنها لا تقبل أبداً فى آخر فرصة، وقد جعل الله قبول التوبة عن خطأ النهار إلى دخول الليل، وعن خطأ الليل إلى دخول النهار، ولم يفسح مجالا زمنيا أوسع من ذلك، فقد روى مسلم بسنده عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها».

٤ - الآيات الكريمة من الآية التاسعة عشرة إلى الآية الثامنة والعشرين

حقوق النساء وتحريم الزواج من أنواع من القرابة

وإباحة سائرهن وفق نظم عادلة شرعها الله تخفيفا عن عباده

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥) يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾.

● وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة على عدد من التشريعات الخاصة بالنساء نشير إليها فى

إيجاز فيما يلى :

١ - تحريم اعتبار المرأة موروثة كأنها شيء من الأشياء : الآية : ١٩ .

٢ - وتحريم عضل النساء أى منعهن من الزواج : الآية : ١٩ أيضاً .

٣ - وتحريم سوء معاشرة الزوجات بل وجوب العدل بينهن فى النفقة والمبيت وإحسان القول : الآية : ١٩ أيضاً .

٤ - وتحريم أخذ المهر من الزوجة عند الرغبة فى طلاقها : الآيتان : ٢٠، ٢١ .

٥ - وتحريم تزوج الابن من زوجة أبيه بعد موت الأب : الآية : ٢٢ .

٦ - وتحريم الزواج بأربعة عشر صنفا من النساء؛ سبعة منهن من جهة النسب، وسبعة متنوعة بين الرضاعة وغيرها : الآيتان : ٢٣، ٢٤ .

٧ - وتوضيح متى يحل الزواج وعلى أى وجه يحل، الآية : ٢٥ .

٨ - وبيان أن الله تعالى يبين للمسلمين ويهديهم إلى السنن الصحيحة ويتوب عليهم إن أخطأوا فتابوا، ويخفف عنهم تقديراً لضعفهم الإنسانى الذى فطروا عليه، الآيات : ٢٦ - ٢٨ .

● **تفصيل القول فى شرح هذه الآيات الكريمة وتفسيرها :**

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ ....﴾

وهذا تحريم لأن تورث المرأة كأنها متاع فى البيت بعد وفاة زوجها كما كان الناس يفعلون فى الجاهلية، فكان ابن المتوفى من غير زوجته يرثها، إن شاء تزوجها وإن شاء زوجها وأخذ صداقها وإن شاء عضلها أى منعها من الزواج بعد أبيه .

● قال الواحدى -فى أسباب النزول- : قال المفسرون : كان أهل المدينة فى الجاهلية فى أول الإسلام إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قرابته من عصبته فألقى ثوبه على تلك المرأة، فصار أحق بها من نفسها ومن غيره، فإن شاء أن يتزوجها تزوجها بغير صداق إلا الصداق الذى أصدقها الميت، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها، ولم يعطها شيئا، وإن شاء عضلها وضارها لتفتدى منه بما ورثت من الميت، أو تموت هى فيرثها، فتوفى أبو قيس بن الأسلت الأنصارى وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية، فقام ابنٌ له من غيرها يقال له حصن -أو قيس- فطرح ثوبه عليها، فورث نكاحها ثم تركها، فلم يقربها

ولم ينفق عليها، يضارُّها لتفتدى منه بمالها، فأتت كبيشة رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله: إن أبا قيس توفى وورث ابنه نكاحى، وقد أضرنى وطول علىّ، فلا هو ينفق على ولا يدخل بى، ولا هو يخلى سبيلى، فقال لها رسول الله ﷺ: اقعدى فى بيتك حتى يأتى فيك أمر الله، فانصرفت.

وسمعت بذلك النساء فى المدينة فأتين رسول الله ﷺ وقُلْن: ما نحن إلا كهيئة كبيشة، غير أنه لم ينكحنا الابناء، ونكحنا بنو العم.

فأنزل الله هذه الآية، فحرم ميراث المرأة للابن أو غيره من عصبة الزوج المتوفى وردت للمرأة كرامتها أو حريتها ورفعت عنها هذه المضارَّة.

﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ .... ﴾

العَضْل: المنع الشديد، وهو فى هذه الآية الكريمة منع المرأة من حقها فى العشرة بالمعروف ومضارتها حتى تفتدى نفسها ممن يضارها بمهرها، أو بمال لها ترفع به عن نفسها هذا الضرر، وهذا رأى أكثر المفسرين، والمخاطب بذلك أى زوج يضار امرأته، وقد حرّم الله ذلك فى هذه الآية الكريمة، أى إساءة عشرتها حتى تفتدى نفسها بمالها.

والتحريم منصب كذلك على الوارث بعد وفاة الزوج، فحرام عليه أن يتزوج بها، أو يزوجها ويأخذ صداقها، أو يتركها بغير زواج، أو بغير نفقة حتى تفتدى نفسها بمالها، والمخاطب بذلك الولى أو الوارث.

كما حرّم الله فى هذه الآية أن تكون المرأة ميراثا يورث، ورفع عنها الظلم وسوء العشرة والمضارة.

﴿ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ .... ﴾ أى يستثنى من ذلك -أى من أخذ مال المرأة خُلْعًا- أن يكون سوء العشرة منها بأن تأتى بفاحشة مبينة وهى النشوز أو المشاكسة تؤذى بذلك زوجها وأقرباءه، عندئذ يكون للزوج الحق فى طلب مقابل الخُلع، فالفاحشة على هذا المعنى هى سوء الخلق.

وقد تكون الفاحشة هى الزنا كما قال بذلك بعض العلماء، عندئذ يجوز للزوج أو الولى أن يضارَّها حتى تفتدى نفسها بمالها، لانه لا ينوى معاشرتها وقد زنت.

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

أوجب الله تعالى بهذه الآية حسن العشرة بين الزوج وزوجته والأمر موجه أصلا إلى الرجال - الأزواج - لأنهم الذين بيدهم عقدة النكاح، وهم الذين عليهم العدل فى النفقة على الزوجات والعدل فى المبيت والعدل فى طلاقة الوجه وحسن القول.

﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

أى إن كرهتم صحبتهن فامسكوهن بالمعروف، فعسى أن يكون فى صحبتهن الخير الكثير، فى ولد يحصل بينهما أو ثواب من عند الله على الصبر على تلك العشرة الحسنة على الرغم من الكراهية، أو فى الانفصال حيث يجد الزوج خيرا من زوجته وتجد الزوجة خيراً من زوجها.

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾

والمعنى: أن من مضارة الزوج لزوجته أن يستبدل بها زوجة أخرى فيأخذ منها المهر الذى قدمه لها، وذلك غير جائز فى الإسلام.

وقد قال المفسرون: إن الرجل منهم كان إذا مال للتزوج من أخرى رمى زوجته بالفاحشة، أو أساء إليها حتى تفتدى منه بما أعطاها ليأخذه فيتزوج به من الاخرى، فنهاهم الله تعالى عن ذلك.

﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ... ﴾ أى مهراً كبيراً والآية تنهى عن أخذه قليلاً كان أو كثيراً.

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾

﴿ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ كناية عن الجماع بين الزوجين، أى لا يحل لكم أن تأخذوا المهر الذى استحللتموهن به، لتحتالوا بذلك على الزواج من أخرى مضارة لهن.

﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ وهو عقد الزواج، وقال جمهور المفسرين هو قول الولى لمن جاء يتزوج من فى ولايته: زوجتك فلانة على ما أخذ الله للنساء على الرجال من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

وقيل: الميثاق الغليظ هو كلمة «النكاح» أو «الزواج» فقد روى أحمد بسنده عن أبى حَرَّة الرقاشى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ فى حديث طويل جاء فيه: « ... فاتقوا الله فى

النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله عز وجل .... ».

﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾

وكان أهل الجاهلية يتزوجون بزوجات آبائهم -كما أوضحنا آنفاً- فنهاهم الله عن ذلك بهذه الآية الكريمة.

والنكاح عند أكثر المفسرين هو الوطء (الجماع) وقال بعضهم هو: العقد، والأرجح الأول بدليل قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ [البقرة: ٢٣٠]. فلا تحل من بانت من زوجها بينونة كبرى إلا إن تزوجت ودخل بها زوجها الثانى ثم طلقها وانتهت عدتها، وكذلك وردت كلمة النكاح بمعنى الوطء فى آيات عديدة[1] من القرآن الكريم وفى بعض الأحاديث النبوية[2]، لكنها وردت فى آيات أخر وفى أحاديث أخرى بمعنى العقد، وإن كان ورودها بمعنى الوطء أرجح.

وسواء كان النكاح بمعنى الوطء وهو الأرجح أو بمعنى العقد وهو المرجوح، فإن الإسلام حرّم على الابن أن يتزوج بزوجة أبيه سواء أكان أبوه قد دخل بها أم لم يدخل.

وكان قد تزوج عدد من الرجال من زوجات آبائهم فلما نزلت هذه الآية فارقوهن.

وهنا سؤال طرحه العلماء وهو: من زنى بامرأة، هل تحرم على ابنه وأبيه؟

قال أبو حنيفة: نعم تحرم لأن بالزنى حدث النكاح وهو الوطء.

وقال مالك والشافعى: لا تحرم لأن الزنا ليس كالزواج فلا ينشر الحرمة.

● ولأن نكاح الابن لزوجة أبيه سيئ سمى نكاح المقت أى البغض والكراهية، وسمى من تزوج بزوجة أبيه: الضيزن لأنه المزاحم، وقد زاحم أباه فى امرأته.

ويسمى الولد من هذا النكاح: مقيتا.

● وقد وصف الله تعالى هذا النكاح بأوصاف ثلاثة هى:

– أنه فاحشة بل أفحش الفاحشة لأنها بمنزلة الأم.

– وأنه مقت وهو بُغض مقرون باستحقار، لبشاعة الفعل.

---

(١) الآية: ٦ من سورة النساء، والآية: ٣ من سورة النور.

(٢) ما رواه ابن ماجة بسنده عن عائشة رضى الله عنها: «النكاح سنتى...» الحديث.

- وأنه ساء سبيلاً أى عمل قبيح عرفا ومحرم شرعا.

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ ﴾

أى حُرِّم عليكم الزواج بأى نوع من أنواع هذه القرابات.

وتلك هى الحرمة التى جاءت بسبب النسب وهن سبع:

الأم والبنت والأخت والعمة والخالة وبنت الأخ وبنت الأخت.

ويلحق بالأم أمها وإن علت فكلهن أمهات له وبالبنت بنت الابن وبنت البنت فكلهن بنات له وإن نزلن.

وسبب هذا التحريم- كما يرى ذلك بعض المفسرين فى رأى غير راجح:

هو عدم افتراش هؤلاء القريبات لما فى الافتراش من المهانة والإذلال -وهو تعليل غير مقبول- فعند التدبر لا نجد فى العلاقة الزوجية إذلالاً ولا امتهانا للمرأة، وإنما هى تؤدى وظيفة هيأها الله لها، وكيف يرفع عنها هذا الإذلال؟ إن رفعه عنها إن سمى إذلالاً لا يكون إلا بأن تترك دون زواج!!! وأين تلك المهانة فى عملية الجماع التى يقصد منها الولد؟ أو يقصد بها إشباع رغبة كل من الزوجين فى الآخر، كما هيأهما الله تعالى لذلك؟ ولايَسُن الله تشريعا فيه مهانة لأحد عباده!!!

وإنما سبب تحريم الزواج من هؤلاء الأصناف من الناس هو حكمة يعلمها الله ولابد أن تكون لصالح الإنسان مادام الله تعالى هو الذى حرمها. وقد توصلت البحوث العلمية الحديثة إلى شىء من هذه الحكمة عندما قال علماء الوراثة: إن المواليد من الاقارب يكونون ضعافا أو مرضى إذ تتركز فيهم عوامل وراثية «جينات» خفية متنحية كامنة لا يظهر تأثيرها إلا فى حالة ازدواجها مع «جين» آخر كامن متماثل مع الجين الأول، فإذا اكتسب الطفل هذه الصفة المتنحية على وجه التحديد من كلا الأبوين «الأقارب أصلاً» ظهر فيه العيب الذى لم يظهر فى أبويه من قبل.

وظهور زوج من الصفات «الجينات» المعيبة معًا فى الوليد لا يحدث إلا إذا كان الزواج من رجل وامرأة من السلالة الوراثية نفسها.

وغداً يكشف العلم ما هو آكد من ذلك، لأن حكمة الله تعالى فى تحريم شىء أى شىء

لابد أن تكون من أجل مصلحة الإنسان فى دينه ودنياه.

وكل الناس -كما قال بذلك علماء الوراثة- يحملون فى المتوسط ما بين أربعة «چينات» إلى ثمانية تعتبر عوامل وراثية خفية كامنة متنحية لا تستطيع الظهور إلا إذا ارتبطت بفرد يحمل نفس هذه «الچينات» وأولئك هم الأقارب، وعندئذ تظهر هذه الصفات المتنحية فى أبناء هؤلاء الأقارب الذين تزاوجوا.

ويدخل فى تحريم الزواج من الأم تحريم زواج الجدة لأم أو الجدة لأب وسائر الجدات وإن علون لأنهن أمهات، ولم ينص القرآن على تحريم الزواج من الجدة لأنها أم.

﴿ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ وتشمل البنت، وبنت الابن وبنت البنت فهن محرمات لأنهن بنات للمتزوج.

﴿ وَأَخَوَاتُكُمْ ﴾ شقيقات كن من الأم أو من الأب.

﴿ وَعَمَّاتُكُمْ ﴾ لما ثبت فى السنة أن العمة والدة.

﴿ وَخَالاتُكُمْ ﴾ لما ثبت فى السنة أيضاً من أن الخالة والدة.

﴿ وَبَنَاتُ الأُخْتِ ﴾ لأنها كذلك بمنزلة البنت.

فهؤلاء هن المحرمات من جهة النسب وهن سبع:

- وهناك محرمات بسبب الرضاعة وهن نوعان:

﴿ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ ﴾

﴿ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ ﴾

وشروط تحريم الزواج بسبب الرضاعة هى:

- أن يكون ذلك فى وقت الإرضاع وهو حولان.
- وأن يكون الإرضاع قد وصل إلى الأمعاء.
- وأن يكون ثلاث رضعات على الأقل.

- والمحرمات بسبب الصهر ثلاثة أنواع:

﴿ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ ﴾ فأم الزوجة حرام على الزوج أن يتزوج بها إلى الأبد حتى بعد موت

بنتها أو طلاقها.

﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ والربيبة هى بنت امرأة الرجل من غيره وهى حرام بشرط أن يكون قد دخل الرجل بالأم.

﴿ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ ﴾ وحليلة الابن الصلبى هى زوجته وهى حرام على الأب حرمة مؤبدة.

● والمحرمات لسبب عارض نوعان:

﴿ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ فالزواج من اختين شقيقتين أو غير شقيقتين حرام، ولكنها حرمة عارضة، فإذا زالت الزوجية بالموت أو الطلاق وانتهت عدة المطلقة جاز لزوجها أن يتزوج بأختها.

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ أى المتزوجات منهن، فلا يجوز لمسلم أن يتزوج امرأة متزوجة، ولكنه سبب عارض للتحريم إذا زال بموت زوجها أو طلاقه إياها جاز التزوج بها.

● ويستثنى من تحريم الزواج أو النكاح أو الجماع المرأة التى هى ملك يمين للرجل، بمعنى أنه اشتراها بماله أو نحو ذلك من أسباب الملكية، فهذه حلال للرجل أن ينكحها.

﴿ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أى أن هذا التحريم قد كتبه الله عليكم وفرضه.

● وأما من يحل التزوج بهن من النساء فهن كل من ليست من هؤلاء المحرمات الأربع عشرة المذكورات فى الآية الكريمة.

● غير أنه يضاف إلى هذه المحرمات فى القرآن الكريم نوعان من المحرمات بسبب عارض حرمها رسول الله ﷺ، وما حرم رسول الله كالذى حرمه الله، وهما:

- الجمع بين العمة وبنت أخيها.

- والجمع بين الخالة وبنت أختها.

لما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تنكح العمة على ابنة الأخ، ولا ابنة الأخت على الخالة».

وروى أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تنكح

المرأة على عمتها، ولا العمة على ابنة أخيها، ولا المرأة على خالتها، ولا الخالة على بنت أختها، لا الكبرى على الصغرى ولا الصغرى على الكبرى ».

وسبب هذا التحريم هو قطع الأرحام، فقد روى ابن عبدالبر بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتزوج الرجل المرأة على العمة أو على الخالة، وقال: « إنكم إذا فعلتم قطعتم أرحامكم ».

﴿ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ أى أباح الله لكم الزواج وأحل لكم أن تبذلوا من أموالكم فى دفع المهور لمن تتزوجون بهن، كما أباح لكم أن تشتروا من الإماء ما تتسرّون به منهن، متعففين بذلك عن الزنا، محصنين أنفسكم بالنكاح.

﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾

الأجر هنا: هو المهر، وهو فى مقابل الاستمتاع، وهو حق للزوجة فرضه الله تعالى، وأخطأ من استدل بهذه الآية على جواز نكاح المتعة لأنه ما أبيح إلا عاما أو بعض عام ثم حرم إلى الأبد.

فقد روى مسلم بسنده عن الربيع بن سبرة رضى الله عنه أن أباه حدثه أنه كان مع رسول الله ﷺ فقال: « يا أيها الناس إنى قد كنت أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا ».

وروى ابن حبان بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « هَدَمَ المتعةَ النكاحُ، والطلاق، والعدة، والميراث ».

والمعنى أن الله تعالى لما شرع النكاح والطلاق والعدة وتوارث الزوجين، فقد هدم نكاح المتعة لأنه مؤقت ولا يحتاج إلى طلاق، ولا عدة لها، ولا تتوارث مع من استمتع بها.

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾ أى من زيادة ونقصان فى المهر أو تنازل الزوجة عنه أو عن شيء فيه بطيب نفس منها، فكل ذلك سائغ بعد استقرار الفريضة وتحديدها -وهى المهر- ولا حجة للقائلين بإباحة نكاح المتعة بهذه الآية.

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أى عليما بما يصلح لكم دينكم ودنياكم حكيما فيما شرع

لكم من تشريعات.

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ... ﴾

هذا تخفيف من الله فى الكناح وهو إباحة نكاح الإماء لمن لم يجد القدرة على نكاح الحرائر اى لم يجد الطول اى السعة فى المال، وقد يكون الطول هو وجود الحرة زوجة، والمعنى أن من كانت له زوجة حرة فلا يجوز له نكاح الامة، لانه حينئذ طالب شهوة وعنده امرأته الحرة.

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ اى هو العالم بحقائق الامور وسرائرها، وهو مُجاز على ذلك، اما نحن الناس فلنا الظاهر فقط.

﴿ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴿ مُحْصَنَاتٍ ﴾ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾

اى بولاية أربابهم المالكين وإذنهم، وكذلك العبد لا يجوز له أن ينكح إلا بإذن سيده، لان العبد مملوك لا أمر له.

﴿ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ دليل على وجود المهر للامة كذلك.

﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ اى بالشرع والسنة.

﴿ مُحْصَنَاتٍ ﴾: اى عفائف.

﴿ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ ﴾ اى غير زوان اى معلنات الزنا كما كان يفعل صاحبات الرايات فى الجاهلية، فكانت إحداهن تنصب راية على بيتها لتعلن أنها زانية.

﴿ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ اى أصدقاء على الفاحشة.

قال العلماء: المسافحة المجاهرة بالزنا واتخاذ الخدن هو الزنا فى السر بواحد.

وقيل المسافحة هى التى تبذل نفسها لاى أحد، وذات الخدن هى التى تزنى بواحد فقط.

﴿ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ اى أن الامة المسلمة إذا زنت جلدت نصف جلد الحرة، كما جاء ذلك فى صحيحى البخارى ومسلم من أنه قيل: يا رسول الله: الامة إذا زنت ولم تحصن؟ فأوجب عليها الحد.

قال الزهرى: الأمَةَ المتزوجة محدودة بالقرآن، والأمة المسلمة غير المتزوجة محدودة بالحديث النبوى، أى أن المتزوجة ترجم وغير المتزوجة تجلد.

● والصواب -كما أجمع على ذلك أهل العلم- إن الأمة لا ترجم أبدا محصنة أو غير محصنة، وإنما عليها نصف ما على المحصنات من العذاب، وبما أن الرجم لا يمكن تبعيضه، فيتعين الجلد على النصف من الحرة.

وهذه المسألة من المسائل الخلافية التى تعددت فيها آراء العلماء.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أى أن الصبر على عدم التزوج من الأمة خير من التزوج بها، لأن التزوج بالأمة يفضى إلى أن يكون الولد رقيقا كأمه فهو يتبعها فى الرق والحرية، فقد روى ابن ماجة بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر».

وقال العلماء: إن نكاح الأمة مشروط بشرطين:

- عدم السعة فى المال لكى يتزوج الحرة.

- وخوف العنت من عدم التزوج.

وقال بعض العلماء: إن نكاح الأمة جائز توسعة على الراغب فى النكاح، كما أبيح له التزوج من النصرانية مثلاً.

والممنوع هو الزواج من الأمة المشركة.

كما له أن يتزوج بأكثر من أمة مسلمة إلى ثلاث مع زوجته الحرة، لكنه يقع فى محظور أن ينجب منها أو منهن رقيقا، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أيما حرّ تزوج بأمة فقد أَرَقّ نصفه، يعنى يصير ولده رقيقا، فالصبر على ذلك أفضل لكى لا يرق ولده.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

والمعنى: أن هذه الأحكام والتشريعات الاجتماعية هدفها أن يبين الله لكم أمر دينكم ودنياكم، وما يصلح لكم هذا وذاك، وفى هذا تأكيد لقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

بَيَّن الله لكم هذه الأحكام ليهديكم سنن الذين من قبلكم ممن التزموا بهذه التشريعات،

فكانوا على الحق، أو خالفوها فكانوا على الباطل فعاقبهم الله، كما أخبرت بذلك قصص غير قليلة من القرآن الكريم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يعلم ما يصلح لخلقه فيأمرهم به، حكيم، له فى كل تشريع حكمة جليلة تجلب لعباده الخير وتدفع عنهم الشر.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أى يريد توبتكم فيقبلها ويتجاوز عن ذنوبكم فى حين يريد المنحرفون عن الفطرة المتبعون للشهوات أن تميلوا عن الحق ميلا عظيما.

والذين يتبعون الشهوات هم: اليهود الذين أرادوا أن يتبعهم المسلمون فى نكاح الأخت من الأب والعمات، أو هم النصارى، أو كل متبع للشهوات ضال عن الفطرة كالمجوس الذين لا يحرمون ابنة الأخ وابنة الأخت، وكالمشركين الذين كانوا يحببون إلى المسلمين الزنى ويقدمون إليهم البغايا.

وكل هؤلاء يتبعون الشهوات، ويودون أن يميل المسلمون عن الحق وعن شريعة الله تعالى.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ إذ كل التشريعات التى شرعها لكم قصد بها التخفيف عنكم، ومن الدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله سبحانه عن رسوله الخاتم ﷺ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ومن الدليل على هذا التخفيف من السنة النبوية، ما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدين يُسْر، ولن يشاد الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فسدِّدوا وقاربوا».

وما رواه مسلم بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثا والمتنطعون هم المتشددون.

وما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يسِّروا ولا تُعَسِّروا وبَشِّروا ولا تُنَفِّروا».

وما رواه مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، وقال: من هذه؟ قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها قال: «مَهْ عليكم بما تطيقون فوالله لا يَمَلّ الله حتى تَمَلُّوا».

وما رواه أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنما أرسلت بحنيفية سمحة».

﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ أى أن هواه يستميله، وشهوته وغضبه يستخفانه، وهذا هو أشد أنواع الضعف.

وقد يكون الضعف فى أمر النساء خاصة، ومما يوضح ضعف الإنسان وقلة صبره عن النساء كلمة تنسب إلى سعيد بن المسيب التابعى الجليل (١٣- ٩٣ هـ) المعدود من سادة التابعين علما وفقها وورعا وعبادة وزهدا وفضلاً، وهو أحد الفقهاء السبعة بالمدينة المنورة، وكلمته فى ضعف الإنسان فى الصبر عن النساء هى:

لقد أتى علىّ ثمانون سنة[١] وذهبت إحدى عينىّ وأنا أعشو بالاخرى، وصاحبى[٢] أعمى أصم وإنى أخاف من فتنة النساء.

وكلمة أخرى للصحابى الجليل عبادة بن الصامت (٣٨ ق هـ - ٣٤ هـ) وهو خزرجى وكان أحد النقباء فى بيعة العقبة، وشهد بدرا والمشاهد كلها، وحضر فتح مصر، وكان أول من تولى القضاء بفلسطين ومات بها وروى ١٨١ حديثا نبويا.

قال فى بيان ضعف الإنسان فى الصبر عن النساء: «ألا ترونى لا أقوم إلا رافدا -أى معانًا على القيام- ولا آكل إلا ما لُوِّن لى -أى لُيِّن وسُخِّن- وقد مات صاحبى منذ زمان -يعنى ذكره- وما يسرنى أنى خلوت بامرأة لا تحل لى وأنّ لى ما تطلع عليه الشمس؛ مخافة أن يأتينى الشيطان فيحركه علىّ، إنه -أى ذكره- لا سمع له ولا بصر».

هذا هو أوضح ما فى الإنسان من ضعف، يليه ضعف الإنسان أمام المال، فضلا عن أنواع ضعفه التى فطر عليها، وصدق الله العظيم: «وخلق الإنسان ضعيفاً».

● **المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات:**

يتعلم المسلمون من الثلاثة الآيات الأولى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ما يلى:

أ - أن المرأة فى الإسلام إنسان كامل الإنسانية، مكتمل الحقوق عند الله كالرجل سواء بسواء وخصوصا فى الحقوق والواجبات وليس لأحد أن ينقص من حقوقها شيئاً

---

(١) هذا يدل على أنه قال ذلك فى آخر سنة من عمره.

(٢) يقصد: ذكَره.

إلا أن يعصى الله عز وجل، أما فى النظم الاخرى فقد كانت شيئًا من الأشياء تورث كما تورث الاموال والأشياء!!!

وقد وضح لنا ذلك فيما قدمنا، والله تعالى يعلن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ...﴾.

ب - وأن الزوج أو الولى للمرأة ليس له أن يتعامل مع المرأة تعاملا من شأنه أن يهضم حقا من حقوقها، أو يلحق بها ضرراً مَا، أو يسىء إليها حتى تضطر إلى افتداء نفسها منه بالمال، فهذا هو عضلها الذى نهى الله عنه: ﴿وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ...﴾.

وهذا التشريع يعرف الزوج أو الولى كيف يتعامل مع المرأة.

جـ - وأن القاعدة العامة فى معاملة الازواج لزوجاتهم هى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ والمعروف أعم وأشمل من العدل فى المعيشة والقسمة بين الزوجات، وإنما هو كما قال العلماء: أن يُطيِّب لها قوله، وأن يحسِّن لها فعله وهيئته كما يحب ذلك منها.

وأن هذا المعروف فى المعاملة يجب أن يشمل حالة الفراق إذا أراد أن يفارقها، لأنه مسلم يعاشر ويفارق بما أمر به شرع الله، وعساه إن فعل ففارق بالمعروف أن يجعل الله له فى فراق زوجته خيراً كثيراً له ولها.

هذا هو خلق الإسلام وأدبه فى التعامل مع المرأة حتى عند الطلاق، ومن خالف ذلك عصى الله واستحق عقابه.

٢ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا....﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ ما يلى:

أ - أن الحقوق المالية للزوجة فى الإسلام تحرِّم على الزوج أن يأخذ من زوجته التى فارقها -بعد أن صبر عليها واتقى الله فيها وفى عشرتها- شيئا من مالها الذى أعطاه لها أو ورثته عن ذويها، ليس له أن يأخذ مما أتاها شيئا ولو كان قد أعطاها قنطارا أو أكثر، كما أنه ليس له أن يضارها حتى تفتدى نفسها منه بمال لها، لأن حق المرأة فى مالها مرعى لا يجوز مساسه.

ب – وأن نهى الله تعالى عن أخذ شيء من مال الزوجة صداقا كان أو غير صداق، نهى عن عمل تستنكره الأخلاق الكريمة، ولا يتفق ولا يلائم ما كان بين الزوجين من علاقة حميمة يفضى كل منهما إلى الآخر إفضاء حب وحنان، وإفضاء مشاعر فياضة بالمودة والرحمة، بل إفضاء جسد إلى جسد يؤدى إلى تلك المتعة النفسية والجسدية التى لا تعدلها متعة، كل هذه الأنواع من الإفضاء لا يليق معها أن يستولى الزوج على مال زوجته إن أراد فراقها أو استبدالها بزوجة أخرى.

هذا أدب الإسلام لمن أراد أن يكون من المسلمين.

جـ – وأن ما بين الزوجين من علاقة وإفضاء ومتعة جسدية إنما استُحل بكلمة الله وشرعه، وبمقتضى عقد النكاح أو موثق النكاح الذى أباح الله به الفروج، وهو موثق غليظ أكيد، له حقوق وعليه واجبات.

أفيليق مع هذا الميثاق الغليظ أن يظلم الزوج زوجته فيأخذ منها مالها أو شيئاً من مالها؟.

إن ذلك إنْ حدث من الزوج لهو تنكر لهذا الميثاق الذى غلظه الله وأباح به ما لم يكن مباحاً لأحد، ولا هو يباح إلا للزوج!!! وحساب ذلك عند الله.

٣ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿حُرِمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ....﴾ إلى قوله تعالى: ﴿....كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ....﴾ ما يلى:

أ – الالتزام بتحريم التزوج ممن حرّم الله التزوج بهن من النساء، دون تجاوز لذلك –كما تفعل بعض النظم التى تبيح الزواج من البنت أو الأم أو الأخت لأب، وغير ذلك من المحرمات.

ودون تضييق –كما تفعل بعض النظم فتحرم الزواج بأكثر من واحدة، أو تحرم الزواج لاختلاف الأجناس والألوان والقوميات والطبقات الاجتماعية.

أو تحرمها لاختلاف الأوطان –كما تفعل بعض الدول الإسلامية اليوم!!!

ب – ولا داعى لكدّ الذهن فى معرفة أسباب التحريم –على الرغم من أن البحوث قد أجابت عن ذلك، كما ذكرنا آنفاً– وذلك أن الاطمئنان إلى الأخذ عن الله تعالى واجب عقلى وشرعى، وهو من العلامات القوية لإيمان المؤمن، فالله تعالى لا يأمر

إلا بما فيه الخير لعباده، ولا ينهى ولا يحرم إلا ما يحمل ضرراً لهم.

فقد يكتشف العلم غداً ما عجز عن اكتشافه اليوم فى أسباب التحريم وعلله، ونحن المؤمنين نأخذ الالتزام بما أمر الله به والانتهاء عما حرّم مأخذ العبادة له سبحانه، العبادة التى أمرنا بها وخلقنا من أجلها.

جـ - وأن الالتزام بالاستجابة لله تعالى فيما أحل وفيما حرّم هو تسليم بأن اختيار الله لعباده أحسن وآمن من اختيارهم لأنفسهم، وأن فى اختيار الله لعباده نظماً حكمة جليلة ومصلحة أكيدة فى دعم العلاقات الاجتماعية وتوسيع مداها عند التزوج من غير الأقرباء، بكسب أعضاء جدد للأسرة أزواجا وزوجات، يزيدون فى رعاية الأسرة وفى تأصيل مكانتها ودعم وظائفها فى المجتمع، ولا يكون ذلك إلا بالابتعاد عن الزواج ممن حرّم الله الزواج منهن.

وهذا النظام الذى اختاره الله تعالى فى الزواج هو: ﴿ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أى ما فرض عليكم الالتزام به إن شئتم صلاح دينكم ودنياكم.

٤ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ.... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ....وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ما يلى:

أ - أنّ للمسلم أن يتزوج من النساء غير هؤلاء المحرمات ما شاء من الحرائر إلى أربع بشروط التعدد، وما شاء من الإماء بشروط التزوج من الأمة.

ومن أهم هذه الشروط ما أشرنا إليه آنفا من المهر والإشهاد وإذن الولى فى الزواج من الحرة، ومن عدم الاستطاعة وخوف العنت فى الزواج من الأمة، مع أن الصبر على عدم الزواج من الأمة خير له -لما قدمنا من أسباب-.

ب - وأن الهدف من الزواج والتسرّى هو العفة والإعفاف، لأن الإسلام لا يقبل بحال من الأحوال هذا العبث الجنسى أو ذلك الاضطراب الذى يفسد المجتمع ويمزق العلاقات الاجتماعية شر مُمَزَّق؛ فالإسلام شرع ما شرع وحرم ما حرّم من أجل الوئام الاجتماعى الذى يعززه عدم اختلاط الأنساب، ومنع الفاحشة، ورفض أى انحراف عن منهج الله تعالى وعن الفطرة التى فطر الله الناس عليها فى العلاقة الزوجية المشروعة.

جـ - وأن العلاقة بين الزوجين فى المسائل المالية مبناها على التراضى بينهما، لو كان ذلك تنازل من المرأة عن شيء من صداقها أو مالها لزوجها، بشرط الا تكون مكرهة على ذلك بسبب سوء عشرة زوجها لها؛ لان مبدأ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ مبدأ عام لا يجوز التخلى عنه فى أى نوع من أنواع التعامل مع الزوجة.

د - وأن الشروط التى وضعها الإسلام للتزوج من الأمة والزم بها المسلمين كثيرة -على الرغم من أن المجتمع منذ زمن غير قليل قد خلا من الرقيق- ومن هذه الشروط:

- أن يكون الزواج من الأمة عند العجز عن مهر الحرة.
- وأن يكون الزوج خائفا على نفسه الوقوع فى الزنى إذا لم يتزوج.
- وأن يكون التزوج منها بإذن سيدها.
- وأن تكون هذه الأمة مسلمة.
- وأن تكون هذه الأمة غير معلنة للزنى[1].
- وأن لا تكون مخفية للزنى عن طريق اتخاذ خدين تمارس معه الزنى وحده أو تمارسه فى الخفاء[2].

هـ - ولهؤلاء الإماء عند ارتكاب جريمة الزنى عقوبة هى على النصف من عقوبة الحرة إذا وقعت فى الزنى، كما أوضحنا آراء العلماء فى هذه القضية آنفاً.

٥ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ....﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ ما يلى:

أ - أنّ إرادة الله تعالى اقتضت أن يبين للمسلمين الاحكام والتشريعات التى تصلح لهم أمور دينهم ودنياهم، وأن تلك الإرادة دليل على حب الله تعالى لعباده.

وأن هذا البيان أو التشريع ليس إلا لله وحده لا يشاركه فيه أحد أو نظام، وأن كل من ادعى غير ذلك كاذب فى ذاته، ويفترى على الله الكذب، وهو بذلك يظلم نفسه ويظلم من يحيطون به ومن يصدقونه فى دعواه.

ب - وأنّ الله تعالى يهدى المؤمنين عن طريق التأمل فى سنن السابقين، ليعلم المسلمون

---

(١) وهؤلاء هن العاهرات وهن كثيرات فى المجتمعات المعاصرة.

(٢) هو ما يعرف فى الغرب بالولد الصديق (Boy Frind) وذلك حرام على المسلمين والمسلمات بكل حال، بل وحرام فى سائر الأديان.

كيف كان الذين من قبلهم على الحق وكيف دافعوا عنه، وكيف قاوموا أهل الباطل، وكيف عاقبة المؤمنين والكافرين، ولذلك كثرت فى القرآن الكريم الآيات التى تطالب الناس بالسير فى الارض والنظر فى سير الاولين وعواقبهم.

جـ - وأنّ الله تعالى يريد بالمؤمنين الخير دائما، على حين يريد شياطين الإنس والجن الذين يتبعون الشهوات والأهواء أن يميل المؤمنون عن الحق إلى الضلال، وهؤلاء قد يكونون من اليهود أو من النصارى أو من أهل الاهواء الذين يعادون الحق ويكرهون أولياءه ويحبون الباطل ويمضون فى طريقه إلى آخر مداه.

د - ورحمة الله تعالى بالإنسان سببها أنه سبحانه وتعالى خلق الإنسان ضعيفا أمام حاجات بدنه، وخلق هذه الحاجات قوية لكى يستمر الإنسان فى حياته باحثا عن الرزق باحثا عن الزوجة والولد والوئام الاسرى والاجتماعى، ولو لم تكن هذه الحاجات قوية لقعد الإنسان عن البحث والكدّ ولانقرض هذا الإنسان.

ومن حاجات الإنسان القوية حاجته إلى الزوجة، يجد عندها السكن والراحة النفسية والجسدية، وتأتى له بالولد الذى هو امتداد لحياته، وليست القضية مجرد شهوة ولكن الشهوة سبب من أسباب ضعف الإنسان الكثيرة فى حياته.

● **المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة.**

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات الكريمة كثيراً من الدروس العظيمة التى تثرى عملهم الدعوى الحركى، بل الذى لو فقدوه ما نجحت لهم خطة فى الدعوة والحركة، ولا تحقق لهم هدف.

ومن ذلك ما نشير إليه فيما يلى:

١ - يتعلم الدعاة إلى الله والمتحركون بالإسلام فى الناس والآفاق من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ....**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**....وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**﴾ ما يلى:

أ - أن منهج الله وشريعته وأحكامه تستهدف استقرار الاسرة والمجتمع، وإحاطة العلاقة بين الزوجين بالنظم والقوانين التى تحفظ لكل منهما حقوقه تجاه الآخر وتلزمه بأداء واجباته نحوه.

ومن ذلك:

- تحريم أن تورث المرأة كالمتاع.

- وأن تعضل المرأة لتجبر على افتداء نفسها من زوج ظالم لا يتقى الله فى زوجته.

- وتحريم إساءة عشرتها حتى عند الرغبة فى مفارقتها.

- ورعاية الميثاق الغليظ الذى شرع الله به الزواج وأحل الفروج.

وفى هذا ونحوه تكريم للمرأة فضلاً عن تأمين حقوقها كلها من أى عدوان يقع عليها من زوج أو غير زوج، وتأكيد لأن علاقة الزوجة بزوجها ليس كعلاقة حيوان بحيوان يقضى معه وطره، وإنما هى علاقة سكن ومودة ورحمة واحترام متبادل وحقوق تقابلها واجبات وعلاقة جسدية استحلت بموثق من الله.

- وليس كالدعاة إلى الله من يُجلّي هذه الحقائق، وليس كالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة مرجعية ينهل منها الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية.

ب - وأنّ من الواجب الذى فرضه الله تعالى على الزوج أن يحسن عشرة زوجه حتى لو كرهها أوكره الاستمرار معها فى حياته، فإنه على الرغم من ذلك مطالب بأن يعاملها بالمعروف.

- على أن كراهية الزوج لزوجته يجب أن يقاومها الزوج ماوسعته المقاومة، لأن من المحتمل أن يجد أحد الزوجين فى الآخر ما يرضيه حيناً، وهذا من شأن المؤمن لا يكره كراهية عمياء، تصرفه عما فيمن يكرهه من صفات حسنة، والحياة الزوجية مليئة بالاحتكاكات اليومية بين الزوجين ولابد أن يثور فيها من اختلاف وجهات النظر فى الأمور العادية اليومية ما يؤدى إلى ضيق أحد الطرفين بالآخر، وعندئذ يتعامل مع تلك المواقف بما وجهه إليه الرسول ﷺ، فيما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مؤمنةً؛ إن كره منها خُلُقا رضى منها آخر» وفى رواية «رضى منها غيره».

- والأصل أن يكون الزوج خيرا لزوجته من كل قريب لها لأنها وديعة عنده وأمانة لديه، فقد روى ابن ماجة بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله».

وروى الترمذى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى».

وروى الحاكم بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم

خيركم للنساء» أى عموم النساء سواء كن زوجات أو أمهات أو بنات أو أخوات أو من أى المحارم.

- هذا ما يستطيع أن يبشر به الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية، وهم يوضحون موقف الإسلام من المرأة، حتى لو كان تعامل الرجل مع المرأة على مستوى الكراهية والرغبة فى فك عقدة النكاح من زوجته، لأن الإسلام عالج هذه الكراهية بلمسة إنسانية رفيعة المستوى عميقة الصلة بالمشاعر الإنسانية حين خاطب الكاره الراغب فى المفارقة بقوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩)﴾ [النساء: ١٩] إنه عندئذ يكون خيراً للطرفين كليهما عند استحالة استمرار المعيشة.

جـ- إن الدعاة إلى الله يستطيعون أن يؤكدوا أن الإسلام فى تشريعاته كلها فيما يتصل بالمرأة والأسرة، قد ارتفع عن كل مستوى من المستويات التى تجمع بين رجل وامرأة، وأول هذه الروابط وأهمها عند الناس هى الحب بين الزوجين، ولكنهم يقصدون بالحب تلك النزوة الجنسية الجسدية التى تجمع بين ذكر وأنثى، فطرهما الله على الاحتياج لهذا اللقاء، ولكن المعنى الأكبر للحب -على الرغم من أهمية العلاقة الجنسية- هو الاحترام والتقدير لكل طرف منهما للطرف الآخر.

إن هذا الاحترام والتقدير يبعث على الصبر على عيوب الطرف الآخر، وتحمل ما تجيش به نفسه عند الغضب، ويبعث على الرعاية والعناية المتبادلة بينهما، ويبعث على الالتزام الشرعى والخلقى بحسن العشرة والتعامل بالمعروف.

ولقد أشار إلى ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما أخبره رجل بأنه يرغب فى طلاق امرأته لأنه لا يحبها؛ فقال له: ويحك!!! ألم تُبنَ البيوت إلا على الحب؟ فأين الرعاية وأين التذمم.

إن الحب إحدى الدعائم التى يقوم عليها البيت المسلم، لكنه ليس وحده، وإنما تنضم إليه دعائم كثيرة من أهمها -فيما أتصور- كما توصى بذلك هذه الآيات الكريمة، ما يلى:

أولاً: اعتبار المرأة إنسانا كامل الإنسانية، له الحقوق التى قررها الإسلام وعليه الواجبات التى كتبها عليه، وليست المرأة مجرد شيء يورث -كما كان حالها فى الماضى-.

- والزوج المسلم هو الذى يعين زوجه على أن تمارس حقوقها، وأن تؤدى واجباتها، ولا يكون ذلك إلا مع الاحترام والتقدير.

ثانياً: الالتزام بأمر الله ونهيه فى التعامل مع النساء، ويمكن إيجاز ذلك فى كلمتين: ما أحله الله للأزواج والزوجات، وما لم يحله لهم.

● والزوج المسلم لايكره زوجته على شيء فيه مساس بأى من حقوقها المعنوية أو المادية.

ثالثاً: تحريم مضارّة الزوجة فى العشرة حتى تضطر إلى افتداء نفسها فتخالع زوجها بتنازل عن بعض مالها.

● والزوج المسلم يفقه معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ....﴾ ويسعه فى ذلك خوفه من أن يصبح بهذا العضل لزوجته من الظالمين.

حتى لو عبس الزوج فى وجه زوجته ليس مباحاً، لأن المسلم يجب أن يلقى الناس جميعاً بوجه طلق، فما باله بزوجته التى اختارها شريكة ورفيقة له.

فضلاً عن أن العبوس ضعف نفسى وعقلى وخلقى وعجز عن الصبر على بعض ما يجد فى زوجته، وأين ذلك من قول الرسول ﷺ: «إن كره منها خلقا رضى منها آخر».

رابعاً: المعاشرة بالمعروف، استجابة لأمر الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذه هى القاعدة الأساسية فى تعامل الزوج مع زوجته، وهذه المعاشرة بالمعروف هى التى ترفد الحب وتقويه وتوجهه وتسدده.

● والزوج المسلم هو الذى يجعل المعاشرة بالمعروف طريقا إلى قلب زوجته وعقلها، ومن هنا يقوى الحب بينهما ويصبح أحد الدعائم فى حياة الأسرة المسلمة.

خامساً: المرونة وسعة القلب، ورحابة العقل التى يقابل بها تصرفات الزوجة، فتلك هى التى تطرد كل هاجس كراهية، لأن الأصل أن لا يفْرك مؤمن مؤمنة كما قال المعصوم ﷺ، فإن استحكمت الأهواء وضاقت الأخلاق، وتنوسى ما أمر الله به من المعاشرة بالمعروف وما ندب إليه من الصبر على بعض الأخلاق التى يكرهها من زوجته، تولدت الكراهية فى غيبة الالتزام بشرع الله.

● والزوج المسلم هو الذى يلتزم بشرع الله مع زوجته وإلا فإنه يسهم فى هدم بيته ويخرج من نعمة الأزواج والأسرة إلى وحشة الفرقة والانفراد وكان يستطيع أن يتفادى ذلك كله لو التزم بشرع الله تعالى واستجاب لأمره فى المعاشرة بالمعروف، وكذلك الزوجة.

● والزوج المسلم هو الذى يحب كما أمره الله ويبغض كما أمره الله، ولا يغتر بأن العيش معه

جنة فى الدنيا، ولا يتصور أنه يملك أن يحرم زوجته من تلك الجنة إن هو كرهها فطلقها ﴿ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) ﴾ [النساء : ١٩] .

ولنا أن نسأل هذا الزوج، كما تساءل الفاروق عمر بن الخطاب عندما شكا إليه الرجل من زوجته فقال له : « ... أين الرعاية والتذمم »؟ .

د – ويتعلم الدعاة إلى الله وعليهم أن يعلموا الناس أن الله تعالى منع الظلم وحرَّم دواعيه وأسبابه، وعندما يستحيل استمرار الحياة مع الزوجة ويرغب الرجل فى أن يفارقها ليتزوج بأخرى فإنه يحذر كل الحذر أن يظلم من طلقها مثقال ذرة من ظلم مادى أو معنوى، وليحذر أن يجبرها بسلوكه معها على أن تخالعه فى مقابل مال أو تنازل عن حق من حقوقها، فإن الزوج لو أخذ شيئاً من ذلك فإنما يرتكب إثما مبينا ويأتى بهتاناً وظلماً، مهما كان قد أعطى زوجته ولو كان قنطاراً من ذهب .

- وتستنكر الآية الكريمة على الزوج أن يأخذ شيئاً من هذا المال، وكيف يفعل وقد أفضى كل من الزوجين إلى الآخر، واستحل ذلك منها بميثاق غليظ أخذه عليه الله تبارك وتعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ .
- والزوج المسلم لا يجوز له أن يخيس بعهد أو أن ينقض ميثاقاً، وبخاصة إذا كان الميثاق ميثاق الله تعالى، والعهد عهد رسوله ﷺ .

ولقد قال العلماء إن خطبة الزواج لابد أن تشتمل على ذكر اسم الله تبارك وتعالى، وعلى الصلاة على نبيه الخاتم ﷺ ، فذلك هو الميثاق .

٢ – ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ... وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ما يلى :

أ – أن الله تعالى –من أجل بناء أسرة مسلمة نقية الأخلاق والأحساب والأنساب– قد حرَّم الزواج من عدد من النساء حصرهن العلماء فى أربعة عشر نوعا من النساء هن :

الأم والبنت والأخت والعمة والخالة وبنت الأخ وبنت الأخت، والأم من الرضاعة والأخت

من الرضاعة، وأم الزوجة، وبنت الزوجة بشرط أن يكون قد دخل بالأم، وزوجة الابن من الصلب، والجمع بين الأختين، وكل متزوجة من النساء.

وهذا التحريم فيه من مصالح الدنيا ومن دعم النظم الاجتماعية ما يكفل للمجتمع المسلم أن يشق طريقه نحو إرضاء الله تعالى وتحقيق النجاح والفلاح، وفيه من تلك المصالح ما لا يقادر قدره.

ومهما علل المعللون لهذا التحريم، فهو اجتهاد منهم قد يصيب حينا وقد يخطىء، والصواب والحق هو التسليم لشرع الله وحكمته والانتهاء عما حرم، والاستجابة لما أحَلّ.

ب - ويستطيع الدعاة إلى الله والمتحركون بالإسلام فى الناس والآفاق أن يزيدوا هذا الأمر بالتحريم توضيحا عندما يصنفون هذه المحرمات فى أنواع ثلاثة:

- محرمات بالقرابة والنسب.

- ومحرمات بالمصاهرة.

- ومحرمات بسبب الرضاع.

● فالمحرمات بالقرابة والنسب أربع هن:

- الأصول مهما علون كالأم والجدة من جهة الأم أو من جهة الأب ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾.

- والفروع مهما نزلن كالبنت وبنت الولد أو بنت البنت (الحفدة) ﴿...وَبَنَاتُكُمْ﴾.

- وفروع الأبوين مهما نزلن كالأخت وبنتها وبنت الأخ ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ﴾.

- وفروع الجدين المباشرين كالعمة والخالة ﴿وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ﴾ أما الجدان غير المباشرين ففروعهما كبنت العم وبنت العمة وبنت الخال وبنت الخالة، فيحل الزواج منهن وإن كان غير مستحب.

● والمحرمات بالمصاهرة خمس وهن:

- أصول الزوجة مهما علون كأم الزوجة وجداتها من جهة أبيها أو أمها، وذلك بمجرد العقد عليها دون الدخول بها ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾.

- وفروع الزوجة مهما نزلن كبنتها وبنات ابنها وبنات ابنتها، لكن هذا التحريم بشرط الدخول بالزوجة ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

- وزوجات الأب وزوجات الأجداد من الجهتين مهما علون ﴿ وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ .

- زوجات الأبناء، وزوجات أبناء الأبناء مهما نزل الأبناء ﴿ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ ﴾ .

- وأخت الزوجة وإن كان تحريمها مؤقتا بحياة الزوجة، فإن ماتت الزوجة أو طلقت جاز الزواج من أختها لأن المحرم هو الجمع بين الأختين ﴿ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ ﴾ .

ويلحق بأخت الزوجة فى التحريم عمتها وخالتها لنص الحديث النبوى على ذلك -كما ذكرنا ذلك آنفاً- .

- والمحرمات من الرضاع وهن تسع :

- الأربع اللاتى حرّمن بالنسب .

- والخمس اللاتى حرّمن من المصاهرة .

وأصل التحريم من الرضاع ما رواه مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنهما قالت : قال رسول الله ﷺ : «إنّ الرضاعة تُحرِّم ما تحرّم الولادة» .

جـ - وأن الإيمان بأن تحريم الزواج من هؤلاء المذكورات واجب، لأن هذا التحريم حرمه الله، ولأنه يحقق للناس مصالحهم فى الدين والدنيا، الإيمان بذلك واجب دون البحث عن تعليل، مع أن التعليل موجود، ومنه على سبيل المثال :

- أن المحرمات من الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت، ونظائرهن من الرضاعة، وأمهات النساء والربائب، كل هؤلاء ينظر إلى العلاقة بهن نظرة استمرار واستقرار، وبالزواج من واحدة منهن تتعرض هذه العلاقة للمشاحنات الزوجية التى قد تؤدى إلى الطلاق والتنازع، وهؤلاء لا انفصال عنهن بحال من الأحوال .

- وأن بعض المحرمات كالربائب اللاتى فى الحجور، والجمع بين الأختين، والجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، يؤدى الزواج منهن إلى التخاصم والتعادى بين من هن فى الأصل

أقارب وأرحام وقطيعة الرحم حرام.

- وأن مشروعية الزواج قامت فى جانب منها على توسيع نطاق الأسرة بضم أعضاء جدد إليها ممن يصهر إليهم، وذلك لا يحدث إن كان الزواج بهؤلاء القريبات من جهة النسب أو الصهر، فيضيع هدف اتساع الأسرة وانضمام أعضاء جدد إليها.

د - وأن تحريم الزواج من هؤلاء ليس تضييقا على الناس وإنما هو تنظيم وترشيد، لأن ما أحلَّ الله الزواج منهن أكثر بكثير ممن حرم الزواج منهن ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾ ما دام الزوج قد استوفى شروط النكاح من قدرة على المهر وإذن من الولى وإشهاد ونحو ذلك.

فضلاً عما أباح الله من التسرى بالإماء لمن لم يستطع أن يتزوج من الحرائر وخشى على نفسه العنت أو الوقوع فى الزنى.

● كل ذلك التحريم، وكل تلك الإباحة هى: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أى أمره وموثقه وإذنه سبحانه وتعالى.

هـ - وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا أن الإذن من الله تعالى فى القول والعمل والصمت والترك هو الأصل لأن التلقى فى التشريع يجب أن يكون عنه وحده سبحانه وتعالى، فقد أنكر الله على قوم أن لهم من دون الله شركاء يشرعون لهم أمورا لم يأذن بها الله، فقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ...﴾ [الشورى: ٢١]، فالأصل أن يكون الأمر والنهى من الله تعالى وحده: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

٣ - ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ....﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ ما يلى:

أ - أن الله تعالى يريد بهذه التشريعات وتلك النظم التى وضعها للفرد وللأسرة وللمجتمع عدداً من الأمور، كلها فى صالح الإنسان وكلها تدل على تقدير الإنسان واحترام إرادته، ومن تلك الأمور ما نذكره فيما يلى:

● أنْ يبين للمؤمنين حكمته فى التشريع، ويكشف لهم عن أهداف هذا المنهج -وهى فى

إجمال – تكوين المجتمع النظيف البعيد عن الجريمة وعن الانحراف، يريد بذلك أن يتدبر الناس فى حكم هذا المنهج فيقتنعوا به وبجدواه فيقبلوا على التمسك به مختارين مؤمنين بأنه منهج يكرم الإنسان، ويرتفع به عن منزلة الحيوان وسلوكه البهيمى، ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ .

- وأن يضع أيدى المؤمنين وعقولهم على حقيقة أن منهج الله واحد فى الناس جميعا، وأنه منهج ثابت لا يختلف باختلاف الزمان والمكان –بعد أن أتمه وأكمله فيما أنزله على خاتم رسله ﷺ– لأن أهداف هذا المنهج لا يختلف عليها أحد من العقلاء حتى لو كانوا غير مؤمنين بعد، لأنه المنهج الذى سلكته مواكب المؤمنين من قبل ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم ﴾ .

- وثالث هذه الأمور؛ أن الله تعالى يريد أن يتوب على كل من أخطأ فى حق نفسه فعطل المنهج أو شيئاً منه، لأنه سبحانه يعلم أن بعض الناس سوف لا يصبرون على تكاليف المنهج فيخطئون، لذلك كان من رحمته بهم أن فتح لهم باب التوبة عن الخطأ، ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

تلك هى بعض الأمور التى يريد الله تعالى بها أن يرحم خلقه وأن يحقق لهم –لو اتبعوا منهجه– صالح دينهم ودنياهم .

فماذا يريد أعداء الله من شياطين الإنس والجن ممن يتبعون الشهوات؟ .

ب – ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴾ إن على الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس عمل الذين يتبعون الشهوات وما ينوونه نحو المؤمنين، يوضحوا ذلك ليكون المؤمنون على حذر .

– إنهم يريدون من المؤمنين أن يحيدوا عن المنهج بتعطيله كله أو تعطيل بعضه .

– ويريدون منهم أن يميلوا عما أمرهم الله به ويتنكبوا طريق الحق والصراط المستقيم، وأن يقعوا فيما نهى الله عنه .

– ويريدون للمؤمنين مناهج أخرى لم يأذن بها الله ولم يشرعها لعباده ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴾ .

– ويريدون إطلاق الغرائز والشهوات من عقالها بحيث يصبح الإنسان كالحيوان .

جـ - وأن من رحمة الله بالإنسان وإرادته اليسر به لا العسر، أنه سبحانه يخفف عنه، لعلمه بضعفه وقلة احتماله، فلم يشرع له منهجا يشق عليه تطبيقه، ولا حرّم عليه ما يستحيل عليه الامتناع عنه.

● ومن هذا التخفيف أنه نظم الزواج ووضع له الأحكام العادلة والآداب الإنسانية الكريمة؛ فأباح له الزواج من غير المحرمات واحدة أو اثنتين أو ثلاث مع زوجته الأولى إن دعته الظروف إلى ذلك التعدد.

● ومن هذا التخفيف أن أباح الزواج بالإماء - وهن أرخص مهورا وأقل كلفة من الحرائر - إذا عجز الرجل عن الزواج من الحرة، بشروط سبق أن ذكرناها.

● وهذا التخفيف متسق مع فطرة الإنسان التي فطره الله عليها، فهو قد فُطر على أن يستميله هواه، وتستخفه شهوته، ويورطه غضبه ويوقعه كل ذلك في المتاعب - إلا من عصم الله وهم قليل - وهذا هو الضعف الذي جبل عليه الإنسان، لكن قليلا من الناس يستطيعون مع التزامهم بالمنهج وتمسكهم بسنة المعصوم ﷺ أن يستعلوا على هذه الشهوات والنزوات.

● ومن أوضح ما يكون ضعف الإنسان - كما قال بذلك كثير من العلماء - أنه لايصبر عن النساء، ولا يستطيع الاستغناء عنهن، لما فطره الله عليه من رغبة جنسية لاتعبر عن نفسها إلا عند الالتقاء بالمرأة في علاقة زوجية مشروعة.

ولذلك شرع الله له الزواج، بل ألزمه به إلزاما مادام مستطيعا، وحرم عليه التبتل واجتناب النساء، كما نهى عن الرهبنة والخصاء وكل ما يحول بين الرجل والمرأة والتعبير عن رغبتهما الجنسية.

● ويستطيع الدعاة إلى الله أن يذكروا في هذا المجال بكثير من الأحاديث النبوية التي ترغب في النكاح وتنهى عن التبتل واجتناب النساء ولو كان ذلك للعبادة[1].

● ومن رحمة الله تعالى بالإنسان وتقديره لضعفه أمام حاجته إلى الزوجة، أن أباح له الزواج من الحرائر والتسري بالإماء على نحو ما فصلنا في ذلك من شروط وآداب.

---

(1) على الدعاة أن يتزودوا بالأحاديث التي وردت في أبواب النكاح في:
- صحيح البخاري.
- وصحيح مسلم.
- وسنن الترمذي.
- وسنن أبي داود.
- وسنن النسائي، ومعظم كتب السنة من مسانيد ومجاميع.

٥ - الآيات الكريمة من الآية التاسعة والعشرين

إلى الآية الخامسة والثلاثين

تشريعات في الأموال وفي الأنفس

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا (٣١) وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢) وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾
[النساء: ٢٩-٣٤].

هذه الآيات الكريمة متممة للتشريعات التى جاءت فى أول هذه السورة الكريمة فيما يخص أحكام الأموال، سواء أكانت حقا لليتامى، أم حقا لورثة، أم حقا للنساء، فهى تضع تشريعا مالياً عاماً يوضح ما يحل فى المال وما يحرم من تناوله وتداوله، وحسد الناس عليه.

وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة على ما يلى:

- النهى عن أكل الأموال أى الحصول عليها بالباطل، أو إنفاقها فى الباطل.
- ونهى عن قتل النفس.
- وتهديد لمن لم يلتزم باجتناب هذه النواهي.
- ونهى عن الحسد.

- وأمر بإعطاء كل ذى حق حقه من أموال أىّ تركة .
- وتحديد لمكانة الرجل من زوجته، وأن القوامة له فى البيت .
- وتوضيح لتعامل الزوج مع زوجته عند نشوزها، التى تبدأ بالموعظة وقد تنتهى بالتحكيم بينهما بولى من أهله وولى من أهلها .

● وكل هذه التشريعات إنما تستهدف استقرار الحياة الاجتماعية بين الناس عموما وبين أفراد الأسرة خصوصا وبين الزوجين بوجه أخص .

تفصيل القول فى تفسير هذه الآيات الكريمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾

الخطاب فى هذه الآية لكل المؤمنين فى كل زمان ومكان .

﴿ لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾

الأكل : أصلا تناول الطعام، ومن معانيه أكل المال، وأكل المال بالباطل : صرفه إلى ما ينافيه الحق .

﴿ أَمْوَالَكُم ﴾ أضاف المال إلى الجمع - مع أن المقصود : لا يأكل بعضكم مال بعض - للتنبيه على ما بين المؤمنين من التكافل فى الحقوق والمصالح . لأن المعنى : أن مال كل أحد منكم هو مال الأمة جميعا، فمن استباح أن يأكل مال غيره بالباطل فكأنه أكل أموال الأمة كلها بالباطل، وكذلك لو أنفقه فى وجوهه الشرعية، فكأنه أنفقه للأمة كلها، لا لمن أنفق عليه وحده، وتلك هى روح التكافل، بل لبابه وجوهره .

﴿ بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ أى بغير حق، وهذا الباطل أنواع؛ فيها : الربا، والقمار، والخداع، والغش، والغصب، وجحد الحقوق، وأثمان الخمور، ومهر البَغِىّ، وحلوان الكاهن، وثمن الخنزير، وما لاتطيب به نفس مالكه، وما حرمته الشريعة الإسلامية عموما، ويدخل فيه أىّ حصول على المال من وجه حرام، وإنفاقه فى وجه حرام .

- ومن الأكل بالباطل أن يقضى لك القاضى بمال أنت تعلم أنه ليس من حقك، لأن الحرام لايصير حلالا بقضاء القاضى لأنه يحكم بالظاهر له وقد لا يكون هذا الظاهر هو الحق .

﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾

التجارة هى البيع والشراء أى المعاوضة، والتجارة نوعان :

النوع الأول:

تداول المال والتصرف فيه طلبا للربح فى الحَضَر دون نقله ولا السفر به، وهذا النوع من التجارة يدخل فى الاحتكار وهو غير مرغوب فيه عند الفضلاء والاتقياء.

والنوع الآخر:

هو تداول المال والتصرف فيه مع نقله من مصر إلى مصر، وهو أليق بأهل المروءة وأعم جدوى ومنفعة، غير أنه أكثر خطرا وأعظم غررا.

وتداول المال تجارةً بيعاً وشراءً - أى معاوضة ثمن بثمن - فى ظل شروط وآداب كثيرة سنشير إلى بعضها فيما بعد.

﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ أى عن رضا، وتمام الرضا - كما قال العلماء: بافتراق البائع عن المشترى بعد عقد البيع، أى الإيجاب والقبول بأن يقول له: اختر، فيقول: اخترتُ.

وقال جماعة من الصحابة والتابعين: إن البيع ينجزم وإن لم يفترق البائع والمشترى مادامـا قد تراضيا وحدث إيجاب وقبول.

وللمشترى الخيار، أى إمضاء عقد البيع أو رفضه ما لم يتفرق البائع والمشترى، وهذا هو معنى الحديث النبوى الشريف الذى رواه البخارى ومسلم وأحمد بأسانيدهم عن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البيْعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صَدَقَا وبَيَّنَا بورك لهما فى بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحقَتْ بركة بيعهما» وقد أكد هذا المعنى أكابر العلماء ومنهم: الإمام مالك وأبو حنيفة ومحمد بن الحسن.

- والتاجر الصدوق الأمين له فى الإسلام منزلة عظيمة. فقد روى الدارقطنى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين المسلم مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة».

- وليس للتاجر أن يحلف من أجل ترويج السلعة وتزيينها.
- ويستحب للتاجر ألا تشغله تجارته عن أداء الفرائض.

فإذا جاء وقت الصلاة ينبغى أن يترك تجارته حتى يكون من أهل قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

- وهذه الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ

﴿تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ ردٌّ على أولئك الجهلة من المتصوفة الذين ينكرون طلب الأقوات بالتجارات والصناعات، لأن الله تعالى حرم أكل الأموال بالباطل وأحلها بالتجارة.

قال بعض العلماء: الحكمة فى إباحة التسامح فيما يكون بين التجار من غَبْن أو تسامح هى الترغيب فى التجارة لشدة حاجة الناس إليها وتنبيه الناس إلى استعمال ما أوتوا من الذكاء والفطنة فى اختيار الأشياء ولتدقيق فى المعاملة حفظا لأموالهم التى جعلها الله لهم قياما من أن يذهب منها شىء بالباطل، أو بدون منفعة تقابل هذه الأموال.

● والمعنى العام لهذه الآية الكريمة: نهى المؤمنين عن أكل أموال الناس بغير مقابل لها من عين أو منفعة، والسماح لهم بأكل هذه الأموال بالتجارة التى يقوم الحلال فيها على التراضى بين الطرفين. فذلك هو اللائق بأهل الدين والمروءة؛ إذا أرادوا أن يكونوا من هل الدثور والثروة.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ وهذا النهى عن نوعين من القتل؛ قتل الغير وقتل الرجل نفسه، مهما كانت حاله من ضجر أو غضب أو يأس ونحوه، لأن ذلك كله محظور شرعا.

قال البقاعى: ولما كان المال عديل الروح، ونهى الله عن إتلافه بالباطل نهى كذلك عن إتلاف النفس، فكان النهى عن ذلك أنسب لما بُنيت عليه السورة من التعاطف والتواصل.

وقد اختير هذا التعبير ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى لا يقتل بعضكم بعضا، للإشعار بتعاون الأمة وتكاملها ووحدتها.

- ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى القتل وإلى أكل أموال الناس بالباطل، أو إلى كل ما نهى الله عنه، فى الآيات التى سبقت من هذه السورة.

- ﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

العدوان: تجاوز الحد.

والظلم: وضع الشىء فى غير موضعه.

من يفعل ذلك كله أو بعضه نصليه نارا - أى نُمسُّه حرّها - وكان ذلك على الله يسيرا، وقريبا من المعتدين الظالمين غير بعيد عنهم.

- ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

وهذا من رحمة الله الواسعة بعباده إذ جعل اجتناب الكبائر سببا فى تكفير السيئات ودخول الجنة.

والكبيرة هى: كل ذنب تعظم عقوبته، وجمعها: كبائر.

ومن معانى الكبيرة: أنها الشرك وسائر المعاصى.

وقد تكفلت السنة النبوية بتحديد أنواع الكبائر:

فقد روى مسلم بسنده رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى الكبائر، قال: «الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وقول الزور».

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولِّى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

وروى مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه، قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه».

وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: الكبائر أربعة: اليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأَمْن مِن مَكْرِ الله، والشرك بالله، دَلَّ عليها القرآن الكريم.

وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال: الكبائر تسع: قتل النفس، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، ورمى المحصنة، وشهادة الزور، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، والسحر، والإلحاد فى البيت الحرام».

وقال كثير من العلماء: من الكبائر: القمار، والسرقة، وشرب الخمر، وسب السلف الصالح، وعدول الحكام عن الحق، واتباع الهوى، وسب الإنسان والديه، والسعى فى الأرض فسادا.

وقال القرطبى فى تفسيره: من الكبائر ما نشير إليه فيما يلى:

الشرك بالله وهو أكبر الكبائر وهو لايغفر، واليأس من رحمة الله، والقنوط، والأَمْن مِن مكر الله فيسترسل فى المعاصى ويتكل على رحمة الله من غير عمل، والقتل، واللواط،

والزنى، والخمر، وترك الصلاة والأذان، وشهادة الزور.

● والقاعدة العامة فى اعتبار العمل من الكبائر هى: أن الكبيرة هى كل ذنب عَظَّم الشرع التوعد عليه بالعقاب وشدده، أو عَظُم ضرره فى الوجود، وما عدا ذلك فهو من الصغائر.

﴿ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ وذاك هو الجنة.

وقد قال أبو داود السجستانى: سمعت أبا عبيد الله أحمد بن حنبل يقول: المسلمون كلهم فى الجنة، فقلت: كيف؟ قال: يقول الله عز وجل: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ يعنى الجنة.

(ويعزز معنى هذه الآية ويوضحها) وقول النبى ﷺ: «ادَّخرتُ شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى» فإذا كان الله عز وجل يغفر ما دون الكبائر، والنبى ﷺ، يشفع فى الكبائر، فأى ذنب يبقى على المسلمين» انتهى كلام الإمام أحمد رحمه الله.

وقال جمهور علماء المسلمين: الكبائر عند أهل السنة تغفر لمن أقلع عنها قبل الموت، وقد يغفر لمن مات عليها من المسلمين كما قال تعالى: ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ والمراد بذلك من مات على الذنوب.

● ونذكر هنا بما سبق أن ذكرنا، فى بداية هذا الكتاب تحت عنوان: «كلمات حول سورة النساء» من قول ابن مسعود رضى الله عنه: خمس آيات من سورة النساء هن أحب إلىّ من الدنيا جميعا:

- قوله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾.

- وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾.

- وقوله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) ﴾.

- وقوله: ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) ﴾.

- وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٥٢) ﴾.

● ونذكر بما قلناه فى بداية السورة الكريمة من قول ابن عباس رضى الله عنهما: ثمانى آيات فى سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ و ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ... ﴾ و﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ... ﴾ و﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ... ﴾ و﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ... ﴾ .

و ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

و ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

و ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ .

انتهى كلام ابن عباس رضى الله عنهما .

- ﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾

جاء فى سبب نزول هذه الآية الكريمة ما يلى :

- روى الترمذى بسنده عن مجاهد عن أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : يغزو الرجال ولايغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ قال مجاهد : وأنزل فيها : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ... ﴾ وكانت أم سلمة رضى الله عنها أول ظعينة[١] قدمت المدينة مهاجرة .

قال الترمذى : هذا حديث مرسل[٢] .

- وقال قتادة : كانوا فى الجاهلية لايورثون النساء ولا الصبيان فلما وُرِّثوا، وجعل للذكر مثل حظ الانثيين، تمنى النساء أن لو جُعل أنصباؤهن كأنصباء الرجال، وقال الرجال : إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا فى الآخرة، كما فضلنا عليهن فى الميراث، وقالت النساء : إنا لنرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال فى الآخرة كما لنا الميراث النصف من نصيبهم فى الدنيا، فنزلت : ﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ .

﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا ﴾ نَهَى الله المؤمنين عن التمنى لأنّ فيه تعلق البال، ونسيان الأجل. والتمنى هو طلب حصول ما يعسر حصوله للطالب وذلك له أحوال منها :

---

(١) الظعينة : المسافرة أو المرتحلة .

(٢) المُرْسَل من الحديث هو ما سقط منه الصحابى ورواه التابعى اى ان مجاهداً هو التابعى الذى رواه ولم يذكر أم سلمة رضى الله عنها .

١ - أن يتمنى ما هو من فضل الله غير ملتفت فيه إلى شيء بيد الغير، ولا مانع يمنعه من شرع أو عادة، سواء أكان ممكن الحصول كتمنى الشهادة فى سبيل الله، أم كان غير ممكن الحصول كقول الرسول ﷺ: «ليتنا نرى إخواننا» يعنى المسلمين الذين يجيئون بعده.

٢ - ومنها أن يتمنى مالا يمكن حصوله لمانع عادى أو شرعى كتمنى أم سلمة رضى الله عنها أن تغزو النساء كما يغزو الرجال، وتمنى بعض النساء أن تكون المرأة مساوية للرجل فى الميراث.

٣ - ومنها أن يتمنى تمنيا يدل على عدم الرضا بما ساقه الله، والضجر منه، أو يدل على عدم الرضا بالأحكام الشرعية.

٤ - ومنها: أن يتمنى نعمة تماثل نعمة فى يد غيره مع إمكان حصولها لمن تمناها، دون أن تسلب ممن هو فى يده، كتمنى علم مثل علم فلان، أو مال مثل مال فلان.

٥ - ومنها أن يتمنى نعما لا تحصل له إلا بأن تزول ممَّن أنعم بها عليه، كتمنى ملك بلد لها رئيسها أو تمنى زوجة رجل بعينه.

٦ - ومنها أن يتمنى زوال نعمة عن غيره دون أن يقصد حصولها له.

- والنهى فى الآية الكريمة منصب على ثلاثة أنواع من هذه الستة التى ذكرنا وهى:

- تمنى ما لا يمكن حصوله لمانع شرعى أو عادى.

- والتمنى الذى يدل على عدم الحصول على الرضا بقضاء الله وشرعه.

- وتمنى زوال نعمة عن الغير.

كل ذلك حرّمه الله تعالى فى هذه الآية الكريمة.

- أما تمنى ما هو من فضل الله دون نظر إلى أنه بيد الغير، أو تمنى نعمة من علم أو مال تماثل نعمة فى يد الغير دون أن تسلب من صاحبها، فهذا جائز شرعا.

- والحكمة فى النهى عن أنواع من التمنى وتحريمها أنها تفسد العلاقة بين الناس فى معاملاتهم، فينشأ عن هذا التحاسد، والحسد أول ذنب عُصى به الله تعالى حين حسد إبليس اللعين آدمَ عليه السلام، وكذلك كانت أول جريمة فى الدنيا بسبب الحسد حين حسد أحد ابنى آدم أخاه فقتله.

كما حُرِّم الحسد لما يترتب عليه من الغضب والشر والأذى، **بل إن التأمل فى الحروب والصراعات بين الناس لايستطيع أن يُخْلىَ كثيرا منها من الحسد.**

● دليل تحريم الحسد قول الله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق:٣]، وذَمُّ الله تعالى للحاسد فى قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾

[النساء: ٥٤].

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: نهى الله تعالى أن يتمنى الرجل مال فلان وأهله، وأَمَر عباده أن يسألوه من فضله.

وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا...».

والحديث الجامع فى التعامل مع الناس ومع المال - الذى يتحاسد الناس من أجله، هو ما رواه أحمد و الترمذى بسنديهما على أبى كبشة الأنمارى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاث أقسم عليهن:

ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عز وجل عزا، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر.

وأحدثكم حديثا فاحفظوه: إنما الدنيا لأربعة نفر:

عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقى فيه ربه، ويصل فيه رحمه ويعمل لله حقا، فهذا بأفضل المنازل.

وعبد رزقه الله تعالى علما ولم يرزقه مالا، فهو صادق النية يقول: لو أن لى مالاً لعملتُ بعمل فلان، فهو بنيته فأجرهما سواء.

وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علماً، يخبط فى ماله بغير علم، لا يتقى فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعمل لله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل.

وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علماً فهو يقول: لو أن لى مالا لعلمت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، فَوِزْرهما سواء».

- ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾

والمعنى أن الله تعالى كلَّف كلاً من الرجال والنساء أعمالا فما كان خاصا بالرجال لهم نصيب من أجره لايشاركهم فيه النساء، وما كان خاصا بالنساء، لهن نصيب من أجره لايشاركهن فيه الرجال، وليس لأحد من الرجال أو النساء أن يتمنى ما هو مختص بالآخر.

ويمكن أن يكون المعنى كما قال قتادة: للرجال نصيب مما اكتسبوا من الثواب والعقاب، وللنساء كذلك، فللمرأة الجزاء على الحسنة بعشرة أمثالها كما للرجال.

- ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ﴾.

هذا التعبير يحتمل من المعانى ما يلى:

- أن للرجال مزاياهم وحقوقهم، وللنساء مزاياهن وحقوقهن، فمن تمنى مالم يُعَدّ لصنفه فقد اعتدى، لكن عليه أن يسأل الله من فضله بأن يعطيه ما أُعد لصنفه من المزايا، ويجعل ثوابه مساويا لثواب الاعمال التى لم تعد لصنعه.
- ويمكن أن يكون المعنى: لاتتمنوا ما فى يد الغير واسألوا الله من فضله، فإن فضل الله يسع الإنعام على الكل، فلا أثر للتمنى إلا تعب النفس.

وقد روى الترمذى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله من فضله فإنه يحب أن يُسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج».

- ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أى يعلم ما تضمره النفوس ويحاسب عليه، وعلى كل أحد أن يراقب ربه فى كل عمله.

- ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾.

- الموالى للميت هم جميع ورثته من الاصول والفروع والحواشى.
- والذين عقدت أيمانكم هم الأزواج فإن كل واحد من الزوجين يصبح صاحب حق فى الإرث بعقد الزواج.
- وآتوهم نصيبهم: خطاب لمن فى أيديهم التركة بأن يعطوا كل صاحب حق فى الميراث حقه،لأن الله تعالى شهيد على كل شيء، رقيب يشهد تصرفكم فى التركة.

- وقيل: الذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم من النصرة والنصيحة والرِّفادة.

- وقيل: الذين عاقدت أيمانكم هم الاحلاف، وقالوا: كان للاحلاف نصيب، ثم ألغى بقوله تعالى: ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [الانفال: ٧٥] أى آتوهم نصيبهم بالوصية والنصرة والرفادة، بعد أن ألغى نصيبهم فى الميراث، وكانوا يورثون الحليف السدس.

- ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ إلى قوله

تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ...﴾.

القوامون: هم الذين يقومون بالأمر ويهتمون بحفظه، ويكونون مسئولين عنه.

وقوامة الرجل على المرأة لها وجوه كثيرة بعضها بسبب صفات فطرية منحها الله للرجل لكى تكون له القوامة، وبعضها بسبب أحكام شرعية شرعها الله لتستقيم بها حياة الأسرة.

● فالصفات الفطرية هى:

- القدرة البدنية فهو أكثر تحملا للمشاق والسعى على الرزق من المرأة، وهذا مما فضَّل الله به الرجال على النساء.

- والقدرة العقلية، إذ هى فى الغالب عند الرجال أتم، وإن كان من غير الغالب أن يحدث العكس.

ولهذا كانت للرجال القوامة على النساء حتى يكفلوا لهن عيشا هنيئا مريحا، وكانت قوة بدن الرجل عونا له على ذلك، فى حين خلق الله المرأة تتعرض - حسب ما فطرها الله عليه - لطمث شهرى وحمل وولادة وإرضاع وفطام وحضانة، وكل ذلك مما يمثل عبئا على بدنها ويوهن من قوتها وقدرتها، فالرجل مطالب بالإنفاق عليها.

● وأما الصفات الشرعية التى جعلت القوامة للرجل، فتعود فى مجملها إلى أن الشريعة الإسلامية ألزمت الرجل وكلفته بما تلزم به المرأة أو تكنفها به.

وبعض العلماء يذكرون فى ذلك أوْجهاً نصت عليها الشريعة، ومن ذلك ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

- اختيار الله تعالى الأنبياء من الرجال، لما لهم من قدرات ليست للنساء.

- وجعل الإسلام الإمامة فى الرجال سواء أكانت إمامة عامة أو إمامة فى الصلاة دون النساء - إلا أن تؤم امرأة مجموعة من النساء فى الصلاة.

- والأذان للصلاة والإقامة، والخطبة فى الجمعة وغيرها من أنواع الخطبة كل ذلك للرجال دون النساء.

- وجعل الجهاد والحروب للرجال دون النساء.

- وجعل الشهادة فى الحدود والقصاص مقصورة على الرجال.

- وللرجل فى الميراث نصيب يساوى ضعف نصيب المرأة.

- والرجل يتحمل الدية دون المرأة.

- والرجل يعصب المرأة فى الميراث، بينما المرأة لاتعصب الرجل(١).

- وللرجل الولاية على المرأة فى النكاح والطلاق والرجعة، ويباح له التزوج بأكثر من واحدة، وليس ذلك للنساء.

- والرجال مطالبون بالإنفاق على الزوجة ومن قبل الزواج كان مطالبا بتقديم المهر، والنفقة تعنى تأمين السكن والملبس والطعام والشراب، وكل ما تحتاج إليه الحياة الإنسانية الكريمة.

● يفهم ذلك كله من قوله تعالى: ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾.

- ﴿ **فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ** ﴾.

وصف الله تعالى المرأة الصالحة بوصفين هما:

القنوت: أى الطاعة سواء أكانت لله أو الزوج.

وحفظ الغيب: بمعنى أنها تحفظ نفسها من الزنى ودواعيه، وأن تحفظ مال زوجها عن الضياع وأن لاتسرف فيه ولاتبذر، وأن تحفظ بيته عن كل ما لا ينبغى...

وكل هذه الأنواع من الحفظ وردت فى السنة النبوية المطهرة، فقد روى أحمد والنسائى بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء التى تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فى نفسه ولا مالها بما يكره».

وروى الطبرانى بسنده - فى الكبير - عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء مَنْ تسرُّك إذا بصرت وتطيعك إذا أمرت، وتحفظ غيبتك فى نفسها ومالك».

- ﴿ **بِمَا حَفِظَ اللَّهُ** ﴾ أى حافظات للغيب فى مقابل ما حفظ الله لهن من الحقوق على أزواجهن من مهر ونفقة وعدل ومعاشرة بالمعروف أو تسريح بإحسان، وكل ذلك من الدعائم التى أقام عليها الإسلام بناء الحياة الزوجية.

---

(١) العَصَبَة: هو الرجل الذى ليس له فريضة فى الميراث، وإنما يأخذ ما أبقى أصحاب الفروض بشرط أن يكون من أقرباء الميت بالنسب لا بالصهر.

ويمكن أن يكون المعنى : حافظات للغيب بما أمر الله به من حفظ نفسها وزوجها وبيتها ... إلخ .

- ﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾ .

النشوز هو : معصية الزوج، والترفع عليه بالخلاف ونحوه من التعالي.

وخوف النشوز - كما قال الإمام الشافعي رحمه الله قد يكون قولا وقد يكون فعلا، وكلاهما مرفوض.

- فنشوز القول مثل أن كانت تقوم إليه إذا دخل عليها، أو تُسارع في تلبية أمره، أو تبادر إلى فراشه باستبشار إذا التمسها أو دعاها إلى فراشه، ثم إنها تغيرت عن ذلك.
- ونشوز الفعل مثل عصيان الزوج ومخالفته، بشرط ألا يأمرها بمعصية الله تعالى.
- وهذه الزوجة الناشز أوجب الإسلام على زوجها أن يعالجها، وعلاجه بأمور تربوية متدرجة، وهي :

- الموعظة الحسنة : كأن يقول لها اتقى الله فإن لي عليك حقا، وراجعي نفسك وارجعي عما أنت عليه، ويذكرها بطاعة الله فيه، وما أمرها به نحوه.

- والدرجة الثانية - بعد أن لم تجد الموعظة - هي هجرها في المضجع، ويدخل فيه امتناعه عن كلامها، ولايزيد في الامتناع عن الكلام على ثلاث.

وهجر المضجع قد يكون بترك النوم معها في فراش واحد، وقد يكون بالامتناع عن جماعها، كل ذلك حتى ترجع عن النشوز.

والدرجة الثالثة - بعد أن لم يجد الهجر في المضجع - هو ضربها وقد أباحه الله تعالى بشروط تجعل تركه أولى وأفضل وأليق بالزوج والزوجة على السواء، وهو بشروطه ضرب للتهديد لا للأذى وترك الأثر.

فقد روى أبو داود والنسائي وغيرهما بأسانيدهم عن إياس الدوسي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لقد طاف الليلة بآل محمد نساء كثير، كلهن تشكو زوجها من الضرب، وايم الله لا تجدون أولئك خياركم» أي أن الذين ضربوا زوجاتهم ليسوا من خيار المسلمين بل خيارهم الذين لايضربون نساءهم.

- ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ أي إن حصلت طاعتهن وتركن النشوز بالعظة فلا سبيل للرجل على زوجته بالهجر في المضجع فضلا عن الضرب لأن

اللجوء إلى ما هو أشق دون حاجة إليه تعنت لايبيحه الله تعالى.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ فيه تهديد للأزواج الذين يظلمون زوجاتهم، فهو سبحانه وتعالى العلى الكبير القادر على نصفة المظلوم من الظالم، وهو سبحانه وتعالى مع علوه وكبريائه لايكلفكم إلا ما تطيقون.

- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

المعنى - والله أعلم - أنه إذا استنفدت وسائل التأديب للمرأة الناشز كي ترجع عن نشوزها، وقام بين الزوجين شقاق، أو خيف شقاق، ولم تجد هذه الوسائل فإن الطريق مفتوح للتحكيم بين الزوجين:

- بحكم من أهله: أى أهل الزوج، ويرى بعض العلماء أن الحكم هو الإمام، أو من يلى مِنْ قِبَله، لأنه مطالب بتطبيق الأحكام.

- وحكم من أهلها: وقد يكون الإمام أيضا، وقد يكون الحكمان من صالحى المؤمنين الذين تربطهم بالزوجين قرابة.

فإن يرد هذان الحكمان الإصلاح بين الزوجين يوفق الله الحكمين حتى يتفقا على ما هو فى صالح الزوجين.

وقد روى ابن سيرين عن على رضى الله عنه أنه جاء رجل وامرأة ومع كل واحد منهما جمع من الناس، فأمرهم علىّ رضى الله عنه بأن يبعثوا حكما من أهله وحَكَمًا من أهلها، ثم قال للحكمين:

تعرفان ما عليكما، إن رأيتما أن تجمعا فاجمعا، وإن رأيتما أن تفرقا ففرقا.

فقالت المرأة: رضيت بكتاب الله تعالى فيما عَلَىّ أو لى فيه،

وقال الرجل: أما الفرقة فلا، فقال له علىّ رضى الله عنه: كذبتَ والله، حتى تُقر الذى أقَرَّت به.

- ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ هذا وعيد للزوجين وللحكمين، إذا سلك أى واحد منهما ما يخالف طريق الحق.

وبعد: فليس نظام أحفظ لحق كل من الزوج والزوجة من هذا النظام الذى جاء به الإسلام، وليس نظام أعدل ولا آمَنَ مِنْ هذا النظام.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة :

هذه التشريعات فى الأموال والأنفس متممة للتشريعات التى جاءت فى صدر هذه السورة الكريمة فيما يخص أحكام الأموال التى هى حقوق لليتامى، أو للنساء أو للورثة عموما، وهذه التشريعات وتلك ممتزجة بالقيم التربوية أتم امتزاج وأكمله، فكل تشريع منها أو من تشريعات القرآن كلها منظور فيه إلى إقرار القيم التربوية التى لابد منها لممارسة الحياة الإنسانية الكريمة .

وعلى سبيل المثال :

- فإن تشريع النهى عن أكل أموال الناس بالباطل، وجواز أكلها بالحق - وهو التجارة - يستهدف استقرار الحياة الاقتصادية بين الناس، وإقرار العدل ومقاومة الظلم .

وتلك قيم تربوية للمجتمع كله، بل من أهم القيم التربوية .

- والتشريع الخاص بالنهى عن قتل النفس منظور فيه إلى أن حق الإنسان فى الحياة مكفول له على كل حال، وليس لأحد أن ينهى حياته أو حياة غيره بيده، ليأمَن الإنسان على نفسه، وعلى حياته، وفى ذلك ردع لكل من يفكر فى جريمة القتل، لما سيواجهه من عقاب فى الدنيا وعقاب فى الآخرة - كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة .

وتلك قيم تربوية تبعث على الشعور بالأمن والاطمئنان، ليقبل الناس على الحياة وعلى ممارسة العمل الصالح .

- والتشريع الخاص بالنهى عن التطلع إلى ما أنعم الله به على بعض الناس من نعم، جعل لهذا التطلع أحكاما وشروطا وآدابا .

ومن ذلك : الاعتقاد بأن الله تعالى هو واهب تلك النعم لمن شاء من عباده، والرضا بذلك والتسليم به .

والاعتقاد بأن ما فى أيدى الناس من نعم هو حق لهم لا يجوز المساس به، ولا حسدهم عليه .

وهذا التشريع منظور فيه إلى قيمة تربوية تُعد أساساً فى الحياة الاجتماعية، وهى أن يرضى كل إنسان بما قسم الله له، ولا يستكثر على أحد ما عنده من نعمة ولا يحسده عليها، وهذا الرضا هو الذى يولد فى الناس الحب والرحمة فيما بينهم، إذ بغير هذه المحبة والمرحمة يكون التعادى والتناحر، وكل ما يقوض دعائم الحياة الاجتماعية .

هذه القيم التربوية التى يتعلمها المسلمون من هذه الآيات الكريمة نشير منها إلى ما يلى - والله الموفق -:

١ - يتعلم المسلمون من قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ ما يلى:

أ - أن المؤمن - لكى يكون إيمانه صحيحا كاملا - فإن عليه أن يمنع نفسه من أكل أى مال بالباطل، سواء أكان ماله هو فإنه لا يحل له أن يأكله بالباطل بأن ينفقه فيما حرم الله، أم كان مال غيره كأن يأكله بالربا أو الغصب أو السرقة أو الغش أو شهادة الزور، أو اليمين الكاذبة، أو بجحده لحرمان صاحبه منه، هذا كله لايبيحه الله تعالى، ولا يتفق مع الإيمان ولا الإسلام.

على أن الله تعالى أباح أكل الأموال حلالا، وهى التى يتم التعامل عليها وفق ما شرع الله من نظم كالبيع والإجارة والرهن، والسَّلَم، والمزارعة، ونحوها.

ب - ويستثنى من أكل أموال الناس بالباطل أن يكون هذا الأكل بسبب التجارة الحاضرة التى تقوم على التراضى بين الطرفين - الإيجاب والقبول - وعلى الخيارات الشرعية المعروفة.

وإنما خص التجارة بالذكر - وإن كان المال يحل أكله بالهبة والوصية والميراث والمهر والديات وأروش الجنايات ونحو ذلك - لأن التجارة هى مظنة الأكل بالباطل لما تشتمل عليه من غَبْن مباح ما دام الطرفان متراضيين.

والمؤمن مطالب بأن يتحرز عن أكل أى مال بغير وجه من الوجوه التى أباحتها شريعة الإسلام، لأن ذلك يطهره من المال الحرام فى الدنيا ومن العذاب يوم القيامة.

جـ - وأن أكل المال بالباطل حرام، كما أن قتل النفس بالباطل حرام، وإضافة النفس إلى الجمع ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ يوحى بأن النفس الواحدة هى نفس الأمة كلها، فَمَن قتلها فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا، وفى هذا إحياء للمجتمع كله بالمحافظة على الأنفس فيه.

وفى هذا الالتزام بتحريم قتل النفس وتحريم أكل أموال الناس بالباطل، حياة للفرد

وللمجتمع وأمن وأمان للحياة فيه، وتلك حكمة هذا التشريع العظيم.

د - وأن رحمة الله بأمة محمد الخاتم ﷺ أكيدة بهذه التشريعات ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ وفى ذلك إشارة إلى ما عاقب الله به بنى إسرائيل لما أخطأوا وعصوا الرسل، وتجبروا وتكبروا - حين أمرهم بقتل أنفسهم ليكون ذلك توبة لهم عن خطاياهم وتمحيصا لإيمانهم بعد أن اتخذوا العجل إلها، فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

فكان من رحمة الله بأمة محمد ﷺ أنه لم يكلفهم بهذه التكاليف التى استحقتها يهود بما كفرت وألحدت.

هـ - وأن من يفعل شيئا مما حرم الله تعالى، أو يترك شيئا مما أوجب سبحانه وتعالى، فقد اعتدى أولا على نفسه، ثم اعتدى على غيره، وبذلك أخطأ وظلم لأنه أَخَلَّ بمنهج الله، فأخَلَّ بنظام المجتمع، ومن فعل فقد استحق العقاب، وهو عقاب لا يحول دونه حائل، متى وُجدت أسبابه ودواعيه.

٢ - ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ما يلى:

أ - أن اجتناب الكبائر بإخلاص يؤدى إلى تكفير السيئات، وتلك رحمة من الله تعالى بعباده الذين يسيئون إلى أنفسهم بمعصية الله تعالى. بل يزيدهم الله تعالى من بره وكرمه فيدخلهم الجنة.

وعند العقلاء: ما أيسر ما تجتنب الكبائر، ومن تصور أن اجتناب كبائر ما حرم الله تحول بينه وبين متعة فقد غفل وأخطأ وتردى فى مهاوى الضلال، لأن ممارسة هذه الكبائر تغرق من مارسها فى حمئة الإثم والمعصية وعقاب الله تعالى.

ب - وأن الكبائر محدودة عدها بعض العلماء أربعا وعدها بعضهم سبعا وبعضهم تسعا، وكل ذلك عما جاء عن النبى ﷺ فى الأحاديث النبوية التى ذكرناها آنفا.

وتوسع ابن عباس رضى الله عنهما - من باب التحفظ والتحرز عن الوقوع فى

الخطأ – فقال: إنها إلى السبعين أقرب.

والكبيرة – كما أوضحنا آنفا – كل ذنب تعظم عقوبته، أو المعاصى الموبقة كالزنى وقتل النفس وعقوق الوالدين وشهادة الزور، ونحو ذلك.

واجتناب الكبائر – فى تصورى – يقتضى عمل الواجبات، لأن ترك القيام بها معصية تستوجب عقابا، بل عقابا عظيما فى بعض الجرائم، فكان القيام بالواجبات تركاً للكبائر ونجاة من عقاب الله وعذابه.

● وقد سبق أن قلنا: إن هذه الآية الكريمة أَرْجَى آية فى القرآن الكريم، ومما يعزز هذا المعنى الذى تضمنته هذه الآية الكريمة قول الله تبارك وتعالى فى سورة آل عمران: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

جـ – واجتناب الذى يكفر السيئات، ويدخل الجنة بوعد الله تعالى، لايعنى التبرؤ المطلق عن أى خطأ، لأن ذلك غير مستطاع لما جبل عليه الإنسان من الخطأ، ولأن الله تعالى عفا عن اللَّمَم لكل من اجتنب كبائر الإثم والفواحش، قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

● واللمم: مقاربة المعصية، ويكون بمعنى الصغائر من الذنوب فالذى يجتنب كبائر الإثم والفواحش يغفر الله له بواسع رحمته حتى لو قارب الصغائر واللمم.

وهذا تخفيف من ربنا ورحمة.

٣ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢) وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ ما يلى:

أ – أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يفضل بعض الناس على بعض فيما يمنحهم من أسباب العيش والسعادة فى الدنيا، وأنه سبحانه نهى أن يتمنى أحد أن يكون له من الأسباب ما ليس من شأنه أن يكون له، كأن تتمنى المرأة أن تكون رجلا، أو

تمنى الرجل أن يكون امرأة ونحو ذلك، فإن هذا التمنى حرام، لأن الله تعالى فطر الرجل والمرأة على صفات لاتستمر الحياة إلا بتوافر هذه الصفات فيهما، ولا تصلح إذا لم يكن فى الدنيا رجال ونساء.

ب - وأن هذا التمنى - وهو عمل نفسى أصلا - قد حرمه الله تعالى فكيف تكون حرمته إذا تحول إلى حَسَد؟ بل حَسَد يتضمن الرغبة فى زوال النعمة عن الغير؟ وقد ذم الله تعالى الحسد لأسباب كثيرة من أوضحها أنه يعبر عن عدم الرضا بقضاء الله وقدره والاعتراض على تقسيمه سبحانه للأرزاق والمواهب بين الناس.

وليس لأحد أن يفعل ذلك إلا وهو آثم بل والغ فى الإثم والمعصية.

جـ - وأن المسلم مطالب بأن يرضى بما قسم الله له، وقد روى أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اتق المحارم تكن أعبد الناس وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس...» الحديث.

والله تعالى حكيم عادل رحيم لايعطى إلا من اقتضت حكمته إعطاءه، فليس لأحد أن يعترض على شىء من أفعال الله تعالى وإلا خرج من دائرة الطاعة ووقع فى أتوّن المعصية، والحسد يتضمن اعتراضا، من ذا الذى يعترض على أمر الله وقضائه؟.

وروى أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبت للمؤمن إن الله تعالى لم يقض له قضاء إلا كان خيرا له».

وروى مسلم بسنده عن صهيب رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له».

د - ويتعلم المسلمون من الآية الكريمة أن من الواجب على كل مسلم أن يضع نفسه فى المكان والمكانة اللذين وضعه الله فيهما، فلا يتمنى ما يستحيل تحقيقه أو ما يخرج به عما أُهِّلَ له، ولا يتمنى شيئا أعطى لغيره، وإنما يسأل الله من فضله، ويرضى بما قسم الله له، ملتزما بقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢] فهو سبحانه يعطى من يشاء ويمنع من يشاء لحكمة يعلمها فى صالح من أعطى أو من مُنع، فالله تعالى لايقضى لأحد قضاء

إلا كان خيرا له كما جاء فى الحديث الذى ذكرناه آنفا.

٣ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ ما يلى:

أ - أن الإسلام دين رحمة وتيسير، ويحرص على تطييب خواطر الناس والبر بهم، وإحداث توازن اجتماعى بينهم، وهو بهذه القيم يذهب الحقد من النفوس، ويقرب الناس بعضهم من بعض، ولذلك وضع نظام الميراث الذى يجعل المال فى مستحقيه.

والدليل على ذلك أن الميراث وإن كان محصورا فى الوالدين والأبناء والأقربين - على نحو ما قدمنا - فإن المسلم الذى عاقد مسلما أو حالفه على أخوة أو بُنوة بالتبنى ليرثه ويورثه - كما كانت الحال فى الجاهلية - فإنه بعد الإسلام لا يأخذ من ماله شيئاً ولا يورثه شيئاً، وإنما المال كله لأصحاب الفروض من الأقرباء نسباً وصهراً وهم الموالى.

وقد يكون لهؤلاء الأحلاف نصيب على سبيل التحفة والهدية بالشىء القليل الذى لايضر بأصحاب التركة تأسيا واستجابة لآية كريمة سابقة من هذه السورة هى ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ [النساء: ٨].

ب - وأن فى الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ وعد للمحسنين ووعيد للذين لايستجيبون لأمر الله وأحكامه وما دعا إليه، لأن الله شهيد على إحسان المحسن، وعلى إساءة المسىء ومجازٍ كلا بما عمل.

٤ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ ما يلى:

أ - أن الإسلام يقيم أكبر وزن للعلاقة الزوجية، فبها تكون الأسرة وفى الأسرة يعيش الأبناء فى ظل وارف من المودة والرحمة والعناية والتربية.

ولكى تشق الأسرة طريق القيم القويم نحو تكوين أفرادها وتأهيلهم لمد المجتمع بحاجاته

من الأعضاء الصالحين والصالحات، من أجل أن تستقر الأسرة وتسلس قيادتها جعل الله تعالى القوامة للرجل فى الأسرة لما منحه من قدرات وطاقات ولما أوجب عليه من إنفاق ومن واجبات أخرى نحو الزوجة والأولاد وكل من يعيش فى كنف أسرته.

ب - وأن قوامة الرجل على المرأة لها أعباء وتكاليف يلزم الرجل بأدائها، وإلا لم يعد أهلا للقوامة، وأول هذه الأعباء أن يكون رجلا مكتمل الرجولة قادرا على الكسب راغبا فيه محسنا للتصرف فى المجال وفى السلطة التى منحها الله إياها داخل الأسرة، وفى القيام بواجبات الزوجة والأبناء.

وعندما تختل القدرة على أداء هذه الواجبات أو تنعدم فلا قوامة له، وربما كان التفريق بين الزوجين فى هذه الحال هو أمثل الحلول وأقربها إلى الله تعالى - على الرغم من أن الطلاق أبغض الحلال إلى الله -.

● وأرجو أن أذكر بعض الرجال الذين يمتنعون عن الإنفاق على أسرهم، ويدعون أمر ذلك إلى الزوجة إن كانت ذات مال أو عمل!!! أرجو أن أذكر هؤلاء بأنهم بهذه المواقف يفقدون أهلية القوامة، وكل قوامة يمارسونها على زوجاتهم فإنما هى ظلم سوف يحاسبهم الله عليه.

جـ - وأن نفقة الزوج على زوجته وأسرته لابد أن تكون ملائمة لقدرته المالية، فليس لمن وسع الله فى رزقه أن يضيق على زوجته وأسرته، ولا يطالب من قُدرَ عليه رزقه بأن ينفق أكثر مما يستطيع، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

● وهنا أذكر بعض النساء بالخطأ الفادح الذى يقع فيه بعضهن، حين يطالبن أزواجهن بما لايطيقون، فيلجأ بعض الأزواج إلى الاستدانة أو إلى طريق آخر للحصول على المال، وأغلب ما يكون ذلك من طريق غير مشروع، فيكون ذلك وبالا على الزوجة والزوج والأسرة كلها وسببا فى العقاب الدنيوى والأخروى.

د - وأن الشريعة الإسلامية فى تشريعاتها ونظمها تقدر الحياة الزوجيّة وتسعى لأن تكون حياة مستقيمة يسودها الود والمرحمة. وأنه فى بعض الأحيان يسبب نشوز المرأة خروج الحياة الزوجية عن خطها الصحيح، عند ذلك تضع الشريعة العلاج

لعودة الحياة الزوجية إلى وضعها الصحيح؛ فيشرع للرجل أن يعظ امرأته، فإن لم تُجدِ الموعظة، يشرع لها أن يهجرها فى المضجع، فإن لم يُجْدِ هذا الهجر، يشرع له أن يضربها ضربا غير مبرح ولا تاركا أثرا فى الجسم وأن يتقى الوجه إلى غير ذلك من الشروط بحيث يكون الضرب للتأديب لا للتعذيب، وبقصد تراجع الزوجة عن النشوز، حتى يعود للأسرة استقرارها.

هـ - وأن الشريعة الإسلامية ترى حل الإشكالات الزوجية بسلطة أعلى من سلطة الزوج فى الموعظة والهجر فى المضجع والضرب غير المبرح، وذلك بالتحكيم الذى يتجاوز الزوجين إلى أهلهما بحكمين يكون لهما الحق - بعد المشاورة - أن يحكما باستمرار الحياة الزوجية بين الزوجين، أو بالتفريق بينهما.

ويعتبر هذا الحكم نافذا طالما قبل الزوجان بما جاء فى كتاب الله تعالى فيما يتصل بحقوق كل من الزوجين نحو الآخر وواجباته نحوه.

إن ذلك معناه أن الإسلام يحرص كل الحرص على رعاية الأسرة، والحرص على استمرار الحياة الزوجية.

و - وأن الالتزام بهذه الآداب والنظم من ورائها تشريع الله الحكيم الذى يضع أنواعا من العقاب لمن يخرج من الزوجين عن تشريع الله ونظامه، والله تبارك وتعالى يصف نفسه فى مجال فرض العقوبة بأنه: علىٌّ كبير، وأنه عليم خبير.

● والمعنى واضح والهدف ظاهر من ذكر هذه الصفات الإلهية فى هذا السياق، وهو التهديد لمن يخرج عما شرع الله تعالى وقد أوحت هذه الصفات الإلهية بالتهديد، مثل: العلىّ، الكبير، العليم، الخبير.

فالعلوّ: يوحى بالسيطرة والقدرة على المتجاوز للشريعة.

والكبير: يُوحى بالإحاطة الشاملة والقدرة على المتجاوز أيضا.

والعليم: يوحى بالمراقبة والمتابعة والعلم الواسع.

والخبير: تُوحى بالخبرة العميقة والحكمة الدقيقة.

ز - وأن المسلمين لايستطيعون أن يعيشوا حياة زوجية سعيدة ترضى الله تبارك وتعالى إلا إذا التزموا بشرع الله ومنهجه وتبادلوا الحقوق والواجبات فى مجال هذه العلاقة

الزوجية الوثيقة التى وثقها الله تعالى بعهده.

وأن الأسرة – وهى نواة المجتمع – لاتحيا حياتها الإنسانية الكريمة الموفقة إلا مع الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ففيهما حل لكل مشكلة زوجية أو أسرية أو اجتماعية، وكيف لا والله تعالى يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الانعام: ٣٨].

والرسول ﷺ لاينطق عن الهوى وفيه الأسوة الحسنة، ولا يؤمن أحد من الناس حتى يقبل أن يحكم رسول الله ﷺ فى كل أمره وفى كل ما يشجر بينه وبين غيره من خلاف، وهو ﷺ الذى يهدى إلى الصراط المستقيم، وهو ﷺ الذى قال فيما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دعونى ما تركتكم، إنما هلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه وإذا أمرتكم فاتوا منه ما استطعتم».

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة:

١ – يتعلم الدعاة إلى الله والمتحركون بالإسلام فى الناس والآفاق من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ ما يلى:

أ – أن يؤكد الدعاة إلى الله أن للأموال حرمة – فى الإسلام – كحرمة الدماء والأعراض، فلا يحل لأحد أن يأكل مال أحد إلا من وجه أحَلَّه الله تعالى.

وهدف الشريعة الإسلامية دائما هو المحافظة على أسباب الحياة وهى: النفس والعقل والعرض والمال والدين، بتحريم تعريضها للخطر أو المساس بها.

- وعلى الدعاة إلى الله أن يؤكدوا للناس أن المحافظة على هذه المحرمات دون مساس بها إلا بحق، هى من العبادة التى يتقرب بها الإنسان إلى الله بفعل ما أمره الله به وترك ما نهاه الله عنه، وأن يوضحوا أن هذه المحافظة تشيع فى المجتمع الأمن والطمأنينة، ويحول بين الناس وبين أن يعتدى بعضهم على بعض أو يظلم بعضهم بعضا.

ب – وأن على الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن الشريعة الإسلامية التى حرمت

أكل أموال الناس بالباطل، أحَلَّت أكل هذه الأموال بالحق، وصرحت بأن التجارة هي أحد الأوجه التي تؤكل فيه الأموال بالحق، لما فيها من بعد عن الحرام.

وانّ مما تُؤكل به الاموال بالباطل التي حرمها الإسلام: الربا والغش والاحتكار، والسرقة والاختلاس والغصب، والرشوة والقمار، وبيع ما لا يحل بيعه، وبيع المسلم على بيع أخيه المسلم، وغير ذلك من الاوجه التي بسطت في كتب الفقه الإسلامي.

وأن يوضحوا للناس أن الفرق بين التجارة وبين ما حرم الله من أكل الأموال، أن التجارة فيها حركة وعمل يعود بالنفع على الناس وعلى المجتمع، بينما أكل الأموال بالباطل فيه ضرر بالغ بالناس في حاضرهم ومستقبلهم وعلاقاتهم الاجتماعية.

وعلى رأس أنواع أكل الأموال بالباطل، الربا، فقد أحل الله البيع وحرم الربا لما فيه من أضرار بالغة بكل أطرافه، وقد روى الترمذي بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه».

جـ - وأن يوضحوا للناس أن ما حرم الله من أكل أموال الناس بالباطل كأنه قتل للنفس، لأنه قتل لمصالح الناس ومنافعهم، وأنه يجلب لهم الشر والضرر، ولذلك عطف عليه تحريم قتل النفس ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي بالإبادة أو بأكل الأموال بينكم بالباطل، وقد نهاكم الله عن ذلك وهذا رحمة بكم وبمصالحكم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ .

وأنه سبحانه مع رحمته بعباده يهدد الذين لايلتزمون بمنهجه في المحافظة على الأموال والأنفس وتحريم العدوان عليها، يهددهم بأنه سوف يصليهم عذابا أليما في نار جهنم، وذلك التعذيب يسير على الله سبحانه لايمنعه منه شيء، ولا يحول دونه حائل.

د - وأن من رحمة الله الواسعة بعباده أن تجاوز لهم عما سوى الكبائر من المعاصي والذنوب التي نهى عنها، وحملت آية من القرآن الكريم إليهم هذه البشارة، وهي قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ .

وعلى الدعاة إلى الله أن يذكروا الناس بحديث رسول الله ﷺ في الكبائر الذي رواه ابن جرير الطبري بسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ ذكروا الكبائر - وهو متكيء - فقالوا: الشرك بالله، وأكل مال اليتيم، وفرار من الزحف، وقذف

المحصنة، وعقوق الوالدين، وقول الزور، والغلول والسحر، وأكل الربا، فقال رسول الله ﷺ : فأين تجعلون : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَٰئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٧٧] .

فقد عدّ أصحاب رسول الله ﷺ من الكبائر تسعا ووافقهم رسول الله ﷺ على ذلك، وزاد واحدة وهى الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا .

● وعلى الدعاة إلى الله أن يذكروا الناس بفقه عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وفهمه لآية : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ .

فقد روى الطبرى بسنده عن الحسن أن ناسا لقوا عبد الله بن عمرو بن العاص – رضى الله عنهما – بمصر، فقالوا : نرى أشياء من كتاب الله أمر أن يعمل بها، لا يعمل بها، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين فى ذلك .

فقدم وقدموا معه، فلقيه عمر رضى الله عنه فقال : متى قدمتَ؟ قال : منذ كذا وكذا، قال : أبإذن قَدمتَ؟ قال : فلا أدرى كيف ردّ عليه، فقال : يا أمير المؤمنين، إن ناسا لقونى بمصر فقالوا : إنا نرى أشياء من كتاب الله تبارك وتعالى أمر أن يعمل بها، لا يعمل بها!!! فأحبوا أن يلقوك فى ذلك .

فقال : اجمعهم لى، قال : فجمعهم له، فأخذ أدناهم رجلاً فقال : أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك، أقرأت القرآن كله؟ قال : نعم، قال : فهل أحصيته فى نفسك؟ قال : اللهم لا، قال : ولو قال نعم لخصمته، قال : فهل أحصيته فى بصرك؟ هل أحصيته فى لفظك؟ هل أحصيته فى أثرك؟ ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم، فقال : ثكلت عمر أمه!!! أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله؟ قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات، وتلا : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ هل علم أهل المدينة بما قدمتم؟ قالوا : لا، قال : لو علموا لوعظت بكم» .

٢ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى : ﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ ما يلى :

أ - أن كل مسلم ومسلمة مطالب بأن يرضى بما قسم الله له من فطرة فطره عليها، ومن تمتع بحقوق منحه الله إياها، ومن أداء واجبات فرضها الله عليه.

فإن لم يلتزم بذلك، وتمنى ما فضل الله به بعض الناس على بعض أو بعض الرجال على النساء، فقد وقع فى جريمة الحسد، وهو كبيرة من الكبائر كما أوضحنا.

● ومن تطهر قلبه من الحسد، فقد عود قلبه التطهر من كثير من الأفعال الذميمة كالغل والحقد والكراهية، وما يبقى عليه إلا أن يطهر ظاهره بالالتزام بآداب الشريعة، وعندئذ يعيش حياة إنسانية كريمة.

● إن الدعاة إلى الله إذا استطاعوا أن يحشدوا من الأدلة والبراهين علي ضرر الحسد بالحاسد، فإنهم يسهمون فى تطهير المجتمع من المرضى بقلوبهم وأحاسيسهم، وتلك من أبرز مهام الدعاة إلى الله.

ب - وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس ما اتفق عليه علماء المسلمين من أن مراتب السعادة ثلاث.

- سعادة نفسية: وهى نتيجة لما منح الله الإنسان من ذكاء ومعرفة، وبما يلتزم به الإنسان من عفة وشجاعة وحكمة - ومجموع هذه الصفات هو العدالة - وقد أمر الله بذلك المسلمين جميعا.

- وسعادة بدنية: وهى نتيجة لما أنعم الله به على عبده من صحة وجمال وعمر. وبهذه الصفات مع الاستقامة على شرع الله تتحقق له البهجة واللذة.

- وسعادة خارجية: أى من خارج الإنسان، وهى كثرة الأولاد الصالحين، وكثرة العشيرة والأصدقاء، والأعوان، والرياسة ونفاذ الكلمة، ومحبة الناس وحسن التعامل معهم وفق ما أحل الله وما حرم.

فإذا تذكر الإنسان المسلم هذه الأنواع من السعادات اتقى الله فيما منحه من أسباب هذه السعادات، ولم تتطلع نفسه إلى ما ليس فى إمكانه أو فى فطرته، فإن فعل فإنه يحصل من السعادة على ما يستطيع الحصول عليه، ليحظى برضا الله تعالى إن هو حصل عليها وفق ما شرع الله تعالى.

جـ - وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن شريعة الإسلام ومنهجه فى تنظيم الأسرة، وتحديد العلاقة بين الزوجين إنما يتبع الأسلوب الواقعى للإنسان فى

الاعتراف بوظيفتى الرجل والمرأة فى الحياة، ولذلك يقسم بينهما الأنصبة فى الميراث علي قاعدة مشهورة صحيحة هى «الغُنْم بالغُرم» فمن أجل أن الأعباء المالية على الرجل أكثر منها على المرأة كان نصيب الرجل فى الميراث ضعف نصيب المرأة، ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ .

● ومن العجب أن بعض قصار النظر من الناس رجالا ونساء يزعمون أن نظام الإسلام فى التعامل مع المرأة فيه ظلم لها وإهدار لحقوقها وتمييز للرجل عليها!!!

وتلك دعاوى فارغة كاذبة. وأفرغ منها وأكذب تلك المطالبات الجاهلة بالمساواة بين الرجل والمرأة .

ولو تفطن هؤلاء وأولئك - وهيهات لهم أن يفعلوا لأنهم أعماهم كراهية الإسلام والحقد على تشريعاته وامتلاء نفوسهم غلا وتزويرا - لو تفطنوا إلى ما تحت أرجلهم لعلموا أن مساواة المرأة بالرجل ظلم للمرأة وهضم كبير لحقوقها، فالمساواة توجب عليها أن تعمل وتكد وتنفق على الأسرة وتتحمل أعباءها، وكل ذلك مرهق لنفسها وبدنها بالإضافة إلى واجباتها الأساسية من زوجية وأمومة ورضاعة وحضانة ورعاية للبيت .

إن من حق المرأة المسلمة أن تعمل إذا كانت فى حاجة إلى العمل، لكن أن تعمل لمجرد أن تتساوى مع الرجل، فإن هذا ظلم لها أولا وظلم للرجل وللأسرة .

وحسب المرأة شرا عندما تعمل أن تدع أطفالها للحاضنات إذ إن الخسارة فادحة للأبناء وللأسرة كلها وبخاصة إذا كانت الحاضنة غير مسلمة ومن غير وطن الطفل!!! وهى ظاهرة انتشرت فى العالمين العربى والإسلامى .

وعندما عملت المرأة فتساوت مع الرجل فى ذلك، شوهد أنها بهذا العمل لم يُخفف عنها شيء من أعباء الزوجية والحمل والولادة والأرضاع والحضانة والمسئولية عن البيت والأسرة .

والمجتمع اليوم مليء بالرجال الذين استراحوا لعمل زوجاتهم فتخففوا من أعباء هى أصلا أعباؤهم، وكثير منهم يدع توصيل الأبناء إلى مدارسهم للزوجة، وكل الرجال يتركون مهمة مساعدة الأبناء فى دروسهم على الزوجة!!! فأىّ عدل هذا الذى جاء نتيجة لمساواة المرأة للرجل فى العمل؟ .

● إن الإسلام يساوى بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات وفى حق التملك وحق الكسب

وحق الميراث وحق التصرف فى مالها، أى سوى بينهما فى الحقوق المدينة سواء فى ذلك من كانت متزوجة أو غير ذات زوج.

● **وإن نظرة مقارنة بين حقوق المرأة فى الإسلام وحقوقها فى نظم الحضارة الغربية مثلا، لتورث الدهشة والعجب!!! فالمرأة فى بعض بلدان أوروبا أقرب ما تكون إلى حالة من الرِّقّ المدنى! فقد حرمت من كثير من حقوقها المدنية؛ وكثير من القوانين تنص على ذلك.**

وعلى سبيل المثال: فإن المادة السابعة من القانون المدنى الفرنسى تقرر: «أن المرأة المتزوجة – حتى لو كان زواجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها – لا يجوز لها أن تهب، ولا أن تنقل ملكيتها ولا أن ترهن، ولا أن تمتلك – سواء أكان الامتلاك بعوض أو بغير عوض – ليس لها شىء من هذه التصرفات إلا باشتراك زوجها فى العقد، أو موافقته عليه موافقة كتابية».

هذه هى المرأة فى القانون الفرنسى مسلوبة الإرادة والحرية فى مالها الخاص إلا بموافقة زوجها!!!

وحسبنا هنا أن نذكر أن النظم الغربية جميعها يَقْضى العرف فيها بأن المرأة إذا تزوجت تفقد اسمها واسم عائلتها، وتحمل اسم زوجها وعائلته!!!

معنى ذلك أن المرأة فى هذه النظم فقد فقدت انتماءها لأسرتها وفقدت حرية التصرف فى أموالها!!! فهل هذه ثمرة من ثمرات المساواة؟.

٣ – ويتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا** ﴾ ما يلى:

أ – على الدعاة أن يوضحوا للناس أن مظلة المودة والرحمة والتعاطف تمتد لتشمل عقود الولاء التى سبقت أحكام الميراث فى الإسلام، ولأن الميراث منحصر فى القرابة وحدها دون عقود الولاء، فإن الإسلام أقر لأصحاب عقود الولاء والحلف بعض الأنصبة، وألغى ما كان لهم من توارث.

● **وهؤلاء الأولياء لهم عقود أربعة هى:**

– **عقد ولاء العتق، بمعنى أن مَنْ حرَّر عبدا كان يملكه، فإن هذا العبد يصبح بمنزلة عضو فى**

أسرة من حرَّره.

ولهذا المعتَق أن يرث مَنْ أعتقه إذا مات وليس له عصبة كما أن على المعتِق أن يدفع الدية عمن حرَّره إذا جنى جناية توجب الدية.

– وعقد الولاة بين عربى وغير عربى، حيث كان يرتبط غير العربى – إذا لم يكن له وارث – بعقد مع عربى، ويسمى «مولى الموالاة».

فيصبح غير العربى بمنزلة العضو فى أسرة العربى الذى والاه، وللعربي عندئذ أن يرثه إذا مات ولم تكن له عصبة، كما أن عليه أن يدفع عنه الدية إذا جنى جناية توجب الدية.

– وعقد الاخوة فى الدين، وهو الذى عقده الرسول ﷺ بين المهاجرين والانصار بُعَيْد هجرته إلى المدينة المنورة، فقد آخى بين المهاجرين والأنصار، فكانوا يتوارثون بهذا العقد.

● وقد ابطل الإسلام التوارث بهذا العقد، وأبقى على الاخوة فى الدين، وجعل لتلك الاخوة حقوقا، وعلى كل طرف واجبات، وهذه الاخوة فى الدين باقية إلى يوم القيامة[1].

– وعقد كان فى الجاهلية، فقد كان الرجل يعاقد الرجل فيقول له: «ترثنى وأرثك».

وقد أبطل الإسلام الإرث بين المتعاقدين فى هذا النوع من عقد الموالاة.

وكلمة: ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ تنطبق على النوعين الأولين من عقود الموالاة، أما النوعان الآخران فقد أُبطلا؛

أُبطل أحدهما بقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الانفال: ٧٥].

وأُبطل الآخر بما رواه مسلم بسنده عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف فى الإسلام، وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة» ورواه أحمد وغيره.

ب – وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن الإسلام قد عالج قضية عقود الموالاة والاحلاف علاجا منطقيا عادلا بعملين هامين:

---

(١) لمعرفة حقوق الاخوة فى الدين وواجباتها: انظر للمؤلف: فقه الاخوة فى الإسلام – نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية القاهرة: ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

أحدهما: أنه سمح باستمرار ما كان من عقود حتى تنتهى.

والآخر: أنه منع إنشاء عقود أو أحلاف جديدة.

أى أنه لم يرتب على إلغاء بعض العقود أثرا رجعيا، وهذا نوع من التيسير يعرفه كل من تأمل فى علاج الإسلام لكثير من أمور الجاهلية؛ حيث منع الميراث إلا بالقرابة، ولكنه استبقى من هذه العقود: النصرة والرفادة والنصيحة كما أوضحنا ذلك آنفا.

٤ - ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا** (٣٤) **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا** ﴾ ما يلى:

أ - إن على الدعاة إلى الله مسئولية كبرى فى توضيح قوامة الرجل على المرأة، وذلك بتوضيح أمرين:

الأول: أن القوامة لاتعنى السلطة المطلقة أو الاستبداد وإنما سلطة مقيدة بحسن المعاشرة وحسن الرعاية وتحمل المسئولية.

والآخر: أن إعطاء القيادة للرجل فى توجيه الأسرة هو الأصوب والأحسن للأسرة كما، لما هيأه الله له من القيام بهذه القوامة من قوة ومن إنفاق.

ب - وعليهم أن يوضحوا للناس أن كل بديل لقوامة الرجل على زوجته وأسرته، لايستطيع أن يستمر بهذه الأسرة فى طريق الأمن والأمان، سواء أكان البديل هو الأم أو العم أو الخال أو الأب غير الشرعى - كما هو الحال فى الغرب، فكل أولئك البدلاء يعجزون عما يقدر عليه الأب فى القوامة على الأسرة.

جـ - وعلى الدعاة أن يوضحوا الصفات التى يجب أن تتحلى بها الزوجة المسلمة، وأبرزها - فى مجال الأسرة - صفتان:

الأولى: الطاعة للزوج عن رضا وحب - كما أوجب ذلك الإسلام - لأن هذه الطاعة هى

الأنسب لجو الأسرة وهى مدعاة لأن يسود الأسرة الحب والمودة بين الزوجين، ومع الأبناء.

والثانية: حفظ الغيب أى الأمانة بسبب ما حفظ الله بين الزوجين من رباط وثيق، لايجوز أن يشوه بخيانة أو يخدش بأى عمل تقوم به الزوجة فى غياب زوجها(١).

د - وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا أن الزوج لايستطيع أن يسكت على نشوز زوجته، وإنما عليه أن يعالجه بما أمر الله أن يعالج به من عظة وهجر فى المضجع وضرب - بشروطه - وإن كان الأفضل ترك الضرب لأن الذين يضربون زوجاتهم ليسوا من خيار المسلمين - كما قال الرسول ﷺ.

وأن الزوج وهو يعالج نشوز زوجته ليس له أن يشتط فى التعامل معها لأن الهدف هو رجوع الزوجة عن النشوز، وليس القهر والتحكم والشدة من وسائل علاج النشوز.

وأن انفصال الزوجين - بعد التحكيم - قد يكون خيرا لكل منهما إذا استحالت بينهما الحياة لفقد الأسباب التى تؤدى إلى استمرارها.

---

(١) لمعرفة حقوق الزوجة وواجباتها بالتفصيل انظر للمؤلف: التربية الإسلامية فى سورة النور، والتربية الإسلامية فى سورة الأحزاب والتربية الإسلامية فى هذه السورة النساء - وهذه الكتب من سلسلة التربية فى القرآن الكريم - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة.

٦ - الآيات الكريمة من الآية السادسة والثلاثين

إلى الآية الثانية والأربعين

بعض الدعائم التى يقوم عليها بناء المجتمع المسلم

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾

وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة على دعائم هامة فى بناء المجتمع المسلم الذى يجب أن يعيش الناس فيه فى أمان وسلام وطمأنينة وفاعلية وإنتاج.

والأسرة - كما قلنا أكثر من مرة - هى نواة المجتمع، ولذلك حظيت باهتمام قرآنى عام بين اهتمام القرآن الكريم بدعائم المجتمع الأخرى التى يقوم عليها بناؤه من:

- عبادة الله وحده لاشريك له.
- وإحسان إلى الوالدين.
- وإحسان لذوى القربى واليتامى والمساكين، والجيران؛ القرباء، والبعداء، والزملاء والمشاركين فى حرفة.
- والإحسان إلى ابن السبيل، وإلى ما ملكت اليمين.
- والنهى عن الاختيال والتفاخر.

– والنهى عن البخل أو أمر الناس به .

– والنهى عن الرياء .

– والنهى عن الكفر بالله واليوم الآخر .

– والتحذير من الشيطان واتخاذه قرينا .

وفى تفصيل هذه الدعائم والأسس التى يقوم عليها المجتمع المسلم نقول :

﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا . . .** ﴾ إلى نهاية الآية الكريمة :

قال العلماء : فى هذه الآية الكريمة أحد عشر نوعا من الأخلاق الكريمة – وهى الدعائم التى يقوم عليها المجتمع الصالح العابد لله – وهى أكثر من ذلك لمن تدبر فى آيات القرآن الكريم، وهى :

- عبادة الله وحده لا شريك له، عبادة ملؤها الإخلاص ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** ﴾ .
- والإحسان إلى الوالدين ﴿ **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ .
- وصلة الرحم ﴿ **وَبِذِي الْقُرْبَىٰ** ﴾ .
- والإحسان إلى اليتامى لصغرهم وعجزهم وفقدهم من ينفق عليهم، والمحافظة على أموالهم ﴿ . . . **وَالْيَتَامَىٰ** ﴾ .
- والإحسان إلى المساكين إما بإعطائهم، وإما بالرد الجميل عند العجز عن الإعطاء . ﴿ . . . **وَالْمَسَاكِينِ** ﴾ وهم الذين لايملكون شيئا وهم أكثر فقرا من الفقراء .
- والإحسان إلى الجار القريب ﴿ **وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ** ﴾ .
- والإحسان إلى الجار البعيد ﴿ **وَالْجَارِ الْجُنُبِ** ﴾ .
- والإحسان إلى كل رفيق أو زميل أو شريك فى تعلم أو حرفة، ﴿ **وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ** ﴾ .
- والإحسان إلى ابن السبيل وهو المسافر الذى انقطع عن بلده ﴿ **وَابْنِ السَّبِيلِ** ﴾ .
- والإحسان إلى الرقيق، وافضل ما يكون هذا الإحسان إليهم هو بتحريرهم من العبودية ﴿ **وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ﴾ .

وبعض العلماء يرون أن هذه الكلمة القرآنية ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ يدخل فيها الإحسان إلى الحيوان، فالإحسان إليه طاعة لله وبر.

● والنهى عن الاختيال وهو التكبر الذى لايعترف بحقوق أحد، فيأنف من أقاربه إن كانوا فقراء ومن جيرانه إن كانوا ضعفاء.

● والنهى عن التفاخر، وهو من يعدّد مناقب نفسه ويفخر على عباد الله بما أعطاه الله من نعم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾.

● والنهى عن البخل أو أمر الناس به أو تزيينه لهم، ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ وقيل هم اليهود لبخلهم بالاعتراف بمحمد ﷺ كما جاءت صفاته فى التوراة.

● والنهى عن ادعاء الفقر وكتمان نعم الله على العبد ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾.

وقيل هم اليهود الذين كتموا ما آتاهم الله من علم بأن الإسلام حق وأنه خاتم الأديان وأن محمد ﷺ خاتم الأنبياء.

● والنهى عن الرياء وهى إظهار الصلاح والخير وإضمار الفساد والشر، والمعنى هنا أن بعض الناس ينفقون أموالهم ليظهروا بمظهر الكرماء وهم فى الواقع بخلاء ﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾.

● والنعى على من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، فهذا من أسوأ الناس وأكفرهم بنعم الله تعالى: ﴿ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾.

● والذين يتبعون الشياطين فيما توسوس به، فيصبحون كأنهم قرناء الشياطين، وقد نهاهم الله تعالى عن ذلك، ﴿ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً ﴾.

وقيل نزلت آية: ﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ فى المنافقين المرائين.

وقيل نزلت فى مشركى مكة الذين كانوا ينفقون أموالهم فى عداوة الرسول ﷺ.

والمعنى الهام لهذه الآيات الثلاث هو: أن الله تعالى أمر بعبادته وحده وبالإحسان إلى الوالدين وإلى كل الأصناف الذين طلب الإحسان إليهم، وبيّنت الآيات أن من لم يفعل ذلك نوعان من الناس:

الأول: البخلاء الذين لاينفقون المال البتّة.

والآخر: هم الذين ينفقون أموالهم لا لطاعة الله، وإنما للرياء والسمعة.

وهذان النوعان مذمومان يستحقان عقاب الله تعالى على مخالفة أمره، وأما الممدوحون فهم الذين استجابوا فعبدوه وحده وأحسنوا إلى كل من أمرهم بالإحسان إليه دون رياء أو سمعة وهؤلاء لهم عند الله أحسن الثواب.

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾

وهذه الآية الكريمة إنكار على الكفار أن يظلوا كافرين مع أن الإيمان بالله واليوم الآخر، وإنفاق المال الذى رزقهم الله من الخير لهم عند الله لو كانوا يعلمون.

والله تعالى عليم بكفر الكافر وسوء اختياره للكفر على الإيمان وهو سبحانه مجازيه على كفره، ومجازيه على عدم إنفاقه المال فى وجوهه التى شرعها الله ومجازيه على ذلك أيضا **﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾**.

وهذه الآية الكريمة تقرر حقيقة ثابتة راسخة لاتتغير بتغير الزمان والمكان والناس، وهى: أن الله تعالى عندما يجازى المسىء على إساءته والمحسن على إحسانه لايظلم احدا مثقال ذرة، بل هو يضاعف الأجر على الحسنة بأمثال لها كثيرة، وهذا شأنه سبحانه مع كل محسن طائع.

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا (41) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾

- المعنى العام للآية الأولى: **﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا ﴾** أن الله تعالى لايظلم أحدا، وإنما يجازى المحسن ويزيد من أجره، ويجازى المسىء بمثل ما عمل، وأن ذلك الجزاء يجرى بمرأى ومشهد من الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهم الذين جعلهم الله حجة على خلقه، ليزداد الطائعون للرسل سعادة سرورا، ويزداد العصاة لله ولرسوله شقاء وهموما.

وفى هذا وعيد للكفار والعصاة، ووعد للمؤمنين الطائعين.

- والآية الثانية: **﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾** تؤكد حسرة الكفار والعصاة حسرة كبيرة مؤلمة، حتى يتمنى أحدهم لو يدفن يومئذ فتسوى به الأرض، أو يتمنى أحدهم أن لم يبعث إطلاقا، وبقى فى الأرض التى

دفن فصار ترابا تسوى به الأرض.

﴿ولا يكتمون الله حديثا﴾ معناه كما قال ابن عباس رضى الله عنهما: يودون لو تنطبق عليهم الأرض ولم يكونوا كتموا أن محمدا ﷺ نبى ورسول، ولا كفروا به ولا نافقوا.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة:

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة كثيرا من القيم التربوية التى تنظم لهم شئون المجتمع ونظام الحياة، ومن ذلك ما نشير إليه فيما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من الآية الكريمة الأولى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا...﴾ الآية، ما يلى:

أ - أن عبادة الله وحده بإخلاص هى الأساس الذى يقوم عليه البناء الصحيح للإنسان الصالح، فإذا صحت العقيدة فى الإله الخالق العظيم كان التلقى عنه وحده سبحانه وتعالى فى كل أمور الدين والدنيا، فصحت العبادة وصح العمل وصح الخلق والسلوك وصح التعامل مع الناس.

● وعندئذ يصح لنا بل يتحتم علينا أن نقول: إن توحيد الله تعالى بالعبادة هو مصدر كل خير يناله الإنسان فى دينه ودنياه، وأن الإنسان بهذا التوحيد يسهم فى بناء مجتمع إنسانى يسوده الود والمرحمة والعدل والإحسان فيكون المجتمع الذى يمارس الحياة الإنسانية الكريمة التى أرادها الله تعالى للإنسان من خلال ما تلقى عن الله تعالى من منهج يلتزم به فى كل شئونه.

ب - وأن عبادة الله وحده تقتضى الانتهاء القاطع عن عبادة أى معبود سواه، أيا كان ذلك المعبود، كوكبا أو فلكا أو شيطانا أو إنسانا، أو حيوانا أو شجرا أو حجرا، لأن ذلك مقتضى عدم الشرك به سبحانه ﴿ولا تشركوا به شيئا﴾ وما تضل الإنسانية طريقها نحو ما يصلحها فى دنياها وأخراها إلا عندما تشرك بالله شيئا تعبده وتتوهم فيه نفعا أو ضرا، هكذا كان تاريخ الإنسانية شاهد صدق على ذلك.

جـ - وأن إخلاص العبادة لله وحده هو الحل لكل مشكلات الحياة لأن هذا الإخلاص يقتضى الامتثال لكل ما أمر الله به والانتهاء عن كل ما نهى عنه، وفى هذا الامتثال لأمره ونهيه قضاء على كل مشكلة تعترض حياة الإنسان، وما من مشكلة

إلا وضع منهج الله لهـا حلاً، كـمـا يفـهـم ذلك من قـوله تـعـالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾.

وحسب المنهج شمولا وقدرة على حل كل مشكلة أنه يقوم على أسس كفيلة لو التزمت بحل كل مشكلة، وهى أسس العدل والإحسان والبر ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ**﴾ [النحل: ٩٠].

وحسب المنهج قدرة على حسم الشر والضرر أنه ينهى عن كل شر وعن كل فحش وقبح وعن كل عدوان، كـمـا نفـهـم ذلك من قـوله تعالى: ﴿**وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ**﴾ [النحل: ٩٠].

وفى ذلك الامتثال لأمره سبحانه والاجتناب لما نهى عنه يكون العمل الصالح كله الذى يوفر الأمن والرخاء لأى مجتمع يتمسك به، وصدق الله تعالى: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [الكهف: ١١٠].

د - وأن الإحسـان الذى تدعـو إليـه الآية إحسـان عـام يشـمل كل أنواع الإحسـان ودرجـاته، يبـدأ بالوالدين ولاينتـهى حـتى يضـم **ابن السـبـيل وما ملكت اليـمين** ويجـمع بين هذين الحدين الإحسـان إلى الناس جـمـيـعـا ذوى القـربى واليتـامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب **وابن السبيل والرقيق**.

● الإحسان إلى هؤلاء جزء من الدين ولا إسلام على وجه صحيح إلا به، وأحب أن أقف هنا عند الإحسان إلى الجار فأؤكد أن الإحسان إليه واجب حتى لو كان غير مسلم فقد روى الترمذى بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره».

وقد قال رسول الله ﷺ لعائشة رضى الله عنها عند تفريق لحم الأضحية: «ابدئى بجارنا اليهودى».

وروى أن شاة ذبحت فى أهل عبد الله بن عمر رضى الله عنهما. فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودى؟ ثلاث مرات، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن عائشة وعن ابن عمر رضى الله عنهم.

هـ - ويتعلم المسلمون من هذه الآية الكريمة أن صفتي الاختيال والتفاخر يتبعهما صفتا البخل وأمر الناس به، ومَنْ كان كذلك فهو لايحسن إلى أحد، وبالتالى فهو لايسهم فى دفع الحاجة عن محتاج ولا يسهم فى بناء المجتمع المسلم، ومَنْ كان كذلك كرهه الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً. الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ ومَنْ كان موضع كراهية الله كان جديرا بكتمان ما عرفه الله من حق وما آتاه من نعمة، وكان أهلا لما أعده الله له من عذاب مهين، ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ﴾ .

٢ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً (٣٩) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾ ما يلى:

أ - أن الرياء والرغبة فى الحصول على رضا الناس من أسوأ صفات الإنسان، ومن أسباب إحباط عمله وعدم قبول الله تعالى له، وأن هؤلاء المرائين يؤثرون رضا الناس على رضا الله تعالى، وبذلك يفقدون الإيمان بالله واليوم الآخر، ويحالفون الشيطان ويكونون قرناء له، ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا، فهؤلاء أعداء أنفسهم بما أورطوها فى معصية الله وأعداء المجتمع باتباعهم للشيطان الذى يأمر بالفحشاء ويخوف من الفقر.

ب - وأن هؤلاء المرائين كان خيرا لهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر فربحوا الدنيا والآخرة، ولم يخسروا مالهم الذى أنفقوه رياء وسمعة، وكانوا يستطيعون أن يربحوه عند الله وعند الناس لو أنفقوه فيما أمر الله به.

جـ - وأن كل مال فى يد الإنسان من أى وجه حصل عليه، فهو رزق ساقه الله إليه وهيأه له لينتفع به فى دنياه وآخرته فإذا امتنع عن إنفاقه فى الإحسان إلى الناس وفى كل ما أمر الله به أو ندب إليه، فقد غفل عن الحق وذهل عن الحقيقة، وخسر ماله فى غير طائل على الرغم من أنه أنفقه!!!

فمن أنفق فى وجوه الخير فقد أنفق من مال الله على عباد الله، ومن أمسك أو أنفق لمراءاة الناس فإن الله تعالى كان به عليما، وأنه سبحانه محاسبه ومجازيه على الخير والإحسان خيرا وإحسانا وعلى الشر والإمساك والرياء بما يستحق من عقاب.

٣ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ ما يلى:

أ - أن كل عمل ابن آدم من خير أو شر يحصيه الله تبارك وتعالى عليه ويحاسبه به، وقد أرسل سبحانه الرسل ليشهدوا على الناس فيما أطاعوا به الله تبارك وتعالى أو عصوه، وأنه سبحانه ختم رسله والشاهدين على خلقه بمحمد ﷺ.

روى البخارى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: اقرأ علىّ، قلت: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إنى أحب أن أسمعه من غيرى» فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلاءِ شَهِيدًا ﴾ فإذا عيناه تذرفان.

ب - وأن الكافرين والعصاة يكونون يوم القيامة فى ندم عظيم. حتى يتمنى أحدهم لو أن الله تعالى سوَّى بهم الارض ولم يبعثهم، لكان خيرا لهم مما يلاقون من جزاء على كفرهم ومعاصيهم، أوتمنوا لو انفسحت لهم الارض فساخوا فيها ولم يحاسبوا هذا الحساب على ما كتموا فى الدنيا من إيمان وحق وطاعة لكان ذلك خيرا لهم مما هم فيه.

● وفى هذا الندم وتلك الحسرة درس لكل من تحدثه نفسه بالمعصية، أو ترضى له الكفر، أو تزين له كتمان الحديث الذى أودعه الله إياه من وجوب الإيمان واتباع الحق، فيتوهمون أنهم يكتمون هذا والله مطلع عليه عالم به وبكل غيب.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

١ - يتعلم الدعاة إلى الله من قوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ ما يلى:

أ - أن كل أعمال الإنسان، وفى مقدمتها عبادة الله تعالى، يجب أن تؤدى بغاية الإخلاص لله فى أدائها، بحيث لايشوبها قصد شىء آخر، حتى لو كان نفعا دنيويا، فقد قال بعض العلماء: إن مَنْ تطهر للإبراء أو صام حماية لمعدته ونوى مع ذلك التقرب إلى الله بتلك الطهارة أو هذا الصيام لم يقبل منه، لأنه مزج مع نية التقرب إلى الله تعالى نية أخرى.

فقد روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه».

وروى الدارقطنى بسنده عن الضحاك بن قيس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يقول: «أنا خير شريك، فمن أشرك معى شريكا فهو لشريكه، يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم لله تعالى، فإن الله تعالى لايقبل إلا ما خلص له، ولا تقولوا هذا لله والرحم، فإنها للرحم وليس لله منها شىء، ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله تعالى منها شىء» إن على الدعاة إلى الله أن يؤكدوا ذلك للناس.

ب - وأن الشرك بالله تعالى بكل أنواعه إلى الله؛ سواء أكان الشرك الأعظم وهو اعتقاد أن لله شريكا فى الألوهية، أم كان اعتقاد شريك لله فى الفعل كالقدرية مجوس هذه الأمة، أم كان رياء بمعنى أن يعمل عملا لغير وجه الله وهو الشرك الخفى المبطل للأعمال - كما أوضحنا آنفا - كل هذه الأنواع من الشرك داخلة فى نهيه سبحانه عن الشرك ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، فقد روى ابن ماجة بسنده عن أبى سعيد بن أبى فضالة الانصارى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لاريب فيه، نادى مناد، من كان أشرك فى عمل عمله لله أحدا، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك».

وروى ابن ماجة بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر المسيخ الدجال، فقال: ألا أخبركم ما هو أخوف عليكم عندى من المسيخ الدجال؟ فقلنا: بلى يا رسول الله، فقال: الشرك الخفى، أن يقوم الرجل يصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل».

وروى ابن ماجة بسنده عن شدّاد بن أوس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أخوفَ ما أتخوف على أمتى الإشراك بالله، أمَا إنى لست أقول: يعبدون شمسا ولا قمرا ولا وثنا، ولكن أعمالا لغير الله وشهوة خفية».

جـ - وأن برَّ الوالدين والإحسان إليهما هو مفتاح كل خير وباب كل نجاح، وطريق رضا الله تبارك وتعالى، فقد روى الطبرانى فى الكبير بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رضا الربّ فى رضا الوالدين وسخطه فى سخطهما».

وهذه المعانى وتلك الأحاديث النبوية الشريفة[1] زادٌ أى زاد للدعاة إلى الله يقاومون به آفات العصر التى شاع فيها عقوق الوالدين، فشاع الفساد وقلَّت البركة وتقطعت العلاقات الاجتماعية وتفككت أواصر الأسرة.

د - وأن دين الإسلام هو دين البر والإحسان إلى الناس كافة ذوى القربى واليتامى والمساكين والجيران والزملاء فى حرفة وأبناء السبيل، ومن هم فى ملك اليمين (الرقيق).

ومن أجمع الأحاديث النبوية فى مجال البر والإحسان ما رواه مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» وفى رواية عن أنس رضى الله عنه زاد: «وما زال يوصينى بالنساء حتى ظننت أنه سيحرم طلاقهن، ومازال يوصينى بالمماليك حتى ظننت أنه سيجعل لهم مدة إذا انتهوا إليها أعتقوا، ومازال يوصينى بالسواك حتى ظننت أنه يحفى فمى، وما زال يوصينى بقيام الليل حتى ظننت أن خيار أمتى لاينامون ليلاً».

● وأوضح ما يكون الإحسان عندما يوجبه الله إلى الجار حتى لو كان غير مسلم.[2]

---

(١) جاء فى الإحسان إلى الوالدين وبرهما مما أذكر به الدعاة إلى الله:

أ - الآية ٨٣ من سورة البقرة. ب - الآية: ٣٦ من سورة النساء.

جـ - الآية: ١٥١ من سورة الأنعام. د - الآية: ٤٣ من سورة الإسراء.

هـ - الآيتان: ١٤، ٣٢ من سورة مريم. و - الآية: ١٥ من سورة الأحقاف.

وجاء فى السنة فى البخارى: فى كتاب الأدب وفى مسلم: فى كتاب البر والصلة والآداب وفى ابن ماجة: أبواب الأدب - وغيرها كثير.

(٢) أذكر الدعاة إلى الله فى هذا المجال بما جاء فى صحيح مسلم: باب الوصية بالجار والإحسان إليه، وفى كثير من كتب السنة المطهرة.

روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لايدخل الجنة من لايأمن جاره بوائقه» وفى رواية: «ألا وإن الجوار أربعون دارا».

وروى مسلم بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لايؤمن عبد حتى يحب لجاره ما يحب لنفسه».

وروى مسلم بسنده عن أبى شريح الخزاعى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره...» الحديث.

هـ - وأن على الدعاة إلى الله والمتحركين بالإسلام فى الناس والآفاق أن يردوا بهذه النصوص الإسلامية من الكتاب والسنة على أولئك الذين يفترون على الإسلام ويزعمون أن فى الإسلام قسوة ووحشية فى مجال تطبيق الحدود من قطع وقَتْل وجلد، يزعمون هذا ويتجاهلون بر الإسلام بالناس جميعا حتى لو كانوا غير مسلمين!!!

- وأن هؤلاء المفترين على الإسلام الكذب يتناسون أنهم ينتمون إلى أولئك الذين أطلقوا الأسلحة الذرية والهيدروجينية على الناس فى «هيروشيما وناجازاكى» ورموا القنابل العنقودية على لبنان، وكسروا عظام الفلسطينيين ودفنوهم أحياء، ولهم فى كل آونة من يغتالونه بخسة ونذالة، نسوا أنهم ينتمون إلى اليهود شر خلق الله وأكثرهم حقدا على جميع خلق الله، وإلى الغرب الأوروبى والأمريكى ينتمى كل هؤلاء الحاقدين على الإسلام والمسلمين.

- إن الدعاة إلى الله يجب عليهم قبل غيرهم أن يردوا المفتريات الموجهة ضد الإسلام، وأن يكشفوا للناس من الذين يُصلون البشرية كلها فى كل حقبة من الزمان ويلات حرب يبيعون فيها الأسلحة ويتخلصون ممن ينافسهم فى القوة وفى الاقتصاد!!!

و - وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن الله تعالى يكره فى عباده الاختيال والتفاخر، ومن اتصَفَ بهما من الناس كان بخيلا وآمرا للناس بالبخل، جاحدا نعمة الله عليه وكاتما للحق، مرائيا مرافقا للشيطان، غبيا حين لايؤمن بالله ولا ينفق مما رزقه الله.

- يستطيع الدعاة إلى الله أن يوضحوا ذلك للناس وأن يحذروهم من أن يكونوا كأولئك، حتى لايجدوا أنفسهم أمام عذاب مهين أعده الله تعالى لهم.

٢ - ويتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ ما يلى:

أ - أن العقل والمنطق وحسن الإدراك للأمور يقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر، أى أن هؤلاء الذين تتحدث عنهم هاتان الآيتان صَدَّقوا بواجب الوجود سبحانه وتعالى، وصدَّقوا بما جاء به خاتم الانبياء والمرسلين محمد ﷺ، وانهم أنفقوا فى سبيل الحق والواجب مما رزقهم الله، فهذا الإيمان وذلك الإنفاق من علامات التوفيق فى الدنيا والآخرة، ومن آمن بالله واليوم الآخر وأنفق مما رزقه الله فإن الله تعالى يجزيه على ذلك خير الجزاء واوفاه ويضاعف له الاجر مع المغفرة لذنوبه والإنعام عليه بدخول الجنة، روى مسلم بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاث من كن فيه حرم على النار وحرمت النار عليه، إيمان بالله، وحب الله، وأن يلقى في النار فيحرق، أحب إليه من أن يرجع فى الكفر».

فالذى يريد أن يحرم نفسه على النار فليؤمن بالله، وليحب الله.

وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لا حَسَد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها».

فمن أراد لنفسه خير الدنيا والآخرة فلينفق مما رزقه الله.

ب - ويتعلم الدعاة من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ ان رحمة الله تتسع لكل ذنب إلا الشرك بالله، وعليهم أن يبعثوا فى نفوس الناس الثقة فى رحمة الله تعالى وفى كرمه مع عباده ومن عاش على الثقة فى رحمة الله تعالى تجنب ما يغضبه سبحانه واقبل على ما يرضيه، فضاعف الله تعالى له الأجر.

روى مسلم بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة، يعطى بها فى الدنيا ويجزى فيها فى الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها».

وروى مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن ناسا فى زمن رسول الله

ﷺ قالوا: يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: نعم ... الحديث(١)، وفيه: حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذى نفسى بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله فى استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين فى النار؛ يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا به، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيرا» وكان أبو سعيد الخدرى يقول: إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم: «إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ....» الحديث.

وهذا الحديث النبوى الشريف من الأحاديث المبشرة التى ينبغى للدعاة إلى الله أن يولوه وأمثاله من الأحاديث النبوية أهمية خاصة لتحبيب الناس فى الإيمان بالله واليوم الآخر.

وقد ذكرنا – فى بداية السورة – أن هذه الآية إحدى الآيات التى هى خير مما طلعت عليه الشمس.

وروى مسلم بسنده عن أبى ذر – رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيدُ، ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغْفر، ومن عمل قراب الأرض خطيئة، ثم لقينى لا يشرك بى شيئا جعلت له مثلها مغفرة...» الحديث.

هذا ما ينبغى أن يركز عليه الدعاة إلى الله فى دعوتهم.

٣ – ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ما يلى:

أ – أن أعمال الإنسان فى الدنيا على وفق منهج الله تعالى، كما بلَّغه خاتم رسله ﷺ، محصاة عليه ومحاسب عليه، والرسل ﷺ هم الشهداء على ذلك، والرسول الخاتم ﷺ شاهد على كل من كفر بالله، ولم يستجب لما دعاه إليه، والكفار الذين رأوا

(١) انظر الحديث بتمامه فى صحيح مسلم ١/٩٣ ط الحلبى دون تاريخ.

الرسول ﷺ وعاينوا معجزاته أشد عذابا ممن جاءوا بعده فكفروا بما جاء به.

والآية الكريمة توبخ - عن طريق أسلوب الاستفهام - كلُّ من بلغت به الغفلة حدُّ الكفر بما جاء به خاتم الأنبياء ﷺ.

● وقد قلنا آنفا: إن رسول الله ﷺ عندما استمع إلى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه لهذه السورة فوصل بقراءته إلى قوله تعالى: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾، قال له: حسبك أو امسك، وذرفت عيناه».

وإنما كان بكاؤه ﷺ لعظيم ما يتضمنه موقف شهادته على الكفار والعصاة فى هذا الموقف الشديد وذاك الهول الكبير.

وهذا درس لكل من كفر بالله وعصى رسوله ﷺ.

ب - ودرس آخر فى الآية الكريمة يجب أن يهتم به الدعاة إلى الله وهو أن الذين كفروا وعصوا الرسول ﷺ عندما يرون ما فى يوم القيامة من حساب وعقاب يودون عنده لو تنطبق عليهم الارض، ولم يكونوا كتموا أمر محمد ﷺ ولا كفروا به، ولا نافقوا!!!

● ومن معانى الآية الكريمة - كما قال بذلك المفسرون -: أن المشركين عندما يرون حساب يوم القيامة، وأن الله تعالى يغفر لأهل الإسلام ولا يغفر شركا، يقول بعضهم لبعض: تعالوا نجحد، فيقولون: ربنا ما كنا مشركين، رجاء أن يغفر الله لهم، فحينئذ يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يعملون، فهناك يودون أنهم كانوا ترابا ولم يكتموا الله حديثا ﴿ **يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا** ﴾.

● ولا تعارض بين هذا وبين قولهم فى آية أخرى: ﴿ **وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ** ﴾ [الانعام: ٢٣]. لان مواطن يوم القيامة كثيرة، ففى بعض هذه المواطن لايتكلمون فيه، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا** ﴾ [طه: ١٠٨]. وفى بعض مواطن يوم القيامة يتكلمون، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ** ﴾ [النحل: ٢٨]، فهم يكذبون فى موطن كقولهم: ﴿ **مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ** ﴾ وهم يعترفون على أنفسهم بالكفر، ويسألون الرجعة

إلى الدنيا كقولهم: ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾ [الأنعام: ٢٧].

ومن هذه المواطن أن يختم الله على أفواههم وتتكلم أيديهم وأرجلهم وجلودهم.

● هذا ما يجب أن يذكّر به الدعاة إلى الله والمتحركون بالإسلام في الناس وفي الآفاق، وأن يربّوا الناس على قيمه ومبادئه وأخلاقه.

إن الدعاة إلى الله مطالبون بأن يساعدوا الناس على أن يهتدوا ويسعوا في الطريق القويم الذي اختاره الله لعباده، طريق الله تعالى أو صراطه تاركين كل طريق سواه ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

[الأنعام: ١٥٣].

٧ - الآية الكريمة الثالثة والأربعون

فى تحريم الخمر مرحليا وفى إباحة التيمم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على تحريم الخمر عند الصلاة، وعلى وجوب التطهر من الحدثين الاكبر والاصغر بالماء، إلا حين يحال بين المتطهر والماء فعندئذ يباح التيمم، وعلى كيفية التيمم.

والخطاب فى الآية للمؤمنين ينهاهم ويأمرهم، ويخبرهم بعفو الله ومغفرته وتيسيره لهم.

تفصيل القول فى شرح هذه الآية الكريمة وتفسيرها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ... ﴾.

- النهى فى الآية الكريمة عن الدخول فى الصلاة إذا كانت فى المصلى آثار شربه للخمر، كذهوله عما يقول، وتلك مرحلة من مراحل تحريم الخمر.
- والنهى عن الخمر كان على مراحل ثلاث:

الأولى: فى قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا... ﴾ [البقرة: ٢١٩] ففى شربها الإثم، وفى التجارة فيها منافع التجارة.

والثانية: فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ وفيها حرمت الخمر أى شربها عند الصلاة فقط، وشرط على من شرب الخمر وأراد الصلاة أن يكون قد أفاق من الخمر بحيث يعرف ماذا يقول وهو يصلى.

والثالثة: فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وفيها حرّمت الخمر تحريماً باتّاً، وعللت التحريم بأن الخمر من عمل

الشيطان فى تكملة الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾

[المائدة: ٩٠، ٩١].

● وهذا التحريم المتدرج للخمر حقيقة واقعة، فقد روى أبو داود بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال عمر: اللهم بيّن لنا فى الخمر بيانا شافيا، فنزلت الآية التى فى البقرة: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...** ﴾ الآية، فدُعِىَ عمرُ فقرئت عليه فقال: اللهم بيّن لنا فى الخمر بيانا شافيا، فنزلت الآية التى فى النساء: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ...** ﴾ الآية، فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقيمت الصلاة ينادى: ألا لايقربن الصلاة سكران، فدُعِىَ عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بيّن لنا فى الخمر بيانا شافيا، فنزلت هذه الآية: ﴿ **... فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾ قال عمر: انتهينا.

● وفى سبب نزول هذه الآية: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ...** ﴾ روى الترمذى بسنده عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة، فقدمونى فقرأت: «**قل يأيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون**» ونحن نعبد ما تعبدون، فأنزل الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ...** ﴾ قال الترمذى: هذا حديث حسن.

﴿ **لا تَقْرَبُوا** ﴾ الخطاب لجماعة الأمة الصاحين، أما السكران فليس بمخاطب بذلك لعدم التمييز لذهاب عقله، والمعنى: لا تصلوا وأنتم سكارى.

● و﴿ **الصَّلاةَ** ﴾ هى العبادة المعروفة – وهو قول أبى حنيفة، وقال الشافعى: مواضع الصلاة أى المساجد ونحوها.

وقال بعض العلماء: هى الصلاة والمواضع جميعا.

﴿ **وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ** ﴾ أى لاتقربوا الصلاة حالة كونكم سكارى حتى تتيقنوا من علمكم بما تقولون فى الصلاة.

﴿ **وَلا جُنُبًا** ﴾ أى لاتصلوا وقد أجنبتم، أى تباعدتم عن الطهارة البدنية بمجامعة النساء، أو بإنزال المنى.

﴿ إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾ استثناء من أن يقرب من الصلاة وهو جنب، والمعنى : إن كان مسافرا جاز له أن يتيمم ويقرب الصلاة إذا لم يجد الماء.

● ومن أحكام الجُنُب أنه لايدخل المسجد ولا يمس المصحف قبل أن يغتسل، أما قراءته القرآن من غير أن يمس المصحف فبعض العلماء يجوزها، وبعضهم يمنعها.

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾

● هذه هي الآية التي شرع بها التيمم، وهو تخفيف من الله على عباده الذين فقدوا الطهارة البدنية ولم يجدوا ماءً أو لم يستطيعوا استعماله ليغتسلوا.

وقد نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن عوف أصابته جنابة وهو جريح فرخص له في أن يتيمم، ثم صارت الآية عامة في الناس.

● ويباح التيمم لأصناف من الناس هم:

- المرضى الذين لايستطيعون استعمال الماء لما يصيبهم من استعماله من ضرر أو خوف ضرر.

- والمسافرون عند عدم وجود الماء.

- وكل من لايجد الماء - وهو غير مريض ولا مسافر - فإنه يتيمم إذا خاف فوت الوقت ويصلي، ولايعيد الصلاة حين يجد الماء.

● والأسباب الموجبة للتطهر بالماء غسلاً هي:

- زوال العقل بإغماء أو جنون أو سكر أو نحوه.

- وإنزال المني من جماع أو احتلام.

- والتقاء ختاني الرجل والمرأة وإن لم يحدث إنزال.

- والدخول في الإسلام.

- وقُبلة المرأة أو مَسّها بلذة عند كثير من العلماء.

● وهذا التشريع الخاص بالتيمم مما خصت به أمة المسلمين توسعة عليها، فقد روى أحمد ومسلم والنسائي بأسانيدهم عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «فُضِّلنا

على الناس بثلاث:

- جُعلتْ صفوفنا كصفوف الملائكة،

وجعلت تربتها طهورا لنا إذا لم نجد الماء،

- وأعطيتُ هذه الآية من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبى قبلى».

● والمعنى الشرعى للتيمم هو مسح الوجه واليدين بالتراب. ويكون التيمم من الصعيد الطيب من الأرض ومما يشبه ذلك من رمل وحجر ومعدن وشجر وجدار وكل ما هو من جنس الأرض.

● والمتيمم يصلى بتيممه ما شاء من الفرائض والنوافل ما لم يجد الماء أو يحدث.

● وكيفية التيمم هى: ضربة على الصعيد، ثم مسح الوجه بها، وضربة ثانية ثم مسح اليدين إلى المرفقين أو إلى الرسغين.

فإن تيمم بضربة واحدة للوجه ولليدين، فإن بعض العلماء يرون أنها تجزئه، وبعضهم يقول: لابد من ضربتين.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أى لم يزل كائنا يقبل العفو - وهو السهل - ويغفر الذنب، أى يستره فلا يعاقب عليه، أى أنه سبحانه ييسر لعباده أمورهم ولا يكلفهم ما يشق عليهم.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآية الكريمة:

أ - أن الصلاة رأس العبادات، وأن المؤمن لايؤديها إلا وهو كامل الوعى مدرك لما يقول فى صلاته من قراءة أو دعوات، وأن تناول أى مسكر أو نحوه مما يذهب العقل أو يصيبه بالخلط، عندئذ لايجوز له أن يقرب الصلاة أو أن يؤديها.

ب - وأن الصلاة - وهى رأس العبادات كما قلنا - لا تجوز لمن كان غير متطهر من الجنابة، ومن كل ما يخرج الإنسان عن حالة الطهارة البدنية كالحدثين الأكبر - وهو الجنابة - والأصغر - وهو ما ينقض الوضوء - ومعنى ذلك ألا يقف الإنسان بين يدى ربه إلا طاهرا متطهرا.

وأن المكث فى المسجد للاعتكاف أو لدراسة العلم لايجوز للجنب، وإن كان يجوز له المرور فيه لعذر.

جـ - وأن الله تعالى رحيم بعباده لايشرع لهم ما يشق عليهم، ولا يكلفهم إلا ما فى وسعهم، ويتيح لهم من الرخص ما يخفف بها عنهم كقصر الصلاة فى السفر والحرب وكالفطر فى رمضان للمريض والمسافر، وكالتيمم لمن أراد أن يعبد الله بصلاة أو بقاء فى المسجد و مَسّ مصحف، وكان جنبا أو مسافرا أو لا يستطيع استعمال الماء لسبب من الأسباب.

كل ذلك ترجمة عملية لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

د - وأن الخمر قد حرمت مطلقا، حرم شربها والاتجار فيها وحملها وحفظها ولو كانت وديعة أو أمانة من أحد الناس غير المسلمين، لما فيها من ضرر يلحق الفرد والمجتمع، ولما يسبب تعاطيها من إيقاع العداوة والبغضاء بين الذين يتعاطونها، ولما تسببه لشاربها من ذهاب عقله وذهاب كرامته ووقاره، ولأن الله تعالى لايحرم على عباده إلا ما يضرهم تعاطيه أو التعامل معه.

وتلك كانت المرحلة الاخيرة فى تحريم الخمر.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآية الكريمة.

١ - يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ ما يلى:

أ - أن عليهم أن يوضحوا للناس أضرار الخمر، وفاحش آثارها، وأن يبينوا لهم لماذا كانت الخمر أم الكبائر، وعليهم أن يبينوا للناس لماذا يتعلق شاربوها بها وينفقون من أجلها الأموال الطائلة، وأنها تذهب عقل الإنسان وكرامته.

وأن انتشار شربها كان من علامات الجاهلية، ولذلك حرمها الإسلام بتدرج على النحو الذى بيناه آنفا.

وعليهم أن يربطوا لهم بين شرب الخمر والزنا وارتكاب كثير من الفواحش لأن الذى يرد الإنسان عن الفاحشة هو عقله وهذا العقل قد ضاع بسبب الخمر.

ب - وأن تحريم الخمر مطلقا حماية للمجتمع من تبديد أمواله، ومحافظة للناس على عقولهم، ولذلك حرّم الله الخمر فى كل دين من عنده، أما دعاوى بعض الذين يقولون بأن القليل منها مباح فهى كذب وافتراء على الله، إذ كيف يبيح الله

تعالى لعباده ما يضرهم فى أنفسهم وأموالهم ونظامهم الاسرى والاجتماعى؟.

وأن القائلين بإباحتها أو إباحة القليل منها لايملكون على ذلك دليلا أدنى دليل لا من الكتب التى بأيديهم، ولا من العرف، ولا من العقل والمنطق.

جـ - وعليهم أن يوضحوا للناس أن المسلم مطالب من قِبَل الله تعالى بأن يحافظ على عقله وماله ونفسه، وأمن أسرته واستقرار المجتمع الذى يعيش فيه.

والعقل والصحة البدنية والنفسية والمال كل تلك نعم أنعم الله بها على عباده، وليس لأحد منهم أن يبدد هذه النعم وإلا عُدَّ كافرا لتلك النعم العظيمة.

فالعقل من أشرف ما منح الله تعالى الإنسان من نعم فهو الذى يعقله أى يحبسه عن الهوى والشهوات وعن كل ما يضر الإنسان، والصحة بنوعيها هى التى تمكن الإنسان من السعى فى الأرض للحصول على الرزق وأسباب العيش، والمال هو عصب الحياة فيه يؤمّن الإنسان معظم احتياجاته، وأما الاسرة والمجتمع فمطلب أساسى لكى تمضى الحياة الإنسانية كريمة لائقة بالإنسان.

وكل ذلك يبدده شرب الخمر ويقضى عليه.

د - وعلى الدعاة أن يوضحوا للناس أن سرعة استجابتهم لأمر الله تعالى ونهيه هى الصفة التى يجب أن تتوفر فى المسلم، إذ هى العلامة على الإيمان والإسلام والعدل والإحسان، ولن يتم لمسلم إيمانه وإسلامه إلا بسرعة استجابته لكل ما جاء فى شرع الله ومنهجه والاستجابة له دون مماطلة أو تسويف.

٢ - ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿ ... وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ ما يلى:

أ - أن من رحمة الله تعالى بالمسلمين أن كان التشريع الإسلامى دائما فى صالح دنياهم وأخراهم، وكان دائما من أجل التخفيف عنهم.

ويستطيع الدعاة إلى الله أن يضربوا على ذلك الأمثال وهى كثيرة، وجميع الرخص فى العبادات والمعاملات داخلة فى هذا التخفيف.

وفى حديث فرض الصلاة على الأمة الإسلامية فى ليلة الإسراء والمعراج رمز لهذا التخفيف، وفى التيمم والمسح على الخفين والجوربين أمثلة لذلك، وفى قاعدة «الضرورات تبيح المحظورات» منفذ إلى عدم التضييق على المسلمين فى أمور دنياهم.

● ومعنى ذلك أن يطالب الدعاة إلى الله الناس بأمرين هامين:

الأول: الاعتقاد الجازم بأن هذا الدين من عند الله، وأنه أكمل دينه وأتمه وارضاه لله تعالى ليكون منهجا لكل الناس فى كل زمان ومكان.

والآخر: مقابلة هذه النعم من الرخص بشكر الله على ما أنعم، وعدم إساءة استعمال الرخص، حتى لا تخرج عن هدفها، وتتحول إلى تساهل وتسيب.

ب - وأن عبادة الصلاة تتميز على سائر العبادات بأنها أكثرها تكرارا فى اليوم والليلة، وانها أكثرها اشتمالا على الدعاء لله والتضرع إليه، وأن الله تعالى يثيب عليها أول ما يثيب أو يعاقب عليها أول ما يعاقب، فمن صلحت صلاته صلح معظم عمله، ومن فسدت صلاته فسد معظم عمله.

ومن أجل أهمية الصلاة بين العبادات كانت كتابا موقوتا، وكانت واجبة الأداء فى كل ظرف، وأنها لاتسقط إلا عن غير مكلف لجنون أو صغر سنّ أو نحو ذلك من حيض ونفاس وفيما يتصل بالمرأة.

وان العجز عن أدائها بأركانها لايسقطها وإنما تؤدى قعوداً واضطجاعا وإيماءً وفى الحرب والخوف، وكل ذلك يؤكد أنها عمود الدين وعماده، وأنها الفارق بين مسلم وكافر، وأن تاركها عمدا وجحداً يقتل.

جـ - وأن المصلى يجب أن يصلى كما كان رسول الله ﷺ يصلى، الأناة والاطمئنان فى الركوع والقيام والسجود والقعود، والتدبر فى القراءة والوعى بكل شيء فيها.

وليس للمصلى من ثواب على صلاته إلا بقدر ما وعى منها وما تدبر فى قراءتها.

تلك مهمة الدعاة إلى الله والمتحركون بالإسلام فى الناس والآفاق، وهى مهمة جليلة لأن الصلاة - كما قلنا - إذا صحت صح معظم العمل وإذا فسدت فسد معظمه كذلك.

٨ - الآيات الكريمة من الآية الرابعة والأربعين

إلى الآية السابعة والخمسين

تنبيه المسلمين إلى أعدائهم ووصف هؤلاء الأعداء

وتحديد صفاتهم وأعمالهم

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

اشتملت هذه الآيات الكريمة على وصف لبعض أهل الكتاب بأنهم يشترون الضلالة

ويرغبون فى إضلال المسلمين، وعلى توضيح أنهم أعداء للمؤمنين وهم اليهود على وجه الخصوص، وهذا يتضمن تحذيرا للمسلمين من اليهود الذين عرفت عنهم صفاتهم فى كل زمان ومكان لاتفارقهم، وهم يكيدون للمسلمين ويعادونهم لسبب ولغير سبب.

وفى الآيات خطاب لاهل الكتاب ودعوتهم إلى الإيمان بما جاء به الرسول الخاتم ﷺ قبل أن يحل بهم العذاب وإعلان صريح بأن الله تعالى يغفر الذنوب جميعا إلا الشرك به.

ثم تفيض الآيات فى وصف اليهود بالافتراء على الله وعلى الحق، ووصفهم بالغرور والكذب على الله تعالى، وتعجب من إيمانهم بالجبت والطاغوت، وادعاؤهم – كذبا – بأنهم أهدى سبيلا من المؤمنين!!!

وفيها إخبار عن أن لليهود عند الله – بما فعلوا – اللعنة التى تحيق بهم، ولا يجدون لهم من دون الله ناصرا، ثم تصفهم الآيات بالبخل وبالحسد.

وفى الآيات حديث عن سوء مصير الكافرين، وحسن مآل المؤمنين فى مقابلة تدعو إلى الإيمان وتؤدى إلى الندم على الكفر.

وقد جاء ما اشتملت عليه هذه الآيات الكريمة فى أساليب عديدة من: استفهام تعجبى وأخبار مؤكدة حينا وتقريرية عارية من أدوات التأكيد حينا، وأساليب شرط، ونداء على الذين أوتوا الكتاب ليؤمنوا، وأكثر من صيغة أمر، وعلى مقابلة بين مصير الكافرين ومآل المؤمنين، وسوف نوضح ذلك فيما يلى والله المستعان:

تفصيل القول فى شرح هذه الآيات الكريمة:

– ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ استفهام تعجبى بمعنى: ألم تعلم خبر هؤلاء الذين أوتوا نصيبا من الكتاب وهم اليهود؟!

﴿ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ أى جانبا منه.

ولم يقل: أوتوا علم الكتاب، لأنهم عرفوا من التوراة نبوة موسى عليه السلام ونبوة عيسى عليه السلام، لكنهم أنكروا نبوة محمد ﷺ، فاما الذين أسلموا منهم كعبد الله بن

سلام رضى الله عنه وعرفوا نبوة موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فقد وصفهم الله تعالى بأن معهم علم الكتاب، فقال تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٤٣].

﴿ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾.

هذه الآية تضمنت وصفين لليهود:

أحدهما: الضلال، فهم يشترون الضلال بالهدى، أو يؤثرون تكذيب الرسول ﷺ، ليأخذ على ذلك الرُّشا، وتحصل لهم الرياسة زوراً وبهتانا.

والآخر: الإضلال للغير، وهو إضلالهم المؤمنين بالتلبيس عليهم ليخرجوهم من الإيمان إلى الكفر، فذلك كان شأنهم مع المسلمين فى زمن النبى ﷺ، وسيظل ذلك شأنهم مع كل المؤمنين فى العصور المتعددة.

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ﴾ أى أنه سبحانه يعلم حقيقة ما يكنه اليهود للمؤمنين من حقد وغل وحسد وعداوة وبغضاء.

﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ أى أن الله تعالى يوالى المؤمنين وينصرهم، ومن كان الله وليه وناصره فلن تضره عداوة الأعداء ولو كانوا من اليهود الأشرار.

- ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴾ الآية.

﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾

هذا معناه أنهم ضالون مضللون يمارسون تحريف الكلم عن مواضعه ليحققوا الضلال والإضلال، وتحريف الكلم عن مواضعه أخذ عندهم صورا، منها:

- أنهم يبدلون اللفظ بلفظ آخر، أو يلقون الشبهات الباطلة والتأويلات الفاسدة بصرف اللفظ عن معناه الحق إلى معنى باطل.

أو أنهم يحرفون كلام محمد ﷺ عندما يجيبهم عن سؤال، فيخرجون من عنده يزعمون أنه أجابهم بغير ما كان أجابهم به، أى يحرفون كلامه إساءة إليه وتضليلا عن الحق فيما أجابهم به.

- وأن اليهود يغالطون ويضللون، فإذا أمرهم النبى ﷺ بشىء قالوا فى الظاهر: سمعنا، وقالوا فى أنفسهم: وعصينا.

- وتهجمهم على النبى ﷺ وشتمهم إياه فى أنفسهم بقولهم له: ﴿اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أى يقولون له: اسمع، ويقولون فى أنفسهم: لا سمعت، دعاءً عليه.

- وسخريتهم منه ﷺ بقولهم: ﴿رَاعِنَا﴾ وهى كلمة تقال عندهم على وجه الاستهزاء، أو بمعنى راعينا أى كنت راعى غنم، أو بمعنى: أنصت إلينا، وهذا مما لا يخاطب به الأنبياء عليهم السلام.

- كل ذلك يفعلونه ﴿لَيًّا﴾ أى يلوون به ألسنتهم، ناطقين بكلمات ظاهرها لابأس به وباطنها الهزء والسخرية والدعاء على النبى ﷺ.

- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾

ومعنى هذا التعبير القرآنى: لو قالوا بدل قولهم: سمعنا وعصينا؛ سمعنا وأطعنا لعلمهم بصدق نبوتك وصدقك.

ولو قالوا بدل قولهم: اسمع غير مسمع؛ اسمع.

وبدل قولهم: راعنا قولهم: انظرنا، أى اسمع منا ما نقول وانظرنا حتى نفهم عنك، لكان ذلك القول خيرا لهم عند الله وأعدل وأصوب، لكنهم لم يفعلوا!!!

- ﴿وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أى: لَمَّا لم يفعلوا ما كان خيرًا لهم وأعدل بل كفروا وكذبوا واستهزأوا بالنبى ﷺ؛ لما لم يفعلوا ذلك لعنهم الله لهذا السبب.

- ﴿فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أى لا يؤمن منهم بهذا الحق إلا قليل منهم، كعبد الله بن سلام وأصحابه رضى الله عنهم.

أو أن المعنى: فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلاً، وذلك أنهم كانوا يؤمنون بالتوراة وبموسى، ويكفرون بسائر الأنبياء.

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾.

● على الرغم من صفاتهم التى ذكرها الله تعالى - وهى صفات سوء - فإنه سبحانه وتعالى

دعاهم إلى الإيمان ﴿آمِنُوا﴾ وقرن تلك الدعوة بالوعيد على الترك. فالخطاب في هذه الآية للذين أوتوا الكتاب فعلموا منه صدق محمد ﷺ، وليس الخطاب للذين أوتوا نصيبا من الكتاب فقط؛ لذلك كان الوعيد الشديد على الكفر به، مع أن ما جاء به محمد ﷺ مصدِّق لما معهم من التوراة.

- ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ أي آمنوا من قبل أن يجيء وقت نطمس فيه وجوهكم - وهو وقت ما بعد الموت في الآخرة - وقد أخَّر الله تعالى هنا الطمس لأن بعضهم آمَنَ، كعبد الله بن سلام وأصحابه رضي الله عنهم.

والطمس: هو المسخ بردِّ وجوههم إلى أقفيتهم على وجه الحقيقة، أو يكون الطمس مجازيًا بمعنى ردِّهم عن الهدى، وبقائهم على الضلال.

﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ أي نمسخهم قِردَةً كما فعلنا بأسلافهم الذين اعتدوا في السبت بأن احتالوا على الاصطياد، فمسخوا قردة وخنازير، كما تحدثت عنهم الآية الكريمة التي في سورة الأعراف وهي قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي إذا أمر الله تعالى بأمر كالمسخ ونحوه فلا يخالف ولا يمانع أي لا رادَّ لحكمه ولا ناقض لأمره.

- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ قال كثير من العلماء: إن هذه الآية دليل على عفو الله تعالى عن أصحاب الكبائر، ما لم تكن الكبيرة شركا.

وقال ابن جرير الطبري: قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة في مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عنه ذنبه، وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركا بالله تعالى، فإن الشرك به سبحانه لا يغفر أبداً، وقد أوضح ذلك بعض العلماء بقولهم: قد بيَّن الله ذلك بقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] فأخبر أنه يشاء أن يغفر الصغائر لمن اجتنب الكبائر، ولا يغفرها لمن أتى الكبائر.

روى الإمام أحمد بسنده عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ:

«الدواوين عند الله ثلاثة: ديوان لا يعبأ به شيئا، وديوان لا يترك الله منه شيئا، وديوان لا يغفره الله؛ فأما الديوان الذى لا يغفره الله فالشرك بالله، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢] وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئا، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه أو صلاة تركها، فالله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز عنه إن شاء، وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئا فظلم العباد بعضهم بعضا؛ القصاص لا محالة».

● ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾.

هؤلاء هم اليهود – وهم مغرورون – يزكون أنفسهم فيمدحونها بما ليس فيها، عن طريق مزاعم كثيرة يزعمونها حكاها عنهم القرآن الكريم، فى قوله تعالى عنهم إذ يقولون – كاذبين –: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]. وقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]. وقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١].

والتمادح وتزكية النفس منهى عنه شرعا لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢].

﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أى أن المرجع فى التزكية هو الله تعالى وليس الناس كائنين من يكونون، لأنه سبحانه وتعالى أعلم بمن اتقى.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أى أن الذين يزكون أنفسهم يحاسبون على تلك التزكية ويجزون حق جزائهم، ولا يظلمون شيئا أدنى شىء ولو كان قدر الفتيل – والفتيل ما يكون بين شقَّى نواة التمر – ومن زكاه الله تعالى لتقواه أثابه أحسن الجزاء دون أن ينقص من جزائه شيئا، أى لا يظلمون قليلا ولا كثيرا.

● ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ هذه الآية الكريمة تعجيب للنبى ﷺ من افتراء اليهود على الله تعالى، بتزكيتهم أنفسهم، بأقوالهم تلك التى ذكرناها آنفا.

﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ أى كفى بصنيعهم ذاك إثمًا واضحا ظاهرا.

• ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ وهؤلاء هم: اليهود.

والجبت: السحر أو الساحر، وهو كلمة حبشية، روى ذلك عن ابن عباس – رضى الله عنهما– وغيره، أو الجبت هو الشيطان.

والطاغوت: هو الكاهن أو الشيطان، روى ذلك عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

وقال الإمام مالك رحمه الله: الطاغوت كل ما عبد من دون الله، أو هم: أولياء الشيطان.

وقيل: الجبت والطاغوت هما كل ما عبد من دون الله، أو كل مطاع فى معصية الله.

وقيل: الجبت: كل ما حرم الله تعالى ومنه: الطرق والطِّيَرةُ والعيافة[1]، فقد روى أبو داود بسنده عن قَطَن بن المخارق عن أبيه رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطرق والطيرة والعيافة من الجبت».

والجبت والطاغوت: كلمتان وضعتا علمًا على من كان فى غاية الشر والفساد من الناس وغيرهم.

• ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ الذين كفروا فى هذه الآية هم اليهود، وكان من قصتهم فى قولهم هذا ما رواه علماء السيرة النبوية من أن كعب بن الأشرف وحُيَىّ بن أخطب وغيرهما، خرجوا – فى سبعين راكبا من اليهود– إلى مكة، بعد معركة أحد ليحالفوا قريشا على قتال محمد ﷺ، فقال لهم أهل مكة: أنتم أهل العلم فأخبرونا عنَّا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم ومحمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء ونسقى الماء على اللبن، ونفك العانى ونسقى الحجيج، ومحمد صنبور قطع أرحامنا، واتبعه سُرَّاق الحجيج من غِفار، فنحن خير أم هو؟

فقالوا: بل أنتم خير وأهدى سبيلا.

وإنما ذهب اليهود إلى أهل مكة ليستنصروا بهم على رسول الله ﷺ، وقد أجابهم المشركون إلى ذلك وتجمعوا معهم ومع غيرهم ضد المسلمين فى غزوة الأحزاب «الخندق» فكفى الله المؤمنين شرهم.

• ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ هذا استفهام إنكار عليهم فيما فعلوا،

---

(١) جاء فى لسان العرب لابن منظور: الطَّرْق: الضرب بالحصى أو الخط فى الرمل، والطيرة – بوزن عِنَبة – هو ما يتشاءم به، والعيافة: زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها وهو من عادة العرب.

والمعنى: ليس لهم نصيب من الملك، ولو كان لهم لمنعوا الناس ولا سيما محمدا ﷺ من أى شيء حتى لو كان ضئيلا قليلا قدره ملء نقير - والنقير نقطة فى ظهر نواة التمر - وذلك وصف لليهود بالبخل، والبخل من أشهر صفاتهم المعروفة عنهم، وقد جاء وصفهم به بعد وصفهم بالجهل فى الآية السابقة.

● ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾

تلك هى الصفة الثالثة لليهود فى هذه الآيات الكريمة، وهى صفة: الحَسَد، فهم قد حسدوا النبى ﷺ على ما آتاه الله من النبوة، إذ منعهم هذا الحسد من أن يصدقوه ويؤمنوا بما جاء به.

وهم يحسدون أى أحد على أى نعمة عنده، لأنهم - من غرورهم - يرون أنفسهم أحق بأى نعمة من أى أحد!!!

● ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

والمعنى - كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما - قد جعلنا في أسباط بنى إسرائيل الذين هم ذرية إبراهيم عليه السلام النبوة، وأنزلنا عليهم الكتاب،، وحكموا فيهم بالسنن - وهى الحكمة - وجعلنا منهم الملوك، ومع كل هذا فمنهم من آمن بهذه النبوة التى أعطاها الله تعالي لمحمد ﷺ، ومنهم من صد عنه وكفر، وأعرض، وسعى في صد الناس عنه، أو منهم من آمن بهذه النعم التى أعلاها النبوة، ومنهم من صد عن ذلك وكفر به، وصد الناس عن الإيمان به.

● وهذه الصفات الثلاث التى وصف بها اليهود: الجهل والبخل والحسد هى أسوأ صفات الإنسان، وكثيرا ما يترتب البخل والحسد على الجهل.

والحسد أسوأ هذه الصفات وأضرها بصاحبها، فقد قال الاسلاف: الحَسَد مذموم وصاحبه مغموم، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

وقال الحسن رحمه الله: ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد.

وروى عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: لا تعادوا نعم الله، فقيل له: ومَنْ يعادى نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله.

ويقال: الحسد أول ذنب عُصى الله به في السماء، وأول ذنب عُصى الله به في الأرض، فأما في السماء فحسد إبليس لآدم عليه السلام، وأما في الأرض فحسد قابيل لهابيل.

ومن الشعر الحسن فى وصف الحسد والحاسدين قول أبى العتاهية:

فـيـــارب إن الناس لا ينصــــفـــوننى	فكيف ولو أنصـــفـتـــهم ظلمـــونى
وإن كـــان لى شىء تصـــدوا لأخـــذه	وإن شـئت أبغى شـيـئـهم منعـونى
وإن نالهم بذلى فـــلا شكر عندهم	وإن أنا لم أبذل لهم، شـتـمـــونى
وإن طرقـتنى نكبــة فكهــوا بهــا	وإن صـحـبـتنى نعـمـة حسـدونى

• ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أى كفى بالنار عقوبة على كفرهم وعنادهم، ومخالفتهم كتب الله ورسله، وما فيهم من صفات حرَّم الله تعالى على عباده أن يتصفوا بها.

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا...﴾ قال علماء التفسير في ذلك: كفرهم بالآيات ليس بالجحد بها فقط، وإنما يكون بوجوه أخرى منها:

- إنكارهم أنها آيات من عنده الله.
- وغفلتهم عن الآيات فلا ينظرون إليها أو فيها.
- وإلقاء الشك والشبهات حولها.
- وإنكار الآيات على سبيل العناد والحسد.

﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ حكمة «سوف» هنا: تعنى التهديد والوعيد حيث يقول المتوعد - عادة - لمن يهدده: سوف افعل. ونصليهم نارا: اى ندخلهم فيها ونشويهم فيها - كما يقال: شاة مصلية اى مشوية.

• ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

وهذا تصوير مفزع لتعذيبهم بسبب عنادهم وكفرهم، لأن الجلد هو موضع الإحساس في جسم الإنسان، فكلما احترق جلده من العذاب بدل بجلد آخر ليتجدد له العذاب، وهكذا يتكرر العذاب على قدر ما تفيده حكمة ﴿كُلَّمَا﴾ من تكرار.

والهدف هو: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ وذلك هو جزاء الكافرين المعاندين الذين أنكروا آيات الله أو غفلوا عنها أو أثاروا الشكوك والشبهات فيها.

وإنما يحدث لهم هذا التعذيب بقدرة الله وعزته وبحكمته التى تقتضى تعذيبهم جزاء لهم، وعظة لغيرهم.

● ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾.

● مما يفهم من هذه الآية الكريمة أن المؤمن ما لم يعمل العمل الصالح، لا يستحق الجزاء الحسن، ولا يكون إيمانه أكثر من تصديق بالقلب يحتاج لكى يكمل إلى أن يترجمه بالعمل الصالح.

● وهؤلاء المؤمنون الذين عملوا الصالحات لهم عند الله من أنواع الجزاء ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

– أن الله تعالى يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، زيادة في إرضائهم ومتعتهم.

– وأنه تعالى يخلدهم فى هذا النعيم من الجنة.

– وأنه سبحانه سوف يجعل لهم أزواجا مبرءات من كل ما يعوق الاستمتاع بهن كالحيض والنفاس وما يحتمل أن يكون فيهن من أقذار كنساء الدنيا.

● وأنه سبحانه سوف يدخلهم ظلا ظليلا، والظل من أعظم أسباب الشعور بالراحة، والظليل مبالغة فى الراحة من الظل.

وتلك مقارنة بين جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين يوم القيامة نجدها كثيرة فى آيات القرآن الكريم، وهدفها أن يستفيق الغافلون ويهتدى الضالون ويؤمن الكافرون عندما يرون هذه المقارنة.

المواقف التربوية العامة في هذه الآيات الكريمة، وهى كثيرة نشير منها إلى ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ – يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ ما يلى:

أ – أن لدين الإسلام أعداء الداء هم اليهود، وأن الله تعالى يعلم عداوتهم لهذا الدين وأنهم أشد عداوة للمؤمنين من النصارى، كما نصت على ذلك آية سورة المائدة: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ....﴾ [المائدة: ٨٢].

ب – وأن عداوة اليهود للإسلام والمسلمين تقوم عليها الشواهد والبراهين قديما وحديثا، فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن هذه الآية الكريمة نزلت في حَبْرَيْن من أحبار اليهود كانا يأتيان عبد الله بن أُبيٌّ بن سلول رأس المنافقين ورهطه فيثبطونهم عن الإسلام، مع علمهم بأن الإسلام حق، وأنه الدين الواجب الاتباع.

جـ – وأن اليهود في هذه الآية موصوفون بصفتين أساسيتين هى:

- الضلال وإيثار هذا الضلال، فهم ضالون، لمعرفتهم من التوراة أن نبوة محمد ﷺ حقٌّ وإنكارهم لذلك، فهم ضالون عن الحق طمعا فى الرُّشا وفى الحصول على الرياسة والشرف والمال.

- والإضلال للناس عموما يهودا ومشركين، بإغرائهم بنصر اليهودية والتعصب لهم، وبكراهية الإسلام وعداوته.

وأن إضلالهم هذا تعدى اليهود والمشركين إلى المؤمنين بخاتم الأديان؛ حيث يحاولون التلبيس عليهم وزرع الشبهات ضد الإسلام فى نفوسهم لكى يخرجوهم من الإسلام.

د – وأن الله تعالى ولى المؤمنين وناصرهم، ومن كان الله وليه وناصره فلن تضيره عداوة الأعداء ولا بغضاؤهم، مهما كثروا وتنوعوا، المهم أن يكون المؤمنون على مستوى الالتزام بما يوجبه الإيمان من اعتقاد صحيح وعمل صالح، وكثيرا ما يغفل بعض المؤمنين عن هذه الحقيقة، إذ يستبطئون نصر الله تعالى إياهم، مع أنهم لم يؤهلوا أنفسهم بصفات الإيمان التى تعد سببا في النصر.

٢ – ويتعلم المسلمون من قول الله تعالى: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ما يلى:

أ – أن اشتراء اليهود للضّلال وإيثارهم إياه على الحق والهدى يأخذ صورا عديدة منها ما نشير إليه فيما يلي :

– أنهم يقومون بتحريف الكلم عن مواضعه، فيبدلون اللفظ بآخر لكي يغيروا الحق على النحو الذى يريدون، كتحريفهم لفظ «الرَّجْم» وجعله «الحدّ» وتحريفهم لكلمة «ربعة» في وصف آدم عليه السلام بأنه طويل، وغير ذلك من الألفاظ في التوراة وكتابتهم إياها بأيديهم ثم زعمهم بأنها من عند الله، كما يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ... ﴾ [البقرة : ٧٩] .

– وأنهم كانوا يظهرون خلاف ما يبطنون، فكان النبى ﷺ إذا أمرهم بشيء قالوا فى الظاهر : سمعنا وقالوا في أنفسهم : عصينا .

– ومن تحريفهم للكلم قولهم للنبى : «اسمع غير مسمع» وهو تعبير يحمل المدح بمعنى : اسمع غير مسمع مكروها، ويحمل الذم بمعنى : اسمع، وهم يقولون فى أنفسهم : لا سمعت .

– ومن تحريفهم للكلم عن موضعه قولهم للنبى ﷺ : راعنا أى أرعنا سمعك وهذا مما لا ينبغى أن يخاطب به الأنبياء عليهم السلام، ففيه إساءة أدب، فضلا عما يدل عليه من المعانى التى ذكرناها آنفا لهذه الكلمة وهم يريدونها إيذاء لرسول الله ﷺ .

ب – وأن الله تعالى لعنهم بسبب كفرهم، فقد كانوا لا يؤمنون إلا إيمانا قليلا، حيث كانوا يؤمنون بما جاء فى التوراة وبموسى عليه السلام، مع كفرهم بسائر الأنبياء عليهم السلام، فهم لذلك ملعونون مطرودون من رحمة الله تعالى إلى يوم الدين .

٣ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٤٧) إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٤٩) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ

مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾ ما يلى :

أ – أن الله تعالى وصف اليهود بما وصفهم به من صفات هى فيهم؛ كالمكر والخداع والبخل والحسد وغيرها، ومع كل ما هو معروف عنهم من هذه الصفات دعاهم سبحانه وتعالى إلى الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ مصدقا لما معهم من كتاب، مهددا إياهم إذا لم يؤمنوا بأن يطمس على وجوههم فيضلون ضلالا لا هداية بعده، كما هددهم باللعنة، كما لعن أسلافهم الذين تلاعبوا فى السبت على نحو ما أوضحنا آنفا .

ومعنى ذلك ألا يثق أحد فى اليهود، ولا يصدقهم فيما يقولون ولا يطمئن إلى ما يفعلون، فهم أهل الغدر والخيانة والجهل والبخل والحسد وكتمان الحق .

ب – وأن اليهود بكفرهم برسالة محمد ﷺ قد أشركوا بالله تعالى، فاستحقوا العقاب، وبعدوا تماما عن أن يغفر الله لهم هذا الشرك – فالله تعالى لا يغفر أن يشرك به – فبقوا على يهوديتهم برفضهم الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ .

جـ – وأن الذنوب جميعا – ما عدا الشرك بالله – تتناولها مغفرة الله تعالى، حتى لو كانت من الكبائر، كما تدل على ذلك هذه الآية الكريمة، غير أن تكفير السيئات إلى اجتناب الكبائر، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، فلابد مع الكبيرة من التوبة .

● وهذا الغفران معلق على مشيئة الله تعالى قبل أن يتوب مرتكب الكبيرة، وكل ذلك مشروط بألا تكون الكبيرة شركًا بالله تعالى .

● وأن هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ من الآيات المبشرة الدالة على سعة رحمة الله وعظيم عفوه، حتى إن على بن أبى طالب قال: ما فى القرآن آية أحب إلىّ من هذه الآية، كما روى ذلك الترمذى عن علىّ رضى الله عنه .

د - وانه لا يجوز لاحد ان يزكى نفسه، فيصفها بصفات المدح، لان الله تعالى استنكر على اليهود تزكيتهم أنفسهم عندما قالوا ﴿رَاعِنَا﴾ وعندما قالوا: ﴿اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ وغير ذلك من مقولاتهم التى اندفعوا إليها لغرورهم، فلا يجوز لاحد ان يزكى نفسه، لان الله تعالى هو الذى يزكى من يستحق التزكية، ولا يظلم احدا شيئًا.

هـ - وأن اليهود يثيرون الدهشة والاستغراب مع دعاواهم الطنانة، عندما يقعون فيما يلى:

- عندما يعبدون غير الله وهم يزعمون أنهم أبناء الله!!!

- وعندما يسرفون على أنفسهم في المعاصى مع دعواهم أنهم لن تسمهم النار إلا أياما معدودة.

- وعندما يزكون أنفسهم مع أن فيهم من الصفات الراذلة الملازمة لهم: البخل والحسد والغرور والكذب والخيانة والخداع والغدر.

وأسوأ ما فيهم من الصفات افتراؤهم على الله الكذب.

و - وأن من صفاتهم الملازمة لهم التضليل وقلب الحقائق وإنكار الحق مع معرفتهم به، وذلك حيث فضلوا عُبَّاد الأصنام من المشركين على المؤمنين الموحدين، وهم موقنون أنهم بذلك يضللون ويكذبون، حيث قالوا للمشركين: أنتم أهدى سبيلا من المؤمنين.

● إن اليهود بذلك الكفر وذاك التضليل قد استحقوا لعنة الله تعالى، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا.

ز - وأن من مزاعم اليهود ودعاواهم الكاذبة بأنهم أولى بالملك والنبوة، وقد كذبهم الله تعالى، بأن جعل النبوة فى محمد ﷺ، ولو كان الملك والنبوة إليهم - كما زعموا - لبخلوا على الناس بالنقير والقطمير أى بأقل ما يوصف به القليل، وإنما فعلوا ذلك وادعوه حسدا لمحمد ﷺ أن آتاه الله النبوة كما آتى آل إبراهيم الكتاب والحكمة.

ح – وأن بعض اليهود قد كانت لهم مصداقية مع ما يعلمون من التوراة، وكانت لهم أمانة مع أنفسهم واحترام لعقولهم فآمنوا بما أنزل على محمد ﷺ كعبد الله بن سلام وأصحابه، ولكن أكثرهم أصروا على كفرهم، فاستحقوا عقاب الله تعالى.

٤ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ ما يلي:

أ – أن الله تعالى يعاقب من كفر به وبآياته عقابا يساوى كفره، ولا يستثنى من ذلك أحدا يهوديا كان أو غير يهودى، مغرورا كان أم متواضعا، لأن الكفر بالله تعالى أبشع الصفات.

ب – وأن عقاب الله لمن كفر به عقاب شديد الإيلام، وأنه مستمر لا ينقطع عن أصحابه وإنما هو الخلود فيه أبدا. وأنه عذاب متجدد – كُلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب، وأنه لا منجى من هذا العذاب إذ هو صادر من العزيز القادر الحكيم فى كل عقاب يوقعه بمن يستحقه.

جـ – وأنه تعالى يجزى المؤمنين الذين يعملون الصالحات أحسن الجزاء، ويفصل هذا الجزاء، لتكون المقارنة بين جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين، حافزة للكفرة عى ترك الكفر، وحافزة للمؤمنين على الازدياد من الطاعة والتقوى.

د – وأن تفصيل جزاء المؤمنين يتناول ما يلى:

– الجنات التى تجرى من تحتها الانهار.

– والخلود فى هذه الجنات إلى الأبد.

– والتنعم بالأزواج المطهرات عن كل ما يعهد عن نساء الدنيا من حيض ونفاس واستحاضة ونحوها.

– والظل الظليل الذى يقى لفح الشمس، وحارّ الرياح.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة.

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى مجال الحركة الإسلامية من هذه الآيات الكريمة، ما لا يمكن الاستغناء عنه فى أى مرحلة من مراحل الدعوة ولا فى أى خطوة من خطوات الحركة بالإسلام فى الناس والآفاق، وعلى سبيل المثال:

١ - يتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا** ﴾ ما يلى:

أ - أن الحذر كل الحذر، والخوف كل الخوف يجب أن يكون من الذين أوتوا نصيبا من الكتاب فآمنوا به وكفروا بسائره، فهؤلاء خطر على المؤمنين في كل حين.

وكان اليهود من الذين أوتوا نصيبا من الكتاب أى من التوراة، فآمنوا بالتوراة وبموسى عليه السلام وكفروا بما سوى ذلك من الكتب والرسل، وهذا شأن كل من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض.

- وهؤلاء في الناس كثيرون يأخذون ببعض الدين ويتركون بعضه كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ** ﴾ [البقرة: ٨٥].
- فليتعامل الدعاة إلى الله مع هؤلاء بما يزيل عنهم اللبس ويثبت إيمانهم، ويفقههم بأن دين الله ومنهجه كل متكامل لا يجوز الأخذ ببعضه دون بعضه.
- وهذه الآية الكريمة التى تحدثت عن اليهود وعن صفاتهم توحى بهذه المعانى التى ذكرنا بل تشير إليها، وتدعو إلى التنبه لها.

ب - وأن الذين أوتوا الكتاب من اليهود، يقومون بعملين خطيرين هما:

- اشتراء الضلالة بالهدى،

- ورغبتهم في إضلال المسلمين عن الحق الذى آمنوا به.

- والآية الكريمة تؤكد عداوتهم للمؤمنين، وتطالب المؤمنين بألا يصحبوهم،فضلا عن أن يصاحبوهم.

● وفي الآية طمأنة للمسلمين على أن الله تعالى معهم يكفيهم كل عدو وينصرهم عليه، وكفي به سبحانه وليا ونصيرا.

٢ – ويتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ما يلي:

أ – أن لليهود صفات لم تفارقهم، حتى لقد أصبحت من طبائعهم، وهذه الصفات – كما ذكرتها هذه الآية الكريمة – هي:

– تحريفهم الكلم عن مواضعه، وإساءة مخاطبة الرسول ﷺ، وأنهم جبناء يلجئون إلى التورية فى الكلام، وأنهم يطعنون فى الدين وفى النبى ﷺ.

وقد نهاهم الله تعالى عن الاتصاف بهذه الصفات، ولذلك عاقبهم الله تعالى على تلك الصفات أشد أنواع العقاب وهو لعنهم بسبب كفرهم.

ب – وأن على الدعاة إلى الله وعلى المسلمين جميعا أن يتعاملوا مع اليهود على أن تلك صفاتهم التى لا تفارقهم أبداً من لدن كانوا وإلى أن يبعثوا ويقوموا بين يدى الله رب العالمين.

وهذا التعامل يستدعى مزيدا من الحذر من كل يهودى على مَرِّ العصور والأزمان.

جـ – وأن على الدعاة إلى الله والحركيين أن يقارنوا بين صفات اليهود كما قررها القرآن الكريم، وبين صفاتهم اليوم.

وعليهم أن يوضحوا للناس حقيقتهم حتي لا ينخدع فيهم من يفاوضونهم اليوم أو يتسارعون في تطبيع العلاقات معهم، على الرغم من احتلالهم للارض وتحديهم لكل القرارات الدولية التى صدرت ضدهم لإعادة الحق إلى أصحابه.

● والعجب أن الامم المتحدة ومجلس الامن ومن ورائهما الولايات المتحدة الامريكية يباركون هذا التحدى والإصرار على نقض العهود وتخريب المعاهدات، ثم تزعم أمريكا أنها تحافظ على حقوق الإنسان!!!

لو أرادوا التعبير بصدق لقالوا: نحن نحمى حقوق الإنسان بشرط الا يكون مسلما أو عربيا، وقدموا على ذلك أدلة كثيرة بمواقفهم الجائرة تأييدا لإسرائيل وللصرب وللمنشقين في السودان، فضلا عن عدائهم التقليدى للجمهورية الإسلامية فى إيران.

● واعجب العجب أن تتقرب بعض الدول المسلمة والعربية إلي الولايات المتحدة الأمريكية بالتهجم على الإسلام وإعطاء الحرية لمن يكتب ضد الإسلام، وقمعهم كل حركة إسلامية أو فكر إسلامى أو دعوة إسلامية مع أن دساتيرها تنص على أن الدين الإسلامى هو الدين الرسمى للدولة وهو مصدر تشريعاتها!!!

٣ - ويتعلم الدعاة إلى الله تعالى والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ ما يلى:

أ - أن طلب الله تعالى الإيمان من الناس طلبٌ عام مستمر لمن أوتوا الكتاب، ولغيرهم من الناس، وما ذلك إلا رحمة من الله بالناس، رحمة تقتضى أن ينقذوا أنفسهم بالدخول في الإيمان، ويخرجوا من دائرة تهديد الله تعالى إياهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة، كما عذب أصحاب السبت ولعنهم بكفرهم.

● إن الدعاة إلي الله عليهم أن يذكروا دائما بأن باب الدخول فى الإيمان مفتوح دائما، وأن العقلاء هم الذين يقبلون عليه.

ب - وأن اليهود، وكل أهل الكتاب مطالبون بالدخول فى الإيمان بالله تعالى، ولذلك تتوجه إليهم الدعوة كغيرهم من الناس، فإذا دخلوا فى الإيمان نجوا من عذاب الله وصاروا من أمة الإجابة.

جـ - وأن هذه الآية عندما استمع إليها كعب الأحبار كانت سببا في إسلامه، فقد روى ابن أبى حاتم بسنده عن أبى إدريس الخولانى قال: كان أبو مسلم الخليلى معلم كعب، وكان يلومه في إبطائه عن رسول الله ﷺ، فبعثه إليه ينظر أَهُوَ هُوَ؟ قال كعب: فركبت حتى أتيت المدينة فإذا تال يقرأ القرآن يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ

أَدْبَارِهَا..﴾ فبادرتُ الماء فاغتسلتُ، وإني لأمسّ وجهي مخافة أن أُطمس، ثم أسلمتُ.

د – وأن المؤمنين أولى بالاستمرار على الإيمان، وتحمل تبعاته، فهم يعتبرون من الذين أوتوا الكتاب وأورثوه، وإلا تعرضوا لتعذيب الله تعالى في الدنيا والآخرة.

والدعاة إلى الله والعاملون في الحركة الإسلامية أولى الناس في توضيح أبعاد هذه القضية، ودعوة الناس إلى تعميق الإيمان وتحمل جميل الصبر من أجل هذا الإيمان، ومن أجل تبعات التمسك به وبالحق الذي يدعو إليه.

وللدعاة إلى الله تعالى وللحركيين في هذه الآية الكريمة إشارات ودلالات، وتوجيهات، والله سبحانه وتعالى هو الموفق إلى ما يحب ويرضى.

٤ – ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون في الحركة الإسلامية من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ما يلي:

أ – أنّ من صميم رحمة الله تعالي بعباده أن يغفر لهم الذنوب جميعاً ما عدا أن يشركوا به.

وهذه الآية الكريمة تبشر بذلك وتهدى الناس أعظم هداية وهي تأكيد أن هذا الدين دين الرحمة التي تتسع عند الله لتشمل كل ذنب ما عدا الشرك بالله.

قال القرطبي: روى أن النبي ﷺ تلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾(١) فقال له رجل: يا رسول الله، والشرك بالله؟ فنزل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.

وهذا من المتفق عليه بين العلماء، ولا اختلاف فيه بين الامة.

ب – وأن هذه الآية الكريمة – لاهمية ما تضمنته – قد زودتنا بعدد من الاحاديث النبوية التي تكشف دلالاتها، وهذه الاحاديث النبوية هي الزاد الحقيقي للدعاة إلى الله والعاملين في مجال الحركة الإسلامية، وسأحاول هنا أن أرصد من هذه

---

(١) [سورة الزمر: ٥٣]، وبدايتها: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

الأحاديث ما يتسع له مجالنا هذا.

ومن هذه الأحاديث ما نذكره فيما يلي:

- روي البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى ذر رضى الله عنه قال: خرجت ليلة من الليالى، فإذا برسول الله ﷺ يمشي وحده وليس معه إنسان، فظننت أنه يكره أن يمشى معه أحد، قال: فجعلت أمشي في ظل القمر، فالتفت فرآنى فقال: «من هذا» قلتُ: أبو ذر جعلنى الله فداك، قال: «يا أبا ذر تعال» قال: فمشيت معه ساعة فقال لى: «إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيرا فجعل يبثه عن يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيرا» قال: فمشيتُ معه ساعة فقال لى: «اجلس ههنا» فأجلسنى فى قاع حوله حجارة، فقال لى: «اجلس ههنا حتي أرجع إليك» قال: فانطلق في الحرة حتي لا أراه فلبث عنى حتي إذا طال اللبث، ثم إنى سمعته وهو مقبل وهو يقول: «وإن زنى وإن سرق»، قال: فلما جاء لم أصبر حتى قلتُ: يا نبى الله جعلنى الله فداك، مَنْ تكلمه في جانب الحرة؟ فإنى سمعتُ أحدا يرجع إليك، قال: «ذلك جبريل عرض لى جانب الحرة، فقال: بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، قلت يا جبريل: وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم، قلتُ: وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم، قلتُ: وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم وإن شرب الخمر».
- وروي ابن حميد في مسنده بسنده عن جابر رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ،ما الموجبتان؟ قال: «من مات لا يشرك بالله شيئا وجبت له الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئا وجبت له النار».
- وروى الطبرانى في الأوسط بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: قال الله عز وجل: «من علم أنى ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرتُ له ولا أبالى، ما لم يشرك بى شيئًا».
- وروى ابن أبى حاتم بسنده عن أبى أيوب رضى الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ، فقال: إنَّ لى ابن أخ لا ينتهى عن الحرام، قال: «وما دينه»؟ قال: يصلى ويوحِّدُ الله، قال: «استوهب منه دينه، فإن أبى فابتعه منه» فطلب الرجل ذلك منه فأبى عليه، فأتى النبى

ﷺ فأخبره فقال: وجدته شحيحا على دينه، قال: فنزلت: «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء».

● وروى البزار فى مسنده بسنده عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: الظلم ثلاثة؛ فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره الله، وظلم لا يترك الله منه شيئًا: فأما الظلم الذى لا يغفره الله فالشرك وقال: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] وأما الظلم الذى يغفره فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذى لا يتركه، فظلم العباد بعضهم بعضا حتى يدين لبعضهم من بعض».

وبعد: فليس معنى هذه الأحاديث النبوية وأمثالها أن يتساهل الناس فى ارتكاب المعاصى أو يترخصوا فى ترك الواجبات والمندوبات لأن الأصل أن يؤدى المسلم كل ما يجب عليه فإن وقع فى خطأ فإن كان دون الشرك فإن رحمة الله تعالى تتسع لمغفرته إذ شاء الله تعالى.

٥ - ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٤٩) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١) أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ مايلى:

أ - أنه لا يجوز لمسلم أن يزكى نفسه، لهذه الآية الكريمة، ولقوله تعالى: ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النجم: ٣٢] ومعنى ذلك أن المزكى لنفسه بلسانه واقع فيما نهى الله عنه، لأن الله تعالى وحده هو المزكى لعباده وهو الأعلم بهم وبما تكنه نفوسهم.

وفى معنى هذه الآية الكريمة الناهية عن تزكية النفس وردت أحاديث نبوية كثيرة أذكر منها بما يلى:

● روى مسلم بسنده عن محمد بن عمرو بن عطاء، قال: سميت ابنتى: برَّة فقالت لى

زينب بنت أبى سلمة : إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسُمْيتْ : برّة فقال رسول الله ﷺ : « لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم » فقالوا : بم نسميها؟ فقال : سموها زينب » .

– والمسلم لا يزكى نفسه ولا يزكى غيره أو يمدحه، فقد روى البخارى بسنده عن أبى بكرة رضى الله عنه أن رجلا ذُكر عند النبى ﷺ فأثنى عليه رجل، فقال النبى ﷺ : « وَيْحَكَ قطعت عنق صاحبك – يقوله مرارا – إن كان أحدكم مادحا لا محالة ليقل : أحسبُ كذا وكذا – إن كان يرى أنه كذلك – وحسيبه الله ولا يزكى على الله أحداً » .

● وروى مسلم بسنده عن المقداد بن الأسود رضى الله عنه قال : أمرنا رسول الله ﷺ : أن نحثو فى وجوه المداحين التراب .

● وروى أحمد بسنده عن معاوية رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين، وإن هذا المال حلو خضر فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه، وإياكم والتمادح فإنه الذبح » .

ويرى العلماء أن المقصود من يمدح الناس فى وجوههم بما ليس فيهم حتى يجعل ذلك المدح بضاعة يستأكل بها الممدوح ويفتنه .

– أما مَنْ يمدح رجلا بما فيه من الصفات الحسنة فى غيبته فلا بأس بذلك لما فيه من حث غيره على التحلى بهذه الصفات الفاضلة .

– وأما من مدح إنسانا فى وجهه بصفات حسنة فيه ونية المادح خالصة فى حث غيره على التحلى بهذه الصفات فلا بأس بذلك أيضا، لأنه راجع إلى النية، والنية لا يعلمها إلا الله تعالى والله سبحانه يعلم المفسد من المصلح .

– وأما من يمدح رسول الله ﷺ بما فيه، وفى وجهه فذلك جائز لأنه ﷺ معصوم لا يغتر بمدح مادح، وقد مدحه الشعراء والخطباء حتى ممن لم يكونوا دخلوا فى الإسلام، لكن شرط ذلك للمسلم أن يكون مدحه للرسول ﷺ بصفات هى فيه، فإن وصفه بما ليس فيه فقد أثم لما روى أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تطرونى كما أطرت الناس عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله » .

والنصارى وصفوا عيسى ابن مريم بما ليس فيه يقينا، وبالغوا حتى ضلوا وكفروا إذ

وصفوه بأنه ابن الإله.

ب – وأن اليهود هم اليهود معروفون بصفاتهم المأثورة عنهم لا يفارقونها، وعلى الدعاة إلى الله أن ينبهوا المسلمين إلى صفات اليهود وأن يحذروهم من الاتصاف بها وأهم هذه الصفات – كما أوضحنا آنفا– :

– افتراء الكذب على الله.

– وأنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

– وأنهم مضللون يؤمنون بالجبت والطاغوت مع علمهم بأن هذا باطل.

– وأنهم يفضلون أى أحد على المسلمين.

– وأنهم أهل بخل وحسد.

وكل تلك من الصفات المرذولة التى حرم الإسلام الاتصاف بها على كل مسلم.

جـ – وأن على الدعاة إلى الله أن يركزوا على أن من أخطر الخطر على الناس عموما وعلى المسلمين خصوصا أن يأخذوا ببعض كتاب الله تعالى وأن يتركوا بعضه، فكتاب الله كل متكامل يؤخذ به كله، وإلا ضل الناس وخرجوا عن شرع الله ونظامه.

د – وعلى الدعاة إلى الله أن يحذروا الناس من أن يأتوا السحرة والكهان يلتمسون عندهم المعرفة أو الشفاء، لأن هذا من الكفر، فقد روى أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتى عرافًا أو كاهنا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد».

٦ – ويتعلم الدعاة إلى الله والمتحركون بالإسلام فى الناس والآفاق من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾ ما يلى:

أ – أن الكافرين بآيات الله ودلائله ومنهجه ونظامه فى أى زمان ومكان سوف يصليهم الله تعالى نارا يعذبهم فيها أشد العذاب وآلمه، وذلك أن الكفر بالله تعالى وبآياته يتضمن تحدّيا لله تعالى الذى أنعم على الإنسان بنعمتين كبيرتين كانتا وستظلان سببا فى إيمان من يعمل عقله فى آيات الله.

هاتان النعمتان هما:

- نعمة العقل يميز به بين الإيمان والكفر، وبين المعبود بحق وهو الله تعالى، والمعبودات الأخرى التي لاتغني عبادتها شيئا.

- ونعمة النبوة والرسالة الخاتمة فهي تعين العقل - بما جاء فيها من الحق - على أن يميز الباطل من الحق والضلال من الهدى، والحيرة والضياع من الأمن والاطمئنان.

فمع هاتين النعمتين ما كان ينبغي لأحد أن يكفر بالله وآياته.

ولكن من كفر - على الرغم من ذلك - كان أهلا لأن يعذبه الله أشد العذاب.

ب - وعلى الدعاة إلى الله أن ينبهوا الناس إلى أن عقاب الكفار بهذه الشدة عدل وإنصاف لأنهم أُعطوا أسباب الإيمان من نبوة وعقل ولكنهم جحدوا هاتين النعمتين وكفروا فاستحقوا عذاب الله لكفرهم وجحودهم، وأن تلك هي سنة الله تعالى التي لا تتخلف في أي زمان أو مكان، عقاب من يستحق رَدْعًا له ولسواه، وتلك هي الحكمة الكامنة في العقاب إلى يوم الدين.

جـ - وعلى الدعاة إلى الله أن يؤكدوا أن المؤمنين بالله وبآياته ومنهجه ونظامه، الذين يعملون الصالحات لهم عند الله أحسن الجزاء - كما أوضحنا ذلك آنفا -.

والدعاة إلى الله عملهم متراوح ما بين إنذار الكافرين وتبشير المؤمنين، وليس لهم أن يُيَئِسُوا أحدا من رحمة الله تعالى مهما كثرت ذنوبه مادام مؤمنا.

٩ - الآيات الكريمة من الآية الثامنة والخمسين إلى الآية السبعين

أمر من الله بأداء الأمانة وتشريعات عديدة

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾.

اشتملت هذه الآيات الكريمة على عدد من التشريعات، جاء معظمها فى صيغة الأمر، وعلى آداب وأخلاق هى من صميم صفات المؤمنين، ومن أهم هذه التشريعات:

- الأمر بأداء الأمانة.

- والأمر بالعدل فى الحكم بين الناس.

- والأمر بطاعة الله ورسوله مطلقا، وطاعة أولى الأمر ما لم يأمروا بمعصية.

- والتعريف بأدب الخلاف والاختلاف، وتحديد مرجعيات المختلفين.

- وتأكيد أن التحاكم إلى غير الله ضلال بعيد.

- وتحديد صفات المنافقين، وتوضيح أسلوب التعامل معهم.

- وأن التحاكم يجب أن يكون إلى رسول الله ﷺ وإلى شرعه ومنهجه، وأن ذلك لا يتم الإيمان إلا به.

- وأن جزاء طاعة الله ورسوله خير جزاء، إذ هو كجزاء النبيين والصديقين والشهداء.

تفصيل القول فى هذه الآيات الكريمة:

- ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا . . .**﴾

● الأمانات: جمع أمانة، وهى عامة فى كل ما ائتمن عليه الإنسان، ووجبت عليه رعايته.

● وقد قسَّم العلماء هذه الأمانة إلى ثلاثة أنواع:

الأول:

أمانة الإنسان مع ربه سبحانه وتعالى، أى التزامه بفعل ما أمره الله به، وتركه ما نهى الله عنه.

وقد توسع العلماء فى تفصيل هذا النوع من الأمانة الواجبة الرعاية، فقالوا:

- أمانة اللسان: ألا يستعمل فى الكذب والغيبة والنميمة والبدعة والفحش والكفر، وكل ردىء من القول.

- وأمانة العين: ألا تستعمل فى النظر إلى ما حرّم الله تعالى النظر إليه.

- وأمانة السمع: ألا يستعمل فى الاستماع إلى ما نهى الله عن الاستماع إليه، من كذب وفحش وخوض فى أعراض الناس ونحو ذلك.

- وأمانة اليد: ألا تتناول شيئا مما حرّم الله، فلا يسرق ولا يبطش، ولا يظلم ولا يقتل ونحو هذا من المحرمات.

- وأمانة الرجل: ألا يمشى بها إلى ما حرّم الله السعى إليه.

- وهكذا الأمانة بالنسبة لكل جوارح الإنسان.

والنوع الثانى من الأمانة هو :

أمانة الإنسان مع سائر الخلق، وتلك الأمانة يدخل فيها حفظ الودائع وردها إلى أصحابها، ويدخل فيها ترك تطفيف الكيل والميزان، ويدخل فيها عدل الحكام مع من يحكمون، وعدل العلماء مع من يرشدون ويعلمون، ويدخل فيها أمانة الأزواج فى تعاملهم فى الحياة الزوجية والأسرية، ويدخل فيها العمل الجليل الذى قام به الرسول ﷺ حينما رَدَّ مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة بن أبى طلحة، بعد فتح مكة، وتطهير الكعبة من الأوثان والأصنام.

والنوع الثالث من الأمانة هو :

أمانة الإنسان مع نفسه، بمعنى أن يختار لنفسه الأنفع له فى دينه ودنياه، وأن يجنِّبها كل ما يعود عليها بالضرر فى الدين والدنيا، بأن يلزم النفس تنفيذ ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه.

● وأهل الأمانة هم أصحاب الحق فى أدائها إليهم، وقد أجمع العلماء على أن الأمانة تؤدىٰ إلى أصحابها أبرارا كانوا أم فجاراً، فقد أخرج الدارقطنى بسنده عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك».

● وتعبير: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ لم يرد فى القرآن الكريم إلا فى هذه الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ... ﴾ لكن ورد: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

وفى أمر الله تعالى للمخاطبين بأداء الأمانة، وأمره المطلق بالعدل والإحسان، ما يؤكد أهمية الأمانة والعدل فى حياة الناس، إذ بدونهما لا تستقيم للناس حياة إنسانية كريمة.

● وفى سبب نزول هذه الآية قال الواحدى: نزلت فى عثمان بن طلحة... وكان سادنا للكعبة، فلما دخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب البيت وصعد السطح، فطلب رسول الله ﷺ المفتاح فقيل: إنه مع عثمان فطلب منه فأبى وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه المفتاح، فلوى علىّ رضى الله عنه يده وأخذه منه، وفتح الباب فدخل رسول الله ﷺ البيت وصلى فيه ركعتين، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه مفتاح الكعبة ليجمع بين السقاية والسدانة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأمر رسول الله ﷺ عليًا رضى الله عنه أن يَرُدَّ المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه، ففعل ذلك علىّ رضى الله عنه، فقال له

عثمان: يا علىّ أكرهتَ وآذيتَ ثم جئتَ ترفق؟ فقال علىّ رضى الله عنه: لقد أنزل الله تعالى فى شأنك، وقرأ عليه هذه الآية، فقال عثمان: أشهد أن محمداً رسول الله، وأسلم.
وفى رواية أخرى أن رسول الله ﷺ أعطى المفتاح لعثمان وقال: «اليوم يوم وفاء وبر».
- ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾

وقد أجمع العلماء على أن من كان حاكماً وجب عليه أن يحكم بالعدل لهذه الآية الكريمة، ولقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [النحل: ٩٠] ولقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال بعض العلماء: الحكم بين الناس بالعدل يكون بمبدأ: «البيِّنَة على من ادعى واليمين على من أنكر».

● والخطاب فى الحكم بين الناس بالعدل يتناول بالأولوية الولاة والأمراء والحكام، وجميع الناس الذين يتعرضون للحكم بين الناس حتى فى الأمور الصغيرة، على اعتبار أن العدل مطلب عام جاءت فيه آية تطالب به مطلقا وعموما هى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ... ﴾ [النحل: ٩٠].

وقد روى مسلم بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا».

قال القرطبى: وكذلك العالم الحاكم إذا أفتى حكم وقضى وفصل بين الحلال والحرام والفرض والندْب والصحة والفساد، فجميع ذلك أمانة تؤدى وحكم يقضى.

وروى عن الحسن أنه قال: إن الله أخذ على الحكام ثلاثا: ألا يتبعوا الهوى.

وأن يخشوه ولا يخشوا الناس.

ولا يشتروا بآياته ثمنا قليلا، ثم قرأ: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ ﴾ [ص: ٢٦].

● وكل الآيات الكريمة التى وردت فى تحريم الظلم وذَمّه تدل على وجوب العدل فى الحكم بين الناس(١).

---

(١) من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ =

وقال فخر الدين الرازى فى تفسيره: «مفاتيح الغيب» قال عليه الصلاة والسلام: «ينادى مناد يوم القيامة، أين الظَّلَمة وأين أعوان الظلمة؟ فيجمعون كلهم حتى من بَرَى لهم قَلَما، أو لاَقَ لهم دواة، فيجمعون ويُلقَوْن فى النار».

وأخطر ما يكون الظلم وأوسعه انتشارا عندما يمارسه الحكام ضد من يحكمونهم.

● والأحاديث النبوية الواردة فى تحريم الظلم والتخويف منه أكثر من أن تحصى فى هذه الصفحات، ولكنى أذكر بعضها فيما يلى:

- روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢].

- وروى مسلم بسنده عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة..» الحديث.

- وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين».

- ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾.

أى نعم ما يعظكم به الله تعالى من أداء الأمانات، ووجوب العدل وترك الظلم، فإنه أعلم بالمسموعات والمبصرات كلها، ويجازيكم على ما يصدر منكم، فخافوا عقاب الله واتقوه ولا تتوهموا أنكم تخفون عنه عملا من أعمالهم أو قولا من أقوالكم فهو سبحانه السميع البصير.

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾.

● الخطاب القرآنى فى هذه الآية موجَّه إلى المؤمنين، يطالبهم بثلاثة أنواع من الطاعة، هى

= صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٤]. وقوله تعالي: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٥١، ٥٢].

طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ، وطاعة أولى الأمر من حكام وعلماء وكل صاحب سلطة فيهم. طاعة الله والرسول مطلقا، وطاعة أولى الأمر فيما كان لله فيه طاعة، فإن أمروا بمعصية الله فلا طاعة لهم.

● ومن المعروف أن فساد الحكام أو فسق بعضهم أو ظلمهم لمن يحكمون بالخروج على بعض ما جاء به دين الإسلام قد يحدث، ومع ذلك فإن للعلماء فى طاعتهم - على الرغم مما يبدر منهم - ما يشبه الإجماع، خشية الفتنة.

وفى زمن القرطبى (المتوفى ٦٧١هـ - ١٢٧٣م) كان الحكام والأمراء على الحال التى ضاعت بسببها الاندلس، ومع ذلك قال القرطبى فيهم: وإن ولاة زماننا لا تجوز طاعتهم ولا معاونتهم ولا تعظيمهم، لكن يجب الغزو مهم متى غزوا، والحكم من قبلهم وتولية الإمامة والحسبة وإقامة ذلك على وجه الشريعة.

وإن صَلَّوا بنا - وكانوا فسَقة من جهة المعاصى - جازت الصلاة معهم، وإن كانوا مبتدعة لم تجز الصلاة معهم إلا أنْ يُخافوا فيُصلى معهم، وتُعاد الصلاة»(١).

● وفى سبب نزول هذه الآية يقول العلماء: إن رسول الله ﷺ كان قد بعث عبد الله بن حذافة السهمى فى سَرِيّة - وكان عبد الله رضى الله عنه فيه دعابة - فأمر من معه أن يجمعوا حطبا ويوقدوا ناراً، فلما أوقدوها أمرهم بالتَّقَحُّم فيها قائلا لهم: ألم يأمركم رسول الله ﷺ بطاعتى؟ (إشارة إلى قوله ﷺ: من أطاع أميرى فقد أطاعنى) فقالوا: ما آمَنَّا بالله واتبعنا رسوله إلا لننجو من النار، وصَوَّب رسول الله فِعْلهم، وقال: لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، قال الله تعالى: «ولا تقتلوا أنفسكم».

● وبعض العلماء قالوا: إن سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد أميراً على سَرِيّة، فيها عمار بن ياسر رضى الله عنه، فثار بينهما نزاع واختلاف حول رجل كان قد أسلم ولجأ إلى عمار بن ياسر، فأراد خالد أخذه وأخذ ماله، فرفض ذلك عمار رضى الله عنه، فنزلت هذه الآية.

وأيًّا ما كان سبب نزول الآية الكريمة، فإن العبرة فى آيات القرآن الكريم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

---

(١) القرطبى: الجامع لاحكام القرآن الكريم: ٥/٢٥٩ ط مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية - نشر دار الكاتب العربى القاهرة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

والنوع الرابع من الأمانة :

هو الامانة بمعنى رَدّ الامور المتنازع فيها إلى الله ورسوله اى إلى الكتاب والسنة بالنظر فيهما، واستخراج الحكم منهما، لحسم النزاع.

وهذا قول جمهور العلماء.

● ويرى بعض العلماء أنّ هذه الآية تشريع للاجتهاد بالنظر فى الكتاب والسنة، وإعمال العقل، واستنباط الاحكام منهما.

● ويرى بعض العلماء أن فى هذه الآية دليلاً على حُجُيَة القياس، والمعنى : ردوا حكم ما تنازعتم فيه إلى الاحكام الواقعة فى الكتاب المشابهة لما تنازعتم فيه.

وطاعة الله ورسوله وَرَدّ الامور المتنازع فيها إلى الكتاب والسنة هو الاصل الذى يدل على إيمان المؤمن، أو كمال إيمانه.

﴿ **ذَلكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ اى أن تلك الطاعة لله ورسوله وردّ الامور المتنازع فيها إلى الكتاب والسنة خير للمؤمنين وأحسن عاقبةً لهم، أى خير لهم فى دينهم ودنياهم.

– ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً (٦٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً** ﴾.

● وفى هذه الايات الكريمة معان ومضامين كثيرة نذكر منها ما يفتح الله به فيما يلى :

أ – إنكار الله تعالى على من يزعمون الإيمان بالله ورسوله، وما أنزل على الرسل من قبل، ومع هذه الدعاوى يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت (الشيطان) فيما يقع بينهم من خصومات.

ب – وأمر من الله تعالى لهؤلاء الزاعمين بالكفر بالطاغوت وبالباطل كله.

جـ – وإخبار من الله تعالى بما يريده الشيطان من الإنسان وهو إضلال الناس ضلالا بعيدا.

د – وفضح لتصرفات المنافقين وتذبذبهم وترددهم فى قبول الإيمان.

هـ - وتعريف بأهم صفات هؤلاء المنافقين ومن أشهرها:

- الصدود عن رسول الله ﷺ والإعراض عنه وعن أحكامه.

- والاستكبار على النبى ﷺ وكراهيته.

- وكذبهم وتضليلهم وحلفهم على أنهم ما يريدون إلا الإحسان والتوفيق.

و - وإخبار من الله تعالى بأنه يعلم ما فى قلوب المنافقين من نوايا سيئة، ومحاسبهم على ذلك ومجازيهم.

ز - ومطالبة الرسول ﷺ بأسلوب التعامل مع هؤلاء المنافقين، ومفردات هذا الأسلوب هى:

- الإعراض عنهم أى عدم محاسبتهم على ما فى قلوبهم، لأن ما فى القلوب لا يعلمه إلا الله وحده.

- ووعظهم أى أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتحذيرهم من النفاق والشر.

- ونصحهم بالكلام البليغ الذى يدخل عقولهم وقلوبهم، ويردهم عن ذميم صفاتهم.

● وفى سبب نزول هذه الآيات الكريمة آراء منها:

- قال بعض العلماء: إنها نزلت فى رجلين أحدهما من الأنصار، والآخر من اليهود تخاصما فجعل اليهودى يقول: بينى وبينك محمد، وجعل الأنصارى يقول: بينى وبينك كعب بن الأشرف - وهو من كبار اليهود - فهذا وذلك يريدان أن يتحاكما فى الحقيقة إلى من يتصور كل منهما أن يكون حكمه فى صالحه، بغض النظر عن الحق فى ذلك.

- وقال بعضهم: نزلت فى جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام وأرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية.

- وقال بعضهم: لما رأى المنافق أن رسول الله ﷺ قضى لليهودى لم يرض، وقال: انطلق بنا إلى أبى بكر فحكم لليهودى، فلم يرض المنافق وقال: انطلق إلى عمر، فأقبلا على عمر، فقال اليهودى: إنا صرنا إلى رسول الله ﷺ ثم أبى بكر، فلم يرض، فقال عمر للمنافق: أهكذا هو؟ قال: نعم، قال: رويدكما حتى أخرج إليكما، فدخل وأخذ السيف، ثم ضرب به المنافق حتى بَرَدَ، وقال: هكذا أقضى على من لم يرض بقضاء الله ورسوله وهرب اليهودى، ونزلت الآية، وقال رسول الله ﷺ: «أنت الفاروق» ونزل جبريل فقال: إن عمر

فرق بين الحق والباطل فسمي الفاروق.

- وقال بعض المفسرين: إنه أسلم ناس من اليهود ونافق بعضهم وكانت قريظة والنضير في الجاهلية يخضعون لنظام فى القصاص والدية غير عادل، إذ ينص على أنه: إذا قَتلَ قرظى نضيريًّا قُتل به وأخذ منه ديةً مائةُ وسق[1] من تمر، وإذا قَتَل نضرى قرظيا لم يقتل به وأعطى ديةً ستين وسْقًا من تمر، وكان بنو النضير- يرون أنفسهم أشرف من بنى قريظة - وكانوا يحالفون قبيلة الأوس، بينما يحالف القرظيون قبيلة الخزرج.

فلما هاجر الرسول لله ﷺ إلى المدينة، قَتلَ نَضَرى قرظيا فاختصما فيه، فقالت بنو النضير: لا قصاص علينا، إنما علينا ستون وسقا من تمر على ما اصطلحنا عليه من قبل. وقالت الخزرج: هذا حكم الجاهلية ونحن وأنتم اليوم إخوة وديننا واحد، ولا فضل بيننا، فأبى بنو النضير ذلك، فقال المنافقون: انطلقوا إلى أبى برزة الأسلمى الكاهن، وقال المسلمون: بل إلى رسول الله ﷺ، فأبى المنافقون وانطلقوا إلى الكاهن ليحكم بينهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، ودعا الرسول ﷺ الكاهن إلى الإسلام فأسلم[2].

● وأيا ما كان سبب نزول هذه الآيات، فإنها تحرِّم التحاكم إلى غير الكتاب والسنة، وتعتبر ما غيرهما باطلا وطاغوتا ووسوسة شيطان يضلهم بها ضلالا بعيدا، فيعرضون بذلك من الحق وعن التحاكم إلى الرسول ﷺ.

- ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾.

● هاتان الآيتان الكريمتان تتحدثان عن المنافقين وصفاتهم أيضا ومن أشهر هذه الصفات أنهم مُتلوِّنون لؤماء إذا أصابتهم مصيبة جاءوا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون ويعللون مواقفهم المعادية بأنهم أرادوا بها الإحسان والحق.

● والمصيبة التي أصابتهم هي: قتل عمر رضى الله عنهم لصاحبهم الذى رفض حكم رسول

(١) الوَسْق: مكيلة معلومة وهى ستون صاعا والصاع خمسة أرطال وثلث الرطل، والوسق: حِمْل البعير، وجمعه: أوساق أو أوسُق أو وسوق.

(٢) هو فضلة بن عبيد بن الحارث السلمى أبو برزة صحابي تُوفى سنة ٦٥هـ، سكن المدينة ثم البصرة وشهد مع عليّ رضى الله عنه قتال أهل النهروان، ومات بخراسان وله ٤٦ حديثًا رواها عن النبى ﷺ.

الله ﷺ، فطالبوا عمر بدمه وذهبوا إلى رسول الله ﷺ قائلين: إنهم ما طلبوا التحاكم إلى غير الرسول ﷺ إلا للمصلحة، فهم بذلك يضمرون خلاف ما يظهرون.

وقيل المصيبة التى أصابتهم هى ما أمر الله تعالى به رسوله ﷺ من عدم استصحابهم فى الغزوات، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ [التوبة: ٨٣]. وفى هذا استصغار لهم ولشأنهم.

وقيل: هى تهديدهم بالطرد من المدينة وقتالهم، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ ... لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٠، ٦١].

وقيل هم الذين بنوا مسجد الضرار فلما فضحهم الله تعالى فى قوله تعالى: ﴿ ...وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٧]جاءوا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون ويقولون ما أردنا بذلك المسجد إلا الحسنى، ولكن الله تعالى كذبهم وشهد عليهم بالكذب.

● وهؤلاء بنفاقهم وكذبهم لن يستطيعوا أن يخفوا ذلك، لأن الله تعالى يعلم ما فى قلوبهم وما يسرّون، وهو سبحانه أمر رسوله ﷺ بأن لا يقبل منهم اعذارا ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أو بأن لا يطلعهم على أنه عالم بنفاقهم، وذلك نوع من الإعراض.

كما أمر الله تعالى رسوله بأن يعظهم أى يزجرهم عن النفاق والمكر والكيد والكذب والحسد، ويخوفهم بعقاب الآخرة، وبأن يقول لهم فى أنفسهم الخبيثة قولا بليغا يطالبهم فيه بتطهير هذه الأنفس من الخبث والمكر.

أو قل لهم فى أنفسهم خاليا بهم ليس معهم غيرهم على سبيل السر، لأن النصيحة على الملا تقريع.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾.

● والمعنى: أن الله تعالى ما أرسل من رسول إلا أمر الناس بطاعته، فمن أطاعه فقد أطاع الله الآمر بذلك ونال ثوابه وحسن جزائه فى الآخرة.

وفى الآية دليل على عصمة الرسل عليهم السلام، لأنهم إذا لم يكونوا معصومين ما أمر

الله بطاعتهم، ودليل على أن كل رسول معه شريعة ليكون مطاعا فى تلك الشريعة.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ ... ﴾.

أى لو أنهم عندما ظلموا أنفسهم بالتحاكم إلى الطاغوت ورفض حكم الرسول ﷺ، جاءوك وأظهروا الندم على ما فعلوه وتابوا عنه وطلب الرسول ﷺ لهم المغفرة من الله لغفر الله لهم ووجدوه سبحانه غفورا رحيما.

● وفى الآية دليل على الجزم بأن الله تعالى يقبل توبة التائب، لأنه سبحانه لما ذكر الاستغفار، قال: لوجدوا الله توابا رحيما أى يقبل توبتهم.

وفى سبب نزولها قال أبو العباس الأصم[1]: إن قوما من المنافقين اصطلحوا على كيد فى حق الرسول ﷺ ثم دخلوا عليه لأجل ذلك الغرض، فنزل جبريل عليه السلام فأخبره به، فقال ﷺ: إن قوما دخلوا يريدون أمرا لا ينالونه، فليقوموا وليستغفروا الله حتى أستغفر لهم فلم يقوموا، فقال: ألا تقومون؟ فلم يفعلوا، فقال ﷺ: قم يا فلان حتى عدّ اثنى عشر رجلا منهم، فقاموا وقالوا: كنا عزمنا على ما قلتَ، ونحن نتوب إلى الله من ظلمنا أنفسنا فاستغفر لنا، فقال: الآن اخرجوا، أنا كنتُ فى بدء الأمر أقرب إلى الاستغفار، وكان الله أقرب إلى الإجابة، اخرجوا عنى.

- ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾.

يقسم الله تعالى بنفسه جل وعلا على أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكِّم الرسول فى جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذى يجب الانقياد له باطنا وظاهرا، بحيث لا يجدون فى تقبل حكمه حرجا، بل يسلمون باطنا وظاهرا دون أن تضيق صدورهم بشىء من حكمه.

وفى الآية الكريمة دليل على أن الإيمان لا يكمل إلا بهذين الشرطين:

- تحكيم الرسول ﷺ فى كل خلاف وخصومة وفى كل أمر من الأمور فى حياته وتحكيم شرعه ومنهجه بعد مماته.

- والرضا بحكمه ﷺ دون أدنى حرج فى الصدور.

---

(١) هو محمد بن يعقوب بن يوسف الأصم كنيته أبو العباس (٢٤٧ - ٣٤٦هـ) محدّث من أهل نيسابور، أخذ عن رجال الحديث بمكة ومصر ودمشق والموصل والكوفة وبغداد، وحدّث ستًا وسبعين سنة، وسمع منه الآباء والأبناء والأحفاد، وكان ثقة أمينا كما يقول عنه ابن الأثير.

● ويرى بعض المفسرين أن هذه الآية الكريمة نزلت فى نزاع بين الزبير بن العوام رضى الله عنه ورجل من الانصار حول ماء يُسقى به، فلما عرضا الأمر على رسول الله ﷺ، قال للزبير: اسق يازبير ثم أرسل الماء، فلم يرض الانصارى وزل لسانه إذ قال لرسول الله ﷺ: أن كان ابن عمتك؟- أى حكمت له- فتلون وجه رسول الله ﷺ ، فقال للزبير: اسق حتى يبلغ الماء الجدر، ثم أرسل له الماء، فقضى بأن يستوفى الزبير حقه فى الماء ثم يرسله، وكان فى الاول حكم بأن يتسامح الزبير فيسقى ثم يرسل الماء، فلما قال الرجل ما قال رافضا حكم الرسول ﷺ أو معترضا عليه أو مشككا فى عدله، استوفى الرسول ﷺ للزبير- رضى الله عنه - حقه كاملا.

وقد روى هذه القصة البخارى ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن.

- ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

● يخبر الله تعالى فى هذه الآيات الكريمة عن طبائع الناس وما يميلون إليه فى معظمهم وتلك الطبيعة هى: أن أكثر الناس لو أمروا بما نهوا عنه لما فعلوه، لفساد فى طبائعهم، وحبهم لمخالفة الامر، ولايستثنى من تلك الطبيعة إلا قليل منهم، وهم الصفوة الذين استقر الإيمان فى قلوبهم فتغلبوا على فساد طبائعهم.

● وقد روى ابن أبى حاتم بسنده عن الأعمش[1] قال: لما نزلت ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ... ﴾ الآية، قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: لو فعل ربنا لفعلنا، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال: لَلإيمان أثبت فى قلوب أهله من الجبال الرواسى»

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: والله لو أمرنا ربنا بقتل أنفسنا لفعلنا، والحمد لله الذى لم يامرنا بذلك.

● وفى الآية دليل على أن الله تعالى لايكلف الناس ما يشق عليهم.

- ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا

---

(١) هو سليمان بن مهران الاسدى بالولاء الملقب بالأعمش (٦١هـ- ١٤٨هـ) تابعى مشهور منشاه ووفاته بالكوفة، كان عالما بالقرآن والحديث والفرائض، روى ١٣٠٠ حديث نبوى، قال عنه الذهبى: كان رأسا فى العلم النافع والعمل الصالح.

عَظِيماً ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾

● **المعنى**: لو أنهم فعلوا مايوعظون به أى يؤمرون به وإنما سمى الوعظ أمرا لمافيه من وعد ووعيد وترغيب وترهيب، لو أنهم فعلوا ذلك لكان انفع لهم من وجوه أربعة:

الأول: أنه خير لهم فى دينهم ودنياهم.

والثانى: أن ذلك أشد تثبيتا لطاعتهم، لأن الطاعة تغرى بالطاعة.

والثالث: حصولهم على الأجر العظيم من الله تعالى.

والرابع: حصولهم على هداية الله تعالى إياهم الصراط المستقيم، وهو دين الحق، كما يفهم ذلك المعنى للصراط من قوله تعالى: **﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾** [الشورى: ٥٢، ٥٣]

– **﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾**

● والمعنى: أن من أطاع الله والرسول فامتثل ما أمر الله به، واجتنب مانهى الله – وأمر الرسول ونهيه فى أمور الدين كأمر الله تعالى ونهيه – فإن الله تعالى يسكنه يوم القيامة دار الكرامة ويجعله مرافقا للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهؤلاء هم صفوة عباد الله من الناس.

● وقال العلماء فى سبب نزول هذه الآية الكريمة:

روى ابن جرير بسنده عن الربيع بن أنس[1] رحمه الله: قوله تعالى: «ومن يطع الله والرسول...» الآية قال: إن أصحاب النبى ﷺ قالوا: قد علمنا ان النبى ﷺ له فضل على من آمن به فى درجات الجنة ممن اتبعه وصدقه، وكيف لهم إذا اجتمعوا فى الجنة أن يرى بعضهم بعضاً؟ فأنزل الله فى ذلك يعنى هذه الآية، فقال ﷺ: «إن الاعلين ينحدرون إلى من هو أسفل منهم فيجتمعون فى رياض، فيذكرون ما أنعم الله عليهم، ويثنون عليه، وينزل لهم أهل الدرجات فيسعون عليهم بما يشتهون وما يدعون به فى روضة يحبرون ويتنعمون فيه».

---

(١) هو الربيع بن أنس بن زياد البكرى، سكن مَرْوَ، وسمع من أنس بن مالك رضى الله عنه وكان راوية لأبى العالية رحمه الله، والربيع من مشاهير التابعين بخراسان.

● وروى فضيل بن عياض[1] بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يارسول الله إنك أحب إلىّ من نفسى، وأحب إلىّ من أهلىّ، وأحب إلىّ من ولدى، وإنى لأكون فى البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبى ﷺ حتى نزل عليه: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾

● وروى أصحاب السنن والمسانيد بأسانيدهم عن جماعة من الصحابة منهم أنس رضى الله عنهم أجمعين، أن رسول الله ﷺ سُئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال: «المرء مع من أحب» قال أنس رضى الله عنه: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث.

● وروى أبو داود الترمذى بسنديهما عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «خير الصحابة أربعة» قال العلماء: هم الأربعة الذين ورد ذكرهم فى هذه الآية الكريمة وهم: النبيون والصديقون والشهداء والصالحون.

- ﴿ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾.

أى أنهم لم ينالوا هذه الدرجة بأعمالهم الصالحة فحسب، وإنما كان ذلك بفضل الله تعالى وكرمه، وهذا يفهم من قول النبى ﷺ فيما رواه مسلم بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لايدخل أحداً منكم عمله الجنة، ولايجير من النار، ولا أنا إلا برحمة من الله».

● **المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة:**

يتعلم المسلمون من هذه الآيات أسسا ونظما تربوية عامة يفيدون منها فى معاشهم ومعادهم، فى تعاملهم مع الناس وفى تعاملهم مع أنفسهم وفى تعاملهم مع الله تعالى، ومن هذه الأسس والنظم ما نذكره فيما يلى:

١- يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾

---

(١) هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمى اليربوعى (١٠٥- ١٨٧هـ) كنيته أبو على، شيخ الحرم المكى من أكابر العباد الصالحين، كان ثقة فى الحديث، أخذ عنه الإمام الشافعى وخلق كثيرون، ولد فى سمرقند ودخل الكوفة وهو كبير وسكن مكة المكرمة وبها توفى.

مايلى :

أ- أن أداء الأمانة إلى أصحابها فرض أمر الله به وأصحاب الأمانة هم الذين يجب أن تؤدى إليهم الأمانة حتى لو كانوا خائنين للأمانة، بل حتى لو كانوا غير مؤمنين، لأن ما أمر الله به يجب أن يؤدى، ولأن خيانة الأمانة مع أى أحد كبيرة من الكبائر منهى عنها، فقد روى أحمد بسنده عن سمرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك».

ب - وأن الأمانات التى يجب أن تؤدى إلى أهلها نوعان هما :

- الأمانة الكبرى .

-وسائر الأمانات .

● أما الأمانة الكبرى فهى : أمانة الإيمان والهداية والتجاوب مع الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها، وأخذ عليهم العهد بها، وتلك هى الأمانة التى أشفقت السموات والأرض والجبال أن يحملنها، وحملها الإنسان : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

وهذه أهم الأمانات، وقد ميز الله الإنسان بحملها عن سائر مخلوقاته، فكل مخلوقات الله تعالى ألزمها طاعته والخضوع للنواميس التى سنها فى الكون، ماعدا الإنسان فإنه سبحانه جعل إيمانه وطاعته لربه موكولا إلى فطرته وعقله ومعرفته وعلمه، وإرادته وجهده وجهاده ليكون ثوابه عند الله أعظم، وإنما كان ذلك لحكمة يعلمها سبحانه تعود على الإنسان بالخير فى دنياه وآخرته .

● وأما سائر الأمانات فهى كثيرة وهى فى حقيقتها فروع من هذه الأمانة الكبرى، وأمثلتها كثيرة، كالأمانة على صحة العقيدة وسلامة العبادة واستقامة الخلق، والأمانة على كل ما ائتمن الناس فيه بعضهم على بعض فى الماديات والمعنويات .

جـ- وأن أهل الأمانات وأصحابها الذين يجب أن تؤدى إليهم هم :

- الخالق العظيم سبحانه وتعالى وأداء الأمانة إليه إنما يكون بامتثال أمره واجتناب نهيه، وطاعة رسوله الخاتم ﷺ فى كل ما جاء به .

- والنفس : بمعنى أن يؤدى الإنسان الأمانة لنفسه أى يلزمها بما أمره الله به ويجنبها مانهاه الله عنه، وتلك الأمانة حرب للشيطان والهوى وكل خطأ أو معصية لله ولرسوله ﷺ .

- والخلق جميعا: أى أداء حقوقهم إليهم وحقوقهم كثيرة تبدأ بوجوب حبهم فى الله وتستمر حتى تشمل كل ما من شأنه أن يعينهم على الحياة ويجعلها حياة إنسانية كريمة.

د - وأنّ العدل فى الحكم بين الناس وفى التعامل معهم مطلب شرعى أوجبه الله على الإنسان ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾.

- والعدل عام يكون فى كل شىء، فى القول والصمت، وفى الفعل والترك.

● وقد قال العلماء: إن العدل نوعان:

- عدل مطلق: يقتضى العقل حسنه ولايتخلف الإنسان عن أدائه فى أى زمان أو مكان وذلك كالإحسان إلى من أحسن إليك، وكف الأذى عمن كف أذاه عنك.

-وعدل يعرف بالشرع: وهو المساواة فى المكافأة، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، ويكمله الإحسان إلى من أحسن إليك بأكثر مما فعل معك، ومقابلة الشر بأقل منه.

- والعدل المطلوب الذى أمر الله به هو العدل بين الناس جميعا مسلمين وغير مسلمين!!

ألا ليت الذين يطنطنون بحقوق الإنسان اليوم ويقصرونها على الجنس واللون والعرق يفيقون على مافى الإسلام من حفظ لحقوق الإنسان دون تمييز بين جنس أو لون أو عرق، بل لمجرد كونه إنسانا!!!.

هـ - ويتعلم المسلمون من الآية الكريمة أن الأمانة هى أساس الحياة الاجتماعية فى الإسلام، وأن العدل هو الأساس المتين الذى تقوم عليه الحياة الإنسانية، ويقوم عليه الحكم فى الإسلام وأن أداء العدالة وممارستها بين الناس هو أنفع للناس فى دينهم ودنياهم.

٢- ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ مايلى:

أ - أن طاعة الإنسان لله تعالى هى الأصل وهى التى يدعم بها الإنسان إنسانيته، وأن هذه الطاعة تعنى التلقى عن الله وحده، تلقى منهجه الذى اختاره قانونا لحياة الناس وإنقاذا لهم من التخبط والضلال والضياع، وهذا المنهج هو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ب- وأن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى، لأن سنته ﷺ تفصيل لما أجمله المنهج

وهى سنة واجبة الاتباع.

● والقرآن الكريم والسنة النبوية بمعناها الواسع من قول وفعل وإقرار، يجب اتباع كل ماجاء فيهما، فهما نصوص واضحة صريحة لم تدع للمسلمين من أمور المعاش والمعاد شيئاً، فهى لذلك واجبة الاتباع، وإلا انتفى الإيمان والإسلام والعدل والإحسان، وانتفت الحياة الإنسانية الكريمة.

جـ- وأن طاعة أولى الأمر من المؤمنين واجبة فى ظل شروط معروفة من أهمها أن يستوفوا شروط الإيمان والإسلام وألا يأمروا بمعصية الله ورسوله.

● وأن إجمال هذه الشروط فيهم يمكن أن يكون فى كلمة واحدة هى: طاعتهم لله ولرسوله، فإن كانوا كذلك وجبت طاعتهم بنص هذه الآية الكريمة.

د - وأنّ على المؤمنين عند التنازع فى شىء من مستجدات الحياة ومتغيرات الزمان والمكان أن يردُّوا ذلك التنازع إلى الله ورسوله أى إلى المنهج لمعرفة وجه الحق وحسم التنازع.

● ومعنى ذلك إعمال الاجتهاد فى مجالين:

الأول: ما لانص فيه.

والآخر: تأويل النصوص غير الصريحة الدلالة، وفق المعايير الصحيحة للتأويل، بحيث يصلون إلى حسم هذا التنازع وتوحيد الكلمة والصف.

هـ- وأن تلك الطاعة لله ولرسوله ولأولى الأمر من المؤمنين وردّ كل ما تُنوزع فيه إلى المنهج ونصوصه الصريحة أو المؤولة تأويلا صحيحا، كل ذلك هو خير للناس فى الدنيا والآخرة، حيث يعتصمون بذلك من الفرقة والخلاف والفتنة فهذا خير لهم في الدنيا، وحيث يبلغون بذلك مرتبة رضا الله تعالى عنهم في الآخرة و﴿ **ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾.

٣- ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ**

أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٠ - ٦٥] ما يلى:

أ - أنّ من لم يطع الله ورسوله وأولى الأمر من المؤمنين فقد خرج على منهج الله، فإن كان خروجه صريحا فهو الكفر وإن كان غير صريح فهو النفاق، بمعنى أنه لامنجى من الكفر والنفاق إلا بطاعة الله ورسوله وأولى الأمر من المؤمنين اى باتباع المنهج.

ب- وأن للمنافقين مزاعم يجب أن يعرفها المسلمون ويحذروها ومن أهم هذه المزاعم:

- دعواهم أنهم يؤمنون بما أنزل على الرسول الخاتم ﷺ.

- وادعاؤهم أنهم مؤمنون بما جاء به الأنبياء الذين جاءوا قبل الرسول الخاتم صلوات الله عليهم أجمعين.

- وإعراضهم عن رسول الله ﷺ وعن أحكامه مع زعمهم غير ذلك.

- واعتذارهم عن أخطائهم بالمغالطات والأكاذيب.

جـ- وأنّ هؤلاء المنافقين يريدون على وجه الحقيقة أن يتحاكموا إلى الطاغوت رافضين منهج الله، وأنهم بذلك يضلون ضلالا بعيد جدا عن الحق وعما يعود عليهم بالنفع، وأن كل من يتحاكم إلى غير منهج الله فى أى زمان ومكان إنما يضل ضلالا بعيدا.

وتلك حقيقة لاينكرها إلا مكابر مغالط، وضال فى نفسه مضل لغيره.

د - وأن هؤلاء المنافقين يعاملهم المسلمون وفق الظاهر، والله تعالى يتولى منهم السرائر، وقد أوضحنا فيما سبق من شرح الآيات الكريمة ما طولب به الرسول ﷺ من تعامل معهم، ونحن مطالبون بذلك أيضاً.

هـ - وأن الله تعالى أرسل رسله ليطاعوا بإذنه تعالى، فمن عصاهم استحق عقاب الله تعالى، إلا أن يتوب وتقبل توبته.

ومن نافقهم أو عصاهم فقد ظلم نفسه أولاً، فإن جاء إلى الرسول ﷺ مستغفراً الله تعالى واستغفر له الرسول ﷺ تاب الله عليه ورحمه.

● ومن حق الرسول أن يطاع وأن يكون له سلطان على الناس بمنهجه الذى ينجح تماماً فى تصريف شئون الحياة على كافة مستوياتها وبكل عناصرها المتغيرة على مستوى الفرد

والجماعة، وفى مجال الاجتماع والسياسة والاقتصاد والثقافة، بالإضافة إلى العقيدة والعبادة والخلق إذ هو المنهج الذى ارتضاه الله للبشرية كلها ديناً وأتمه وأكمله وخص به خاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ . - وأن من شرط الإيمان تحكيم شرع الله ومنهجه فى كل قضايا الحياة الإنسانية مع رضا النفس بهذا التحاكم، والتسليم المطلق بما يقضى به من أحكام وقيم وآداب.

٤ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا** ﴾ ما يلى:

أ - أنّ الله تعالى - لرحمته بعباده وعلمه بضعفهم - لم يكلفهم بما يشق عليهم ولا بما يحرجهم.

- ومقتضى الإيمان الصحيح الراسخ أن الله تعالى لو كلّف عباده بما يشق عليهم أن يستجيبوا، وأولئك قلة من المؤمنين الذين لو كلفوا بقتل أنفسهم لفعلوا ولكن الله تعالى لم يكلفهم بذلك.

ب - وأن المؤمن يجب أن يقبل على أداء ما كلف الله به، موقناً أن ذلك فى حدود قدراته، وأنه فى صالحه.

- وهذا من شأنه أن يرسخ فى نفس المؤمن وعقله الاعتقاد بأن الدين يسر لا عسر فيه.

- وأن كل من يتشدد فى الدين يخرج به عما شرعه الله تعالى من أجله، وأن هذا الخروج قد يكون حقداً على الدين نفسه، وقد يكون جهلاً به، أو جهلاً بالنفس الإنسانية ومدى ما تستطيعه.

جـ - وأن هذه الحقيقة - وهى أن الله لا يكلف عباده بما يشق عليهم - تُعَد صفعة موجعة على وجوه بل على أقفية الذين يزعمون أن التكاليف الشرعية صعبة، وأن الذين يستطيعون أداء هذه التكاليف مثاليون لا وجود لهم اليوم!! وذلك أن الله تعالى هو خالق الناس وهو أعلم بهم وبما يستطيعون، وهو أرحم بهم من أن يشق عليهم.

د - وأن يُسْر الدين ليس معناه أن يبحث المتعبد به عن الرخص، وأن يتخفف من أى أعباء، لأن ذلك ينافى التدين الصحيح، الذى هو الأخذ بالرخص فى حينها والأخذ بالعزائم فى حينها كذلك، وذلك معناه التزام ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه، لأن فى ذلك خير الدنيا والآخرة - كما أوضحنا آنفاً.

هـ - وأنّ طاعة الله ورسوله تلحق الطائعين بأعلى الدرجات وأرفعها عند الله، إذ يتشرف الطائعون بمعية النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فى الجنة، وهذه هى أحسن الرفقة.

- ومعنى ذلك هو الجد والتشمير فى أداء الطاعات، والكف عن المعاصى، وعن كل ما يغضب الله تعالى، لكى يصبح الإنسان بهذه المنزلة الرفيعة عند الله تعالى يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، والطاعة هى التى تؤدى إلى سلامة القلب.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة بهذا الدين:

يتعلم الدعاة إلى الله والمتحركون بالدين فى الناس والآفاق من هذه الآيات الكريمة كثيراً من القيم التربوية، ويفقهون من خلال التدبر فيها أهداف التربية الإسلامية ومنهجها بل وبعض وسائلها وأساليبها، على النحو الذى سنفصله فيما يلى:

١ - يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ...** ﴾ ما يلى:

أ - أن أداء الأمانات إلى أهلها بنوعيها الكبرى وغيرها، وإلى كل أصحابها من أعظم ما أمر الله به ومن أعمه وأكثره فعالية وإيجابية فى استقرار المجتمع وترشيد علاقات الناس بعضهم ببعض، بل توثيق هذه العلاقات التى تستهدف التعاون على البر والتقوى وإحياء الأخوة فى الإسلام بين الناس.

- ومن أجل ذلك جاء الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها مسنداً إلى الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾ ولم يجئ على نحو: «أدوا الأمانة» مثلاً، وإنما صرح فيه بلفظ الجلالة، وذلك تعظيم من شأن أداء الأمانة ومن شأن الأمناء، وبيان لأهميتها فى بناء المجتمع المسلم الصحيح القادر على الأفعال النبيلة، وعلى توثيق العلاقات بين الأسرة الإنسانية كلها.

● إن هذا هو ما ينبغى أن يوضحه الدعاة إلى الله الناس جميعاً مؤمنين وغير مؤمنين مسلمين وغير مسلمين.

ب - وأن على الدعاة إلى الله والمتحركين بالإسلام أن يوضحوا للناس أن الامانة بالنسبة للمسلم لها جانب هام هو أن يتمثل الإسلام فى سلوكه وأخلاقه وتعامله مع الناس أصدق تمثل، وأن يكون المسلم إسلاماً يسعى على قدمين.

جـ - وأن عليهم أن يوضحوا للناس أن الدعوة إلى الله والتحرك بالإسلام فى الناس والآفاق أمانة فى أعناق القادرين على ممارسة الدعوة والحركة، ليدخلوا فى الإسلام أكبر عدد من الناس، وليزيلوا من نفوس بعض الناس ما علق بها من شبهات وأباطيل.

● فالدعوة إلى الله واجب كل مسلم قادر عليها، وأساليب الدعوة ووسائلها التى حددها الله تعالى هى: الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، وفى حياة الرسول ﷺ وسيرته، وسير أصحابه - رضى الله عنهم - وسير الصالحين والمصلحين من علماء الأمة الإسلامية مصابيح يهتدى بها الدعاة إلى الله وهم يمارسون الدعوة دون إكراه لأحد على الدخول فى هذا الدين الخاتم.

د - وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس ما بين الدعوة إلى الله والتربية من صلة وثيقة، وأن مراحل الدعوة[1] مرتبطة بدرجات التربية وأنواعها[2].

● والتربية على مستوى النشء مسئولية الآباء والأمهات والأسرة كلها.

● والتربية على مستوى الطفولة والصبا والشباب مسئولية الأسرة والمجتمع والحكومة.

● والتربية على مستوى المساجد مسئولية المجتمع والحكومة.

● والتربية على مستوى المدارس والجامعات مسئولية الحكومة.

هـ - وعليهم أن يوضحوا للناس أن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر أمانة فى أعناق القادرين عليه كالتربية والدعوة سواء بسواء.

● وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب الأفراد والجماعات والمجتمع والعلماء

(١) انظر فى مراحل الدعوة وكل ما يتصل بها الكتاب الموسَّع للمؤلف: فقه الدعوة إلى الله - نشر دار الوفاء بمصر.

(٢) انظر للمؤلف فى ذلك: تربية الناشئ المسلم - نشر دار الوفاء بمصر وحلقات: التربية الروحية والتربية الخلقية والتربية العقلية - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية بمصر.

والحكومة، وبخاصة ان الحكومة وحدها هى التى تملك أطر الناس على الحق أطراً ولها ان تعاقب المقصر.

● وأن جميع الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر يجب أن يعملوا فى ظل القاعدة الشرعية التى تقول: إن الأمر بالمعروف لا يجوز أن يؤدى إلى منكر، وأن النهى عن المنكر لا يجوز أن يؤدى إلى منكر أشد.

و – وعلى الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يوضحوا للناس أن الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا أمانة كسائر الأمانات يجب أن تؤدى؛ الجهاد بكل أنواعه، وبكل درجاته[1] وإلا ما قامت للمسلمين قائمة ولا تحقق لهم نصر على عدو فى أى معركة من معاركهم فى أى زمان أو مكان، فالجهاد هو العمل الذى لا تحيا الأمة إلا به.

ز – وأن على الدعاة إلى الله والمتحركين بالدين فى الناس أن يركزوا على توضيح بعض الأسس التى تعد من مسلمات العمل من أجل الإسلام، وهى – فى اختصار شديد –:

● أنه لا استقرار ولا أمن للفرد أو الجماعة أو المجتمع المسلم كله فى أى بقعة من بقاع الأرض إلا بالتمكين لهذا الدين فى الأرض بمعنى أن تصبح شريعته هى الدستور والقانون والنظام الذى يتحاكم إليه الناس فى كل أمورهم.

● وأن عدم تمكين هذا الدين هو الذى يضعف المسلمين ويطمع فيهم أعداءهم، ويفرق كلمتهم ويمزق صفهم، وأن التراخى فى العمل من أجل تمكين دين الله فى الأرض جريمة تؤدى إلى مثل ما يؤدى إليه عدم تمكينه.

● وأن تمكين دين الله فى الأرض له أعباؤه وتكاليفه، وله شروطه وآدابه، وأن كل ذلك يفهمه المتدبر فى كتاب الله من قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [النور: ٥٥].

---

(١) انظر للمؤلف: ركن الجهاد من سلسلة: فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا – نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

قوله سبحانه: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١].

﴿ ... وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ... ﴾ إن على الدعاة إلى ان يجعلوا من قضية العدل أهم قضية فى الحياة، إن العدل إذا ساد استقرت حياة الناس، ورشد المجتمع كله، وحسب المجتمع رشداً ونضجاً الا يكون فيه مظلوم.

- والمسلم مطالب بالتزام العدل على كل مستوى من مستوياته وعلى كل درجة من درجاته، دون التأثر بما هو سائد اليوم فى المجتمع العالمى فى آخر عامين من أعوام القرن العشرين، فإن السائد اليوم هو العدل على الطريقة الأمريكية فى تعاملها مع اليهود، ومع العرب، أو المسلمين، إن ما تمارسه أمريكا مع دول العالم كله هو الجور والطغيان واستبداد القوى بالضعيف والغنى بالفقير، ودول الشمال بدول الجنوب والعالم الصناعى بالعالم الثالث، إنها تمارس عدل «حق النقض - الفيتو» فى هيئة الأمم!!

إنها تمتلك القنبلة الذرية أو النووية وتحظر امتلاكها على غيرها من الدول باستثناء من لهم حق «الفيتو» وباستثناء إسرائيل!!

إن تفجير الهند لقنبلة نووية خطأ تحاسب عليه، لكن تفجير باكستان لقنبلة نووية كارثة كبرى يجب أن تحاسب عليها أقسى أنواع الحساب وأضراه، وتنطلق أجهزة الإعلام الأمريكية والغربية لتلطم الخدود وتشق الجيوب لأن القنبلة النووية الإسلامية تهدد الأمن والسلام، فى حين لا تهددهما قنابل إسرائيل النووية، وفى حين يُغفر لأمريكا ما فجرته من قنابل نووية على هيروشيما وناجازاكى كأن البشر غير البشر، ثم تدعى أنها تحافظ على حقوق الإنسان!!

- أين العدل فيما أصبح يسمى العولمة أو العالم الجديد؟ وهو فى حقيقته سيطرة أمريكا على العالم، أين العدل؟.

إن الحديث فى هذا ذو شجون!!

إن حظر الطيران على كل دولة تحاول الخروج عن السيطرة الأمريكية هو أقل عقاب!! وحسبك ضرراً ما يترتب على حظ الطيران!! وإن العقوبات

الاقتصادية والسياسية وتحريك المؤامرات والدسائس وتشجيع المتمردين داخل البلاد هو الجزاء العادل على الطريقة الأمريكية، لكل بلد تحاول أن تشذ عن النظام العالمي الجديد!!

- إن العدل - على الطريقة الأمريكية تسأل عنه المآسي التي اصطنعتها أمريكا وحلفاؤها في جزر «الفوكلاند» وفي «فيتنام» و«كوبا» و«الهند الصينية» و«الفلبيين» و«بورما» و«كشمير» و«أفغانستان» و«أذربيجان» وأخواتها، و«تركيا» و«الجزائر» و«فلسطين» و«السودان» و«الصومال» والعراق ولبنان وسوريا وإسرائيل، وغير ذلك مما لا أحصي من صور العدل على الطريقة الأمريكية!!
- ألا ليت الذين يتهجمون على الإسلام اليوم في ظل النظام العالمي الجديد يدركون أنهم أبعد الناس عن العدل وأقربهم إلى الظلم والعدوان!!
- إن العدل في الإسلام مطلب شرعي يأمر الله تعالى به صراحة ومباشرة، بل يزيد الإسلام على العدل ويعطف عليه الإحسان في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ**﴾ [النحل: ٩٠]، والإحسان يعني إقرار العدل وزيادة بمعنى أن يأخذ من يمارس العدل مع غيره أقل مما هو له، وأن يعطي أكثر مما عليه، ألا ليت أمريكا وعالم الغرب يسمع بإنصاف إلى هذه الآية الكريمة!!

٢ - ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون في الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**﴾ ما يلي:

أ - أنّ على الدعاة إلى الله والمتحركين بالإسلام في الناس أن يوضحوا أنه لا حياة إنسانية كريمة اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً للإنسان إلا في ظل الطاعة والاستجابة، وأن المجتمع العاصي أو المتمرد يسيء إلى نفسه وإلى غيره من المجتمعات في حاضره ومستقبله.

- والطاعة إنما تكون لله ولرسوله ولأولي الأمر من المؤمنين، وهي علامة على حب المطيع للمطاع وتقديره له، وثقته في أمره ونهيه، وبالحب والتقدير والثقة بين طرفي الطاعة يكون الاستقرار ويكون الأمن والرخاء.
- وفرق شاسع بين طاعة يحركها الحب والتقدير والثقة، وطاعة يحركها الخوف

والرهبة والعقاب، إنه فرق بين حُلو ومُرّ، بين صواب وخطأ، بين رضا بالمنهج وتجاوب معه أو سخط عليه وخوف من واضعه، وما تعيش المجتمعات الإنسانية حياة خيراً من أن تظللها الطاعة التى يحركها الحب والتقدير والثقة.

ب - وأن عليهم أن يؤكدوا أن طاعة أولى الأمر يجب أن تكون تابعة لطاعتهم لله ورسوله، وحسن التلقى عن منهج الله ونظامه، وقياس كل نظام يحتاج إليه الإنسان فى حياته على منهج الله ونظامه، فما وافقه فلا بأس به، ولا بالاستعانة به، وما خالفه فى العقيدة أو العبادة أو الخلق، فإن الاخذ به أو الاستعانة بشئ مما فيه هو الخطيئة التى قد تصل إلى حد الكفر والعياذ بالله.

جـ - وعليهم أن يؤكدوا للناس أن التنازع بينهم وارد فى معظم أمورهم فى بعض مسائل الدين وفى كثير من أمور الدنيا، ولا بأس فى أن يختلف الناس، ولكن البأس كله فى أن يظل هذا الاختلاف فيؤدى إلى الخلاف والشر والفتنة.

● وأن علاج هذا الاختلاف وحل قضاياه فى أمر واحد هو: الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

● وأن الالتجاء إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا يمكن أن يؤدى بالناس إلى حرج أو مشقة أو ضلال عن الحق والخير والهدى، فتلك مسلمات لدى المؤمنين بالله ورسوله المسلمين أمورهم لمنهجه ونظامه عن رضا وطاعة يحركها الحب والتقدير والثقة.

٣ - ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ يتعلمون منها ما يلى:

أ - أنّ عليهم التأكيد على عدد من الحقائق الكبرى فى حياة المؤمنين والكافرين والمنافقين - وهم الأنواع الثلاثة التى لا يخلو منها مجتمع إنسانى فى أى زمان أو

مكان – وهذه الحقائق هي :

– أنَّ من علامات النفاق الذي يؤدي غالباً إلى الكفر، أن يرغب الإنسان في أن يتحاكم إلى غير منهج الله ورسوله أي إلى طاغوت من الطواغيت أياً كان اسمه أو شكله أو ما يدعو إليه.

- والطاغوت هو كل شيطان وكل محارب لله ورسوله وكل معطل لمنهج الله أو مستبدل به منهجاً آخر، حتى لو كان من المسلمين، وزعم أنه من المؤمنين.

وأن من علامات النفاق ترويج الأفكار الضالة المعادية للإسلام فضلاً عن أولئك الذين يتهجمون على رسول الله ومنهجه وما دعا إليه، وهو ذاك النفاق المؤدي إلى الكفر الصريح، كما حدث في عصرنا هذا من بعض المأفونين الذين نقص عقلهم ودينهم فتهجموا على الإسلام ورسوله ومنهجه بتشجيع من أعداء الإسلام، وحماية من الذين يطنطنون بحرية الرأي!!

- ولا أدري لماذا يسمح بحرية الرأي في الهجوم على الإسلام، ولا يسمح بالتهجم على اليهودية أو المسيحية أو غيرهما من الأديان؟.

لماذا هذا التحيزّ وهذه العنصرية؟.

ب – وعليهم أن يوضحوا للناس أن التعامل مع المنافقين هدفه أن يعودوا إلى ساحة الإيمان، ولذلك فليس من الحكمة ولا من الجائز شرعاً أن يوصف المنافق بالنفاق لأن هذا من الأمور التي لا يطلع عليها إلا الله تعالى، أما المسلمون فلهم الظاهر والله يتولى السرائر، ومن مصلحة الإسلام والمسلمين أن يتحول المنافق إلى مؤمن مخلص، لذلك كان وعظه، وتوجيه الكلام الجيد المؤثر البليغ إليه، لكي ينتقل من النفاق إلى الإيمان.

٤ – ويتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦)

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ ما يلى:

أ - أنّ عليهم أن يؤكدوا للناس أن الرسالة والرسل والدعوة والدعاة إلى الله ليست مجرد دعاوى أو كلمات، وإنما هى أعمق من ذلك وآكد، وأدخل فى العقول والقلوب، ولها من السلطان والسلطة على النفوس ما لها، وهذه المكانة للرسالة والدعوة وللرسل عليهم السلام هى من إرادة الله تعالى ومن إذنه بذلك سبحانه وتعالى، وهذه الإرادة وذاك الإذن بالغ هدفه مهما كثرت العراقيل والعقبات، أما الرسل والدعاة، وفى هذا بشارة لكل من يمارس الدعوة إلى الله بأن الله تعالى سوف ينصره ويؤيده، ويبلغ دعوته إلى أبعد الآفاق ولو بعد حين.

ب - وأنّ عليهم أن يبشروا الناس بقبول توبة من تاب بإخلاص، لأن دين الإسلام يحرص على إخراج الناس من دوائر الإثم والمعصية إلى مجال البر والطاعة ومغفرة الذنوب، لأن الله تعالى يعلم قدر ضعف الإنسان ويحب له الخير فى دينه ودنياه.

● والدعاة إلى الله فى كل عصر هم المبشرون الميسرون الذين يجيدون تحبيب الناس فى الدين وأحكامه وقيمه وآدابه، وهم المصابيح التى تنير للناس طريق الحق والخير والهدى، ولا عجب فى ذلك فهم ودعوتهم امتداد لدعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام.

جـ - وأن يوضحوا للناس أن الإيمان يقوى ويضعف ويزيد وينقص، وأن من أسباب قوته وزيادته توافر صفات بعينها فى المتعبد منها:

- الرضا بتحكيم شرع الله فى كل أمر من أمور حياتهم، فضلاً عن المنازعات والخصومات.

- وتقبل العقل والقلب لكل ما يقضى به المنهج الإسلامى فى حياة الناس.

- والتسليم المطلق والاقتناع الكامل بكل مفردات هذا المنهج وتفاصيله.

● وأن مما يضعف الإيمان وينقصه عدم الثقة فى منهج الله وتصور أنه ليس أحسن المناهج وأتمها، والاعتراض على أى شئ من تفاصيل المنهج ومفرداته.

د - وأنَّ على الدعاة إلى الله أن يعلموا الناس بل يؤكدوا لهم أن الزمان لا يخلو من قلة من المؤمنين راسخى الإيمان، وهم الذين يسارعون إلى ما أمرهم الله مهما كان هذا الامر - ولو كان على سبيل الفرض - قتل أنفسهم!!

وأن هؤلاء القلة من المؤمنين هم لباب الحياة الإنسانية وجوهرها وأجمل من فيها، وهم الذين يؤخر الله من أجلهم عذاب الكثرة المتزعزعة الإيمان.

- وأن هذه القلة المؤمنة المستجيبة دائماً هى القلة التى يعمر قلوبها الاستغفار من الذنوب، فتحظى عند الله بالمغفرة، كما يفهم هذا من قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

هـ - وأنّ عليهم أن يوضحوا للناس أنّ أعلى مكانة للناس عند الله إنما تكون بطاعة الله ورسوله، وأنّ أرقى مكانة للمجتمع المسلم فى علمه ومعرفته وثقافته وسياسته واقتصاده إنما تكون بطاعة الله ورسوله، وأن نصر المسلمين على أعدائهم فى داخل أنفسهم وأوطانهم وفى خارجها إنما يكون بطاعة الله ورسوله.

وأنّ أبواب الجنة مفتوحة لمن أطاع الله ورسوله.

١٠ - الآيات الكريمة من الآية الحادية والسبعين

إلى الآية السابعة والثمانين

دروس فى التربية الجهادية للفرد والجماعة والقيادة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿٨١﴾ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٣﴾ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً

حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾

[النساء: ٧١ : ٨٧].

اشتملت هذه الآيات الكريمة على عدد من الأوامر والأحكام والآداب التى تستهدف تأمين حاضر المسلمين ومستقبلهم فى التعامل مع أعدائهم، ومن ذلك:

١ – أمرهم بأخذ الحذر من العدو، بالتأهب له والاستعداد التام لمواجهته، نفسياً ومادياً، وعَدَداً وعُدداً.

٢ – والأمر بالنفير العام عند دعوة الحاكم المسلم إليه، مع الاستجابة لنفير الجماعات والمجموعات لمواجهة العدو.

٣ – والأمر بالقتال فى سبيل الله، والإنكار على من تخلى عنه أو أهمل فيه.

٤ – وتوضيح أهداف القتال فى سبيل الله وأحكامه وآدابه وبيان أجر من قاتل وثوابه فى الدنيا والآخرة.

٥ – وأمر الرسول ﷺ بالإعراض والصفح عن العصاة منافقين وغير منافقين، وأمره المؤمنين بالتوكل على الله فى النصر على كل عدو.

٦ – وأمر النبى ﷺ بأن يباشر القتال بنفسه وأن يحرض المؤمنين على القتال.

٧ – والأمر برد التحية بمثلها أو بأحسن منها، فالرد بالمثل فرض، والزيادة مندوب.

كما اشتملت الآيات الكريمة على عدد من الأخبار التى ينتفع من أخبر بها فى دنياه وآخرته وفى تعامله مع الناس أصدقاء وأعداء، وبحسب هذه الأخبار فائدة أن تكون من عند الله تبارك وتعالى:

وأمثلة ذلك:

– الإخبار بصفات المنافقين عند الدخول فى المعارك.

– والإخبار بطبائع الإنسان مثل:

● أن الإنسان يحب الحياة ويتوقى الموت ويؤثر الدعة والعافية مع أن المكتوب عليه سوف يكون لا محالة.

● وأن الإنسان إذا أمر بأمر تمنى غيره، فإن أُمر به لم يقبل عليه.

- والإخبار بأن وظيفة الرسول ﷺ هي البلاغ، وأنه غير مسئول عن معصية العصاة.

- والإخبار بأن القرآن الكريم خال من أي تناقض أو اختلاف.

- والإخبار بأن التروي والتثبت والعودة إلى المصادر والمراجع وأهل الذكر في كل علم هو الأصل وهي خلق للمؤمن.

- والإخبار بأن من سعى في خير جُوزي به وأن من سعى في شر كان عليه وزره.

- والإخبار بأن الله تعالى جامع الناس ليوم لا ريب فيه فمحاسبهم فمجازي كلاً بما صنع، بهذا العدل يجزي الله عباده.

● وبهذه الأخبار حدَّث الله تعالى نبيه فيما أوحى إليه ومن أصدق من الله حديثاً؟.

تفصيل القول في تفسير هذه الآيات الكريمة وشرحها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾

﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾: أي احذروا من العدو ولا تمكنوه من أنفسكم بغفلتكم عنه. وذلك يتطلب الاستعداد والإعداد لكل ما يلاقي به المسلمون أعداءهم.

﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ أي انهضوا لقتال عدو الله وعدوكم جميعكم - وذلك هو النفير العام - أو انفروا جماعات جماعات إن لم يستدع الموقف النفير العام.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

بعض الذين يُحْسَبون على المؤمنين من المنافقين يتباطئون عن الجهاد في سبيل الله أو يخذِّلون سواهم عن المشاركة فيه، وعندما يصيب المؤمنين في الجهاد موت أو جراحة أو أسْر، يقولون قد أنعم الله علينا إذ نجانا من مصائب الجهاد، وعندما يحصل المؤمنون على خير دنيوي من الجهاد، يقول المنافقون: يا ليتنا كنا مع المؤمنين لنفوز بما فازوا به!!

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أمر من الله للمؤمنين بأن يقاتلوا الكفار الذين باعوا دينهم بدنياهم، وهذا معنى مباشر للآية الكريمة.

ويمكن أن يكون المعنى: مخاطبة المنافقين بأنهم لو قاتلوا فى سبيل الله لخرجوا بهذا القتال والإخلاص فيه من دائرة النفاق إلى دائرة الإيمان.

وهناك معنى ثالث: هو الأمر بالقتال مقروناً ببيان فساد ما من أجله يترك الإنسان القتال فى سبيل الله، وهو إيثار الحياة الدنيا على الآخرة، وفى ذلك شر كبير لمن فعله، فهو يفوت عليه خير الدنيا من غنيمة لو جاهد، ويفوت عليه خير الآخرة بحرمانه من الأجر بل بعقابه.

﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

تلك قاعدة عامة فى الجهاد فى سبيل الله، خلاصتها: أن من قاتل فى سبيل الله فقُتِل شهيداً، أو غَلَب عدوه، فله عند الله تعالى أجر عظيم، فقد روى مسلم بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «تَضَمَّنَ الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى وإيمان بى وتصديق برسلى فهو ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى منزلة الذى خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة...».

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾.

- فى هذه الآية الكريمة إنكار على الذين يتركون القتال فى سبيل الله بحكم أنه واجب لا يترك إلا لعذر مقبول.
- وتعليل لهذا الاستنكار لترك القتال، إذ كيف يترك المؤمنون القتال ولهم أخوة مستضعفون من رجال ونساء وأطفال يستغيثون بالله تعالى قائلين: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ وهؤلاء المستضعفون الذين تحدثت عنهم الآية الكريمة هم المؤمنون المقيمون فى مكة يعانون التضييق عليهم ويحال بينهم وبين الهجرة إلى المدينة المنورة.

أو هم كل مستضعف من المسلمين فى بلد من بلدان العالم يعانى من التضييق عليه ويحال بينه وبين الانتقال إلى بلد إسلامى.

- فالآية الكريمة تدل على وجوب القتال لتخليص المسلمين من الظلم الواقع بهم فى أى

مكان وزمان، وعلى أن أولى الناس بتخليص إخوانهم المسلمين المستضعفين هم إخوانهم في الإسلام.

● الا ليت المسلمين يستمعون إلى هذه الآية ليخلصوا ألوف المسلمين فى مختلف أقطار الأرض من الجبابرة الظالمين!!

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾.

والمعنى: أن العبرة فى القتال فى سبيل الله بالقصد والداعى ونية المقاتل.

وأن الناس فى القتال نوعان:

– مؤمنون يقاتلون فى سبيل الله تعالى من أجل دينه وإعزاز منهجه وإعلائه.

– وكافرون يقاتلون فى سبيل الطاغوت أى الشيطان، شيطان الطمع فى بلاد الناس وأموالهم، أو شيطان الغلبة وإذلال الشعوب – كما فعل ولا يزال يفعل الغرب فى كثير من شعوب الأرض، أو شيطان المال والسيطرة الاقتصادية كما يفعل الغرب اليوم – الصليبية الحديثة – وكما تفعل إسرائيل – الصهيونية المعتدية الضارية المؤيَّدة من الغرب والشرق معاً!!

● غير أن الله ولى المؤمنين وولى المستضعفين منهم وناصرهم بإذنه تعالى، وجاعل كيد هؤلاء الشياطين ضعيفاً.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾.

المعنى: أن من المؤمنين جماعة كانوا مع النبى ﷺ فى مكة قبل الهجرة إلى المدينة، يعانون من ظلم المشركين وتعنتهم وإيذائهم، فقالوا للرسول ﷺ: ائذن لنا فى قتال المشركين.

فقال لهم ﷺ: «كفوا أيديكم» أى عن القتال فإنى لم أُومَر بقتالهم، واشتغلوا بالصلاة فهى تعظيم لأمر الله ودعاءٌ له، وبالزكاة فهى مرضاة لله لأنها شفقة على خلقه.

● ومن المعروف أن الصلاة والزكاة مقدمان على الجهاد فى سبيل الله فى تلك الآونة التى كان

المسلمون فيها قلة من حيث العدد والاستعداد.

ولكل تشريع توقيته المناسب الذى يختاره الله تعالى بعلمه وحكمته، لذلك لم يشرع للمسلمين أن يجاهدوا وهم فى مكة لما يتطلبه الجهاد من تضحيات مادية ومالية لم يكونوا قادرين عليها آنذاك.

● وأن بعض الناس لا يرغبون فى الجهاد على أى حال وهم المنافقون الذين يضمرون الشر للإسلام والمسلمين.

● وبعض الناس لا يرغبون فى الجهاد فى أوقات الضعف وقلة الاستعداد، وهؤلاء مؤمنون يخشون الناس لقلة استعدادهم، ويرون أن الجهاد كتب عليهم وهم له كارهون.

● وهؤلاء وأولئك يشتركون فى صفات هى:

- خوف الجهاد وخشية لقاء العدو.
- والرغبة فى أن يتأخر عنهم الجهاد بعض الوقت.
- والحرص على الدنيا ومتاعها والغفلة عن الحق وعن حقيقة الدنيا وما فيها من متاع!!
- وعدم موافقة الصواب، لإيثارهم الدنيا على الآخرة أى ما عند الناس على ما عند الله، فالآخرة خير لمن اتقى.

● وقد قارن العلماء بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة فجاءت المقارنة لصالح نعيم الآخرة على كل حال.

وقد ذكروا فى المقارنة فروقا هى:

- نعيم الدنيا منقطع بالموت، ونعيم الآخرة مؤبد خالد.
- ونعيم الدنيا مشوب بالهموم والمكاره، ونعيم الآخرة صافٍ من الكدر.
- ونعيم الدنيا موضع الشك والارتياب، ونعيم الآخرة موضع اليقين والاطمئنان.

وهذه الفروق إنما يدركها المتقون لله عز وجل الذين يؤثرون ما عنده سبحانه على ما عند الناس.

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾

هذه حقيقة مؤكدة يدركها بل يوقن بها الكافر والمؤمن ماداما عاقلَيْن، فالموت مدرك لكل أحد ولو تحصن منه ببروج مشيدة، وعلى العاقل ألا يهاب الجهاد فى سبيل الله خوف

الموت، فإن الموت لاحقه لا محالة، وأى النوعين من الموت أحسن؟ الموت فى سبيل الله، أم الموت الحتمى من غير جهاد؟.

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾

● هذه الآية الكريمة تحكى عن مقولات المنافقين، عندما يشاركون فى المعارك فيغنمون وينتصرون ويقولون: هذه من عند الله، وعندما تُصيبهم المكاره والبلايا يقولون: هذه من عند محمد ﷺ إذ صاحبوه فى الحرب!!

● والحق الذى لا مراء فيه أن كل ما أصاب الإنسان من رخاء أو شدة، ومن خير أو شر فهو من الله تعالى الذى علم مُسَبَّقاً أن فلاناً سيطيع الله فتصيبه حسنة بفضل الله، وأن فلاناً سوف يعصى الله فتصيبه سيئة بفعله.

تلك حقيقة واضحة لكل ذى عقل من الناس فضلاً عن المتأملين والمتدبرين فى عواقب الأمور.

● والعجب العجاب من أقوام لا يفقهون هذه الحقيقة الواضحة، فما لهؤلاء القوم لا يفقهون حديثاً؟.

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾

● ويلحظ أن الآية السابقة أضاف الله تعالى فيها الحسنة والسيئة كليهما إلى نفسه سبحانه وتعالى.

● وفى هذه الآية الكريمة أضاف الحسنة إلى ذاته سبحانه وتعالى وأضاف السيئة إلى الإنسان العاصى.

وذلك أن من معانى السيئة: المعصية، والمعصية إنما تصدر من العبد، ويترتب عليها الذنب والعقاب.

كما أن من معانى الحسنة: الطاعة، والطاعة توفيق من الله وتفضل بالإثابة عليها.

﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

أى أن وظيفة الرسول ﷺ هى التبليغ لشرائع الله تعالى لعباده، وتوضيح ما يحب الله تعالى أن يفعلوه، وما يكره منهم فعله، فيأمر بما يحب وينهى عما يكره.

﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ على أنه أرسل الرسول وأمره بالتبليغ وهو شهيد كذلك على تبليغ الرسول لقومه، وشهيد على ما يرد به الناس الرسول ﷺ .

﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ :

هذا تأكيد لوظيفة الرسول ﷺ وبيان لمكانته بتقرير أن طاعته من طاعة الله تعالى، وأن معصيته بالتالي معصية لله تعالى.

ومما يدعم هذا المعنى هذه الآية الكريمة، والآية السابقة التي تقول: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤].

● وللإمام الشافعي - رحمه الله - في ذلك كلمة جامعة يقول فيها: «إن قوله تعالى: ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ يدل على أن كل تكليف كلَّف الله به عباده في باب الوضوء والصلاة والزكاة والحج وسائر الأبواب، في القرآن، وإن لم يكن ذلك التكليف مبيَّناً في القرآن فحينئذ لا سبيل لنا إلى القيام بتلك التكاليف إلا ببيان الرسول، وإذا كان الأمر كذلك لزم القول بأن طاعة الرسول عَيْن طاعة الله»[1].

● وفي الحديث الصحيح ما رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : «مَنْ أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصا الله، ومَنْ أطاع الأمير فقد أطاعني ومن عصى الأمير فقد عصاني».

﴿ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾

أي أن من عصى الرسول ﷺ فعصى بذلك الله تبارك وتعالى، فإن الرسول ﷺ ليس مسئولاً عنه فهو لم يؤمر بمنع الناس من المعاصي كما لم يؤمر بحملهم على الطاعات، فالطاعة والمعصية من أمور الدين وكل الدين لا إكراه فيه كما هو معروف.

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

● وهذه الآية الكريمة تحكي بعض مقولات المنافقين وتتحدث عن أعمالهم، فهم أمام الرسول

---

(١) الإمام الشافعي: الرسالة، باب فرض طاعة الرسول ﷺ.

ﷺ يظهرون الموافقة له على مايطلب منهم، فإذا خرجوا من عنده وخلا بعضهم إلى بعض اتفقوا ليلاً فدبروا وزينوا لأنفسهم معصيته، والله تعالى يكتب عليهم مايبيتون ويحاسبهم عليه ويجازيهم.

● والرسول ﷺ مطالب بالا يهتك سترهم، ولايكشف نفاقهم ولايذكرهم بأسمائهم، وإنما يسترهم إلى أن يستقيم أمر الإسلام، متوكلا على الله تعالى وكفى بالله وكيلا وذلك هو الإعراض عنهم.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

وهذه الآية الكريمة حديث عن المنافقين أيضاً، ودعوتهم إلى أن ينظروا ويتفكروا فى الدلائل والبراهين التى اشتمل عليها القرآن الكريم، فإنهم سيجدون فيه الدليل على صدق نبوة محمد ﷺ، ومن أبرز هذه الأدلة:

– بلاغة القرآن وفصاحته، وهم قادرون على التيقن من ذلك لعربيتهم الخالصة التى نزل بها القرآن الكريم.

– وإخباره عن الغيب، كالإخبار عن مكائد المنافقين وكشفها للنبى ﷺ.

– وسلامته من الاختلاف والاضطراب، فضلا عن التناقض فى أى معنى من المعانى التى اشتمل عليها.

● والذين يحاولون أن يجدوا فى القرآن الكريم اختلافا ضالون وفى غفلة عن الحق، وفى جهل بالقرآن الكريم.

والقرآن الكريم نزل ليصدق بعضه بعضا، ولو كذب بعضه بعضا لكان من عند غير الله تعالى، كما دلت على ذلك هذه الآية الكريمة.

● ولقد نبه الرسول ﷺ إلى أن ذلك ربما حدث، فقد روى أحمد بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: لقد جلست أنا وأخى مجلساً ما أحب أن لى به حمر النعم، أقبلت أنا وأخى وإذا مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ على باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم فجلسنا حجزة، إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضبا حتى احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول: «مهلاً ياقوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا إنما نزل يصدق بعضه بعضا، فما عرفتم

منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه».

- ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

والمعنى: أن هؤلاء المنافقين الذين تتحدث عنهم هذه الآيات، من صفاتهم صفة شديدة الضرر بالمجتمع خطيرة الأثر فيه هي:

- أنهم إذا جاءهم الخبر بأمر من أمور المسلمين أذاعوه وأفشوه سواء كان من أمور الأمن أو من أمور الخوف، دون أن يتثبتوا من صحته، وتلك صفة تكاد تكون ملازمة للمنافقين.

وهذا خطأ كبير منهم، يترتب عليه إلحاق ضرر بالمسلمين فى معظم الأحيان.

والأصل أن يتثبت الإنسان من صحة ما سمع قبل أن يذيعه فهذا هو خلق الإسلام الذى دعا المؤمنين إلى التحلى به.

- وبيان الضرر من ذلك:

أن الخبر الذى يذيعه المنافقون قبل التثبت من صحته إن كان فى جانب أمن المسلمين وإعدادهم لعدوهم، تنبه إذاعته أعداء المسلمين فيستعدون لهم، فتفوت على المسلمين فرصة التفوق على العدو.

وإن كان فى جانب خوف المسلمين لضعف فى عدد المسلمين أو قلة فى عددهم، فإن إذاعته تلقى الرعب فى قلوب ضعفة المسلمين.

وهذه الإذاعة قبل التثبت هى ما عبر عنها فى القرآن الكريم بالإرجاف وهدد أصحابه بالحرب والطرد فى قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۝ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ۝ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢].(١)

وهذا الإرجاف هو من صميم صفات المنافقين.

- وفى الآية الكريمة إنكار على كل من يبادر إلى إذاعة الخبر قبل التحقق منه لما فى ذلك من الإضرار بالناس، والإضرار بالحق نفسه.

---

(١) فى المعنى التفصيلى لهذه الآية: انظر لنا: التربية الإسلامية فى سورة الأحزاب الحلقة الرابعة من سلسلة: التربية فى القرآن الكريم- نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

ولقد جاءت السنة النبوية المطهرة تصف من حدَّث بكل ما سمع بأنه كذاب، فما بالنا بمن حدث بمالم يتأكد من صحة ماسمع؟.

روى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ماسمع».

وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه «أن رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقال..» أى عن الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولاتدبر.

● والأصل الشرعى فى هذا الموقف: أن من سمع خبرا أو أمراً دون أن يتثبت من صحته فسكت دون أن يذيعه ورد الأمر فيه إلى أولى العلم به.. وعلى رأس هؤلاء رسول الله ﷺ، لو فعل ذلك لوقف على الحق وعرفه والتزم به، فكان فى ذلك الخير له وللناس، هذا الأصل الشرعى يفهم من قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿ .. وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾.

والمستنبطون هم: أهل العلم والرأى، والقادة والصالحون الذين لديهم القدرة على استخراج الشيء من معدنه والاهتداء إلى وجه الحق فيه.

﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾.

«فضل الله ورحمته» هو: إنزال القرآن الكريم على خاتم المرسلين ﷺ ففيه الخير كل الخير للمسلمين فى دينهم ودنياهم، والهدى كل الهدى لهم فى كل ماينشأ بينهم من أمور.

ويمكن أن يكون فضل الله ورحمته هو: نصر الله تعالى للمسلمين فى معاركهم، وفشل محاولات المنافقين فى الإرجاف وإطلاق الشائعات الضارة بالمسلمين بقصد إلقاء الرعب فى قلوبهم.

﴿ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أى لولا هذا الفضل من الله والرحمة لاتبعتم الشيطان فيما يوسوس به إليكم من مخالفات، والقليلون الذين يستعصون على وسوسات الشياطين هم أهل البصائر النافذة والنيات السليمة والعزائم القوية الذين لايربطون بين كونهم على الحق وضرورة أن ينتصروا وأن تقوم الدولة الإسلامية وأن تسود الدنيا.

● **وفى الآية دليل على أن الذين يتبعون وسوسة الشيطان يمنعهم الله من فضله ورحمته، أى يمنعهم من الانتفاع بفضله ورحمته فيقعون فى المعاصى، وذلك شأن الكافرين والمنافقين.**

اما المؤمنون فينتفعون بهذا الفضل وتلك الرحمة بما يأتونه من طاعات.

- ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴾.

● يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يباشر القتال بنفسه، ولو نكل عنه الناس، فليقاتل وحده عندئذ، فذلك واجب عليه إحقاقا للحق واستجابة لأمر الله.

● وهذا الأمر موجه من بعد لسائر المؤمنين يجاهدون فى سبيل الله، ولو كان الواحد منهم وحده، مادام قتاله فى حدود استطاعته، بفعل ذلك مهما قعد الناس ونكلوا.

● وفى الآية أمر ثان للرسول ﷺ وهو: أن يُحرِّض المؤمنين على القتال.

وقد كان ذلك دأب رسول الله ﷺ، كما حدث منه فى غزوة بدر الكبرى حين قال لهم- وهو يسوى صفوفهم-: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض».

وروى النجارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض...».

وروى مسلم بسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد، من رضى الله رباً، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا ونبياً وجبت له الجنة» قال: فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها على يارسول الله ففعل، ثم قال رسول الله ﷺ: «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة، مابين كل درجتين كما بين السماء والأرض» قال: وماهى يارسول الله؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله».

- ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴾.

● المعنى أنه بتحريض النبى ﷺ المؤمنين على القتال تشتد عزائمهم على مواجهة الأعداء، دفاعا عن الإسلام وعن الحق وأهله- كما حدث ذلك حين كف الله عنهم شر أبى سفيان والمشركين حين قال أبو سفيان للمشركين: هذا عام مجدب، وليس معنا إلا السويق، فانثنوا عن قتال محمد والمسلمين، فكف الله بذلك بأسهم عن المسلمين.

﴿ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴾ أى أشد قوة فى دفع أعداء الإسلام والمسلمين عن المسلمين، واشد تنكيلا بهم وبكل أعداء الحق فى كل زمان ومكان.

﴿من يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾.

والمعنى: أن من يسعى فى أمر من الأمور فيترتب عليه خير فإن الله يجعل له نصيبا فى هذا الخير، ومن يسعى فى أمر فيترتب عليه شر، فإن الله يجزيه على مسعاه فى الشر بنصيب من هذا الشر، ويتضح هذا المعنى فيما رواه علماء السنة النبوية من أن رسول الله ﷺ قال: «اشفعوا تؤجروا، ويقضى الله على لسان نبيه مايشاء».

والله تبارك وتعالى حفيظ وحسيب على كل عمل من خير أو شر ومجاز عليه، وقادر على ذلك.

هذا هو معنى تلك الآية الكريمة والله أعلم.

● وللعلماء فى معناها وجوه أخر منها:

- أن المراد بالشفاعة تحريض النبى ﷺ للمؤمنين على القتال، فهو ﷺ شفيع لهم فى تحصيل أغراض الجهاد، وذلك أن التحريض يجىء على سبيل الرفق والتلطف، وليس على سبيل التهديد، وذلك يجرى مجرى الشفاعة.

- أو أن المراد: أن بعض المنافقين كان يشفع لمنافق آخر، فى أن يأذن له الرسول ﷺ فى التخلف عن الجهاد فى سبيل الله.

- أو أن المراد: أن بعض المؤمنين كان يشفع لدى مؤمن ثالث فى أن يحصل له منه على بعض مستلزمات الجهاد فى سبيل الله تعالى.

- وقال الحسن ومجاهد والكلبى وابن زيد: المراد هو الشفاعة بين الناس، بعضهم لبعض، فما تجور الشفاعة فيه شرعاً هو الشفاعة الحسنة، وما لاتجوز الشفاعة فيه شرعا فهو شفاعة سيئة.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾.

المعنى: أن الله تعالى كما أمر المؤمنين بالجهاد، أمرهم كذلك بالرضا بالمسالمة إذا أرادها الأعداء، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا..﴾ [الأنفال: ٦١].

فهذا أحد معانى هذه الآية الكريمة.

– وقد يكون المعنى: أن التحية فى الإسلام هى: السلام.

- خلافا لما كان عليه اليهود والنصارى من: الإشارة باليد أو بالإصبع،
- وخلافا لما كان عليه المجوس من الانحناء.
- ولما كان عليه عرب الجاهلية من قولهم: عم صباحا وحَيَّاك، ونحوهما.

– والسلام اسم من أسماء الله تعالى.

– والمسلمُ مطالب بردّ التحية بمثلها على سبيل الفرض، وبأحسن منها على سبيل الندب.

– والسنَّة فى السلام الجهر به لأنه أقوى فى إدخال السرور على القلب.

– ومن السنَّة: أن يسلم الراكب على الماشى، والقائم على القاعد، والصغير على الكبير، والقليل على الكثير.

– ومن السنة إفشاء السلام وتعميمه، والمصافحة عنده وأن يكون المسلِّم والمسلَّم عليه على طهارة، وأن يبتدئ المسلمان بالسلام إذا التقيا، وأن يعيدا السلام إذا حجز بينهما حاجز من بيت أو شجر ونحوه.

- فبكل ذلك وردت أحاديث للنبى ﷺ نقتصر منها على ماراوه أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولاتؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

– ومن المعرف فى الإسلام أن هناك مواضع لايجوز فيها إلقاء السلام مثل:

- أن يُسلِّم عند دخوله المسجد والإمام يخطب.
- أو أن يسلم على مشتغل بتلاوة القرآن أو مدارسة العلم.
- أو على من يؤذن للصلاة أو يقيم لها.
- أو أن يسلم على مشتغل بمعصية الله تعالى، أو على مشتغل بقضاء حاجته (التبول والتبرز).
- أو أن يبدأ يهوديا بالسلام، لما هو معروف عنهم من عداوة شديدة للإسلام والمسلمين.

بكل ذلك وردت أحاديث نبوية صحيحة تلتمس فى كتب السنة المطهرة فى أبواب الأدب أو الآداب، أو رَدّ السلام ونحوها مما تفيض به هذه الكتب.

- ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.

والمعنى: أن الله تعالى متفرد بالإلهية لكل المخلوقات، وأن له سبحانه وتعالى القدرة على جمع مخلوقاته كلها يوم القيامة، ولاسيما الإنسان، ليحاسب ويجازى كل إنسان بما عمل، بهذا قضى سبحانه وتعالى، وعلى هذا أقسم وأكّد، وهو سبحانه وتعالى أصدق فى حديثه وخبره وحكمه ووعده ووعيده فضلا عن قسمه وتأكيده ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.

● وقد جاءت هذه الآية الكريمة كالختام لحديثه سبحانه وتعالى عن الجهاد فى سبيله، وعن تربية الفرد والجماعة تربية جهادية تجعل من المسلمين خير أمة أخرجت للناس. وتؤكد أنّ من حاد عن هذه التربية وتنكب طريق تلك الآداب، أو خالف شيئاً مما أمر الله به أو أتى شيئاً مما نهى الله عنه، فإن الله تعالى باعثه بعد موته وجامعه إلى يوم القيامة ومحاسبه على عمله كله من خير وشر ومجازيه على الخير خيرا وعلى الشر بمثله.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة دروسا نافعة فى بناء الشخصية المسلمة المتكاملة، الملتزمة بشرع الله ونظامه، وفى بناء المجتمع المسلم الفاعل المجاهد الذى يعمل من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا وشريعته هى السائدة المحكَّمة فى الناس برًا بهم وعدلا وإحسانا بالنسبة لهم، وفى بناء الدولة المسلمة القادرة على رعاية حقوق أفرادها وعلى أن تُيسِّر لهم أداء واجباتهم الفردية والأسرية والجماعية نحو دينهم ودنياهم.

ونستطيع أن نلمس ذلك بل نضع أعيننا وأيدينا عليه فى الآيات الكريمة التالية:

١- يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ۝٧١ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ۝٧٢ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ مايلى:

أ- أن من سنة الله تعالى مع خلقه أن تكون حياتهم الدنيا مجالا للكيد والصراع بين الحق والباطل والإيمان والكفر، وأن للمؤمنين على الدوام أعداء لهم يكيدون ويتربصون بهم الدوائر، ويحاربونهم...

وأن الله تعالى يطالب عباده المؤمنين بأخذ الحذر من هؤلاء الأعداء، على اعتبار أن ذلك واجب على كل مؤمن على حدة، وعلى المؤمنين جماعات ومجتمعا ودولة وقيادة، وإن لم يفعلوا فكأنهم يساعدون الأعداء وينصرون الكفر على الإيمان والباطل على الحق.

ب- وأن من الحذر من العدو ومن النفير له أن يواجه بالأسلوب والخطة والحشد والتسلح الملائم لظروف العدو، ولما يملكه هو من وسائل وآلات للحرب.

وأن مواجهة العدو قد تكون على مستوى المجموعات، وقد تكون على مستوى الأمة كلها، وعلى كلا الأمرين فإن على المؤمنين أن يجاهدوا عدوهم كل أنواع الجهاد، جهاد اللسان والدعوة والدعاية، وجهاد المال والاقتصاد، وجهاد السياسة والإعلام، وجهاد التخابر وجمع المعلومات عنه، وجهاد القتال والمواجهة، وهم فى كل ذلك مقيدون بأحكام الجهاد فى سبيل الله وأخلاقه وآدابه.

جـ- وأن صفوف المسلمين لاتخلو غالبا من المنافقين الذين لايحبون أن ينفروا لحرب أعداء الإسلام متعللين بأوهى الأسباب مثبطين لغيرهم عن النفير فى سبيل الله.

وعلى المؤمنين ألا يجزعوا لنفاق المنافقين أو يضعف ذلك من عزمهم على لقاء عدوهم، فسنة الحياة أن يوجد المؤمنون والمنافقون والكافرون، ولكل من المنافق والكافر أسلوب فى التعامل لاينبغى للمؤمنين أن يتجاوزوه أو أن يقصروا فيه.

د - وأن من علامات نفاق المنافقين أن يقولوا عند انهزام المسلمين فى معركة- لحكمة يعلمها الله- : إن من حظنا الحسن أننا لم نشارك مع المسلمين فى هذه المعركة فنهزم مثلهم- متجاهلين الأجر والثواب على الجهاد فى سبيل الله ونيل الشهادة عند الموت.

أو أن يقولوا- عندما ينتصر المسلمون وينالون من فضل الله النصر والغنائم- : ياليتنا كنا مع المؤمنين فى هذه المعركة حتى نحظى بما حظوا به.

وهى مقولات ضالة خاطئة تتجاهل ما كان بينهم وبين المؤمنين من صلة ومودة، وتعبر عن مطامعهم الدنيوية التى تذهلهم عن الحق وعن الهدى وعن الله تعالى وما أمرهم به وما نهاهم عنه!!

ذلك دأب المنافقين فى كل زمان ومكان.

٢- ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ مايلى:

أ- أن الذين يبيعون دينهم بأعراض الحياة الدنيا من مال وجاه وغير ذلك غير مؤمنين بل هم ضالون منافقون، وأن حكمهم حكم الكافرين فى وجوب قتالهم عند التأكد من أن هذه صفاتهم، فقد أوجب قتالهم بعد الموعظة والاستتابة والوعيد والتهديد.

ب- وأن القتال فى سبيل الله له أعظم الأجر عند الله تعالى؛ أجر دنيوى بالغنيمة والنصر، وآخر أخروى برضا الله تعالى وجنته، كما دل على ذلك الحديث النبوى الذى ذكرناه آنفا: «تضمن الله لمن خرج فى سبيله لايخرجه إلا جهاد فى سبيلى...» الحديث.

جـ- وأن الله تعالى يغرى المؤمنين بالجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله أولا، ولإنقاذ ضعفاء المسلمين من النساء والولدان الذين لايستطيعون الهجرة ولا الدفاع عن أنفسهم، وإنما يستطيعون دعاء الله وانتظار الفرج والنجدة على أيدى إخوانهم المجاهدين.

وسواء أكان المستضعفون من المسلمين - وهم من اضطهدوا فى مكة على عهد الرسول ﷺ ولم يستطيعوا اللحاق به فى المدينة مهاجرين - أم كان من المسلمين المضطهدين فى أى مكان فى العالم فى أى وقت من الأوقات، فإن إنقاذهم واجب على إخوانهم، لأن العبرة فى القرآن الكريم بعموم اللفظ لابخصوص السبب.

د - وأن هدف المؤمنين من جهادهم واضح وغايتهم منه معروفة حددته هذه الآية الكريمة، وأن هدف الكفار من القتال واضح كذلك من قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ... ﴾

● وعلى وجه الإجمال فإن الذين آمنوا يقاتلون من أجل إحقاق الحق وإعلاء كلمة الله ونصر أهل الإيمان على أهل الكفر والضلال، وأما الكفار فيقاتلون فى سبيل الطاغوت أى

الشيطان والباطل.

● وأن قتال الشياطين وأوليائهم واجب لأن الله تعالى أمر به، والنصر عليهم سهل وميسور لمن أخلص النية وأعد لهم ما استطاع، لأن كيدهم وكيد شياطينهم ضعيف أمام قوة المؤمنين المعتصمين بالله المجاهدين فى سبيله، الذين يؤيدهم الله فى معاركهم وينصرهم على أعدائهم.

٣- ويتعلم المسلمون من قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ مايلى:

أ- أن المؤمنين فى بداية دخولهم فى الإسلام- وهم فى مكة- لم يكونوا قد أمروا بالقتال، لأسباب كثيرة تتضمنها حكمة الله تعالى، وإنما أمروا بالصلاة والزكاة ومواساة الفقراء منهم، وأمروا بالصفح عن المشركين الذين يؤذونهم، والصبر عليهم وعلى أذاهم!!

وكان المسلمون عندئذ يتحرقون شوقاً إلى قتال المشركين ولكن الله تعالى لم يسمح لهم بهذا القتال.

وفى منع الله تعالى للمسلمين من قتال المشركين آنذاك درس عظيم وعميق فى الصبر وفى الطاعة، وفى حسن تخير الفرص، وفى اتخاذ مايكفى من الأسباب لمواجهة الأعداء، وذلك كله من مقتضيات منهج الإسلام فى الحياة عموما عند إقبال المسلم على أمر من الأمور، فما بالنا إذا كان الأمر مواجهة لعدو مشرك لايرضيه إلا القضاء على الإسلام والمسلمين؟.

إن ذلك الدرس العميق فى الصبر والطاعة واتخاذ الأسباب يفهم من هذه الآية الكريمة ومن غيرها من الآيات، ومن عدد كبير من الأحاديث النبوية الشريفة.

ب- وأن بعض المؤمنين لما كتب عليهم القتال الذى كانوا يتحرقون شوقا إليه وجدوا

أنفسهم فى خوف من ملاقاة العدو قائلين: ﴿ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ...﴾ وقد دل موقفهم هذا على ترددهم وإيثارهم من العبادات ما يكلفهم بذل الروح والمال فى سبيل الله، كما دل على أنهم لايتعمقون حكمة الله فى أمره ونهيه إذ لا يأمر إلا بما فيه خير الإنسان فى سلمه وحربه وأمره كله، وأن الدنيا وما فيها من متع المال والجاه والولد، والسلامة والعافية ليست إلا نعما تافهة زائلة إذا قورنت بما عند الله فى الآخرة، وذلك مما يغفل عنه كثير من الناس.

جـ- وأن المؤمن يجب أن يقاوم فى نفسه وسوسات الشياطين، حيث يزين الشيطان له القعود عن معركة كذا، وخوض معركة كذا كأنه يعلم أن في هذه النصر وفى تلك الهزيمة!!! والحق أن النصر من عند الله، ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

والصواب الذى لاصواب مثله هو أن يخوض المسلم كل معركة أمره الله بخوضها، لأن الله تعالى لايأمره إلا بما فيه الخير لنفسه فى دينه ودنياه.

- على أن هناك فرقا ما بين المؤمن والمنافق فالمؤمن سريع فى الاستجابة لأمر الله تعالى، والمنافق يتلكأ ويتعلل ويبحث عن المعاذير مغالطا بها ومضللا.

د - وأن الذين يبحثون عن المعاذير والتعلات لكى لايدخلوا معركة يتصورون أن فيها نهايتهم واهمون مخدوعون، فقد اقتضت سنة الله فى خلقه فى حياتهم وموتهم، أن يكتب على الإنسان يوم موته عندما ينفخ فيه الروح ويهبه الحياة وهو فى بطن أمه، وأن هذا الذى كتبه الله على خلقه لايرده حذر ولاتخوف، ولايمنعه التجاء إلى حصون وبروج عالية لا ينال مَنْ فيها إلا بصعوبة، ذلك أن القضية المفروغ من مقدماتها ونتائجها هى أن موت الإنسان لايمكن أن يتقدم أو يتأخر عن اليوم بل الساعة التى كتب الله فيها للإنسان أن يموت: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾.

هـ- وأن من علامات النفاق أن يتشاءم الإنسان بأمر الله أو برسوله ﷺ، بل إن هذا من أشد أنواع الكفر وأخبثه، كما تحكى ذلك عنهم الآية الكريمة التى تقول: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ

رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾.

- والحقيقة المسلمة إيمانيا هى: أن الخير الذى يصيب الإنسان هو من الله تبارك وتعالى، وأن الشر الذى يقع بالإنسان هو من عند نفسه ومن كسبه، ومن مخالفته لأمر الله تعالى، ومن قال بغير ذلك فهو من الجاهلين، بل الغافلين الذين لايفقهون أى حديث!!

و- وأن الرسول ﷺ يبلغ ما أمره الله بتبليغه من شرائع، ويعلم الناس ما يحب الله لهم ومايكرهه منهم ومايأباه عليهم بهذا أشهد الله رسوله ﷺ وأشهد الناس وكفى بالله شهيدا.

- كفى به شهيدا على أنه أرسل رسوله وحدد وظيفته.
- وكفى به شهيدا على الناس مايطيعون فيه الرسول ﷺ ومايعصونه فيه.
- وكفى بالله شهيدا على أن الرسول ﷺ، والرسل جميعا قد بلغوا ما أمروا به عن ربهم.
- وكفى به شهيدا على إثابة الطائع وعقاب العاصى.
- وكفى بالله شهيدا على أن الرسول ﷺ ليس مسئولا عن أن يهدى أحدا من الناس، وإنما يبلغه فحسب.

٤- ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٨١) أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء: ٨٠-٨٣] مايلى:

أ- أنّ طاعة الرسول ﷺ هى عين طاعة الله تعالى، طاعته ﷺ فى كل ما يأمر به أو يندب إليه، وفى كل ما نهى عنه أو كرّه فيه، سواء أكان أمره باللفظ والقول، أو كان بالفعل والممارسة ليقتدى به المسلمون، وذلك أن فى طاعة رسول الله ﷺ الفوز بكل خير والنجاة من كل شر، فى الدنيا والآخرة ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ.. ﴾.

ب- وأن من أعرض عما جاء به رسول الله ﷺ إعراضا ظاهرا استحق عقاب الله وذلك

هو التولى عن رسول الله ﷺ، ومن تولى عن رسول الله ﷺ فليس الرسول مسئولا عنه ولاحفيظا عليه، بل ليس له أن يشغل نفسه بزجره أو عقابه أو إجباره على الطاعة.

- أما التولى غير الظاهر وهو إعراض القلب فإن ذلك لايعلمه إلا الله ولايحاسب عليه سواه.

جـ- وأن بعض المنافقين كانوا يظهرون الطاعة أمام الرسول ﷺ فإذا خرجوا من عنده بيتوا المعصية، وهؤلاء وأمثالهم فى أى زمان ومكان يجب الإعراض عن مجازاتهم على مافعلوا وترك فضيحتهم، وعدم ذكر أسمائهم بل سترهم حتى يأذن الله تعالى لرسوله فى ذلك.

وعلى الرسول ﷺ أن يتوكل على الله فى مقاومة شرهم وفسادهم، فإنه سبحانه سوف يكفى رسوله مئونتهم ومقاومتهم، وكفى بالله وكيلا فى نصر الرسول عليهم.. ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ..﴾ الآية.

د - وأن الله تعالى يدعو الناس جميعا كافرهم ومنافقهم، فضلا عن المؤمنين، يدعو كل الناس إلى التدبر فى القرآن الكريم، ليأخذوا منه ماينفعهم فى الدنيا والآخرة، ومع تدبرهم وإنعامهم النظر فى القرآن الكريم فإنهم لايجدون فيه اختلافا فضلا عن اضطراب فضلا عن تناقض، ولو كان القرآن من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً.

هـ- وأن من أعمال المنافقين الفاسدة أنهم لايكتمون سراً ولايحتفظون بأمانة أمر من الأمور سواء أكان أمر أمن أم أمر خوف.

وتلك صفة سيئة فى أى إنسان، وقد كان المنافقون بتلك الإذاعات والإرجافات يضرون بالمسلمين فى سلمهم وحربهم على نحو ما بينا آنفا.

وكان يسعهم ويسع كل إنسان يشاركهم صفتهم تلك قبل أن يرجف أن يستوثق من أهل العلم، وكان على المنافقين على عهد رسول الله ﷺ أن يردوا مثل هذه الامور إلى رسول الله ﷺ، لكنهم لم يفعلوا واتبعوا الشيطان فأحدثوا تلك البلبلة.

٥- ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً (٨٤) مَن يَشْفَعْ

﴿شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ مايلى:

أ - أن الله تعالى يأمر بالجهاد فى سبيله، على الرغم من كيد المشركين، وغدر اليهود، ونكوص المنافقين وإرجافهم بكل ما يفت فى عضد المؤمنين، ويقوى من شأن أعدائهم. وإنما أمر الله به على الرغم من كل ذلك لأنه فريضة بل هو فى الذورة من الفرائض، إذ تعد مشروعيته أساسا ركينا من أسس بناء المجتمع المسلم الآمن، وهو فى الوقت نفسه الرد الحاسم على كل أعداء الإسلام والمسلمين.

- والجهاد فى سبيل الله تعالى بالنسبة إلى الرسول ﷺ فرض عين، فعليه أن يجاهد ولو كان وحده.

وقد اصطفاه الله شجاعا بل أشجع الناس، فلا عجب أن يجاهد وحده لو اقتضى الأمر ذلك، ولو لم يكن شجاعا ما أمره الله تعالى بأن يقاتل فى سبيل الله ولو لم يشاركه أحد ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾.

- ولقد اقتدى به أبو بكر الصديق رضى الله حينما حاور المسلمين فى حروب الردة ووجد من يستكثر قتالهم وهم على الإسلام فأصر على قتالهم ولو كان وحده، لأن منع الزكاة بهذه الصورة كفر وارتداد عن الإسلام بتعطيل شرائعه.

- والجهاد فى سبيل الله بالنسبة للمسلمين فرض كفاية إذا فعله البعض سقط إثم تركه عن الباقين، ولذلك أمر الرسول ﷺ أن يحرضهم على القتال.

أما إذا لم يفعله أحد فقد أثم جميع المسلمين لتعطيلهم فرضًا من فروض الدين.

- وإذا فعل الرسول ﷺ ذلك والمسلمون ذلك فقاتلوا فى سبيل الله فإن الله تعالى ناصرهم ومؤيدهم، ودافع عنهم كيد أعدائهم، بل ينكل لهم بأعدائهم تنكيلا.

ب- ويتعلمون من الآية الكريمة أن من حرص على أداء عمل من أعمال الخير مأجور عند الله تعالى، جهادًا كان ذلك العمل أو أى نوع من أنواع الخير، وأن من حرّض على عمل شر آثم معاقب عند الله تعالى، لأنه سبحانه يثيب على الخير ويعاقب

على الشر، والجهاد ذروة سنام عمل الخير من بين أعمال الإسلام، فإذا جاهد المسلمون كما أمرهم الله تعالى فعسى الله أن ينصرهم ويكف عنهم بأس أعدائهم.

وقد قال العلماء إن كلمة «عسى» إذا أسندت إلى الله تعالى فهى جزم وتأكيد، أما إسنادها إلى الناس فرجاء وليست جزما وتأكيداً.

جـ- وأن المسلم حينما يشفع لمسلم آخر فى أمر من الامور، فإن هذه الشفاعة تخضع لقاعدة شرعية هى:

- أن مايجوز الشفاعة فيه من أمور الدين- وهو كل خير وصلاح- فهو من الشفاعة الحسنة التى يؤجر فاعلها فيكون له نصيب منها.

- ومالايجوز الشفاعة فيه من أمور الدين- وهو كل شر وفساد أو تحريض عليه- فهو من الشفاعة السيئة التى يأثم فاعلها ويعاقب، فيكون له كفل منها.

- وكل شفاعة تؤدى إلى سقوط حق أو إقرار باطل أو تحريض عليه فهى من الشفاعة السيئة.

د - وأن المؤمنين مطالبون بأن يعاملوا الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم معاملة حسنة على الدوام، وفى مجال الجهاد من سالمهم سالموه: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]. وإن لقيهم أحد فى دار الحرب فحياهم بأن أدى إليهم التحية أى السلام، فليس لمسلم أن يهمل الرد عليه فضلا عن أن يؤذيه أو يقتله.

هـ- وأن تحية الإسلام هى: «السلام عليكم..» وليس كما يقولون الجاهليون ومن يتشبهون بهم من قولهم: «حياك» لأن معنى السلام أتم وأكمل من معنى: حيّاك. والسلام اسم من أسماء الله تعالى، وفيه بشارة بالسلامة وقد أمر النبى ﷺ بإفشاء السلام، فقد روى الترمذى بسنده عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلُوا الأرحام، وصَلُّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رجلا سأل رسول الله ﷺ: أى الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

● والسلام واجب على المسلم، والردّ على من ألقى السلام واجب أيضاً.

وبعض العلماء يرون أن إلقاء السلام سنة، وأن الردّ عليه واجب.

وهناك إجماع بين العلماء على أن ترك الردّ حرام لأنه إهانة وإضرار بمن ألقى السلام، وكل ذلك حرام لم يختلف عليه أحد من العلماء.

● **المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة.**

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات الكريمة كثيرا من منهج الدعوة إلى الله، ومن أساليب الحركة وخطواتها وآدابها، مما يحقق للمسلمين نجاحا وفلاحا فى مجالات الدعوة والحركة.

● ومنهج الدعوة والحركة وأساليبهما وآدابهما، وتطبيق ذلك فى حياة الناس هو الضامن الأكيد لقيام المجتمع المسلم، فالحكومة المسلمة؛ فانتشار دين الله فى الناس والآفاق ليستقيم الناس على منهج الله ونظامه فتكون لهم بذلك عزة الدنيا وكرامة الآخرة، وذلك ما يسميه أسلافنا: «سعادة الدارين».

فيتعلمون من هذه الآيات الكريمة مايلى:

١- يتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا** (٧١) **وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا** (٧٢) **وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا** ﴾ مايلى:

أ - وجوب أخذ الحذر من العدو، عدو الحرب وعدو السلم، وأخذ الحذر يعنى أمورا كثيرة، يجب على الدعاة إلى الله أن يبصروا بها الناس، مثل:

- المعرفة الدقيقة بالعدو أهدافه وخططه ووسائله فى تحقيق هذه الأهداف.

- والاستعداد للعدو بما يناسبه زمانا ومكانا وظروفا، سلما وحربا ساخنة أو باردة.

- وإعداد النفوس والعقول والعلم والتقنية الملائمة للتفاعل مع العدو فى غير ميادين القتال.

- وتنظيم الصفوف وتصنيف القوى وحشد العَدَد والعُدد، لمواجهة العدو فى كل مجال من مجالى الحرب والسلم على السواء موجة بعد موجة ﴿ ثُبَاتٍ ﴾ أو مواجهة عامة ينفر لها المسلمون جميعاً.

ب- ويتعلمون أن صفوف المؤمنين قلما تخلو من المنافقين، **﴿وإن منكم لمن ليبطئن..﴾** أى يثبطون المؤمنين عن القتال بحجج ومعاذير واهية لاتعيش ولاتصدر إلا من المنافقين.

- وينبغي أن يكون للمؤمنين موقف من هؤلاء المثبطين على النحو التالي:

- الاعتراف بأن صفوف المؤمنين قد يختلط بها عدد من المنافقين وهذا الاعتراف يحول بين المؤمنين وبين اليأس والنكوص، وقد كان ابن سلول على رأس المنافقين- وهم ثلث الجيش فى غزوة أحد- ومع ذلك لم يفت فى عضد المؤمنين ولا أصابهم اليأس.

- وعدم الثقة فى المنافقين، وبالتالى فلا ينبغى الاعتماد عليهم أو دعوتهم للمشاركة فى جهود أو أعمال فى الحرب وفى السلم على السواء.

- وأن صفات المنافقين فى كل العصور واحدة أو متقاربة وهى الصفات التى ذكرناها آنفا، وهى فى مجموعها تلون وتردد وبحث دائب عن المصلحة الشخصية على حساب المصلحة العامة.

- إن تبصير الناس بهذه الحقائق هى مهمة الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية على الدوام، فلا المجتمعات المسلمة بخالية من المنافقين يوما، ولا المنافقون بمتخلّين عن صفاتهم الأساسية يوما من الأيام، ولا الدعاة والحركيون بمعفَيْن من هذا التبصير والتوضيح.

٢- ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: **﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾** مايلى:

أ- على الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن القتال فى سبيل الله أوسع الطرق وأحسنها للحصول على رضا الله تعالى والحصول على ثوابه، لذلك كانت مبادرة الصحابة إلى خوض معارك الجهاد أملا فى الحصول على الشهادة فى سبيل الله، كما فعل الصحابى الجليل عمير بن الحمام فى غزوة بدر عندما سمع رسول الله ﷺ يقول:

«قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض والذى نفسى بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» فقال- كما فى صحيح مسلم- عمير بن الحمام رضى الله عنه وفى يده تمرات يأكلهن: بخ بخ يارسول الله، عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم، قال: أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء؟ وفى رواية قال: لئن حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة، ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل.

ب- وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا أن القتال فى سبيل الله هو الأسلوب الأمثل بل الأوحد الذى يحقق للمسلمين مكاسب أكيدة تتمثل فيما يلى:

- تحقيق العزة والكرامة للمسلمين فى كل ميادين الحياة الإنسانية، وبدونه لاشىء من ذلك.
- مواجهة الأعداء وهم كثيرون، مواجهة حاسمة بعد أن تبلغ الدعوة مداها وأن يسمع كلام الله فالعدو المتجبر الذى لايواجه بالجهاد يزيد عدوانه ويستضرى ويستبد.
- ومقاومة أسباب الضعف والتخاذل فى المسلمين، إذ من أقوى أسبابه ترك الجهاد فى سبيل الله، وهذا هو مايسر العدو ويساعده على تحقيق أهدافه فى قهر المسلمين وهزيمتهم.
- وأن المسلمين يجب أن يستعدوا للجهاد بما أمروا به، ولاعليهم بعد ذلك أن يحققوا نصرا على العدو أو يخسروا جولة أو جولتين، فهم على الحالين ينالون عند الله أجرا عظيماً: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

جـ- وأن الدعاة إلى الله يجب عليهم أن يؤكدوا للناس أن من يخوض معركة فى سبيل الله عليه أن يحرص على تحقيق أحد أمرين تنعقد عليهما إرادته:

- إما أن ينتصر على العدو إعلاء لكلمة الله.
- وإما أن يقتله العدو لينال الشهادة فى سبيل الله.

فبهذه الإرادة خاض المسلمون معاركهم الأولى فنشروا دين الله فيما يقرب من نصف الكرة الأرضية فيما يقرب من نصف قرن من الزمان، ونشر الإسلام فى الناس والآفاق، يعنى: أن يسود العدل الناس جميعا، وأن ينعم الناس بالإحسان الذى هو أرفع من العدل وأعلى شأنا وأحسن للناس على كل حال.

د - وعلى الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يوقظوا فى الناس حب الجهاد

فى سبيل الله وأن يفقهوهم بأسبابه ودواعيه وأهدافه ومراميه، وأن يربطوا لهم بين الجهاد والعزة والسيادة، وبين الجهاد ونشر الدعوة، وبين الجهاد والتمكين لدين الله فى الأرض، وبين الجهاد والمحافظة على هذا التمكين، بحيث تكون للمسلمين دول قوية قادرة على حماية مبادئ الإسلام وقيمه وأحكامه وآدابه، وعلى حماية المسلمين الذين يدينون به، ويخرجون بنظامه الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن الظلم والجور إلى العدل والإحسان.

هـ- وعليهم أن يبصروهم أن العبرة فى الجهاد فى سبيل الله بالقصد والداعى، لابنوع الجهاد ودرجته، فالمؤمنون يقاتلون فى سبيل الله لنصر دينه وإعلاء كلمته وسيادة منهجه، وغير المسلمين يقاتلون من أجل مال أو جاه أو طاغوت، وكل ماسوى الله طاغوت يجب أن يرفض وأن يقاتل على كل حال.

- على أن الذكر والشرف ورضا الله وجنته لمن قاتل فى سبيل الله، انتصر أو انهزم.
- والعار وسوء السمعة وغضب الله وعقابه لمن قاتل فى سبيل الطاغوت ولو كان الشيطان نفسه أو كان ملكا من جبابرة الملوك، فإن كيده فى نهاية الأمر وعلى مر التاريخ ضعيف مهما بدا قويا فى بعض الأحيان ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ إنها سنة من سنن الله تبارك وتعالى.

٣- ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ مايلى:

أ- على الدعاة إلى الله أن يبصروا الناس بأن الله تعالى يريد بهم الخير، فلا يشرع لهم إلا مافيه صلاح دنياهم وآخرتهم، ومن أجل ذلك يتدرج معهم فى التشريع حتى يتسق هذا التدرج مع فطرتهم وقدراتهم، وحتى يترقوا على الطاعة فيما يطيقون ثم

يصعدوا فى هذا التدرج حتى يترقّوا إلى المستوى الذى يرضى عنهم رب العالمين ويهيئوا لأنفسهم ولغيرهم من الناس حياة إنسانية كريمة.

وقد تدرج التشريع معهم من مطالبتهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكف أيديهم عن أعدائهم والاكتفاء مع هؤلاء الاعداء بالصبر عليهم وتحمل اذاهم، حتى يأذن الله لهم بتشريع جهاد هؤلاء الاعداء وقتالهم لمقاومة شرهم وفسادهم وفتح الطريق أمام دعوة الله لتصل فى أمان إلى جميع خلقه.

ب- وعلى الدعاة أن يفقهوا الناس بأنه وإن كان من طبائع الناس الجفول عن القتال لما فيه من تعرض للموت، مع أن الناس يؤثرون السلامة والعافية، إلا أن المؤمنين يجب ألا يكونوا كذلك، وإنما يواجهون الموت إن دعاهم الله إلى مواجهته تقربا إلى الله تعالى، وحسن اختيار للظروف التى يموت فيها الإنسان، مدركين أن الحياة الدنيا متاعها قليل مهما طالت، وأن الآخرة خير لمن اتقى، وأن الله تعالى لايظلم عاملا ولو مقدار فتيل، وأن الموت يدرك كل إنسان ولو تحصن منه فى بروج مشيدة.

جـ- وعلى الدعاة إلى الله أن يغرسوا فى عقول المؤمنين وقلوبهم أن التدين الصحيح يعنى ألا يخشى المؤمن إلا الله، وأن من خشى الناس- لأى سبب من الأسباب- كخشيته لله تعالى فقد أخطأ خطأ مبينا، واختلت عنده رؤية الحقائق واضطربت فى عقله الأمور، فجعل لبعض الناس من الباطشين والجبابرة ما ليس لهم، ودخل بهذا الخلل فى مجال الاعتراض على بعض أوامر الله أو على توقيت هذه الأوامر، وتلك غفلة وضلال عن الحق.

● والحق الذى لاخلاف عليه أن الذى لايخشى إلا الله مجبور منصور مأجور، وأن الذى يخشى الناس كخشية الله متروك مهزوم موزور.

تلك مهمة الدعاة إلى الله يبصرون الناس بهذه الرؤى المختلفة ليكونوا على بينة من دينهم ودنياهم.

د - ومن صميم ما يجب أن يشمر له الدعاة فى تنوير الناس فيه أن الله تعالى يريد لعباده الخير ويأمرهم به، وأنه لا يأمرهم بالشر بحال من الأحوال، فمن أصابه فى هذه الدنيا خير فبحسن الاستجابة إلى أمر الله، فكأنه من الله مباشرة، ومن أصابه شر فبمخالفته لأمر الله ونهيه، فالشر منه شخصياً لأن الله لم يأمره به بل نهاه عنه.

والغافلون عن هذه الحقيقة يقولون: كنا فى خصب ونماء، ثم أصابنا القحط بعد مجىء محمد ﷺ إلى المدينة!!.

وقد كذبوا، فإنما كان الجدب والقحط بمعصيتهم لله تعالى وتحديهم لما جاءهم به محمد ﷺ، وتلك من سنن الله فى خلقه، فعناد الله ورسوله، ونفاق المنافقين قد يؤدى إلى أخذ الناس بالسنين والبأساء والضراء حتى يفيقوا من غفلتهم وضلالهم وسوء فقههم.

وأن الله تعالى قد ينعم على عباده بالخصب والنماء حتى يتيح لهم فرصة شكر الله على نعمه، ولقد حكى القرآن ذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٣].

٤- ويتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ مايلى:

أ- على الدعاة إلى الله أن يبصروا الناس بالحكمة من الطاعة وبخاصة طاعة الله ورسوله وكل من تجب طاعته فى الإسلام كالسلطان والعلماء والوالدين ونحوهم.

والحكمة فى هذه الطاعة ذات شقّين:

أحدهما: الحصول على رضا الله تعالى بالاستجابة لما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه، أى على ثوابه وجنته.

والآخر: حصول الخير والبركة والربح والأمن والطمأنينة لأن كل تلك الميزات يفقدها العاصى (غير المطيع) وينالها الطائع فى الدنيا والآخرة.

● إن الدعاة إلى الله إذا بصروا الناس بذلك قوى إيمانهم وتعمقت معرفتهم بالله وبمنهجه، بل بأنفسهم وبما حولهم من الناس والأحداث.

ب- وعليهم أن يبصروهم بأن النفاق ظاهرة لايخلو منها مجتمع إنسانى تحكمه نظم

وقوانين، وأن المنافقين يظلون فى تحايل على النظم والقوانين بل على الحق نفسه، لأن المنافق لايقبل الحق ولايلتزم به.

● وأن المجتمع المؤمن بالله ورسوله له أسلوبه فى التعامل مع المنافقين الذى أوضحناه آنفا، لكنه مجتمع إنسانى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، لذلك يحرص على عدم فضحهم وإنما يتركهم للزمن والأحداث لعلهم يرجعون عن نفاقهم، ولايخافونهم على أنفسهم ولا على الناس، وإنما يدعون أمرهم لله متوكلين عليه فى هدايتهم، تلك سمات المجتمع المؤمن بالله ورسوله.

جـ- ومن رحمة الله بالناس مؤمنين ومنافقين وكافرين أن أنزل هذا القرآن العظيم على خاتم رسله ﷺ، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم به إلى الصراط المستقيم، لذلك دعاهم إلى التدبر فى هذا القرآن وإطالة النظر فيه للاستفادة مما جاء فيه، وكل ماجاء فيه لصالح الناس لو أخذوا به ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾؟ [محمد: ٢٤] فكلما تدبر الإنسان فى القرآن اهتدى إلى ماينفعه فى دينه ودنياه، وكلما تلا الإنسان القرآن وتعهده أعطاه القرآن من الخير والهدى، والعلم والمعرفة ما يأخذ بيده إلى الحق وإلى الصراط المستقيم.

د - وعلى الدعاة إلى الله أن يفقهوا الناس بأن القرآن الكريم هو المرجع وهو المفزع عندما يحز بهم أمر من الأمور فى أى مجال من مجالات حياتهم، بل فى كل مايختلفون فيه، فمن أراد أن يهتدى إلى الحق فى أى قضية فليرجع إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يجد مايهديه ويرضيه ويرضى عنه رب العالمين، فلقد وصف الله تعالى القرآن الكريم بأن فيه ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وروى الدارمى بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: «... سمعت رسول الله ﷺ يقول: ستكون فتَنٌ، قلت: وما المخرج منها؟ قال: «كتاب الله...».

● ومن أراد لنفسه ولدينه ودنياه الخير كل الخير فلا يتعجل الحديث ولايتعجل الحكم على شىء ولاعلى أحد، وإنما يتأنى ويتثبت ويستوثق، وإلا وقع فى الإرجاف وإطلاق الشائعات وذلك ضرر بالغ.

● والعاقل من تحدث ببعض مايعلم لابكل مايعلم فقد روى مسلم بسنده عن أبى هريرة

رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ماسمع».

- إن تلك الدروس لايجيد عرضها والإقناع بها وبجدواها مثل الدعاة إلى الله، فهم علماء الأمة وأمناؤها وأكثر الناس حرصا على حاضرها ومستقبلها.

٥- ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً (٨٤) مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ مايلى:

أ- أن القادة والرؤساء والأمراء والعلماء وكل أصحاب السلطان مطالبون بأن يباشروا القتال بأنفسهم ماداموا قادرين عليه، وأن عليهم أن يتخذوا من أسباب الحيطة والحذر لأنفسهم وللمقاتلين من المؤمنين كل مايستطيعون.

- وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم كانوا يقاتلون بأنفسهم ويتعرضون كسائر المسلمين لأخطار الحرب وأهوالها، وأن ذلك واجب كل صاحب سلطة من المسلمين.

- إن القادة والرؤساء لو فعلوا لقاربوا بينهم وبين من يقودون ويرأسون، ولم يحس الناس بالتميز الذى يحسون به للقادة والرؤساء.

- وتلك ميزة فى النظام الإسلامى يطالب الرئيس بمايطالب به المرءوس، ويشعر جميع الناس أنهم نسيج واحد وأن التفاضل بينهم بالتقوى فقط.

ب- وعلى الدعاة إلى الله أن يفقهوا المسلمين رؤساء ومرءوسين بأن تكاليف الجهاد فى سبيل الله تكاليف شخصية إذ هى عبادة كالصلاة والصوم والزكاة، لايسقط فرضيتها مكانة أوجاه أو سلطان أو رئاسة، أو قرابة من الملوك والقادة، لأن الدين دين الجميع والوطن وطن الجميع والعدو عدو الجميع، فالقتال إذن واجب الجميع، لايجوز أن يتخلى عنه أحد إلا لعذر شرعى تقبله نظم الإسلام وأحكام الجهاد.

جـ- وعلى الدعاة إلى الله أن يزيدوا المسلمين فقها وفهما بمنزلة الجهاد فى سبيل الله بين فرائض الإسلام.

- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سُئل رسول الله ﷺ: أى العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «بر الوالدين».

وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: مَرَّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «لاتفعل، فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاما، الا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا فى سبيل الله، من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة».(١)

د - وعلى الدعاة أن يوثقوا مابين المسلمين من صلات بتوجيههم بأن يكون بعضهم فى خدمة بعض، أى يشفع بعضهم فى كل ما من شأنه أن يحقق مصلحة مشروعة لأحد المسلمين أو يدفع ضررا، لأن من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها.

ولما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ماشاء».

هـ - وعلى الدعاة إلى الله أن يعلموا المسلمين أن الإسلام دين السلام وأن تحيته السلام، وأن السلام اسم من أسماء الله تعالى، وأن المسلم يجب أن نفشى السلام وأن يلقيه على من عرف ومن لم يعرف.

● وأن أفضل أنواع التحية هى: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومن معانيه السلامة من الآفات والبليات، ولاشك أن السعى فى تحصيل الصون عن الضرر أولى من السعى فى تحصيل النفع.

---

(١) انظر لنا: ركن الجهاد الحلقة الرابعة من سلسلة فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا- نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

وقد روى ابن ماجة بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وكونوا إخوانا كما أمركم الله».

وروى الحاكم بسنده عن أبى موسى- رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفشوا السلام بينكم تحابوا». وروى الطبرانى فى الكبير بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفشوا السلام كى تعلوا».

- إن على الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يغرسوا فى نفوس الناس وعقولهم أن الله تعالى لم يخلق الناس عبثا، وإنما خلقهم ليعبدوه وفق ما شرع، وأنه سبحانه محاسبهم على أعمالهم، ومجازيهم عن الخير خيرا وعن الشر بمثله، فهو سبحانه الحسيب الحفيظ المقيت المجازى بالجنة أو بالنار، فهو يجمع الناس ليوم لاريب فيه.

- وكل تلك الدروس يستفيدها الناس من هذه الآيات الكريمة، فيتعلم منها الأفراد والجماعات والقادة والعلماء كل فى مجال عمله أو دعوته أوحركته أوجهاده فى سبيل الله وذلك من نعمة الله على الناس ومن بركة القرآن الكريم.

١١ - الآيات الكريمة من الآية الثامنة والثمانين إلى الآية الرابعة والتسعين

أسلوب التعامل مع المنافقين والكافرين

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٨٩) إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلائِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (٩١) وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

- اشتملت هذه الآيات الكريمة على استفهامين إنكاريين:

الأول: استفهام غرضه الإنكار على المؤمنين فى اختلافهم فى شأن المنافقين الذين رجعوا بثلث الجيش المسلم الذى كان متوجها إلى أحد؛ وهم عبد الله بن أبى بن سلول وجماعته، حيث اختلف المسلمون فى شأنهم، فقالت فئة من المسلمين: نقتلهم، وقالت فئة أخرى: لا نقتلهم لأنهم مسلمون فى الظاهر والله يتولى سرائرهم.

والآخر: استفهام غرضه الإنكار على المؤمنين- أيضاً- فى أن يهدوا من أضلهم الله تعالى عن الإيمان لعلمه تعالى بأن سيكون منهم ذلك.

كما اشتملت الآيات الكريمة على سبعة أخبار تضمن كل واحد منها حكما شرعيا مقررا فى الإسلام وهى:

الأول: إخبار بأن الله تعالى علم منذ الأزل أن المنافقين يعصون الرسول ﷺ، ويتبعون الباطل، فردّهم وطردهم بسبب فعلهم فارتكسوا.

والثانى: إخبار بأن من أضله الله تعالى فلا سبيل إلى خلاصه من الضلال ولا إلى دخوله فى الإيمان- لعلم الله المسبَّق به.

والثالث: إخبار بأن المنافقين يرغبون فى أن يضل المؤمنون عن الحق وعن اتباع الرسول ﷺ ليكونوا مثلهم، وذلك لتأصل عداوة المنافقين للمؤمنين.

والرابع: إخبار بأن الله تعالى لم يجز للمسلمين أن يقتلوا الذين عقدوا لهم مواثيق أو دخلوا فى ميثاق من عقدوا لهم مواثيق. كما لم يجز للمسلمين قتل المنافقين.

والخامس: إخبار بأن الله تعالى أوجب على المسلمين أن يقتلوا أو يأسروا من أعلن الحرب على المؤمنين ولم يكف عن قتالهم.

والسادس: إخبار يقرر حكم قتل المؤمن لأخيه المؤمن خطأ، وبيان وجوب الدية ومايصاحبها.

والسابع: إخبار يقرر حكم قتل المؤمن لأخيه المؤمن عمدا وهو خلوده فى النار مع لعنه وغضب الله عليه.

كما اشتملت الآيات على نوعين من النهى:

الأولى: هو النهى عن اتخاذ المنافقين أولياء أو نصراء، حتى يهاجروا فى سبيل الله أى أن يقوموا بعمل يقطع النفاق كالهجرة ونحوها.

والآخر: النهى عن اتخاذ الكافرين والمنافقين أولياء ماداموا قد رفضوا الهجرة ومطالبة المؤمنين بقتلهم وأسرهم...

● **تفصيل القول فى شرح هذه الآيات الكريمة وتفسيرها:**

-﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ

اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ .

● وفى سبب نزول هذه الآية الكريمة أقوال :

● قال ابن عباس رضى الله عنهما : نزلت فى قوم أظهروا الإسلام بمكة وكانوا يعينون المشركين على المسلمين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس .

غير أن المؤمنين لـمَّا أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة، قالت طائفة منهم: اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم .

وقالت طائفة من المؤمنين: سبحان الله أتقتلون قوما قد تكلموا بمثل ماتكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم؟ أنستحل دماءهم وأموالهم؟ .

والرسول ﷺ يستمع إلى كل طائفة من المؤمنين، ولاينهى أحدا عن شىء، فنزلت هذه الآية الكريمة: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ .... ﴾ .

● وقال بعض العلماء: نزلت فى قوم قدموا على النبى ﷺ مسلمين، فأقاموا بالمدينة ماشاء الله، ثم قالوا: يارسول الله نريد أن نخرج إلى الصحراء فأذن لنا، فأذن لهم، فلما خرجوا لم يزالوا يرحلون مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين. فتكلم المؤمنون فيهم فقال بعضهم: لوكانوا مسلمين مثلنا لبقوا معنا، وصبروا كما صبرنا، وقال قوم: هم مسلمون وليس لنا أن ننسبهم إلى الكفر إلى أن يظهر الله أمرهم، فبيَّن الله تعالى نفاقهم فى هذه الآية .

● وروى الإمام أحمد بسنده عن زيد بن ثابت رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج إلى أُحُد ، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا .. هم المؤمنون، فأنزل الله: « فما لكم فى المنافقين فئتين » فقال رسول الله ﷺ : « إنها طيبة، وإنها تنفى الخبث كما ينفى الكِيْر خبث الحديد » .

وأخرجه البخارى ومسلم بسنديهما من حديث شعبة .

- ﴿ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ﴾ أى ردّهم بسبب أعمالهم إلى أن يطبق عليهم أحكام الكفار من السبى والقتل وسائر مايجرى على الكفار، فهو سبحانه قد كشف نفاقهم فى هذه الآية وأجرى عليهم حكم الكفار .

- ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ .

والمعنى أنَّ من أضله الله عن الدين- بسابق علمه أن سيضل- فلا سبيل إلى أن يهديه أحد، فيعامله معاملة المؤمن، وكأنّ فى ذلك ردًّا على من قالوا: هم مؤمنون وليس لنا أن نقاتلهم.

- ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾.

والمعنى أن هؤلاء المنافقين يودّون للمؤمنين الضلال ليكونوا مثلهم، وماذاك إلا لشدة عداوتهم للمؤمنين وعظم كراهيتهم للإيمان، واستحبابهم الكفر.

- ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

وفى هذه الآية الكريمة نهى للمؤمنين عن اتخاذ هؤلاء الكفار المنافقين أولياء، ولا توادُّوهم- وهذا أصل من أصول الدين الراسخة التى لاتتغير بتغير الزمان والمكان- وكما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]

● وإنما يجوز للمسلم أن يوالى ويوادّ من أسلم من هؤلاء الكفار وهاجر.

وقد كانت الهجرة إلى دار الإسلام (المدينة) شرطا مكملا للإسلام، فلما فتح الله على المسلمين مكة ألغى شرط الهجرة، لمارواه مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لاهجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا».

ورواه أحمد والنسائى والترمذى بأسانيدهم عن ابن عباس رضى الله عنهما.

● والهجرة نوعان:

- هجرة فى سبيل الله، وهى الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام والهجرة من أعمال الكفر إلى أعمال الإسلام، وهؤلاء هم الذين يوالَوْن ويوادّون.

- وهجرة لغير سبيل الله أى لغرض من أغراض الدنيا، وهى هجرة تحبط العمل وتفسده، ولاتبيح للمسلمين موالاة هؤلاء ولاموادتهم.

- ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ

يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ .

هاتان الآيتان الكريمتان توضحان للمسلمين أسلوب التعامل مع الكفار والمنافقين الذين رفضوا الهجرة.

والمعنى: أنّ من أعرض من هؤلاء عن الهجرة إلى المدينة- أيام كانت الهجرة فرضا قبل فتح مكة- فخذوهم إذا قدرتم عليهم واقتلوهم أينما وجدتموهم فى الحِل أو فى الحرم، ولايجوز أن تتخذوا منهم ولياً يتولى شيئاً من أموركم ولانصيرا ينصركم على أعدائكم.

● ويستثنى من هؤلاء الذين أبيح قتالهم صنفان:

الأول: الذين دخلوا فى عهد قوم كانوا داخلين فى عهد المسلمين. وقد كان رسول الله ﷺ قد وادَع الاسلميين قوم هلال بن عويمر الاسلمى، على ألا يعصونه ولايعينون عليه عدوا.

وقيل عاهد بنى بكر بن زيد مناة.

وقيل: هم خزاعة وخزيمة من بنى عبد مناة.

والثاني: الذين ضاقت صدورهم عن قتال المؤمنين وعن قتال قومهم، جبنا أو بخلا، فهؤلاء لايتعرض المؤمنون لهم بقتال، لأنهم ليسوا مع المؤمنين ولاعليهم.

● هؤلاء الناس – أى هذان الصنفان – لو شاء الله لسلطهم عليكم بتقوية قلوبهم ليدفعوا عن أنفسهم لو قاتلتموهم، فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلام، فكيف يحل لكم أن تقاتلوهم؟.

– ﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ .

هذه الآية الكريمة تتحدث عن حكم التعامل مع طائفة من الكفار والمنافقين من حيث

وهؤلاء إما ان يكونوا من المنافقين الذين يظهرون للنبى ﷺ وأصحابه الإسلام ليأمنوا على دمائهم وأموالهم وذراريهم، وهم فى الوقت نفسه يصانعون الكفار فى الباطن ليأمنوهم على أنفسهم وأموالهم وذراريهم.

فهؤلاء يأتون إلى الرسول ﷺ مظهرين الإسلام ثم يأتون إلى الكفار فيرتكسون فى الشرك والكفر.

● وحكم هؤلاء هو قتالهم وقتلهم أو أسرهم مالم يعتزلوا حرب المسلمين، ويهادنوهم ويكفوا أيديهم عن قتالهم.

- ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَن لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

● هذه الآية الكريمة توضح جزاء أنواع القتل إن وقع من المؤمن نحو مؤمن، وهو ثلاثة أنواع:

الأول: أن يقتل مؤمنا خطأ، وقوم القتيل مؤمنون. والجزاء هو: تحرير رقبة مؤمنة، ودية تسلم إلى أهل القتيل، إلا أن يتنازل أولياؤه عن الدية.

والثانى: أن يقتل مؤمنا خطأ، وقوم القتيل كافرون. والجزاء هو تحرير رقبة فقط ولادية تؤدى إلى الكفار.

والثالث: أن يقتل مؤمنا خطأ، ولكنه من قوم بينهم وبين المسلمين عهد وذمة وهدنة.

والجزاء هو: تحرير رقبة مؤمنة، وأداء الدية كاملة إلى أهله.

● فإن كان المقتول كافرا، ومن قوم لهم عهد وذمة عند المسلمين فالجزاء هو تحرير رقبة مؤمنة، وأداء نصف الدية إلى أهله عند بعض العلماء، لأن دية الكافر على النصف من دية المؤمن، وبعض العلماء يقولون: أداء ثلث الدية فقط.

● وعندما يعجز القاتل عن عتق رقبة مؤمنة، فإن عليه أن يصوم شهرين متتابعين، فإن عجز

عن الصيام كان له أن يطعم ستين مسكينا أكلتين مشبعتين.

ويرى بعض العلماء أن القاتل لايجوز له الإطعام.

● فإن فعل القاتل ذلك وتاب فقد تاب الله عليه.

هذا هو الحكم الشرعى فى قتل مؤمن مؤمنا خطأ، بغض النظر عن سبب نزول الآية، لأن العبرة كما قلنا- غير مرة- بعموم اللفظ لابخصوص السبب.

- ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾

هذه الآية الكريمة فى جزاء من قتل مؤمنا عمدا، وهو أشد جزاء وأقساه، وهو خلود القاتل فى نار جهنم مع غضب الله تعالى عليه ولعنه إياه، وكل ذلك إذا اجتمع فهو العذاب العظيم الذى أعدّه الله لمن قتل مؤمنا عمداً.

وقسوة هذا الجزاء إنما كانت لدرء هذا القتل، لتهديده بأشد مايهدد به إنسان، لأن قتل المؤمن من أكبر الجرائم وأكبر الكبائر، وأسوأ مايلقى الإنسان ربه به بعد الشرك به سبحانه هو أن يلقاه بدم حرام.

● وحسب هذه الجريمة أنها مقرونة بالشرك بالله تعالى فى آيات عديدة من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ [الفرقان: ٦٨]، وقوله جل شأنه: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١٥١].

● كما دلت السنة النبوية على بشاعة هذه الجريمة وبشاعة جزائها:

فقد روى أبو داود بسنده عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لايزال المؤمن معنقا(١) صالحا مالم يصب دمًا حراما، فإذا أصاب دماً حراما فقد بَلَّح» (٢).

---

(١) أى مسرعا نشطا فى سيره.

(٢) أى أعيا وانقطع وعجز عن السير.

وروى الترمذى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم».

وروى أحمد بسنده عن معاوية رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره، إلا الرجل يموت كافرا أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا».

- على أن النفس التى أجاز الله قتلها قصاصا أو حداً، لايترك أمر قتلها للناس، وإنما ذلك حق الدولة والمجتمع ومايفوض فيه الحاكم المسلم من تطبيق منهج الله ونظامه، وإلا صارت الأمور فوضى وفاتت حرمة النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق.

– ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

- وهذه الآية الكريمة تتضمن أمراً للمسلمين إذا خرجوا غازين فى سبيل الله الا يبدأو بقتال أحد، فضلا عن قتله حتى يثبتوا أمره وحاله، وأن يكتفوا بظاهر حاله عندما يعلن أنه من المسلمين، فهذه الكلمة حتى وإن كانت من لسانه؛ تكفى لتحريم دمه واعتباره من المسلمين.

هذا هو الهدف الذى تريده هذه الآية الكريمة وهو: تحريم دم من أعلن أنه من المسلمين.

- وأما سبب نزول هذه الآية الكريمة فهو أن سَرِيةً من سرايا المسلمين لقيت فى طريقها رجلا معه غنيمات، فلما رأى المسلمين أعلن إسلامه، غير أن أحد المسلمين لم يصدقه فى دعواه الإسلام ظانا به أنه يعلن ذلك لينجو– فقتله.

فلما عادت السرية إلى رسول الله ومعهم الغنيمات، أخبرهم ﷺ بأنهم ما كان لهم أن يقتلوه وقد أعلن إسلامه. ونزلت هذه الآية الكريمة.

- **المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة:**

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة كثيرا من الدروس والقيم التربوية التى تفيدهم فى ذوات أنفسهم فيستقيمون بها على الجادة التى تهديهم إلى الحق والخير والهدى، وتفيدهم فى تعاملهم بعضهم مع بعض، وتفيد فى تنظيم المجتمع وضبطه مع أهداف

الشريعة السمحة، بل تفيد المجتمع كله فى توقيع الجزاء على من يرتكب مخالفة أوضح الله فيها حداً أو قصاصا.

فضلا عما يفيدهم من معرفة الاسلوب الأمثل فى التعامل مع الكافرين والمنافقين.

وعلى سبيل المثال:

١- يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٨٩) إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلائِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ مايلى:

أ- أن التعامل مع المنافقين يجب أن يكون على ظاهر أمرهم، لاعلى حقيقة مايؤمنون به، لان ذلك لايعلمه إلا الله تبارك وتعالى، لان القاعدة العامة فى التعامل مع المنافقين هى: «لنا الظاهر والله يتولى السرائر».

ب- وأن من ظهرت عليه أمارة من أمارات النفاق الكبرى مثل موالاته الكفار، وعدائه المسلمين ونحو ذلك، عومل معاملة الكافر، لانه بهذه الأمارات قد أفصح عن نفسه ولم يعد مظهراً خلاف مايبطن.

جـ- وأنّ صفات المنافقين فى هذه الآيات الكريمة، أهمها:

-أنهم يحبون الشر للمسلمين، وعلى رأس الشرور الكفر فهم يحبونه للمؤمنين ليصبحوا مثلهم، وأنهم بالتالى يكرهون أى خير يناله المسلمون.

- وأنهم يعملون على تفريق كلمة المسلمين وتمزيق صفوفهم.

- وأنهم يوالون الكفار والمشركين ويتظاهرون بموالاة المسلمين.

- وأنهم يعينون أعداء المسلمين على المسلمين.

– وأنهم يفضلون العيش بين ظهراني الكافرين والمشركين.

– وأنهم يحبون أن تشيع البغضاء والفاحشة بين المسلمين.

– وأنهم يتقولون على المسلمين ويصفونهم بماليس فيهم.

د – وأن المؤمن لايجوز له أن يتخذ المنافق وليا أو صديقا، فالمنافق في ذلك والكافر سواء، وفي الالتزام بهذا الخلق تنقية لصفوف المسلمين من أعدائهم من المنافقين والكافرين وأمان لهم من غدر المنافقين وفجور الكافرين.

هـ– وأن التعامل مع أعداء الله والإسلام والمسلمين من المشركين والكفار والمنافقين هو التعامل مع المحاربين، إذ يحوز للمسلمين أن يقتلوهم أو يأسروهم.

لكن من سالم المسلمين منهم بعهد أو ميثاق عامله المسلمون معاملة المسالمين المعاهدين.

و– وأن المسلم يجب عليه أن يحترم العهد والميثاق الذي بينه وبين غيره من الناس، ولا يجوز له نقض عهد إلا إذا أيقن أن عدوه ناقضه، وأن من دخل في عهد معاهد للمسلمين وجب على المسلمين رعاية عهده واحترام ميثاقه.

ز– وأن مَنْ اعتزل قتال المسلمين ورفض معونة أعدائهم عليهم، لايجوز للمسلمين قتاله أو أسره، فإن عاد إلى حرب المسلمين ومظاهرة عدوهم عليهم جاز قتله أو أسره– كما أوضحنا– وذلك أن الله تعالى جعل للمسلمين سلطانا على من حاربوهم وأعانوا عليهم أعداءهم.

٢– ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ مايلي:

أ- أن المؤمن لايجوز له أن يقتل مؤمنا متعمدا بحال من الاحوال، لان دم المسلم حرام على المسلم وعلى المجتمع وعلى الدولة إلا فى أحوال ثلاث:

- الردة بعد الإيمان بشرط الاستتابة.

- والزنى بعد الإحصان بشرط الإقرار أو الشهود.

- والنفس بالنفس فمن قتل يُقتل.

غير أن الذى يعهد إليه بقتل من استحق القتل هو حاكم المسلمين الذى يطبق شرع الله، وليس أى أحد من المسلمين مهما كانت مكانته، إلا من يأذن له الحاكم فى تنفيذ ذلك.

فقد روى البخارى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله: إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

ورواه مسلم والترمذى وأبو داود والنسائى وابن ماجة وأحمد ومعظم علماء السنة بأسانيدهم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

ب- وأن من قتل مؤمنا خطأ فإن عليه أن يعتق رقبة مؤمنة

- وفى هذه العقوبة تحرير لنفس مؤمنة من ربقة العبودية.

كما أن عليه أن يدفع دية إلى أهل القتيل إلا إذا تنازلوا عنها.

وقد أوضحنا- ونحن نشرح الآية- أنواع القتل وعقوبة كل نوع ومتى تجب الدية ومتى لاتجب، وأوضحنا موقف من يعجز عن تحرير رقبة مؤمنة.

جـ- وأن هذه الدية يجب أن تتحملها عاقلة القاتل أى أسرته الكبيرة قبيلته وجماعته- وفى هذا من التكافل والتعاون مايوثق الروابط بين أبناء الاسرة الواحدة ومايكون سببا فى ردع من يرتكب جريمة قتل تدفع فيها دية لان أحدا لايرضيه أن يخسر ماله.

وعندما لاتؤدى العاقلة الدية عن القاتل من أبنائها بسبب من الاسباب التى يقبلها حاكم المسلمين، فإن حق أهل المقتول لايسقط، وإنما يؤديه عن العاقلة بيت مال المسلمين.

د – وأن من وقع فى جريمة القتل خطأ فحرر رقبة وأدى الدية فقد كَفَّر عن جريمته وتاب عنها، ويرجى أن يتقبل الله توبته ويغفر جريمته إذا تمت التوبة بشروطها.

هـ- وأما من قتل مؤمنا على سبيل العمد فهذا إنسان لا يستحق أن يعيش فى المجتمع فيجب قتله قصاصا دون أى تهاون مادامت الجريمة قد ثبتت فى حقه، ثم له عند الله أشد الجزاء وهو خلوده فى النار مع غضب الله عليه.

و- وأنه فى الحرب لايجوز لمسلم أن يقتل رجلا أعلن إسلامه ونطق الشهادتين، لأن ذلك وحده كاف لعصمة دمه، لأن القلوب والحقائق الكامنة فيها لايطلع عليها إلا الله سبحانه وتعالى.

ز- وأن هذه التشريعات الإسلامية إنما تستهدف استقرار المجتمع وإحقاق الحق وسيادة العدل، وشيوع الأمن بين الناس.

وكل هذه التشريعات إنما جاءت من لدن عالم بمايصلح الناس فى معاشهم ومعادهم، حكيم فى أن يختار لهم الأنفع والأصلح، فهو من عند الله رب العالمين.

● **المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة بهذا الدين فى الناس وفى الآفاق**: وهى كثيرة ونافعة للدعاة إلى الله بحيث لو لم يعرفوها ما استطاعوا أن يمضوا فى طريق الدعوة إلى الله، ولا فى خطوات الحركة بهذا الدين فى الحياة، ومن أمثلة ذلك ما نوضحه فيما يلى:

١- يتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٨٩) إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (٩١)** ﴾ مايلى:

أ- أنّ من طبيعة الناس أن يختلفوا حول القضايا والمسائل التى تحيط بهم وتتصل بحياتهم سواء منها ما كان متصلا بأمور الدين أو بأمور الدنيا.

● والمؤمنون من بين الناس جميعا مطالبون بأن تكون لهم رؤية جيدة ودقيقة ومنصفة فى كل تلك الأمور، وبخاصة فى موقفهم من المنافقين، حيث ينبغى أن يكون هذا الموقف موحدا لايشجع على اختلاف بين المؤمنين فى شأن المنافقين. وإنما عليهم أن يكونوا فيهم على نهج واحد، لاعلى فئتين كما كانوا، فأنكر الله عليهم ذلك.

وتلك مهمة الدعاة إلى الله أن يقربوا بين وجهات النظر وأن يحاولوا إيجاد الرأى المشترك والفكر الموحد، بما آتاهم الله من علم وما منّ عليهم به من حكمة.

ب- وأنّ من الناس ناسا يضلون عن الإيمان، ويؤثرون الكفر أو النفاق، مخالفين بذلك ما أمر الله به داخلين فى معصيته سبحانه وتعالى.

هؤلاء المخالفون العصاة لايستطيع أحد أن يدخلهم فى ساحة الإيمان، لأن الله تعالى علم عنهم أنهم لايؤمنون ولايهتدون، فعلى الدعاة إلى الله ألا يضيعوا معهم الوقت وإنما هى النصيحة والكلمة الطيبة وربما الجدال بالتى هى أحسن، إذ لا يستطيع أحد أن يهدى من أضله الله، وما على الدعاة إلى الله إلا الدعوة والبلاغ، وما على الحركيين إلا واجب الحركة بالدين وبكلمته وسلوكه فيهم، والأمر بعد ذلك لله تعالى، مع وجوب التدبر فى قوله تعالى: ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾.

جـ- وأنّ واجب الدعاة إلى الله أن يحذروا الناس من الكفار والمنافقين ومن مكرهم وفجورهم ومحاولاتهم المستميتة فى أن يَجُرّوا المؤمنين إلى الكفر والنفاق حتى يصبحوا مثلهم كراهية منهم للإيمان والمؤمنين، وحبا فى تحدى الله تعالى ورسوله ومنهجه.

وأن هذا الحذر منهم يجب أن يكون بأمور أمرت بها شريعة الإسلام وهى:

- رفض اتخاذهم أولياء أو نصراء فى أى موقف.
- ورفض اتخاذ الأولياء والنصراء من الملحدين والفاسقين والمجاهرين بالمعاصى والعلمانيين الذين لايرون للدين وظيفة فى الحياة فهؤلاء أكثر خطرا على المؤمنين من المنافقين. ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً ﴾.
- واستمرار المعركة بين الإيمان والكفر عمل يغذى الإيمان ويقويه ويضعف الكفر ويوهيه، وبغير هذه المعركة المستمرة لايتميز معسكر الإيمان عن معسكر الكفر، ولا تتبين للمؤمنين

معالم طريقهم نحو سيادة شرع الله ونظامه وما تضمنه هذا الشرع من عدل وإحسان وبرّ وتعظيم لحرمة الإنسان.

د - وعلى الدعاة إلى الله أن يفقهوا الناس بمفهوم الهجرة، وأنها بعد فتح مكة أصبحت جهادا ونية وهجراً لما نهى الله عنه، أو هجراً للإقامة بين ظهرانى المشركين وحبا للإقامة بين ظهرانى المؤمنين.

● أى أن الهجرة نوعان:

- هجرة مكان يسود فيه الشرك والكفر.

- وهجرة العمل السيئ إلى العمل الصالح أى هجرة الخطايا والذنوب، فقد روى ابن ماجة بسنده عن فضالة ابن عبيد رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: « .... والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب ».

هـ- وفى سبيل تحرير مفهوم الهجرة، يجب على الدعاة إلى الله أن يقفوا طويلا وأن يتدبروا فى حديث نبوى عظيم رواه النسائى عن فضالة بن عبيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيم لمن آمن بى وأسلم وهاجر؛ ببيت فى ربض الجنة وبيت فى وسط الجنة، وبيت فى أعلى غرف الجنة، وأنا زعيم لمن آمن بى وأسلم وجاهد فى سبيل الله ببيت فى ربض الجنة وبيت فى وسط الجنة، وبيت فى أعلى غرف الجنة، فمن فعل ذلك لم يدع للخير مطلبا، ولا من الشر مهربا، يموت حيث شاء أن يموت ».

● إن وقفة الدعاة إلى الله عند هذا الحديث الشريف وأمثاله مما يستطيعون أن يجدوه فى كتب السنة [1] يجب أن تركز على المعانى العميقة لتلك الكلمات الغنية الواسعة المفهوم والدلالة وهى كلمات:

الإيمان.

---

(١) انظر فى ذلك من كتب السنة:

- صحيح البخارى: كتاب الإيمان وفيه اثنان وأربعون بابا، وكتاب الجهاد والسير وفيه: مائة وتسعة وتسعون باباً.

- وصحيح مسلم: كتاب الإيمان وفيه: سبعون باباً، وكتاب الجهاد والسير وفيه: واحد وخمسون باباً.

- وسنن أبى داود: كتاب الملاحم وفيه: ثمانية عشر بابا

- وسنن الترمذى: أبواب الإيمان وفيه: ثمانية عشر بابا، وغيرها من كتب السنة.

والإسلام.

والهجرة.

والجهاد فى سبيل الله.

و- وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أنه يستثنى من معركة الإيمان والكفر أصناف من الناس هم:

- الذين بينهم وبين المسلمين عهد أو ميثاق.

- والذين يتصلون أو يلجأون إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد أو ميثاق.

- والذين يسالمون المسلمين ولايعينون عليهم عدوا وإن بقوا على كفرهم.

فهؤلاء لايقاتلون لان الإسلام يحترم العهود والمواثيق.

ز- وعلى الدعاة إلى الله أن يؤكدوا للناس أن المؤمنين إذا قاتلوا الكافرين ومن يجب قتالهم من أعداء الإسلام مخلصين نواياهم فى هذا القتال قاصدين وجه الله ومجاهدين فى سبيله فإن الله تعالى ناصر المؤمنين على أعدائهم وجاعل لهم سبيلاً وسلطانا عليهم، وحسب الدعاة إلى الله فى هذ التأكيد أن يقفوا متدبرين فى قوله الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الروم: ٤٧] فتلك سنة الله تعالى التى لاتتخلف أبداً.

٢- ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** ﴾ ما يلى:

أ- أنّ أعظم الحرمات هي قتل المؤمن خطأ، لذلك كانت عقوبة هذه الجريمة من أشد العقوبات وأكثرها تنوعا، وأوسعها مدى، ففيها: تحرير رقبة مؤمنة، وفيها: دية تسلم إلى أهل القتيل تتحملها عائلة القاتل فتغرم هذا القدر الكبير من المال[1]، وفيها : توبة عن هذا القتل الخطأ، وفيها لمن لم يجد ما يحرر به رقبة مؤمنة: صيام شهرين متتابعين يتذكر في كل يوم يصومه أنه قتل مؤمنا خطأ؛ فيجدد التوبة.

● وعلى الدعاة إلى الله أن يذكروا الناس بأن حرمة دم المؤمن أعظم عند الله من كل شيء حتى من الكعبة المشرفة وأن يقفوا معهم طويلا عند قول رسول الله ﷺ فيما رواه ابن ماجة بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك: ماله ودمه وأن نظن به إلا خيرا».

إن هذا الحديث الشريف دستور كامل فى حقوق المسلم على الناس والمجتمع والدولة، فهل يعى ذلك من ينتهكون حقوق المسلمين من المسلمين؟ اللهم غفرانك.

ب - وعليهم أن يوضحوا للناس أن قتل المؤمن عن عمد ليس له كفارة أبداً[1] وإنما هو الخلود فى النار وغضب الله تعالى عليه ولعنته إياه.

جـ- وعلى الدعاة إلى الله أن يؤكدوا للناس أن منهج الإسلام ونظامه يقيم أكبر وزن لكرامة الإنسان المتمثلة فى الحفاظ على نفسه وعرضه وماله وإنسانيته كلها، وأن المساس بشيء من ذلك جريمة كبرى يعاقب الله تعالى عليها أشد العقاب فى الدنيا وأقساه فى الآخرة.

---

(١) كانت الدية تقدر فى الماضى بمائة من الإبل، وهى تقدر الآن بما يساوى ثمن مائة من الإبل.

١٢ - الآيات الكريمة من الآية الخامسة
والتسعين إلى الآية الرابعة بعد المائة
الجهاد فى سبيل الله فرض على كل قادر عليه
ونظام صلاة الخوف أو الحرب

﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٩٦) إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٠) وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١) وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

● اشتملت هذه الآيات الكريمة على تعليم المسلمين أمور دينهم فيما يتصل بالجهاد فى سبيل الله تعالى، وأحكامه وآدابه، ونظام الصلاة فى الحرب أو فى الخوف.

ومن ذلك:

أولاً: إخبار المؤمنين بأن الذين يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أفضل عند الله من القاعدين أولى الضرر، وإن كان للنوعين عند الله تعالى درجة حسنى وإن اختلف الأجر.

ثانياً: وإخبارهم بأن المؤمنين الذين لايهاجرون من بين ظهرانى المشركين مخطئون آثمون ماداموا قادرين على الهجرة من دار الكفر، فإن عجزوا عن الهجرة لأنهم مستضعفون، أو لا يجدون حيلة للخروج، أو لا يهتدون إلى سبيله، فعسى الله أن يغفر لهم بقاءهم بين ظهرانى المشركين.

ثالثاً: وإخبارهم بأن من عقد النية على الهجرة فى سبيل الله، فإن الله تعالى سوف ييسر له ملجأ، وفرصة رزق ويعوضه عن البقاء بين ظهرانى المشركين، ويهيئ له من أسباب الهدى مايشاء، فإن مات وهو فى طريق هجرته فقد وقع أجره على الله وهو والمجاهد فى الأجر سواء.

رابعاً: وتعليم من الله تعالى للمؤمنين كيف يصلون صلاة الحرب أو صلاة الخوف، ومانظامها وماشروطها؟.

- وقد تضمنت الآيات الكريمة إلى جانب ذلك أوامر عديدة منها ما نشير إليه بإيجاز فيما يلى:

أولاً: وجوب أخذ الحذر دائماً.

ثانياً: ووجوب ذكر الله على كل حال.

ثالثاً: ووجوب إقامة الصلاة على مواقيتها.

- وفى الآية الكريمة الأخيرة من هذه الآيات نهى للمؤمنين عن الفتور أو القعود عن متابعة الكافرين وتتبعهم ومحاربتهم مهما تكلف ذلك العمل من مشقة، لأن أجر ذلك على الله، بينما الوزر على الكافرين بما كفروا.

- **تفصيل القول فى شرح هذه الآيات الكريمة:**

﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

المعنى -والله أعلم- أن الذين يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وفى الحقيقة من الذين أباحت لهم الأعذار-كالعمى والعرج والمرض وغيرها من

الضرورات- ترك الجهاد والقعود عنه.

على أن أصحاب الاعذار ماجورون كذلك، لكن بأجر أقل من أجر المجاهدين، فقد روى البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيراً ولاقطعتم من واد إلا وهم معكم فيه» قالوا: وهم بالمدينة يارسول الله؟ قال: «نعم حبسهم العذر».

- ومن المعروف أن الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال فرض كفاية إلا إذا تحول إلى فرض عين عندما يحدث عدوان على المسلمين أو الاستجابة للنفير العام.

- والمجاهدون والقاعدون عن الجهاد بعذر مقبول لهم عند الله الأجر والمثوبة ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ غير أن الذين مارسوا الجهاد عمليا لهم أجر أكبر وأعظم، وتلك درجات يمنحها الله لمن يشاء من عباده ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾.

وقد روى البخارى بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض».

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

- نزلت الآية الكريمة الأولى فى قوم أسلموا وأقاموا بمكة ولم يهاجروا إلى المدينة يوم كانت الهجرة فرضا على كل مسلم، فاستحقوا عقاب الله تعالى لإخلالهم بفرض من فروضه، ومات كثير منهم على الكفر يوم بدر.

قال ابن إسحق: «وكان الفتية الذين قتلوا ببدر فنزل فيهم القرآن كما ذكرنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ فتية مسمَّين وهم:

الحارث بن زمعة، وأبو قيس بن الفاكه، وأبو قيس بن الوليد، وعليّ بن أمية، والعاص بن منبه، وذلك أنهم كانوا أسلموا ورسول الله ﷺ بمكة، فلما هاجر ﷺ إلى المدينة حبسهم آباؤهم وعشائرهم بمكة وفتنوهم فافتتنوا، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر فأصيبوا به جميعا».

- وعلى الرغم من نزول هذه الآية فى شأن قوم بأعيانهم إلا ان الآية عامة فى كل من أقام بين ظهرانى المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بإجماع العلماء.

- ولايستطيع من تركوا الهجرة وكانوا قادرين عليها أن يعتذروا بالضعف والعجز، لأن الردّ عليهم هو: أن أرض الله واسعة فلم لم تهاجروا فيها؟ وما كان لكم أن تبقوا فى دار الشرك والكفر لأن ذلك مما حرم الله على المؤمنين بهذه الآية الكريمة، وبما رواه أبو داود بسنده عن سمرة بن جندب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله».

- وممن عذرهم الله تعالى فى تركهم الهجرة، المستضعفون من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا، روى البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كنت أنا وأمى ممن عذر الله عز وجل.

وفى رواية كنت أنا وأمى من المستضعفين من النساء والولدان.

- وفى الآية الكريمة: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ فى هذه الآية الكريمة تحريض على الهجرة وترغيب فى مفارقة المشركين، وتأكيد لكل مؤمن بأنه حيثما ذهب مهاجرا فى سبيل الله لابد أن يجد ملجأ يتحصن فيه، وهذا من فضل الله وحسن جزائه على النوايا الحسنة المقرونة بالعمل.

وفى الآية الكريمة بشارة لمن هاجر بأنه سوف يجد رزقا حيث هاجر.

والمعنى: أن من هاجر فى سبيل الله تعالى تغير حاله من الضلال إلى الهدى، ومن الفقر والقلة إلى الغنى والكثرة والعزوة.

- ومن خرج من بيته وقد انعقدت نيته على الهجرة فى سبيل الله ثم مات قبل أن يبلغ مُهَاجره فقد وقع أجره على الله ونال جزاء من أكمل هجرته.

روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عتيك رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خرج من بيته مجاهدا فى سبيل الله، ثم قال: وأين المجاهدون فى سبيل الله؟ فخر عن دابته فمات فقد وقع أجره على الله، أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله، أومات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله، ومن قتل قعصا(١) فقد استوجب المآب – وفى رواية فقد استوجب الجنة».

– ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾

- ﴿ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾: سافرتم سفرا للطاعة كالجهاد والحج والعمرة وطلب العلم أو نحو ذلك مما فيه طاعة لله تعالى، أو سافرتم للتجارة ونحوها مما يعود على الإنسان بالنفع بشرط أن يخلو السفر من معصية الله.

- كل هذه الأنواع من السفر تجعل من حق المسلم أن يقصر الصلاة فيجعل الصلاة الرباعية ثنائية، وتلك صدقة تصدق الله بها على عباده، وترخيص لهم رحمة بهم.

فقد روى أحمد بسنده عن يعلى بن أمية رضى الله عنه(٢) قال: سألت عمر بن الخطاب رضى الله عنه قلت له: قوله تعالى: ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وقد أمن الناس؟ فقال لى عمر رضى الله عنه: عجبتُ مما عجبتَ منه فسألت رسول الله ﷺ فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته».

ورواه مسلم والترمذى وأهل السنن.

- وفى كل سفر للجهاد مع خوف العدو، أو سفر للتجارة مع الإحساس بالأمن يجوز للمسلم أن يصلى الرباعية ركعتين، فقد روى النسائى بسنده عن عبد الله بن عون عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة ونحن آمنون لانخاف بينهما، ركعتين ركعتين.

فالقصر فى الصلاة ليس من شروطه الخوف، بل الأصل فى صلاة السفر أن تكون ركعتين. روى أحمد بسنده عن عمر رضى الله عنه قال: صلاة السفر ركعتان وصلاة الأضحى

(١) المقعوص من مات مكانه أو من طعن طعنا سريعا بالرمح.

(٢) هو يعلى بن أمية الثقفى أحد بنى حنظلة توفى سنة ٣٧ هـ، أمة مُنية، وهو الذى يقال له: يعلى بن منية. من مشاهير الصحابة فى مكة المكرمة. وقد ولاه أبو بكر رضى الله عنه على «حلوان» فى حروب الردة.

ركعتان وصلاة الفطر ركعتان، وصلاة الجمعة ركعتان، تمام غير قصر على لسان محمد ﷺ.

ورواه ابن ماجة وابن حبان وصححه.

● وصلاة الخوف إذن هي أن تكون ركعة واحدة خلف الإمام لإحدى الطائفتين للجيش، وركعة خلفه للطائفة الاخرى، فيصلى الإمام ركعتين، وكل طائفة تصلى ركعة واحدة.

روى ابن جرير بسنده عن سماك الحنفي[1] قال: سألت ابن عمر رضى الله عنهما عن صلاة السفر فقال: ركعتان تمام غير قصر، إنما القصر فى صلاة المخافة، فقلت: وما صلاة المخافة؟ فقال: يصلى الإمام بطائفة ركعة ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء ويجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء فيصلى بهم ركعة فيكون للإمام ركعتان ولكل طائفة ركعة ركعة.

– ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾

● من المعروف لدى علماء المسلمين أن صلاة الخوف أنواع كثيرة:

– منها نوع يكون فيه العدو تجاه القبلة، فيصلى المسلمون غير مستقبلى القبلة.

– ونوع لايكون العدو فيه تجاه القبلة فيصلى المسلمون مستقبلى القبلة.

– ومن يصلون صلاة الخوف تارة يصلون جماعة، وتارة لايقدرون على عقد الجماعة فيصلون فرادى، رجالاً – أى ماشين – أو ركبانا – أى على خيولهم ومايركبون.

– وللذين يصلون صلاة الخوف أن يمشوا أو يضربوا العدو ضربا متتابعا وهم يصلون دون أن تبطل صلاتهم.

– ولهم أن يصلوا الصبح ركعة واحدة، ولهم أن يومئوا بها إيماءً دون ركوع أو سجود.

---

(١) سماك بن الوليد الحنفى ابو زُمَيْل من أهل اليمامة قدم البصرة فحدثهم فكتب عنه العراقيون، وكان متقناً ثبتاً من مشاهير التابعين باليمن.

- ولهم أن يؤخروا الصلاة بسبب القتال والمناجزة، كما أخر النبى ﷺ يوم «الأحزاب» الظهر والعصر، فصلاهما بعد الغروب، ثم صلى بعدهما المغرب ثم العشاء.

● وخلاصة القول: أن الصلاة لاتسقط أبدا عن المسلم مادام عاقلا، وعليه أن يؤديها وهو خائف ركعة واحدة للصلاة الثنائية وركعتان للصلاة الرباعية وتبقى الصلاة الثلاثية على حالها، وله أن يؤخرها.

هذا مجمل ما رآه جمهور العلماء، وكله مؤيد بهذه الآية الكريمة وبعمل الرسول ﷺ.

● وفى سبب نزول هذه الآية الكريمة روى الواحدى فى كتابه: أسباب النزول بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقى المشركين بعسفان، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر، فرأوه يركع ويسجد هو وأصحابه قال بعضهم لبعض: كان هذا فرصة لكم لو اغرتم عليهم ماعلموا بكم حتى تواقعوهم، فقال قائل منهم: فإن لهم صلاة أخرى هى أحب إليهم من أهليهم وأموالهم، فاستعدوا حتى تغيروا عليهم فيها، فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه ﷺ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ إلى آخر الآية، وأعلمه ما ائتمر به المشركون وذكر صلاة الخوف».

- ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾

● فى هذه الآية الكريمة أمر بالإكثار من ذكر الله عقيب صلاة الخوف- والذكر مرغّب فيه على كل حال- ولكنه هنا آكد وأقوى لما وقع فى صلاة الخوف من التخفيف فى أركانها، ومن الرخصة فى الذهاب فيها والإياب وعدم استقبال القبلة، ممالايجوز فى غيرها من الصلوات.

● وذكر الله تعالى فى هذه الآية الكريمة فى حال القيام والقعود والسقوط على الأرض، أى فى جميع أحوال الذكر، لأن الذاكر إما قائماً أو قاعداً أو ساقطاً على الأرض.

فإذا ذهب الخوف عنكم فأقيموا الصلاة- أى أتموها كما أمرتم بحدودها وخشوعها وركوعها وسجودها وجميع آدابها، فهى على المؤمنين فرض لازم له أوقات معينة هى: الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾.

- ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

● والمعنى: نهى المؤمنين عن الفتور أو القعود عن تتبع الاعداء وطلبهم، ومطالبتهم بأن يجدوا فى ذلك ويقاتلوا عدوهم ويقعدوا لهم كل مرصد.

وإقناع المؤمنين بأن مايصيبهم من جراح وقتل فى قتال الاعداء يصيب الاعداء أنفسهم، ولكن المؤمنين يتميزون على أعدائهم بأنهم يرجون من الله الاجر والمثوبة والنصر، بينما الأعداء لايرجون شيئاً من ذلك.

وفيما يصيب المؤمنين من مشاق قتال أعدائهم مايؤكد إيمانهم بالله تعالى وطاعتهم إياه واستحقاقهم النصر، كما وعدهم بذلك فى كتابه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وكما أخبر بذلك رسوله ﷺ فيما رواه ابن ماجة بسنده عن ثوبان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ولاتزال طائفة من أمتى على الحق منصورين لايضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله عز وجل»**.

وفى رواية أخرى لابن ماجة عن قرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لاتزال طائفة من أمتى منصورين لايضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة».

● والاعداء لايرجون من الله أجرا أو مثوبة، وكيف يرجون ذلك وهم على الكفر والمحادَّة لله ورسوله؟.

● والله تعالى كان ومايزال وهو دائماً العليم الحكيم، أى هو الأعلم والاحكم فيما يقدره ويقضيه، وينفذه ويمضيه من أحكامه الكونية، وهى النواميس التى يخضع لها الكون كله، وأحكامه الشرعية التى فيها صلاح الناس فى دنياهم وأخراهم، فهو سبحانه لايكلف الناس شيئاً ولايأمرهم به أو ينهاهم عنه، إلا بما هو عالم بأنه سبب فى صلاح دينهم ودنياهم، وهو سبحانه المحمود على كل ذلك وعلى كل حال.

● **المواقف التربوية العامة التى فى هذه الآيات الكريمة**: وهى كثيرة نذكر منها ما يفتح الله به فيما يلى:

١- يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى

﴿الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ مايلى:

أ - أنّ الله تعالى لايساوى فى الأجر والمثوبة بين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والقاعدين عن ذلك الجهاد بغير عذر، وإنما يفضل سبحانه المجاهدين على القاعدين، ومعنى ذلك أن المؤمن إذا وجد فرصة للجهاد فى سبيل الله فإنه يجب عليه أن ينتهزها، ولوقعد عنها خسر عند الله درجة أو درجات وماذلك إلا لغفلة منه وضلال عما ينفعه فى دنياه وأخراه لانه لو وعى لوضع نفسه مع الذين يفضلهم الله لجهادهم فى سبيله بأموالهم وأنفسهم.

ب- وأن الجهاد فى سبيل الله على وجه الإجمال- نوعان:

- جهاد بالنفس
- وجهاد بالمال

وتحت كل نوع منهما مفردات كثيرة، ومن جاهد بأى نوع من أنواع الجهاد نال عند الله درجة أعلى من غيره ممن جاهد بأحد الأنواع دون بعضها، فضلا عمن قعد عن الجهاد[1].

جـ- وأن القاعدين عن الجهاد بعذر مقبول لهم عند الله أجر ومثوبة ولهم عنده منزلة حسنى وهى الجنة كالمجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله تعالى، لكنه سبحانه وتعالى قد جعل للمجاهدين فى سبيله بأموالهم وأنفسهم فضلا عظيما ودرجات فى غرف الجنان العاليات، ومغفرة الذنوب والزلات، وأحوال الرحمة والبركات.

فقد روى أحمد بسنده عن كعب بن مرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ارموا أهل صنع، من بلغ العدو بسهم، رفعه الله به درجة، قال: فقال عبد الرحمن بن أبى النحام: يارسول الله وما الدرجة؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: إنها ليست بعتبة أمك ولكنها بين الدرجتين مائة عام».

ورواه النسائى بسنده عن كعب بن مرة أيضاً.

وروى النسائى بسنده عن عمرو بن عبسة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رمى بسهم فى سبيل الله فبلغ العدو أخطأ أو أصاب كان له كعدل رقبة، ومن أعتق

---

(١) لمعرفة الجهاد بكل أنواعه ودرجاته انظر لنا: ركن الجهاد. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

رقبة مسلمة كان فداء كل عضو منه عضوا منه من نار جهنم، ومن شاب شيبة فى سبيل الله كانت له نورا يوم القيامة.

٢- ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

أ - أن القعود عن الجهاد فى سبيل الله تعالى، ظلم للنفس يبلغ بصاحبه حد الكفر، وبخاصة إذا قبل القاعد عن الجهاد فى سبيل الله أن يسكن دار الكفر، ويعايش الكافرين، ولم يهاجر إلى ديار المسلمين.

ب- وأن القعود عن الجهاد فى سبيل الله بغير عذر مقبول يستوجب عقاب الله تعالى يوم القيامة حيث يكون مأوى هذا القاعد عن الجهاد فى سبيل الله هو جهنم، وساءت جهنم مصيرا لكل من صار إليها.

وإلى جانب هذا العقاب الأخروى قد يعاقبهم الله تعالى فى الدنيا بالذل والانكسار.

جـ- وأن الأعذار والتعلات التى يقدمها القاعدون عن الجهاد فى سبيل الله الذين قبلوا البقاء فى ديار الكفر ولم يهاجروا، هذه التعلات غير مقبولة ولاتعفى من عقاب الله، وأبرز هذه الأعذار والتعلات قولهم: كنا ضعفاء بل مستضعفين فى الأرض!!!

والجواب الذى يجدونه على ذلك العذر هو قول الملائكة لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾؟

د- وأن الذين تقبل أعذارهم من القاعدين عن الجهاد فى سبيل الله والهجرة إلى دار الإسلام هم المستضعفون من الرجال والنساء والولدان، ممن لايستطيعون الهجرة لعجزهم عن النفقة أو عن الاحتيال للهجرة، ولايعرفون طريقا يهتدون إليه.

هؤلاء عسى أن يعفو الله عنهم بتركهم الهجرة.

هـ- وأن أسباب الامتناع عن الهجرة فى مجملها سببان:

الأول: أن يكون الممتنع عن الهجرة مؤثرا للراحة والدعة فى وطنه فيخشى إن هاجر وفارق وطنه أن يخسر الرفاهية والدعة ويقع فى الشدة والضيق.

● وهذا الممتنع عن الهجرة لهذا السبب يقال له: إنه لو خرج مهاجرا فى سبيل الله لوجد فى الأرض التى هاجر إليها خيرا مما كان يجد فى الأرض التى هاجر منها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً** ﴾.

والثاني: أن يكون الممتنع عن الهجرة قد وسوس إليه الشيطان بأنه لو خرج من وطنه من راحة هو فيها إلى أرض ربما وجد فيها الراحة وربما لم يجدها، لو فعل ذلك فقد جازف وتعرض لخسارة ما كان فى يده.

● وهذا الممتنع عن الهجرة لهذا السبب غافل عن عدل الله تعالى ورحمته الواسعة، وأنه سبحانه يجزى على النية الحسنة، فهو مأجور بنيته، فمن قصد الهجرة ثم حيل بينه وبينها فكأنه قد هاجر فعلا، وله أجر من هاجر، وهذا فضل من الله تعالى ورحمة.

٣- ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١) وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾ يتعلم المسلمون من هاتين الآيتين مايلى:

أ - أن الصلاة المكتوبة أكثر الفرائض تكرارا فى حياة الإنسان إذ هى خمس مرات فى اليوم والليلة، حيث يقف المسلم بين يدى ربه يكبره ويحمده ويثنى عليه ويمجده ويدعوه ويركع له ويسجد، ويتقبل رحماته، فيغسل بهذه الصلوات ذنوبه ومعاصيه خمس مرات فى اليوم والليلة.

● ولأن الصلاة كذلك جاءت فريضة لازمة يؤيها المسلم على كل حال، وفى كل موقف، ولاتسقط عنه إلا إذا سقطت عنه التكالف الشرعية لفقد عقله أو نحو ذلك.

ب - وأن للكفار صفتين لا تفارقانهما:

إحداهما:

العمل على فتنة المؤمنين وصرفهم عن دينهم.

والأخرى:

العداء الشديد المستمر الواضح للمؤمنين.

كما أوضحت ذلك الآية الكريمة: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

فليس للمؤمنين أن يعاملوا الكفار إلا وهم يعلمون أن هذه صفاتهم.

جـ- وأن الله تعالى شرع للمسلمين التخفيف عليهم فى وقت الحرب، وخوف العدو، ووقت السفر، وهذا التخفيف فى الصلاة نوعان:

أحدهما:

التخفيف فى كمية الصلاة بحيث تصبح الرباعية منها ثنائية فى السفر، وركعة واحدة فى صلاة الخوف.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: فرض الله صلاة الحضر أربعا، وصلاة السفر ركعتين، وصلاة الخوف ركعة على لسان نبيكم محمد ﷺ.

والآخر: التخفيف فى كيفية الصلاة وأداء ركعاتها، حيث يشرع أداؤها بالإيماء والإشارة بدل الركوع والسجود، كما يجوز فيها المشى وعدم استقبال القبلة، وجواز الصلاة بثوب ملطخ بالدم عند التحام العدو وخوفه.

٤- ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ مايلى:

أ- يتعلمون كيفية صلاة الخوف، وفى كيفيتها مذاهب وآراء لعلماء الفقه نذكرها

وهى :

الرأى الأول :

وبه قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وهو : أن يجعل الإمام القوم طائفتين ويصلى ركعة بالطائفة الأولى، ثم تسلم هذه الطائفة، وتأتى الطائفة الثانية فيصلى بهم الإمام ركعة، ثم يسلم الإمام، وتسلم هذه الطائفة، وبذلك تنتهى الصلاة، فتكون صلاة الخوف ركعتين للإمام وركعة واحدة للمأمومين.

والرأى الثانى :

ذهب إليه الحسن البصرى رحمه الله وهو : أن يصلى الإمام بالطائفة الأولى ركعتين، ثم يسلم الإمام وتسلم هذه الطائفة، ثم تأتى الطائفة الأخرى فيصلى بها الإمام مرة أخرى ركعتين ثم يسلم ويسلمون ».

والرأى الثالث :

ذهب إليه الإمام الشافعى رحمه الله وهو : أن يصلى الإمام مع الطائفة الأولى ركعة تامة ثم يبقى الإمام قائما فى الركعة الثانية إلى أن تصلى هذه الطائفة ويتشهدون ويسلمون ويذهبون إلى وجه العدو، ثم تأتى الطائفة الأخرى فيصلون مع الإمام قائما فى الركعة الثانية ركعة ، ثم يجلس الإمام فى التشهد إلى أن تصلى الطائفة الثانية الركعة الثانية ثم يسلم الإمام بهم.

والرأى الرابع :

ذهب إليه أبو حنيفة رحمه الله، وهو : أن يصلى الإمام بالطائفة الأولى ركعة ويعودون إلى وجه العدو، وتأتى الطائفة الثانية فيصلى بهم بقية الصلاة وينصرفون إلى وجه العدو، ثم تعود الطائفة الأولى فيقضون بقية صلاتهم بقراءة وينصرفون إلى وجه العدو، ثم تعود الطائفة الثانية فيقضون بقية صلاتهم بقراءة.

● واختلاف العلماء فى كيفية صلاة الخوف يدل على أن النبى ﷺ صلى بهم هذه الصلوات فى أوقات مختلفة وظروف مختلفة حسب ما تقتضيه مصلحة الحرب مع العدو.

ب - وأن صلاة الخوف تستوجب على المقاتلين أن يأخذوا حذرهم من العدو، وأن تكون أسلحتهم معهم بحيث يسهل عليهم تناولها واستعمالها.

على أنه يسمح للمقاتل بأن يترك هذا السلاح إذا كان بالمقاتل أذى من جرح أو مطر

أو ما يعوقه عن حمل السلاح، لكن مع ضرورة أخذ الحذر، وذلك أن العدو متربص بالمسلمين يودّ لو أنهم غفلوا عن أسلحتهم وأمتعتهم فمال عليهم ميلة واحدة، ولاعجب فى ذلك فهو العدو المبين.

ومن أجل هذه العداوة للإيمان والمؤمنين أعد الله للكافرين عذابا مهينا لهم فى جهنم.

جـ- وأنّ انقضاء صلاة الخوف ليس معناه الفراغ من المعركة أو ترك دعاء الله وطلب النصر ودوام ذكره، ومن أجل هذا الأمر يذكر الله بعد انقضاء الصلاة على كل وضع من الأوضاع للإنسان أثناء قيامه أو قعوده أو سقوطه على الأرض ﴿ **فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ** ﴾ وحتى فى حالة الاطمئنان فلابد من ذكر الله وإقام الصلاة ﴿ **فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا** ﴾ أى عندما يزول الخوف والحرب والسفر، يعود المسلم إلى صلاته كما كانت من حيث عدد ركعاتها وشروطها وآدابها.

٥ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ مايلى:

أ- أنّ المعركة بين الإيمان والكفر معركة مستمرة لاتهدأ حتى تعود إلى اشتعالها من جديد، وأن المؤمنين ماينبغى لهم أن يقعدوا عن قتال الكفار حتى يكون الدين كله لله، وحتى تبلغ دعوة الله إلى جميع عباد الله، ومايكون ذلك إلا بإزالة الكفار من طريق المؤمنين، وإفساح المجال وإزالة العقبات أمام الدعاة إلى الله ليبلغوا رسالات ربهم، ولايخشون أحداً إلا الله.

ب- وأن كل حجة يسوقها الذين يريدون أن يقعدوا عن متابعة الكفار أعداء الله وأعداء دينه ومنهجه حجة واهية وهى لذلك مرفوضة مردود عليها:

- فإن كانت الحجة فى ترك قتالهم أن القتال شاق لمافيه من جراح وآلام، يقال لهم: وأعداؤكم يتحملون مشاق القتال كما تتحملون!!

- وإن كانت الحجة أن قتال الكفار يعرض المؤمنين للموت!! قيل لهم، وإن الأعداء يتعرضون للموت كما تتعرضون!!

● على أن الفارق بين المؤمنين والكفار فى خوض المعركة فارق كبير لصالح المؤمنين:

– فالمؤمنون بقتالهم وتضحيتهم بأموالهم وأنفسهم يرجون من الله أجرا ومثوبة. أما الكفار فلايرجون شيئاً، وكيف يرجون من كفروا به؟.

– وقتلى المؤمنين فى المعركة شهداء كتب لهم الله الجنة، أما قتلى الكفار ففى النار.

– والله تعالى قد تكفل بنصر المؤمنين، وتعهد بالتنكيل بالكافرين.

● وبهذه المعانى جاءت آيات كثيرة من القرآن الكريم كهذه الآية الكريمة وغيرها مثل قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ** ﴾ [التوبة: ١١١].

جـ- وأن أمر الله بالجهاد ونهيه عن القعود عن طلب الكفار مع القضاء عليهم، ليس مما يشق على المؤمنين أو يدخلهم فى حرج من أمرهم، إنما فى هذه الاوامر والنواهى ما دامت من عند الله كل الخير لمن امتثل ولمن انتهى، فالله سبحانه وتعالى عليم بما فيه صالح المؤمنين فى دنياهم وأخراهم، حكيم فى أن يكلفهم بما يشاء.

● **المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة**، وهى- كما قلنا غير مرة زاد للدعاة ونبراس لهم يضىء لهم طريق العمل والانتشار فى الناس بهذا الدين. ونستطيع أن نذكر من هذه المواقف والدروس ما يلى:

١- يتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ مايلى:

أ- أنّ المجاهدين فى سبيل الله كل أنواع الجهاد ودرجاته- والدعوة جهاد والحركة جهاد- لهم عند الله منزلة أعلى ودرجة أكبر وأعظم من منزلة القاعدين.

فلينظر الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية أين يضعون أنفسهم أولا؟ وماذا يوضحون للناس من منزلة الجهاد؟.

ب- وأن الجهاد فى سبيل الله يتسع مدلوله ويتعمق مفهومه لما هو أعم وأشمل من القتال فيشمل الحرب والإعداد لها، ويدخل الجهاد بالكلمة؛ خطبة ومحاضرة وبحثا ودراسة ومحاورة ومناظرة لشرح دعوة الإسلام وتيسير دخول الناس فيه ورد

الشبهات وفضح الأكاذيب والمفتريات، وإبلاغ الدعوة والحركة لكل الناس.

ويمتد مفهوم الجهاد ليتناول تربية الناس أفراداً وجماعات على قيم الإسلام ومفاهيمه وأحكامه وآدابه، وتفقيه الناس فى دينهم ودنياهم، وتنويرهم وتبصيرهم بأعدائهم وأصدقائهم.

● **وكل من قعد عن أى نوع من أنواع الجهاد هذه وهو قادر عليه فقد أثم وأخطأ فى حق ربه الآمر الناهى، وفى حق نفسه التى أمر أن يحفظها ويقيها عذاب الله وفى حق وطنه وأمنه إذ مكن بهذا القعود عدوها منها.**

جـ- وأن المال والنفس يجب أن يضحى المسلم بهما فى سبيل الله إن كان يريد عند الله الدرجة الرفيعة، فلو تدبر الدعاة إلى الله والحركيون فى قوله تعالى: **«إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة..»** [التوبة: ١١١] الآية لاستطاعوا أن يقنعوا الناس بأن تلك هى أكثر الصفقات ربحا مع الله تعالى. وفى الماضى قال الأسلاف من الدعاة: ياعجبا لهذه الصفقة، أنفس هو خالقها وأموال هو رازقها فهى له وإليه، ومع ذلك يعطى مَنْ بذلها فى سبيله الجنة؟ والجنة غاية لايساويها جميع مافى الدنيا من مال وجاه وسلطان ومتع وملذات، لأن مافى الجنة دائم، ومافى الدنيا زائل، وما فى الجنة لايفوت من دخلها ولايفوته صاحبها فهو الخلود والأبدية، أما الذى فى الدنيا فإن لم يفته الناس فاتهم هو!!!

٢- ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا**﴾ مايلى:

أ - أن المسلم الذى يقيم فى دار الكفر غير مستطيع إقامة دينه ولا تربية أبنائه تربية إسلامية وهو بذلك واقع لامحالة فى معاملات ربوية، هذا المسلم ظالم بترك الهجرة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام، مرتكب خطيئة وإثما بدليل هذه الآية الكريمة، وبدليل إجماع علماء المسلمين على ذلك.

● والدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية مطالبون بأن يوضحوا ذلك لهؤلاء الذين يؤثرون الإقامة فى ديار الكفر طمعا فى مغنم مادى، أو أمن ظاهرى، قد لايستطيع

الحصول عليهما فى ديار المسلمين.

- وقد اضحت تلك ظاهرة فى العصر الذى نعيش فيه - عصر مابعد الاستعمار المسلح والسيطرة الاجنبية على معظم بلدان العالم الإسلامى سياسيا واقتصاديا وثقافيا، حيث أصبحت دول العالم الإسلامى معظمها إماتسيطر عليها نظم عسكرية، او أسر حاكمة ترث الملك ولدا عن والد!!

وهى أنظمة لايتمتع فيها المواطن بالامن السياسى ولا بالامن الاجتماعى، ولا بالامن الدينى.

- إنها أنظمة لاتعطى المسلمين الحق فى التعبير عن أنفسهم ولا عن منهجهم، ثم تدعى «الديموقراطية» والتعددية السياسية!! كأن المسلمين فى أوطانهم غير مواطنين!!!

- غير ان إيثار هؤلاء المسلمين البقاء بعيدا عن ديارهم الإسلامية مخدوعين بأمن كاذب ومال فى مقابل عمل مجهد مضن، فيه من الأخطاء مافيه:

- فهو خطأ من المسلم فى حق نفسه وذويه إذ يحرم نفسه ببقائه فى بلاد غير إسلامية من الإحساس بالانتماء، ويحرم أبناءه من أن يتربوا بين أمثالهم من المسلمين.

- وهو خطأ فى حق الوطن نفسه، إذ كيف ينصلح حال هذه الاوطان ويقاوم فيها الشر والفساد وصفوة أبنائها قد هجروها وآثروا غيرها عليها؟.

- وخطأ فى حق الإسلام نفسه، لأن الله تعالى حرم الاستقرار فى بلاد الكفر على المسلمين إلا أن يكون من الرجال أو النساء أو الولدان الذين لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلاً.

- إن على الدعاة إلى الله أن ينذروا الناس بسوء العاقبة لو استمرت هذه الظاهرة، وأن يبشروا بأن عودة هؤلاء المسلمين إلى أوطانهم فيها دعم للجهاد فى سبيل الله حتى تكون كلمة الله هى العليا، وحتى يعبروا عن إسلامهم وعن منهجهم فى الحياة، وحتى يسود منهج الله ولو بعد حين.

ب - وأنه لاحجة تقبل ممن يبررون لانفسهم البقاء فى دار الكفر وترك الهجرة إلي ديار المسلمين، إذ مهما ساقوا من حجج فما يقبل منها إلا ان يكونوا عاجزين عن العودة لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا.

• وللدعاة إلى الله فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فعندما وقع عمه العباس بن عبد المطلب وابن عمه عقيل بن أبى طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب فى أسْر المسلمين فى غزوة بدر، قال الرسول ﷺ لعمه: «افْد نفسك وابن أخيك» فقال العباس: يارسول الله ألم نصل إلى قبلتك ونشهد شهادتك؟ قال ﷺ: «إنكم خاصمتم فخصمتم» ثم تلا عليه هذه الآية ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ الآية.

وكان العباس رضى الله عنه قد أسلم قبل الهجرة إلى المدينة وكتم إسلامه وأقام بمكة يكتب إلى رسول الله ﷺ أخبار المشركين.

وقد قال النبى ﷺ فى عمه العباس: أجود قريش كفًّا، وأوصلها، هذا بقية آبائى».

هكذا لم يقبل رسول الله ﷺ بقاء عمه العباس فى مكة لأن هجرته من أرض الكفر إلى أرض الإيمان كانت واجبة - على الرغم من أن بقاء العباس كان فى صالح المسلمين من ناحية مّا إذ كان يكتب للرسول ﷺ بأخبار المشركين.

ألا ليت الذين يعيشون فى الغرب: أوروبا وأمريكا يتدبرون فى هذه القصة، ويدركون وجه الصواب فيها، إذن لبقوا فى أوطانهم وشاركوا فى إصلاح ما فيها من فساد، فكان ذلك خيرا لهم ولأوطانهم، وأرضى لربهم سبحانه وتعالى، وكان مخرجا لهم من أن يقال لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾.

جـ - وأن الذين يقعدون عن الهجرة من ديار الكفر التى لايأمنون فيها على أنفسهم وذراريهم من أن تنتقل إليهم عدوى القيم السائدة فى الغرب، فإن آثروا الراحة والابتعاد عن المشقة التى تصاحب الهجرة والانتقال فقد قصروا.

وهؤلاء يرجى أن يعفو الله عنهم ويتجاوز عن تقصيرهم، فيغفر لهم، فالله تعالى عفو غفور.

٣ - ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ما يلى:

أ - أن الذين تنعقد نواياهم على الهجرة فى سبيل الله من ديار الكفر - حيث لا يأمنون على أنفسهم وذراريهم - لابد أن يجدوا فى أرض الله الواسعة ملتجأ

ومهربا وأمنا على دينهم وأبنائهم وسعة فى رزقهم.

● هذه قضية يجب التسليم بها عند المؤمنين، لانها قضية حكم بها وأفتى فيها رب العالمين ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ وهو سبحانه وتعالى لايخلف وعدا، ولا ميعادا.

ب – وأن من رحمة الله وبره بعباده أن يجزيهم أحسن الجزاء على نواياهم الحسنة حتى قبل أن تصبح عملا يدخل مجال التنفيذ، فمن صحت نيته وانعقد عزمه على الخروج من بيته مهاجرا إلى الله، ثم يدركه الموت قبل أن يبلغ مهجره؛ فقد نال عند الله تعالى أجر من هاجر فعلا وبلغ مهجره أو مأمنه.

● وتلك حقيقة وعد بها رب العالمين، ويمكن أن تنسحب هذه الرحمة على كل طاعة يعقد المسلم العزم على أدائها ثم يحول الموت بينه وبين أن يكملها، أو يحول القهر والاستضعاف بينه وبين أدائها، فقد روى البخارى ومسلم وأصحاب السنن بأسانيدهم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيّات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

● وفى سبب نزول هذه الآية يقول ابن عباس – رضى الله عنهما – كان عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه يخبر أهل مكة بما ينزل فيهم من القرآن، فكتب الآية التى نزلت: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ... ﴾ فلما قرأها المسلمون بمكة، قال ابن ضمرة الليثى لبنيه – وكان شيخا كبيرا –: احملونى فإنى لست من المستضعفين، وإنى لاهتدى إلى الطريق، فحملوه على سرير متوجها إلى المدينة، فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت، فصفق يمينه على شماله وقال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايعتك يدُ رسول الله ﷺ، ومات حميدا، فبلغ خبره أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: لو وافى المدينة لكان أتم أجرا، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا ﴾ الآية.

٤ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١) وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا

﴿فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ يتعلمون منها ما يلي:

أ – أنّ الله تعالى شرع لعباده التخفيف فى بعض العبادات عند وجود أسباب التخفيف من مشقة سفر أو حرب أو خوف، وما ذلك إلا لأن هذا الدين يسر ولا حرج على العباد فى شيء من عباداته كلها.

وآيات القرآن الكريم الدالة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] [وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

● والدعاة إلى الله مطالبون بأن يواجهوا دعاة التشدد فى الدين أو التنطع فيه بهذه الآيات الكريمة وأمثالها، ليدفعوا عن الدين هذه الشوائب التى جاء بها المتشددون بحسن نية.

ب – وأن المسلمين مطالبون دائما بأن يكونوا متنبهين وعلى حذر من كل عدو، وأن يدركوا أن قوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ رمز لوجوب الأخذ بالأسباب ووجوب الإعداد للعدو. وأن قوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ﴾ تعنى وجوب التنبيه واليقظة لما يفعله العدو، وما بين الإهمال فى الأخذ بالأسباب والإهمال فى ضرورة التنبه واليقظة لما يفعله العدو، ومابين الإهمال فى الأخذ بالأسباب والإهمال فى ضرورة التنبه والحذر يقع المسلمون فى معظم مشكلاتهم، ثم يلوم بعضهم بعضا، ولايتناصحون أو يتواصون بما يجب عليهم أن يفعلوه كما أمرهم الله تعالى به!!!

جـ – وعلى الدعاة إلى الله أن ينبهوا الناس إلى أن ذكر الله ودعاءه والتوكل عليه وطلب العون منه مع الأخذ بالأسباب هو الأصل وهو الزاد والماء على طريق العمل

من أجل الإسلام وقد طالب الله بذكره والالتجاء إليه بعد الصلاة، وطالب بإقامة الصلاة بعد الاطمئنان من الخوف ومن الحرب ومن السفر وما ذلك إلا للأهمية القصوى للصلاة الموقوتة وللذكر المطلق.

● **أما الصلاة الموقوتة، فلبعض علمائنا فيها تعليل جميل.**

يقول فخر الدين الرازى[1]: «واعلم أن تقدير الصلوات بهذه الأوقات الخمسة فى نهاية الحُسْن والجمال نظرا إلى المعقول.

وبيانه: أن لكل شىء من أحوال هذا العالم مراتب خمسة:

أولاها: مرتبة الحدوث والدخول فى الوجود، وهو كما يولد الإنسان ويبقى فى النشوء والنماء إلى مدة معلومة، وهذه المدة تسمى سِنَّ النشوء والنماء، وفيها صلاة الفجر.

وثانيتها: مدة الوقوف وهى أن يبقى ذلك الشىء على صفة كماله من غير زيادة ولا نقصان، وهى المدة تسمى سِنّ الشباب وفيها صلاة الظهر.

وثالثتها: مدة الكهولة وهى أن يظهر فى الإنسان نقصان خفىّ، وهذه المدة تسمى سِنّ الكهولة. وفيها صلاة العصر.

ورابعتها: مدة الشيخوخة وهى أن يظهر فى الإنسان نقصانات ظاهرة جلية إلى أن يموت، وتسمى هذه المدة سِنّ الشيخوخة، وفيها صلاة المغرب.

وخامستها: أن تبقى آثار الإنسان بعد موته مدة، ثم تَمْحى تلك الآثار وتبطل وتزول ولا يبقى منه فى الدنيا خبر ولا أثر وفيها صلاة العشاء.

● وأما ذكر الله المطلق، فيعنى أن يكون الإنسان على ذكر من الله دون توقيت بل فى كل حين وفى كل حال.

وذلك أن من أراد أن يذكره الله فليذكر الله، قال تعالى: ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾

[البقرة: ١٥٢].

ومن أراد ألا يكون من الغافلين فليذكر الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ** ﴾

[الأعراف: ٢٠٥].

---

(١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ١١/ ٢٤ باختصار وتصرف.

ومن أراد الفلاح فعليه بذكر الله كثيرا قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وروى أبو داود بسنده عن معاذ رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ والله إنى لأحبك» فقال: «أوصيك يا معاذ لاتدعَنّ فى دبر كل صلاة تقول: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم».

وروى الترمذى بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها فى درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «ذكر الله تعالى».

٥ – ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ما يلى:

أ – أن المؤمنين عموما والدعاة إلى الله خصوصا، والعاملين فى الحركة بالإسلام فى الناس والآفاق على وجه أخص، هؤلاء جميعا يجب أن يوطنوا أنفسهم على ألا يفتروا فضلا عن أن يهملوا فى تتبع أعداء الإسلام والمسلمين دون كلل أو ملل، من أجل أن يفسدوا عليهم تدبيرهم المعادى، ومن أجل أن يواجهوهم بما يناسب كيدهم وشرهم من توقٍ وحذر واستعداد وأخذ بالأسباب ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ...﴾.

ب – وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن ما يصيبهم من أجل الدعوة والحركة من نَصَب أو وصب أو هم أو حزن، أو ظلم أو اضطهاد، فإن مثله يصيب الأعداء والظالمين والكافرين والفساق والفجار ولكنهم لايحتسبون، والدعاة يحتسبون ذلك كله عند الله تعالى.

● وفي هذا ما فيه من وجوب التأمل والتدبر، ووجوب حمد الله تعالى وشكره على هذه المحن الذى تقع على الدعاة والعاملين من أجل الإسلام، وإذا امتحن الدعاة إلى الله فتألموا لذلك الامتحان ولكنهم صبروا محتسبين أجرهم عند الله، فإن الأعداء والظالمين والكافرين يتألمون كذلك لما فعلوا بالدعاة ولكن أنىٌ لهم أن يحتسبوا عند الله أجرا؟.

جـ - ومهما تحمل الدعاة إلى الله من آلام ومحن من أجل هذا الدين فهم بهذا التحمل والصبر فى معية الله تعالى وحفظه حتى لو مات بعضهم من التعذيب والتنكيل فقد حفظه الله من الفتنة والمعصية وممالأة الظالمين، وحفظ لهم عنده أجزل الأجر وأعظم الثواب.

أما معذبوهم فلهم عند الله جزاء الظالمين وعقبى الكافرين فللدعاة إلى الله الجنة التى وعدوا بها، وللظالمين والكفار النار، قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].

د - وعلى الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يوقنوا أن ما يصيبهم فى الدنيا من مشاق من أجل عملهم فى الدعوة والحركة هو عند الله من أبر الأعمال وأقربها إلى الله، وأولاها بالأجر والثواب، فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يصيب المسلم من نَصَب ولا وَصَب ولا همّ ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كَفَّر الله بها من خطاياه» وأى أجر أعظم من هذا، فهنيئاً لمن عانى أى معاناة من أجل الدعوة والحركة والعمل على أن يمكن لدين الله فى الأرض.

١٣ - الآيات الكريمة من الآية الخامسة بعد المائة إلى الآية الثانية والعشرين بعد المائة

تحديد الهدف من إنزال القرآن الكريم، وبيان لأحوال المنافقين والكافرين والشياطين

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (١٠٩) وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا (١١٦) إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢٠) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾

اشتملت هذه الآيات الكريمة على تقرير عدد من الحقائق فى حياة النبى ﷺ والمؤمنين، وتوضيح أحوال المنافقين والكافرين، وتكشف أعمال الشياطين وتحذر من كل ذلك، ففى الآيات الكريمة :

– إخبار بأن الهدف من إنزال القرآن الكريم هو الحكم به بين الناس بالحق الذى علمه الله لرسوله فى هذا القرآن الكريم .

– وإخبار بأن الله تعالى لا يحب من كان خائنا يرتكب الآثام ويخاف الناس ولا يخاف الله .

– وإخبار بأن الله يتوب على من ندم واستغفر .

– وإخبار بأنه الله تعالى قد تفضل على النبى ﷺ والذين آمنوا، فحال بينهم وبين أن يضلهم المنافقون والكافرون عن الحق، وتفضل عليهم بأن أنزل عليهم الكتاب و الحكمة وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون .

– وإخبار بأن لاخير فى تناجى المنافقين والكافرين وما يبيتون من شر للنبى ﷺ والذين آمنوا، بل لا خير فى تناجى الناس وخوضهم فى الأحاديث إلا أن يكون ذلك التناجى فى الخير كالأمر بالصدقة والأمر بالمعروف، والإصلاح بين الناس .

– وإخبار بأن الله تعالى يغفر لعباده مادون الشرك، أى اتخاذ الأوثان واتباع الشيطان المارد الملعون .

– وإخبار بمقولات الشياطين ليكون المسلمين منها على حذر .

– وإخبار بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات مصيرهم إلى الجنة .

● كما اشتملت الآيات الكريمة على عدد من النواهى، منها :

– نهى النبى ﷺ والمؤمنين عن أن يدافعوا عن الخائنين .

– ونهى عن الدفاع عن المنافقين .

● واشتملت الآيات على تأكيد عدد من الحقائق المتصلة بالعقيدة، وبالمعاملات، ومن ذلك :

– تقرير أن من يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله توابا رحيما .

– وتقرير أن من يعمل الخير فإن له عند الله أجرا عظيما .

– وتقرير أن من يعاند الرسول ﷺ ويخالفه ويشاقَّه ويتبع منهجا غير منهج الله، فله نار

جهنم .

– وتقرير أن من يشرك بالله فقد ضل أبعد الضلال .

– وتقرير أن من اتخذ الشيطان وليًّا من دون الله فقد خسر أكبر أنواع الخسران .

هذه صورة مجملة عما اشتملت عليه هذه الآيات وسوف نفصل هذه الصورة ونحدد أبعادها فى التفصيل والشرح لهذه الآيات الكريمة .

تفصيل القول فى شرح الآيات الكريمة .

– ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ .

معنى الآية الكريمة واضح وهو أن الهدف من إنزال القران هو أن يحكم به رسول الله ﷺ بين الناس، ويطبق عليهم أحكامه، وما أنزله لمجرد تلاوته فقط .

● واحتج بعض العلماء بهذه الآية على أن رسول الله ﷺ كان يحكم بالاجتهاد، ويؤيد ذلك ما رواه أحمد بسنده عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : جاء رجلان يختصمان إلى رسول الله ﷺ فى مواريث بينهما قد درست ليس عندهما بينة، فقال رسول الله ﷺ : « إنكم تختصمون إلىّ وإنما أنا بشر، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضى بينكم على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار يأتى بها انتظاما فى عنقه يوم القيامة » فبكى الرجلان وقال كل منهما : حقى لأخى، فقال رسول الله ﷺ : « أما إذا قلتما فاذهبا فاقتسما ثم توخيا الحق بينكما ثم استهما، ثم ليحلل كل منكما لصاحبه » .

ورواه أبو داود بسنده عن أسامة بن زيد وزاد : « إنما أقضى بينكما برأى فيما لم ينزل علىّ فيه » .

﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كان غفورا رحيما ﴾ فى سبب نزول هذه الآية الكريمة والآيات التى بعدها، روايات عديدة أشهرها روايتان :

رجّح الطبرى إحداهما على تأويل – أن الخيانة – هى جحود الأمانة لان ذلك هو الموافق لدلالة اللغة ولظاهر الآية وفى ذلك يقول : « وتأويل القرآن إلى الأشهر من معانى كلام العرب ما وجد إليه سبيلا أولى من غيره » .

والرواية الثانية للطبرى رواها بسنده عن السدى قال : نزلت فى طعمة بن أُبَيْرِق، استودعه

رجل من اليهود درعاً فانطلق بها إلى داره – فحفر لها اليهودى ثم دفنها – فخالف إليها طعمة فاحتفر عنها فأخذها، فلما جاء اليهودى يطلب درعه كافره (جحده) عنها، فانطلق إلى ناس من اليهود من عشيرته فقال: انطلقوا معى فإنى أعرف موضع الدرع، فلما علم بهم طعمة أخذ الدرع فألقاها فى دار أبى مُلَيْل الانصارى.

فلما جاءت اليهود تطلب الدرع فلم تقدر عليها، وقع به طعمة وأناس من قومه فسبّوه، وقال: أتخوفوننى، فانطلقوا يطلبونها فى داره، فأشرفوا على بيت أبى مليل فإذا هم بالدرع، وقال طعمة: أخذها أبو مليل.

وجادَلَتْ الانصار دون طعمة، وقال لهم: انطلقوا معى إلى رسول الله ﷺ فقولوا له ينضح عنى (أى يدافع) ويكذّب حجة اليهودى، فإنى إن أُكَذَّبْ كذب على أهل المدينة اليهودىُ!

فأتاه أناس من الانصار فقالوا: يا رسول الله.. جادلْ عن طعمة وأكذب اليهودى، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يفعل فأنزل الله عليه: ﴿وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ مما أَرَدْتَ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾.

ثم ذكر الانصار ومجادلتهم فقال: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يقولون ما لا يرضى من القول ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

ثم دعا إلى التوبة فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

ثم ذكر قوله حين قال: أخذها أبو مليل فقال: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾.

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

ثم ذكر الانصار، إياه، أن ينضح عن صاحبهم ويجادل عنهم فقال: ﴿لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ –النبوة –.

ثم ذكر مفاجآتهم فيما يريدون أن يكذبوا عن طعمة، فقال: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾. فلما فضح الله طعمة بالمدينة بالقرآن، هرب حتى أتى مكة فكفر بعد إسلامه، ونزل على الحجاج بن علاط السلمي، فنقب بيت الحجاج فأراد أن يسرقه، فسمع الحجاج خشخشة في بيته وقعقعة جلود كانت عنده، فنظر فإذا هو بطعمة فقال: ضيفي وابن عمي وأردت أن تسرقني!! فأخرجه، فمات بحرة بني سليم كافرا، وأنزل الله فيه ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ انتهى كلام الطبري.

● وفي الآية الكريمة تعليل لإنزال الكتاب وهو الحكم به بين الناس في كل أمورهم وقضاياهم.

– ﴿وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾.

الخائنون قد يجدون شفعاء يتشفعون لهم، ولكن لا يجوز أن يخاصم المسلم عنهم أو فيهم، فقد نهى الله تعالى نبيه ﷺ عن أن يدافع عن طعمة، ونهينا نحن عن أن ندافع عن أمثال طعمة بن أبيرق.

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾.

فمن كانت صفته خيانة الناس في أموالهم أو شيء آخر، فذاك لا يحبه الله. ومن كان مرتكبا للإثم والمحرمات فذلك لا يحبه الله أيضا، ومن كانت هذه صفته فلا يجوز أن يدافع عنه أحد من المسلمين.

– ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾.

● الكلام في هذه الآية الكريمة عن الناس الذين ذهبوا إلى رسول الله ﷺ في مسألة الدفاع عن طعمة بن أبيرق والجدال عنه، إذ يستخفون بأعمالهم المشينة من الناس ولا يستخفون من الله المطلع عليهم، وهم يبيتون ويدبرون ما لا يرضى الله تعالى من القول، فهم يخدعون ويكذبون ويرغبون في اتهام البريء، والله تعالى محيط بما يعملون.

ويمكن أن يكون الكلام عن طعمة نفسه، إذ قال في نفسه: أرمي اليهودي بأنه هو الذي سرق الدرع، وأحلف أني لم أسرقها، فيقبل الرسول ﷺ يميني لأني على دينه، ولا يقبل

يمين اليهودى.

– ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾.

هذه الآية الكريمة تتحدث عن أولئك الذين كانوا يدافعون عن طعمة وعن قومه بسبب أنهم مسلمون فى الظاهر، وهذا خطأ منهم، أما فى الآخرة حيث تتكشف الحقائق، فمن يستطيع أن يجادل الله عنهم، أو يكون وكيلا عليهم يحميهم من عذاب الله.

وهذا استفهام يحمل معنى التوبيخ لكل من تُسوِّل له نفسه الدفاع عن الخائنين أو المدافعين عن الخائنين.

– ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

● تلك قاعدة عامة فى مغفرة الله تعالى ورحمته لعباده، وهى: أنَّ من عمل عملا سَيِّئاً أيا كان نوعه – فيما عدا الشرك – فإن باب التوبة مفتوح أمامه مادام قد استغفر ربه، لأنه لا إصرار مع التوبة والاستغفار «وما أصرَّ من استغفر».

– ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

● والمعنى: أنَّ الآثم لايضر إلا نفسه، ولو كان قد عقل فأطاع الله ورسوله ما أثم، وما دام قد اثم فما أضر بالله ولا برسوله، ولا بمنهج الله ونظامه، وإنما أضر بنفسه فقط، حين جعلها بإثمه موضعاً لعقاب الله تعالى.

على أنه لو تاب واستغفر لقبل الله منه لأن الله تعالى عليم بنية من تاب، حكيم فى قبول توبة من أخلص، وعقاب من أصر على الإثم والمعصية.

وتلك الآية الكريمة من الآيات المبشرة المرغبة فى التوبة مهما كانت الذنوب غير الشرك بالله – كما أسلفنا –.

– ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

● الفرق بين الخطيئة والإثم – كما قرر ذلك العلماء – هو:

– أن الخطيئة هى الصغيرة، والإثم هو الكبيرة.

– أو أن الخطيئة هى الذنب المقصور على فاعله، والإثم هو الذنب المتعدى إلى غير فاعله

كالظلم والقتل والسرقة.

- أو أن الخطيئة هى ما لاينبغى فعله سواء أكان عمداً أو خطأ. والإثم ما ارتكب على وجه العمد.

● ومن ارتكب خطيئة أو إثما ثم رمى به إنسانا بريئا من ذلك الإثم أو الخطيئة متهما إياه به، فقد احتمل بهذا العمل الشائن بهتانا - والبهتان الافتراء والكذب - وصاحب البهتان مذموم فى الدنيا لانه يسىء إلى الناس فيتجنبونه ويذمونه، وله عند الله فى الآخرة أشد العقاب.

● إن اتهام البرىء جريمة اجتماعية ضخمة تقطع العلاقات بين الناس، وتشيع الخوف بينهم، وتفقدهم الإحساس بالامن، والمجتمع الذى يفقد أهله الإحساس بالامن فيما بينهم مجتمع قلق مضطرب تسيطر عليه الكراهية بل الحقد والرغبة فى الشر والانتقام.

اقول هذا - وفى نفسى وعقلى وقلبى ما تمارسه أجهزة المخابرات فى معظم دول العالم من اتهام للابرياء بل تلفيق للتهم لبعض أعداء النظام - كما يقولون - !!! وعلى رأس هذه الأجهزة جهاز المخابرات فى الولايات المتحدة الامريكية وإسرائيل، وفى ذيلهما الأتباع والاقنان من أجهزة الدول الاخري.

● إن المحافظة على أمن بلد ما، من خلال أجهزة الاستخبارات فيها أمر مطلوب، لكن تلفيق التهم ورمى الأبرياء بها أمر لايمت للإنسانية بصلة ولا يخدم الامن ولا يحققه!!!

- ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾.

● أى: ولولا فضل الله تعالى الذى تفضل به على محمد ﷺ وهو: النبوة ولولا ما أنعم الله عليك به من الرحمة وهى: العصمة من الأخطاء، لولا ذلك لهمت طائفة منهم أن يضلوك - وذلك أن قوم طعمة بن الابيرق عرفوا أن طعمة سارق وعلى الرغم من ذلك سألوا النبى ﷺ أن يدافع عنه ويبرئه من السرقة، وينسبها إلى اليهودى، فهم بذلك يريدون أن يوقعوا الرسول ﷺ فى ظلم هذا اليهودى والخطأ فى حقه.

● على أن الحق والحقيقة أنهم ما يضرونك بذلك ولن يستطيعوا لا فى الحاضر ولا فى المستقبل لأن الله تعالى عصمك، ولأن هذه العصمة مستمرة.

- ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ .

الكتاب : القرآن الكريم. والحكمة : السنة النبوية المطهرة .

وقد منحك الله تعالى هذا وذاك ليعصمك بهما عن الخطأ فى الحكم، أو ليكون لك بهما عذرك فى أن تبنى الأحكام على الظاهر، وتدع للناس ما فى قلوبهم من نوايا لايعلمها إلا الله تعالى .وذلك هو الأصل الذى قرره الله تعالى فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

- ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .

أى أن الله تعالى أنزل عليك الكتاب وألهمك الحكمة وأطلعك على أسرارهما وحقائقهما، مع أنك ما كنت من قبل عالما بشىء منهما وكذلك يفعل الله معك فى مستقبل أيامك، فلا يستطيع أحد من الناس كافرا أو منافقا أو ضالا من المسلمين - كما ضل قوم طعمة - أن يضلوك أو يدفعوك إلى الخطأ .

ولهذا كان فضل الله عليك عظيما، لأن العلم الذى منحك إياه هو أعظم الفضل وأشرف الدرجات .

- ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

والمعنى العام : هو تقرير أن كل المتناجين من الناس، وكل ما يتناجى به الناس ويخوضون فيه من حديث لاخير فيه، ويستثنى من ذلك ثلاثة أعمال من الخير ينبغى أن يتناجى الناس فيها وهى :

- الأمر بالصدقة : وهى إعطاء المال لمن يستحقه وعدم البخل به .

- والأمر بالمعروف : وهو الأمر بفعل الخير الذى يعود على الناس بما ينفعهم فى دينهم ودنياهم .

- والإصلاح بين الناس : وهو العمل على إزالة الضرر عنهم أى ما يقع بهم من ضرر فى دينهم أو دنياهم . وهذه الثلاثة الأعمال هى مجامع الخير كله، ومن قام بها فقد أرضى الله تعالى وعرض نفسه لثوابه، بشرط واحد هو أن يقصد بها وجه الله تعالى، عندئذ ينال عند الله أجرا عظيما .

● ومن المقرر فى شريعة الإسلام ونظامه أن كل عمل يقوم به الإنسان لابد فيه من الإخلاص

لله تعالى وصرف النظر عما سوى رضوانه سبحانه وتعالى.

- ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾.

● المشاقَّة: المعاندة والمخالفة. ومشاقة الرسول ﷺ تعنى الارتداد عن الإسلام، كما حدث من طعمة بن أبيرق فإنه كان قد أسلم وتبين له ما دلّه على صحة نبوة محمد ﷺ، وكان أقوى دليل لديه ما أوحاه الله تعالى إلى نبيه من أمره، وما أوحى فى شأن السرقة والخيانة، وكل ذلك كان أدعى إلى أن يزداد إيمانا، لكنه عادى رسول الله ﷺ، وارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين، فكان طعمة بذلك من اتبع سبيلا ومنهجا غير سبيل المؤمنين ومنهجهم، وهو الكفر وعبادة الأوثان.

● والآية الكريمة عامة فى شأن كل من شاقّ الرسول ﷺ واتبع منهجا غير المنهج الذى اختاره الله للمؤمنين وأمر رسوله ﷺ بإبلاغهم إياه، إذ هو المنهج الصحيح المتكامل الواجب الاتباع بكل تفاصيله.

● ومن يشاقق الرسول ﷺ ويتبع غير سبيل المؤمنين فإن الله تعالى يتركه وما اختار لنفسه ويكله إلى ما توكل عليه، أى يخذله ويغضب عليه، ويجزيه فى الآخرة جهنم وهى أسوأ مصير يصير إليه الإنسان.

● وفى الآية الكريمة وعيد شديد لهؤلاء المشاقين الذين يختارون منهجا آخر غير منهج المؤمنين.

- ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾.

● هذه الآية الكريمة فى خصوصيتها تصف ما آل إليه أمر طعمة بن أبيرق من مشاقة أدت إلى الارتداد والشرك وعبادة الأوثان، وتلك جريمة لايغفرها الله تعالى، ولكنه يغفر ما دونها من الجرائم.

● أما الآية فى عمومها فتقرر حقيقة هامة فى كل زمان ومكان وهى أنّ الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً، حتى الكبائر منها، ما لم يحدث شرك به سبحانه وتعالى.

وقد تكررت هذه الآية الكريمة فى هذه السورة مرتين:

– فى هذه الآية ذات الرقم: ١١٦ .

– وفى الآية الكريمة ذات الرقم: ٤٨ .

وهذا التكرار فى السورة الواحدة يعنى زيادة التأكيد على أمرين هامين هما:

– أنّ الشرك جريمة كبرى لاتغفر، وصاحبها يفترى إثما عظيما . ويضل بشركه هذا ضلالا بعيدا .

– وأنّ ما هو أقل من الشرك من الذنوب يغفره الله تعالى، حتى لو كان من الكبائر .

– ﴿ إن يَدْعُونَ من دُونه إلاَّ إنَاثًا وإن يَدْعُونَ إلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إلاَّ غُرُورًا (١٢٠) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ .

● هذه الآيات الكريمة تفسر كيف كان الضلال بعيدا عن الحق وعن الصواب بسبب هذا الشرك، وبُعْد الضلال يعنى كثرته وعمقه، وذلك يتمثل فى أمرين:

– الأول:

عبادة الأوثان، وكان المشهور منها عند عرب الجاهلية ثلاث: اللاَّت، والعُزَّى، ومناة، وهى أصنام أطلقوا عليها أسماء الإناث .

وقال الحسن رحمه الله تعالى: لم يكن حيّ من أحياء العرب إلا ولهم صنم يعبدونه ويسمونه: أُنثى بنى فلان .

وقد يكون المقصود بالإناث الملائكة، لأن بعض العرب يزعمون أن الملائكة بنات الله، ولذلك عبدوها .

–الأمر الآخر:

عبادة الشيطان الكامن فى كل صنم مما يعبدون، والذى يزعم السدنة أنه يتراءى لهم ويكلمهم ويأمرهم وينهاهم!!!

وقال بعض العلماء: المراد بالشيطان فى هذه الآية الكريمة إبليس لعنه الله.

والشيطان أى شيطان أو إبليس نفسه شديد البعد عن الطاعة مُغْرق فى المعصية، ولذلك وصف فى الآية الكريمة بانه مريد أى متمرد قوى فاجر، ولذلك استحق لعنة الله تعالى وطرده من رحمته.

● وهذه الآية الكريمة توضح ما قاله الشيطان الأكبر إبليس لرب العزة سبحانه وتعالى، وكانت للشيطان مقولات عديدة كلها من الباطل ومن الشر والفساد، وهذه المقولات هى:

– **المقولة الأولى:**

قوله لرب العزة: ﴿ **لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً** ﴾ أى عـدداً من الناس هم الذين يتبعون خطواته ويقبلون وساوسه.

– **المقولة الثانية:**

هى قوله: ﴿ **وَلأُضِلَّنَّهُمْ** ﴾ اى عن الحق والصواب وبإغرائهم بالشرك وبالباطل وبالشر والفساد.

– **والمقولة الثالثة:**

﴿ **وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ** ﴾ بأن يلقى فى قلوبهم الأمانى الكاذبة، وهذه الأمانى من أقوى وسائل الإضلال، فالذى تعشعش الأمانى الكاذبة فى عقله سريعا ما تضله ثم تلغيه نهائيا إذ هو تعلق بها وشغلته، ومجمل هذه الأمانى الخادعة الكاذبة أمران:

– الحرص: أى البخل، بحب المال لذاته ورفض إعطائه لمن يستحقه.

– والأمل: بمعنى الغفلة عن الآخرة والتعلق الشديد بالدنيا.

– **المقولة الرابعة:**

﴿ **وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ** ﴾ أى يقطعونها – وهو ما كان يفعله أهل الجاهلية من قطع أذُنى البحيرة أو شقها إذا ولدت خمسة أبطن، وجاء البطن الخامس ذكرا، فيحرمون على أنفسهم الانتفاع بها.

وهذا ضلال وإضلال لما فيه من تحريم ما أحل الله.

– والمقولة الخامسة :

﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾

وخَلْق الله فى هذه الآية يحتمل معانى ثلاثة :

الأول :

هو الدين أى تغيير الدين الذى فطر الله الناس عليه، فمن كفر بإضلال الشيطان فقد غيّر فطرة الله أى دينه، ويؤيد هذا التفسير ما رواه الترمذى بسنده عن بى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على المِلّة – وفى رواية لأبى يعلى على الفطرة – فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يشركانه » . قيل : فمن هلك قبل ذلك ؟ قال :

« والله أعلم بما كانوا عاملين »

وهذا النوع من التغيير تغيير معنوى .

والمعنى الثانى :

تغيير يعنى جعل الحرام حلالا، والحلال حراما، والأصل فى الحلال والحرام هو ما أحلّ الله وما حرم، وليس ما يوسوس به الشيطان .

وهذا النوع من التغيير تغييرٌ معنوى أيضا .

والمعنى الثالث :

تغيير يتناول ما هو ظاهر من شكل الإنسان وأعماله مثل :

وصل الشعر، والوشم، وتفليج الأسنان، والإخصاء، وقطع الآذان، وفقء العين، ونحو ذلك .

ومنه ترجل النساء وتخنث الرجال، والسحاق، واللواط وسائر الأعمال الشاذة، وهى تتم بوسوسة الشيطان كذلك .

وهذا النوع من التغيير تغييرٌ مادىّ، وهو ضلال وإضلال .

– ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ .

والمعنى أنَّ مَنْ فعل ما أمره به الشيطان، وترك ما أمره الله به، وما نهاه عنه فقد اتخذ الشيطان وليا لنفسه، وترك ولاية الله تعالى، وبذلك خسر خسراناً مبينا، لأن طاعة الله

تجلب المنافع العظيمة الخالصة من شوائب الضرر، المستمرة فى الدنيا والآخرة.

وطاعة الشيطان تجلب الضرر، فإن أتت بشيء ظاهره النفع فإنه نفع منقطع مشوب بالغم والحزن والألم.

● ولا يمكن الجمع بين ولاية الله تعالى وولاية غيره، بل هذا هو المستحيل.

ومن فاته أشرف المطالب وأجلها بسبب أخس المطالب وأحقرها، فلا شك أن هذا هو الخسار المطلق.

- ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾.

والمعنى: أن كل عدات الشيطان وأمنياته ليست إلا من الغرور ولا تفيد فى شيء إلا فى الأوهام الخادعة - إن كانت تلك فائدة - وذلك أن الإنسان يظن بالشيء أنه نافع ولذيذ، ثم يتبين له اشتماله على أعظم الآلام وأكبر المضار النفسية والبدنية والاجتماعية، وهذا شأن كل ما يوسوس به الشيطان، والعاقل هو الذى لايلتفت إلى شيء من وسوسته.

- ﴿ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً ﴾.

أى أولئك الذين استجابوا للشيطان فاغتروا بما زيَّن لهم من الخطأ والباطل، مأواهم جهنم عقابا لهم على الاستجابة للشيطان؛ فمن كانت استجابته للشيطان فسقا وعصيانا كان جزاؤه الورود على جهنم مدة تساوى جرمه، ومن كانت استجابته له كفرا كان جزاؤه الخلود فى جهنم.

- ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾.

● الخلود: طول المكث والدوام.

● أبداً: أى على التأبيد وهو الاستمرار: إلى ما لا نهاية له.

- وفى حق الكفار يرد التأبيد فى نار جهنم إلى ما لانهاية له، أما فى حق عصاة المؤمنين فلم يرد تأبيد لهم فى النار مما يدل على أن عقاب الفساق والعصاة منقطع بعد حين وليس أبديا.

- ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾.

أى أن ما وعد الله به عباده المؤمنين الصالحين حق لا شك فيه ولا مراء.

- ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ هذا توكيد لما وعد الله به المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ووعد الله حق وصدق.

● ومن التدبر فيما وعد الله به المؤمنين الذين يعملون الصالحات وما أوعد به الكفار والمنافقين، يمكن الوصول إلى الاقتناع بالعمل الذى يرضى الله تبارك وتعالى لأنه وفق منهجه ونظامه والابتعاد عن العمل الذى يغضب الله ورسوله، لأنه من وسوسة الشياطين.

هذا موضع التدبر فى تلك الآيات الكريمة، فليتدبر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة، وهى كثيرة، يفيد منها المسلمون فى حياتهم النفسية والعقلية والبدنية والاجتماعية والسياسية.

ومن هذه المواقف ما نذكر بعضه فيما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ ما يلى:

أ - أن القرآن الكريم يتضمن الحق فى كل ما جاء به وما جاء فيه - وأن كل ما تشتمل عليه حياة الإنسان إما أن نجده فيه، وإما أن نجد دلالة عليه فى هذا الكتاب العظيم.

وأن الأخذ بما جاء فى القرآن الكريم هو الأصل وهو الحق وهو ما يحتاج إليه المسلمون لإصلاح شئونهم كلها فى الدنيا وفى الآخرة.

ومعنى ذلك أن المسلمين لاتضطرب أمورهم ولا تسوء أحوالهم ولا يضعفون سياسيا واقتصاديا وخلقيا إلا إذا هجروا ما جاءهم به القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ب - ويتعلمون أن رسول الله ﷺ كان يحكم بين الناس بأمرين أو مصدرين أو قانونين هما:

- القرآن الكريم، فقد أنزله الله عليه ليحكم به .

- وما علّمه الله تعالى من حكمة وهى كلماته ﷺ وأعماله وإقراراته .

ومعنى ذلك أن كل من يحكم المسلمين من خليفة أو أمير أو قائد، أو قاضٍ فإن عليه أن يتجه إلى هذين المصدرين يأخذ منهما ويحكم بين الناس.

وله أن يجتهد بعد ذلك ما وسعه اجتهادا شخصيا يستند إلى علمه ومعرفته وقدرته على فهم نصوص الإسلام.

وليس له أن يدعى أنه ملهم أو أن الله تعالى علمه كذا أو أراه كذا فإن ذلك ليس لأحد إلا لرسول الله ﷺ، وقد أوضح ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين قال: « لايقولن أحدٌ أحكم بما أرانى الله، فإن الله تعالى لم يجعل ذلك إلا لنبيه، وأما الواحد منا فرأيه يكون ظنا ولا يكون علما » .

جـ - ويرى بعض العلماء أنه لا حكم إلا بالنص وحده - أى القرآن والسنة - وهو رأى مرجوح - لأن النص كثيرا ما يحمل دلالات ومعانى ومضامين تحتاج إلى شرح وتعليل واستنباط، وهذا نوع من الاجتهاد - فى فهم النص- لا خلاف فى جوازه، وهو يؤخذ به إلى جوار الأخذ بالنص.

وكذلك يؤخذ بالقياس لأنه لايتعارض مع النص، والقياس حجة والعَمل به واجب فى كثير من الأحيان.

وبعض العلماء يرون أن العمل بالقياس هو العمل بعين النص، مستندين إلى هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ قال فخر الدين الرازى فى تفسير هذه الآية: « ... التقدير كأن الله تعالى قال: مهما غلب على ظنك أن حكم الصورة المسكوت عنها مثل حكم الصورة المنصوص عليها بسبب أمر جامع بين الصورتين، فاعلم أن تكليفى فى حقك أن تعمل بموجب ذلك الظن، وإذا كان الأمر كذلك كان العمل بهذا القياس عملا بعين النص »(١).

د - وأن المسلم مطالَب بأن لا يدافع أو يخاصم أو يجادل عن أحد من الخونة، وإنما عليه أن يتبين أنه أهل لأن يدافع عنه بحيث لا يسمع فيه إلى أقوال آخرين ربما انخدعوا فيه أو خافوا عليه أو آثروه على غيره من الناس فالله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَكُن

---

(١) الرازى: التفسير الكبير: ١١/٢٧ مرجع سابق.

﴿لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ ومن وقع منه شيء من ذلك أو مال قلبه إلى ذلك فليستغفر الله الغفور الرحيم.

هـ - وأن من الناس من يستخفون باعمالهم من الناس ولا يستخفون من الله الذى علم غيب السموات والارض، ويعلم ما يضمر هؤلاء من شر، وما يرغبون فيه من ظلم الابرياء، حتى لو كان هذا البرىء على غير دين الإسلام كمثل هذا اليهودى الذى اتهم فى الدرع... فإن الله تعالى لا يجيز الظلم وإنما حرمه مطلقا بين الناس جميعا مسلمين وغير مسلمين.

ومن ظلم أحدا بدفاعه عن خائن فقد استحق عقاب الآخرة وهناك لايجد من يجادل عنه الله تعالى هو يوقع به العقاب، وكذلك شأن كل من أراد أن يخالف الحق، أو يظلم أحدا من الناس أو يحابى أحدا على حساب الحق.

٢ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ ما يلى:

أ - أنّ القاعدة العامة التى تفضل الله تعالى بها على عباده هى: أنْ وسعتهم رحمته وشملتهم مغفرته إذا هم تابوا واستغفروا الله. وهذا من أقوى الأدلة على حب الله لعباده التائبين المستغفرين.

● فكل عمل يقوم به الإنسان لايرضى الله تعالى لأنه مخالف لما أمر ولما نهى لتضمنه ظلم نفسه، فما عليه إلا أن يتوب ويستغفر، ولو كانت ذنوبه مثل زبد البحر، عندئذ يجد الله غفورا رحيما.

روى أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة وأحمد بأسانيدهم عن أبى بكر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يذنب ذنبا فيتوضأ فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ركعتين ثم يستغفر الله بذلك الذنب إلا غفر الله له».

ب - وأنّ قاعدة أخرى هى من أهم قواعد العدالة فى مجازاة كل أحد بما عمل هى أنّ:

من يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه، وهى بنفس معنى ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [فاطر : ١٨] فليس فى الإسلام احد يُحاسب عن أحد، أو يحمل ذنوبه وخطاياه، وإنما كانت تلك القاعدة العادلة لأنها نابعة عن علم الله تعالى وحكمته.

جـ - وأنَّ من أكبر الجرائم أن يرتكب الإنسان إثما ثم يتهم به إنسانا بريئا، فهذا العمل غش وتزوير وكذب وبهتان وظلم، فهو مجموعة من الكبائر لا كبيرة واحدة، وقد حرم الله تعالى ذلك كله، لأن الله تعالى يحفظ لكل إنسان حقه كاملا ويمنع من الاعتداء عليه، ومن فعل شيئا من ذلك فاتهم بريئا فقد احتمل بهتانا أى كذبا وافتراءً واحتمل عقاب ذنب كبير يجزيه الله عليه فى الآخرة.

د - وأن على المسلم أن يكون حذرا فلا يصدق كل ما يقال له وإنما عليه أن يتحرى ويدقق، وأن لم يفعل ذلك فإنما هو مضلل للعدالة ومائل عن الحق ومستحق لعذاب الله، وما يضر بذلك إلا نفسه فيوقعها فى حرج مع الله تعالى. وما هو ببالغ بعمله ذلك أن يضر الله أو يضر رسوله ﷺ، بل ولا ضرر المسلمين، فالله تعالى تفضل علينا بأن أنزل الكتاب على رسوله ﷺ وعلمه ما لم يكن يعلم من قبل، ليعلمنا ويبصرنا فى أمور ديننا ودنيانا، وليحذرنا أعمال المنافقين وكيدهم كما يفهم ذلك من هذه الآية الكريمة ومن قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٢، ٥٣].

٣ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ ما يلى:

أ - أن أكثر ما يتناجى به الناس وما يخوضون فيه من أحاديث لانفع فيه، بل قد يحمل الضُّر والشر لهم ولغيرهم، باستثناء أمور ثلاثة تكون فيها النجوى من الخير. وهى:

- الصَّدَقة: والتواصى بها، وهى أعم من أن تكون نفعا ماديا فقط، فقد تكون علما وقد تكون خدمة وقد تكون شفاعة، وقد تكون تعاونا على البر والتقوى، وكل ذلك من الخير

الذى يتناجى به الناس.

- والامر بالمعروف أو النهى عن المنكر، فالامر بالمعروف يشدّ ظهر المؤمن ويقوى موقفه ويشجعه على المضى فى طريقه، ويوقفه عن الفسق بل يقمعه قمعا، فهذا من التناجى بالخير.

- والإصلاح بين الناس مختصمين أو متخاصمين والعمل على إزالة ما بينهما من خصام وخصومة هو من التناجى فى الخير الذى يؤمن للمجتمع حياة إنسانية كريمة.

● لكن يشترط لأجل أن تكون النجوى فى الخير أن تكون ابتغاء مرضاة الله، فإن كانت للرياء والسمعة فإنها تكون من نجوى الشر.

ب - وأن مشاقّة الرسول ﷺ كفر بواح، له عند الله تعالى أخزى الجزاء وأسوأ المصير.

والمشاقة - كما قلنا - تعنى المخالفة له ﷺ والمعاندة، وترك منهجه وإهمال سنته وهديه، فضلا عن التهجم على السنة والزراية بها - كما يحدث من بعض المارقين أدعياء العلم.

جـ - ويتعلم المسلمون أنّ من يتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين أيًّا كان هذا السبيل المتَّبع فإنه خارج عن منهج الله مُتَحدٍّ لنظامه وشريعته، مهما زين الناس له هذا المنهج ومهما رأى فيه من بهرج وزيف، من يفعل ذلك يتركه الله تعالى لما تولاّه من باطل وضلال، ويدعه لمن ناصره من كاهن أو متعالم، ولما سيطر عليه من هوى، وذاك الترك هو منتهى الخذلان، وله فى الآخرة مأوى يخصه فى جهنم وساء ذلك المأوى مصيرا له.

٤ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا (١١٦) إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢٠) أُوْلَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ

قِيلاً﴾ ما يلى :

أ - أنّ الشرك بالله يعنى اتخاذ شريك له، وهذا أقبح الكفر وهو الشرك الأكبر.

وعبادة هذا الشريك مع الله أو عبادته وحده يعنى خلود المشرك فى جهنم، كما دلت على ذلك هذه الآية الكريمة، وقوله تعالى فى آية أخرى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

أما الشرك الصغير فهو مراعاة غير الله تعالى مع الله فى بعض الأمور، وهو ما يعرف بالرياء أو النفاق المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠،١٩١]، وأن ذلك المشرك جزاؤه عند الله عظيم يساوى جريمته.

ب - ويتعلم المسلمون أنّ من رحمة الله بعباده أن يغفر لهم مادون الشرك حتى لو كان من الكبائر، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ لكن بشرط التوبة والاستغفار.

● وبعض العلماء يقولون: إن هذه الآية دليل على مغفرة ما دون الشرك - دون شرط التوبة - وهو رأى ضعيف.

جـ - وأنّ الشرك ضلال بعيد، وإنما عدّ ضلالا بعيدا لأن من يشرك بالله فقد ذهب عن طريق الحق وتخبط فى طرق الضلال، وأطاع الشيطان وعصى الله تعالى وترك طاعته وذهل عن منهجه، وذلك خسران للدنيا والآخرة معاً وبهذا سمى ضلالا بعيدا.

د - وأنّ هؤلاء الضالين ضلالا بعيدا بشركهم، ما يعبدون من دون الله إلا ما يؤكد بعدهم فى الضلال وعمقهم فيه، فهم يعبدون أصناما وأوثانا وكواكب وشياطين وأناسى كثيرا، وكل ذلك يؤكد أنهم على ضلال بعيد.

● وهؤلاء الممعنون فى الضلال بشركهم، هم أجهل خلق الله تعالى وأبعدهم عن العلم والمعرفة، وأضْعَفُهم عقولا وقلوبا وأبعدهم عن الفطرة السليمة التى خلق الله الناس عليها.

هـ - وأن صراع الشيطان مع الإنسان صراع قديم من يوم رفض إبليس أن يسجد لآدم كما أمره ربه ليختبر طاعته.

وصراع الشيطان مع الإنسان يأخذ صورا عديدة لا تكاد تحصى، لكن يجمعها كلها أن الشيطان يغرى الإنسان بمعصية الله والخروج على شرعه ومنهجه - وقد ضربنا لذلك بعض الأمثال: كتغيير خلق الله وإشاعة الفاحشة ونحو ذلك - وإن فعل شيئا من وسوسات الشياطين فقد أطاع الشيطان وعصى الله واستحق بذلك أن يكون مأواه جهنم ولا يجد عنها محيصا.

و - وأنّ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إيماناً لم يداخله شرك وعملا صالحا لم تختلط به المعاصي؛ هؤلاء لهم عند الله تعالى مكافأتان:

إحداهما: دخول الجنة التي تجري من تحتها الأنهار.

والأخرى: الخلود في هذه الجنة حيث الحياة فيها بلا موت؛ ذلك وعد الله لهم، ووعده الحق والصدق، ومن أصدق من الله قيلا؟.

المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة في هذه الآيات الكريمة:

يتعلم منها الدعاة والحركيون ما لابد لهم منه لكي يمارسوا الدعوة والحركة، ويعملوا على التمكين لدين الله في الأرض، وذلك ما نشير إلى بعضه فيما يلي:

١ - يتعلم الدعاة العاملون في الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ مايلي:

أ - أنّ نجاح الناس وفلاحهم في الدنيا والآخرة سبيلٌ واحدةٌ هي: أن يُحكّموا بكتاب الله، وبسنة رسوله ﷺ.

وأن كل دعوات الإصلاح الإسلامية تستهدف أن يحكم الناس بما أنزل الله على رسوله الخاتم محمد ﷺ، وأن الطريق إلى تحقيق ذلك محفوفة بالمتاعب والشدائد والعراقيل، لأن أعداء الله ومنهجه لن يستسلموا لحكم الله ورسوله ومنهجه ونظامه، لأن الشيطان يوهمهم أن فيما يضعونه من قوانين غَنَاء عن منهج الله، ولأنهم لو طبق عليهم منهج الله لحرمهم من

كثير مما يحصلون عليه دون حق لهم فيه.

ب - ويتعلم الدعاة إلى الله ان الشريعة الإسلامية التى اجازت قتال الكفار وقتلهم وأسرهم فى ظروف بعينها، إلا انها لاتبيح ظلمهم ولا خيانتهم ولا رميهم بتهمة هم أبرياء منها، وإنما تجعل الكافر والمسلم فى الحق وفى التقاضى سواء، يفهم هذا من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ والخطاب فى الآية للرسول ﷺ ولكل حاكم أو قاض أو فرد من المسلمين.

والخائن فى هذه الآية هو طعمة - وهو مسلم - وقد نُهى النبى ﷺ أن يخاصم عنه وينصره على اليهودى على الرغم من ان النبى ﷺ قد مالت نفسه إلى نصر طعمة لما قدمه قومه من توصيات وشفاعات، بل أُمر النبى ﷺ بالاستغفار من انه هَمَّ بذلك وإن لم يفعل.

● وتلك هى أحكام الإسلام وأخلاقياته فى التعامل مع غير المسلمين يهوداً ونصارى ومشركين، فإن كونهم كذلك لايبيح مجرد اتهامهم بما هم أبرياء منه، فضلا عن أن يقع عليهم أى نوع من الظلم أو الخيانة.

جـ - وأن الله تعالى حرم الخيانة مطلقا، واعلن أنه لا يحب من كان خائنا لنفسه أو لغيره من الناس مسلمين أو غير مسلمين، وعند التدبر نجد ان الخيانة إفساد للعلاقات التى يجب أن تسود بين الناس عموما، وبذلك يفسد المجتمع ويتعادى أفراده وجماعاته.

● وهذا درس عظيم يجب أن يوليه الدعاة إلى الله أهمية كبيرة، إذ عليهم أن يوضحوا للناس أن إعانة الظالم على ظلمه والفاسق على فسقه إثم ومعصية، وأن إلصاق تهمة ببرىء إثم ومعصية كذلك.

● وفى تعلم هذا الدرس تنقية للمجتمع من الظلم والظالمين ومن الفسق والفسقة ومن الذين يحبون أن يلصقوا التهم بالابرياء.

د - وعلى الدعاة أن يفقهوا الناس بأن الجريمة لاتسقط العقوبة عليها لان الحاكم أو المسئول لم يعرفها بسبب أخفيت عنه لان وراء ذلك عقابا أخرويا يطبقه على المجرم مَنْ لاتخفى عليه خافية سبحانه وتعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾.

● وكيف يتصور هؤلاء المجرمون أنهم يمارسون إجرامهم فى خفية عن الله تعالى وهو يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥] ويقول: ﴿يَعْلَمُ

خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ⑲ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ١٩، ٢٠].

- وهذه هي صيانة الإسلام للمجتمع من أخطاء الناس، فلا يجعل حسابهم إلى الحاكم والعسس والشرطة، وإنما يكل ذلك إلى أخلاقهم وضمائرهم ودينهم واعتقادهم أن الله تعالى لاتخفى عليه خافية وأنه محاسب على كل خطأ يرتكبه مخالف لأمره أو نهيه سبحانه وتعالى.
- وما أفلح الحاكم ولا مخابراته وشرطته فى منع جريمة، لأن الاحتيال على القانون والنظام أصبح مهنة فى المجتمعات التى تطبق قوانينها الوضعية، وكلما ضيق واضعوا القانون خناقهم على المجرمين، بحث أصحاب مهنة التحايل على القوانين الوضعية عن ثغرة ينفذ منها المجرم دون عقاب!!!

هـ - ويتعلم الدعاة إلى الله أن أعمق الدروس من هذه الآيات الكريمة هو إحقاق الحق، ولذلك يحرم على المسلم أن يشفع لمجرم أو يطلب له الشفاعة لما بينهما من روابط الدم والقربى والجوار وغيرها من الوشائج، لأن الحق يجب أن يعلو على كل تلك الروابط، لأن الحق هو الله سبحانه وتعالى، وهو القرآن الكريم والسنة النبوية وهو دين الإسلام خاتم الأديان، وهو المنهج والنظام الذى اختاره الله لعباده، والنص القرآنى الكريم يعلن لكل الناس ولكل زمان ومكان: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥].

- تلك وظيفة الدعاة إلى الله، وهذه هى الأخلاق التى شرعها الله تعالى ليلتزم بها عباده، فعليهم أن يعلموا الناس ذلك. فتلك هى الأصول التى تقوم عليها الدعوة إلى الله.

٢ - ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑪⓪ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ⑪⑪ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ⑪⑫ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ ما يلى:

أ - أنّ الدعوة إلى الله وأن التحرك فى الناس بالإسلام منهجا ونظاما، وأن العمل على تمكين دين الله فى الأرض، كل ذلك أساسه الرحمة والتسامح مع المخطئين فى هذه المجالات كلها، فليس الدعاة إلى الله قضاة بين الناس ولا يملكون بالدعوة سلطانا على الناس يحاسبهم ويعاقبهم.

● وعلى الدعاة إلى الله ان يتذكروا دائما ان الناس خطاءون بحكم فطرتهم، وأن الدعوة إلى الله صدرها يتسع لكثير من هذه الاخطاء وأنها تعلم الخطائين التوبة إلى الله والاستغفار من الذنوب.

● ولا يجوز للدعاة أن يشقوا على الناس أو يكونوا غلاظا فى التعامل معهم، فإن أوليات فقه الدعوة هى الحكمة والموعظة الحسنة، والله تبارك وتعالى يقول لسيد الدعاة إليه ورائدهم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فما بال الدعاة إلى الله الذين يترسمون خطا رسول الله ﷺ؟.

ب - وأنّ من الفقه فى الدين اعتبار عمل السوء ظلماً لنفس من عمله أولا، ثم هو ظلم لتكاليف الله تعالى التى عطلها بعمله السوء، وهو ظلم للناس والمجتمع.

● وعمل السوء هو - كما دلّت على ذلك هذه الآية الكريمة وكثير من آيات القرآن الكريم هو كل قبيح أو كل ما حرمه الله، والعلماء يقولون هو كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية والاجتماعية... ويدخل فى العمل السيىء كل ما نهى الله عنه من كفر ونفاق وقتل للنفس عمدا وغصب وسرقة وزنى وشرب خمر، وعقوق للوالدين، ومفردات هذه الأعمال السيئة مما لا نستطيع إحصاءه هنا.

● كل تلك الأعمال السيئة إذا تبعتها توبة وندم، واستغفار، فإن رحمة الله تتسع لمحو آثارها، فما بال بعض الدعاة يتشددون؟ فقد روى أبو داود بسنده عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصَرّ من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة».

وروى أبو داود بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا، ومن كل هم فرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب».

وروى أبو داود بسنده عن عليّ رضى الله عنه قال: كنتُ رجلا إذا سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثا نفعني الله منه بما شاء أن ينفعني به، وإذا حدثني أحد من أصحابه - رضى الله عنهم - استحلفته، فإذا حلف لى صدقته، قال: وحدثنى أبو بكر - رضى الله عنه - وصدق أبو بكره أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور، ثم يقوم فيصلى ركعتين، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

● وعلى الدعاة إلى الله أن يعلموا الناس الاستغفار، وأنه مصحوب بالتوبة والندم والإخلاص وأن سيد الاستغفار هو ما رواه البخارى بسنده عن شداد بن أوس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. قال: ومن قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة. ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة».

هذا من صميم عمل الدعاة إلى الله، فهم المبشرون وهم الرحماء ورثة الأنبياء، وقد أمرهم الرسول الخاتم ﷺ بالتبشير والتيسير، فقد روى مسلم بسنده عن أبى موسى - رضى الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدا من أصحابه فى بعض أمره قال: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا».

هذه هى روح الإسلام فى التعامل مع الناس إذا أخطأوا .. وقاعدة الإسلام العامة هى: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون».

● أما أولئك الذين ينسبون أنفسهم إلى الدعوة إلى الله ثم يضيقون على الناس ما وسع لهم من رحمته، ويغلقون دونهم ما فتح الله لهم من أبواب توبته، فليسوا على فقه بالدين ولا بالدنيا، وهم يقينا ليسوا على فقه بالدعوة إلى الله، بل هم أبعد ما يكونون عن ذلك.

جـ - وعلى الدعاة إلى الله أن يبصروا الناس بأن من ارتكب إثما أو خطيئة ثم رمى به إنسانا بريئا - مهما كان دينه ومهما كانت عداوته للمسلمين - فقد أجرم جريمتين كلا منهما تستحق العقاب.

إحداهما:

البهتان وهى رمى برىء بأمر منكر، وتلك كبيرة.

والأخرى:

نتيجة هذه الجريمة وهى العقاب الذى ينتظره عند الله تبارك وتعالى يوم القيامة وتلك ظلم النفس وهى كبيرة أيضا لأن الله تعالى نهى عن الظلم بكل صوره وأشكاله ومع أى أحد من الناس، بل حرم أن يقع الظلم على الحيوان والأشياء!!!

د - وأن على الدعاة إلى الله أن يبصروا الناس بأن فضل الله عليهم عظيم وأن رحمته بهم شاملة، وأنه لحبه إياهم يحول بينهم وبين الشر لو استجابوا لأمره ونهيه وهدى نبيه ﷺ، وأن من مارس الشر من الناس فإنه ما يضر بشره إلا نفسه أولا وأخيرا ودنياه وأخراه، وأنه لن يبلغ بشره مهما عظم أن يضر الله ولا رسوله ولا المؤمنين.

وذلك يجعل المؤمن قوى الإيمان عظيم التوكل على الله لا يخاف إلا الله ولا يلجأ إلا إليه.

هـ - وأن فضل الله على نبيه ﷺ وعلى المؤمنين عظيم، وأن لهذا الفضل مظاهر يجب أن يحس بها الناس وأن يتدبروا فى الحكمة منها ثم ينتفعوا بما شاء الله لهم أن ينتفعوا به منها.

ومن مظاهر هذا الفضل والتفضل ما يلى:

- أن أنزل الله تعالى على نبيه القرآن الكريم وأمره بتبليغه للناس وأمر الناس أن يتحاكموا إليه ليشعروا بالأمن والعدل والاطمئنان.

- وأنْ أَعْطى الرسول ﷺ الحكمة، وأمره أن يعلمها الناس. والحكمة - كما أوضحنا غير مرة - إصابة الحق بالعلم والعقل، وأحاديث الرسول ﷺ والنبوة ذاتها، فهذا فضل من الله عظيم وعميم.

- وأنْ علَّم الرسول ﷺ ما لم يكن يعلم، وأمره أن يعلم الناس ما علمه الله.

وكل ذلك من فضل الله تعالى على نبيه وعلى المؤمنين.

٣ – ويتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ما يلي:

أ – أنّ الصدقة من خير ما يتناجى به الناس أو يتواصون بفعله. وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أمورا عديدة في الصدقة، في توضيحها مزيد إغراء للناس بأن يكونوا من المتصدقين، وتلك الأمور هي:

– أنها تطفئ خطايا المتصدقين كما يطفىء الماء النار: فقد روى الترمذي بسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر.... ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار.....».

– والصدقة هي ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة إلى الله تعالى كالزكاة الواجبة، ولكن الصدقة في الأصل تطلق على المتطوع به، والزكاة تطلق على الواجب.

– وأن الصدقة تطلق على ما تنازل عنه الإنسان من حقه فكأنه تصدق به، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٩٢]. وفي قوله تعالى: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ [النساء: ٩٢].

– وأن المسلم الذي يناجي أخاه ويتواصى معه بالصدقة لابد أن يكون هو من المتصدقين.

– وأن الصدقة أنواع:

صدقة بالمال، وصدقة بالجهد، وصدقة بالوقت، وصدقة بالعلم والتعليم، وصدقة بالجاه والشفاعة، وصدقة بالعرض بالتسامح مع الخائضين، وصدقة بالتنازل عن الحقوق المادية أو المعنوية، وصدقة بخدمة الآخرين والقيام بحوائجهم.

وكل هذه الأنواع وغيرها مما يستطيع أن يفيض فيه الدعاة إلى الله، وأن يؤيدوه بعشرات النصوص من الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ب – وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن للصدقة فائدتين جليلتين:

إحداهما:

تعود على المتصدق بالنفع والخير في نفسه ودينه ودنياه وأهله وولده وعقبه، وعمله.

والأخرى:

تعود على المجتمع كله بالخير والفائدة، وكل ما عاد على المجتمع بالنفع عاد على الفرد والجماعة والأمة كلها.

● ومن أجل هذا اهتمت نصوص القرآن والسنة بالحث على الصدقة، وهذه النصوص هى الزاد الذى يتزود به الدعاة إلى الله والمتاع الذى يساعدهم على المضى فى طريق الدعوة ويمكنهم من توصيلها إلى كل من يجب أن تصل إليه.

● ولاذكر هنا ببعض الآيات القرآنية الكريمة وببعض الأحاديث النبوية الشريفة:

– قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

– وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨]. وغيرها من الآيات الكريمة.

ومن الأحاديث النبوية الشريفة:

– روى أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سُلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع الشمس: تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل على دابته تحمله عليها أو ترفع له متاعه عليها صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة».

– وروى أحمد بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قلتُ يا رسول الله: ذهب الأغنياء بالأجر؛ يصلون ويصومون ويحجون، قال نعم: وأنتم تصلون وتصومون وتحجون. قلتُ: يتصدقون ولا نتصدق!!! قال: وأنتَ فيك صدقة: رفعك العظم عن الطريق صدقة، وهدايتك الطريق صدقة، وعونك الضعيف بفضل قوتك صدقة، وبيانك عن الأبكم صدقة، ومباضعتك امرأتك صدقة، قلتُ يا رسول الله: نأتى شهواتنا ونؤجر؟ قال: أرأيت لو جعلته فى حرام أكان تأثم؟ قال: قلتُ: نعم، قال: أفتحتسبون بالشر ولا تحتسبون الخير».

– وروى أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سلامى عن ابن آدم صدقة حين يصبح، فشقَّ ذلك على المسلمين فقال رسول الله ﷺ: «إن سلامك على عباد الله صدقة، وإماطتك الأذى عن الطريق صدقة، وإن أمرك بالمعروف

صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة».

- وروى أحمد بسنده عن أم بشر - امرأة زيد بن حارثة - رضى الله عنهما قالت: قال رسول الله ﷺ: «من غرس غرسا أوزرع زرعا فأكل منه إنسان أو سبع أو دابة أو طير فهو له صدقة».

- وروى أحمد بسنده عن المقدام بن معدى كرب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أطعمتَ نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة».

- وروى أحمد بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل معروف صدقة، ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وأن تفرغ من دلوك فى إنائه».

- وروى أحمد بسنده عن رافع - رضى الله عنه - وكان ممن شهد الحديبية - أن النبى ﷺ قال: «حسن الخُلُق نماء، وسوء الخلق شؤم، والبر زيادة فى العمر، والصدقة تمنع ميتة السوء».

- ورى أحمد بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، وكل تسبيحة صدقة وتهليلة صدقة وتكبيرة صدقة وتحميدة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهى عن المنكر صدقة، ويجزئ أحدكم عن ذلك كله ركعتان يركعهما من الضحى».

والأحاديث النبوية فى هذا المجال كثيرة تفيض بها كتب السنة لمن أراد أن يسترشد من الدعاة إلى الله.

جـ - وعلى الدعاة أن يبصروا الناس بالدعامة الثانية من دعائم الخير الثلاثة وهى «المعروف» مع تفقيههم بأهميته وأثره فى حياة الناس وأنه ليس أقل فاعلية من الصدقة أو من الإصلاح بين الناس، وهى دعائم الخير فى الآية الكريمة.

● والمعروف كلمة جامعة تعنى كل خير يقوم به الإنسان، أو يدعو إليه، فهو اسم لكل فعل عرف حسنه بالشرع أو بالعقل، وضد المعروف المنكر.

● والمعروف يقال للقول الحسن كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

- ويقال للسلوك الحسن، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

- ويقال للمعاشرة الحسنة بين الزوجين، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، ومن قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١].

● والآيات القرآنية الكريمة التي تأمر الناس بالمعروف وتنهاهم عن المنكر كثيرة، نذكر منها:

- قوله جل وعلا: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فتلك صفة النبي الخاتم ﷺ، وهو قدوة لكل مسلم.

- وقوله سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] فهذا أمر مباشر من الله تعالى بفعل المعروف والأمر به، والانتهاء عن المنكر والنهي عنه.

- وقوله جل شأنه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وتلك صفة الأمة الإسلامية التي اختارها الله لأداء وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد الإيمان بالله.

- وقوله سبحانه: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]. وهي صفات المجاهدين الذين باعوا لله أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة كما وعدهم الله تعالى.

- وقوله جل وعلا: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١] وهي صفة الذين يمكنهم الله تعالى في الأرض، بحيث لا يمكنون إلا إذا كان من صفاتهم الأمر بالمعروف.

● ومن الأحاديث النبوية الشريفة التي طالبت المسلمين بالأمر بالمعروف ما نذكر بعضه فيما يلي:

– روى أحمد بسنده عن درة بنت أبى لهب رضى الله عنها قالت: جاء رجل إلى النبى ﷺ وهو على المنبر فقال: يا رسول الله أى الناس خير؟ فقال ﷺ: «خير الناس أقرؤهم واتقاهم، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم».

– روى أحمد بسنده عن حذيفة بن اليمان – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال: «والذى نفسى بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم».

– وروى أحمد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه إلى النبى ﷺ قال: «ليس منا من لم يوقر الكبير ويرحم الصغير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر».

– وروى أحمد بسنده عن البراء بن عازب رضى الله عنه، قال: جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله علمنى عملا يدخلنى الجنة، فقال: لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة: أعْتق النسمة وفك الرقبة، قال: يا رسول الله أو ليستا بواحد؟ قال: لا إن عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين فى عتقها، والمنحة[1] الوكوف[2] والفيىء على ذى الرحم الظالم، فإن لم تطق ذلك، فأطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من الخير».

– وروى أحمد بسنده عن أبى موسىٰ الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده إن المعروف والمنكر خليقتان ينصبان للناس يوم القيامة، فأما المعروف فيبشر أصحابه ويوعدهم الخير، وأما المنكر فيقول: إليكم إليكم، وما يستطيعون له إلا لزوما».

- وفى كتب السنة النبوية المطهرة زاد لكل متزوِّد من الدعاة فليهرع إلى تلك الكتب الجليلة فهى خير الكتب بعد كتاب الله تعالى.
- وأنّ على الدعاة إلى الله أن يبصروا الناس بأهمية الإصلاح بين الناس، وكيف تعالج مشكلات المجتمع بهذا الإصلاح.
- والإصلاح فى العمل وفى الأمور كلها: هو الإتيان بما هو صالح نافع، مع إزالة الفساد.
- والإصلاح بين الناس هو: إزالة ما بينهم من عداوة وشقاق.

---

(١) المنحة هى الدابة أو الأداة أو الأرض تُعيرها، والمقصود فى الحديث الناقة.

(٢) الناقة الوكوف هى التى لا ينقطع لبنها.

● والآيات الكريمة الواردة فى دعوة الناس إلى الإصلاح كثيرة، منها ما جاء على وجه الوجوب، ومنها ما جاء على جهة الندب والاستحباب.

● فمن الآيات الدالة على وجود الإصلاح:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]. بمعنى: خافوا الله والتزموا أمره ونهيه فى المشاجرات والخلافات والتنازع واصلحوا نفس ما بينكم وهى الصلة التى تربط بينكم وهى رابطة الإسلام، وإصلاحها يكون بالوفاق والتعاون والمساواة، وترك الأثرة والبعد عن التفرق، وتجنب أسبابه ليحل محلها الوئام والإيثار وكل ما يعطف المسلمين بعضهم على بعض.

– وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠] وهذا أمر صريح من الله تعالى بالإصلاح بين المؤمنين، والأمر للوجوب.

– وقوله عز وجل: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

● وجاء الإصلاح فى القرآن الكريم فى مجال الندب والاستحباب فى الآيات الكريمة التالية:

– قال الله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠]، ففى الآية الكريمة وعد بقبول التوبة ممن اتصفوا بصفات التوبة والإصلاح وإعلان الحق للناس، وهؤلاء هم أهل الكتاب الذين أنكروا رسالة محمد ﷺ على الرغم من ورود صدقها وصحتها فى كتبهم.

– وقال جل شأنه: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩]، فهؤلاء مستثنون من عذاب الله إذا تابوا وأصلحوا.

– وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦].

– وقال جل شأنه: ﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٢٩].

- والدعاة إلى الله يستطيعون مواصلة البحث عن الآيات الكريمة، التى توجب الإصلاح بكل معنى من معانيه، سواء أكان من الإصلاح الواجب أو الإصلاح المستحب.

- وأما الأحاديث النبوية التى أوجبت الإصلاح بين الناس أو حببت فيه، فهى كثيرة نذكر منها ما يلى:

- روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فينمى خيرا أو يقول خيرا» والمعنى: أن الإصلاح بين الناس يجيز لمن يصلح بينهم أن يكذب - مع أن الكذب كبيرة من الكبائر - لكن الإصلاح بين الناس مما يباح فيه الكذب كما يباح فى الحرب، وفى حديث أحد الزوجين للآخر.

- وروي الترمذى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء» وفى رواية أخرى للترمذى بسند آخر: «.... إن الدين بدأ غريبا ويرجع غريبا فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدى من سنتى».

- وروى أحمد بسنده عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: «إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هى الحالقة».

- إلى غير ذلك من الأحاديث النبوية التى يحسن الدعاة إلى الله البحث عنها والتزود بها فى موكب الدعوة إلى الله.

- إن الدعاة إلى الله يجب أن يبصروا الناس بأن واجبهم الأساسى بوصفهم مسلمين أن يتحدثوا ويتناجوا ويتواصوا بالخير وبفعله، وأن يكون ذلك كله ابتغاء وجه الله ومرضاته، ليكون لهم على ذلك الأجر العظيم عند الله كما أكدت الآية الكريمة ذلك فى ختامها بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

هـ - وأن على الدعاة أن ينبهوا الناس بل يحذروهم من مخالفة الرسول ﷺ فى شىء لأن ذلك مشاقّة له ﷺ، ومشاقته كفر كما أوضحنا ذلك آنفا.

● **وأن يحذروهم من أن اتباع سبيل غير سبيل المؤمنين هو أسوأ ما يقوم به الإنسان من عمل، وأن جزاء ذلك هو جهنم، وهي أسوأ المصير.**

● **وأن يفقهوهم بأن سبيل المؤمنين الذي يجب اتباعه هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وأن الخروج عن هذه السبيل هو اتباع لغير سبيل المؤمنين، ومن فعل ذلك تركه الله لما تولاه من سبيل فضل وتخبط في الدنيا، ثم يصليه في الآخرة جهنم وساءت مصيرا.**

● **وأن يؤكدوا** لهم أن المؤمنين يجب عليهم أن يحذروا الانتكاس بعد الهدى وبعد تبين الحق، وإنما يكون الانتكاس باتباع همزات الشياطين، ووسوساتهم وما يوحون به من زخرف القول ومبهرج العمل وخادعه، فالشياطين يقومون على كل درب ويدعون إلى الضلال، وقد نهى الله تبارك وتعالى عن اتباع الشياطين في قوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقد أوضح ذلك رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد بسنده عن عبد الله بن سعد رضي الله عنه قال: خط رسول الله ﷺ خطًا بيده ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيما» وخط عن يمينه وشماله ثم قال: «هذه السبل ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾.

- وروى أحمد بسنده عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مُفَتَّحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعا ولا تفرقوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم».

رواه الترمذي والنسائي بسندين مختلفين.

وبعد: فهذا واجب الدعاة إلى الله في كل حين ومع كل الناس.

٤ - ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا (١١٦) إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢٠) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾.

أ - أنّ رحمة الله بعباده تتسع لكل الاخطاء بل الجرائم التى هى دون الشرك بشرط التوبة والندم واستغفار الله تعالى. أما الشرك به سبحانه وتعالى فذنب لايغتفر وجريمة ليس كمثلها جريمة، والله تعالى لايغفر أن يشرك به.

ب - وأن الشيطان لعنه الله قد أعلن أمام رب العزة سبحانه وتعالى أنه سيتخذ من عباد الله أولياء له ولشره وضلاله، وأنه سوف يملأ عقولهم بالضلال وقلوبهم بالكفر ونفوسهم بالأمانى الكاذبة وبأنواع من الغرور.

● ومن وظيفة الدعاة إلى الله أن ينبهوا الناس إلى ذلك وأن يجنبوهم وساوس الشياطين، وكل إنسان قادر أن يكون أبعد ما يكون عن الشيطان وهمزه ولمزه إذا هو التزم بما أمره الله به واجتنب ما نهاه عنه، فيكون بذلك من المؤمنين الذين يعملون الصالحات الذين يدخلهم الله الجنة خالدين فيها أبدا كما وعد سبحانه، ومن أصدق من الله قيلا.

جـ - وأن على الدعاة إلى الله أن يبصروا الناس بمقولات الشيطان وتهديداته لعباد الله وخداعهم عن الحق وعن الصراط المستقيم وقد ذكر القرآن الكريم أنواعا من أعمال الشياطين وحذر منها المسلمين.

ومن هذه الاعمال التى يجمع بينها الشر والفساد والإفساد ما تشير إليه آيات القرآن الكريم فيما يلى:

- المناجاة[١]:

(١) وقد جاءت نجوى الشيطان ومناجاته فى الآيات: ٧، ٨، ٩ من سورة المجادلة وفى الآيات: ٤٧ من الإسراء، و٦٢ من طه، و٣ من الأنبياء، و٨٠ من الزخرف، و٧٨ من التوبة، وغيرها.

وهى المسارَّة والنجوى، حيث يوهم الشيطان الإنسان أن فى هذه النجوى الخلاص من المتاعب والراحة من الآلام، وقد كذب لأنه بهذه المناجاة يحزنهم وربما أيأسهم من رحمة الله تعالى، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠].

– والتزيين(١):

وهو إظهار حسن الشيىء أو القول أو العمل والشيطان يزين للإنسان ذلك من باب الخداع والتمويه، ويفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿... وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

– والتغرير(٢):

وهو أن يغرر الشيطان بالإنسان فينال منه ما يريده على غفلة منه وغرَّة، والتغرير من أبرز أعمال الشياطين، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

وقد سمى الله تبارك وتعالى الشيطان بالغَرُور(٣).

– والوسوسة والإيحاء:(٤)

والوسوسة هى الخطرة الرديئة التى تخطر للإنسان.

والإيحاء هو الإشارة السريعة، وهى من الشيطان شر وفساد، والشيطان يوسوس للإنسان ويوحى إليه الباطل والشر والضلال والفساد والإفساد، وكل ما يباعد بين الإنسان وربه وبينه وبين الحق والعدل والاستقامة، كما يفهم ذلك من قول تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [طه: ١٢٠، ١٢١].

---

(١) تكررت الآيات فى تزيين الشيطان للأعمال القبيحة فى الآيات: ٤٨ من الأنفال، و٦٣ من النحل، و٢٤ من النمل، و٣٨ من العنكبوت، و٢٥ من فصِّلت، و٣٩ من الحجر، وغيرها.

(٢) تكررت الآيات التى تكشف تغرير الشيطان بالإنسان فى الآيات: ١١٣ من الأنعام، و١٢ من الأحزاب، و٣٥ من الجاثية، و١٣٠ من الأنعام، وغيرها.

(٣) من الآيات الدالة على ذلك: الآية ٣٣ من لقمان، و٥ من فاطر، و١٤ من الحديد، و٦ من الانفطار، و٧٠ من الأنعام، و٢٢ من الأعراف، وغيرها من الآيات الكريمة.

(٤) ومنها الآيتان: ٢٠ من الأعراف، و٥ من سورة الناس.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الانعام: ١٢١].

- والاستهواء والاستزلال[١]:

وهو ان يحمل الشيطان الإنسان على اتباع الهوى، أو الوقوع فى الزلات، ويسمى ذلك استزلال الشيطان للإنسان، كما يفهم من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الانعام: ٧١]. وكما يفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥].

- والإغواء والإغراء:[٢]

وهو الإضلال والإغراء بالباطل والشر، والشيطان يغوى الإنسان فيضلّه ويخيبه، ويفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، وكما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الانعام: ٦٨][٣].

- والصدُّ عن الله تعالي وعن الحق[٤]:

الصدّ: المنع والإعراض والصرف، أى أن الشيطان يصد الإنسان عن ربه وعن اتباع منهجه ويصرفه عنه، والحق اسم من أسماء الله تعالى، وهو اليقين الثابت، وهو دين الإسلام والشيطان يصرفه عن ذلك، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿... وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

---

(١) وكما فى الآية: ٣٦ من سورة البقرة وهى خاصة بان الشيطان أوقع آدم وحواء عليهما السلام فى الزلل: إذ أكلا من الشجرة.

(٢) وذلك فى الآيات: ٣٩ من سورة الحجر، و١٦ من الأعراف، و١٧٥ من الاعراف، و٢٠٢ منها أيضا، و٣٢ من الصافات.

(٣) وفى ذلك الآيات: ٤٢ من سورة يوسف، و٦٣ من سورة الكهف، و١٩ من سورة المجادلة.

(٤) وذلك فى الآيات: ٣٨ من سورة العنكبوت، و٩١ من المائدة، و٣٦ و٣٧، و٦٢ من الزخرف.

- والتحبيب فى الفواحش والأمر بها(١):

فذلك عمل الشيطان وإضلاله الناس، كما يفهم ذلك من قوله: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١]. ومن قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

- وعداوة الإنسان وخذلانه(٢):

فقد وصفه الله تعالى بأنه عدو مبين أى واضح العداوة للإنسان كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان: ٢٩].

- وتخويف أوليائه:

وإنما يكون ذلك من الشيطان بعد احتلال أوليائه وإخوانهم وصدهم عن الله ورسوله وعن الحق، عندئذ يخوفهم فيخافون، والأصل أنهم لا يخافون إلا الله، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

[آل عمران: ١٧٥].

- وأما الآيات التى يحذر الله فيها عباده من الشيطان ومن الانخداع به أو اتخاذه وليا، فكثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٣٦].

- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

- وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦](٣).

---

(١) وقد جاء ذلك فى الآيات: ٩٢ من المائدة، و١٠٠ من سورة يوسف، و٥٣ من الإسراء.

(٢) وجاء ذلك فى الآيات: ٦٠ من سورة يونس، و١٦٨ منها أيضا، و٢٠٨ من سورة البقرة، و١٧٥ من آل عمران، و١١٩ من النساء، و١٤٢ من الأنعام، و٢٧ من الأعراف، و٥٠ من الكهف، و٦٢ من الزخرف، و١ من الممتحنة.

(٣) وقد جاء ذلك فى الآيات: ١١٩ من النساء، و٤٤ من مريم، و٦٠ من سورة يس، و٦ من فاطر، و١٥ من القصص، وغيرها من الآيات.

● وأما الآيات الكريمة الداعية إلى الاستعاذة بالله منه فكثيرة أيضا، منها:

قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقوله جل وعلا: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠] أى مشركون بربهم سبحانه وتعالى.

● وأهم عمل للدعاة إلى الله هو كشف أعمال الشيطان والتحذير منه والتشديد فى وجوب مخالفته ومبادلته العداوة، فتلك كانت وظيفة الأنبياء والمرسلين فى كل زمان ومكان، وهى لابد أن تكون وظيفة ورثتهم من الدعاة إلى الله الذين يحملون عبء الدعوة إلى الله والحركة بدينه ومنهجه فى الناس والآفاق، هيأ الله لدعاته من الأسباب ما ييسر عليهم دعوتهم وحركتهم وعملهم على التمكين لدين الله فى الأرض، إنه على مايشاء قدير.

١٤ - الآيات الكريمة من الثالثة والعشرين بعد المائة إلى السادسة والعشرين بعد المائة

ميزان العمل والجزاء عند الله تعالى

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾

اشتملت هذه الآيات الكريمة على توضيح الميزان الصحيح الذى توزن به أعمال الناس ليحاسبوا به على ما قدموا من عمل فى الدنيا، وهو ميزان دقيق عادل يجزى من خلاله كل إنسان من جنس ما عمل إن خيرا فخيرا، وإن شرا فبمثله، ونتيجة الحساب إما إلى جنة وإما إلى نار.

● كما اشتملت الآيات الكريمة على تحديد أن للإسلام وللتدين الصحيح ركيزتين يقوم عليهما هما:

الاعتقاد الصحيح:

والعمل الصالح أى الموافق للشريعة.

وسوف نفصل ذلك فيما يلى:

تفصيل القول فى شرح هذه الآيات الكريمة:

- ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

● المخاطبون بهذه الآية الكريمة ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ هم طائفة من طوائف ثلاث، كما قال بذلك العلماء، وهذه الطوائف هى:

أ - طائفة المشركين:

وهم عبدة الأوثان، وأمانيّهم هى:

- أنه لا حشر ولا نشر ولا ثواب، ولا عقاب، يقولون ذلك على الرغم من اعترافهم بالبعث، كما حكى عنهم ذلك القرآن الكريم، فى قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]. وفى قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

- وأن أصنامهم تشفع لهم عند الله بل تقربهم إليه، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿...وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ...﴾ [الزمر: ٣].

ب - طائفة أهل الكتاب من يهود ونصارى:

وأمانيهم هى:

- دعواهم أنهم وحدهم الذين يدخلون الجنة، كما حكى عنهم الله تعالى فى قوله: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

- وزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، فلذلك لايعذبهم بكفرهم كما جاء ذلك عنهم فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨].

- وزعمهم أنهم لن يدخلوا النار بسبب كفرهم وأخطائهم إلا أياما معدودة ثم يخرجون منها، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ [البقرة: ٨٠].

جـ - طائفة المسلمين:

وأمانيهم هى:

- أن يغفر الله لهم وإن ارتكبوا الكبائر، وهى أمنية كاذبة لأن الأمر ليس على إطلاقه، والله تعالى وإن كان يغفر مادون الشرك إلا أن مرتكب الكبيرة متروك أمره إلى الله، إن شاء غفر له - بعد توبة واستغفار - وإن شاء عاقبه، والشرك معدود من الكبائر فكيف يغفر؟ والله

لايغفر أن يشرك به.

وقد روى النسائى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن أبى سعيد رضى الله عنه أنهما سمعا رسول الله ﷺ يخطب يوما فقال: «والذى نفسى بيده والذى نفسى بيده والذى نفسى بيده، ما من عبد يصلى الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويخرج الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة، فقيل له: ادخل الجنة بسلام» ورواه الحاكم فى مستدركه بنفس السند.

● والكبائر السبع هى كما روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يارسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

وقد ورد فى بعض الأحاديث أن الكبائر تسع بزيادة: شهادة الزور، وعقوق الوالدين.

● وفى سبب نزول هذه الآية الكريمة قال الواحدى فى كتابه أسباب النزول: قال مسروق وقتادة: احتج المسلمون وأهل الكتاب؛ فقال أهل الكتاب: نحن أهدى منكم، نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى بالله منكم.

وقال المسلمون: نحن أهدى منكم وأولى بالله، نبينا خاتم الأنبياء، وكتابنا يقضى على الكتب التى قبله.

فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

● ومن رحمة الله تعالى بالمسلمين أن يجعل جزاءهم على سيئاتهم فى الدنيا، لتخلص لهم الآخرة من العقاب.

وعقاب الدنيا يكون بما يصيب المسلم من غم أو هم أو حزن أو ألم أو سقم.

والدليل على أن العقاب قد يكون دنيويا، الكتاب والسنة.

– أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨، ٣٩]، فقد سَمَّى سبحانه وتعالى قطع اليد جزاء، وجعل التوبة عن السرقة بعد إقامة الحد، مجالا لمغفرة هذا الذنب فى الآخرة.

– وأما السنة: فقد روى احمد بسنده عن أبى بكر بن أبى زهير قال: أُخبرتُ أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال: يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ فكل سوء عملناه جزيناه؟ فقال النبى ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر، ألستَ تَمرض، ألست تنصب، ألست تحزن، ألستَ تصيبك الأدواء»؟ قال: بلى، قال: «فهو مما تجزون به».

وروى أحمد بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت أبا بكر يقول: قال رسول الله ﷺ: «من يعمل سوءا يجز به فى الدنيا».

وروى ابن أبى حاتم بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت: يارسول الله إنى لأعلم أشَدّ آية فى القرآن، فقال: «ما هى يا عائشة»؟ قلت: من يعمل سوءا يجز به، فقال: «هو ما يصيب العبد المؤمن حتى النكبة ينكبها».

وروى أبو داود الطيالسى بسنده عن على بن زيد عن ابنته أنها سألت عائشة رضى الله عنها عن هذه الآية: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ فقالت: ما سألنى أحد عن هذه الآية منذ سألتُ عنها رسول الله ﷺ، سألت رسول الله ﷺ فقال: «يا عائشة هذه مبايعة الله للعبد مما يصيبه من الحُمَّى والنكبة والشوكة، حتى البضاعة فيضعها فى كمه فيفزع فيجدها فى جيبه، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه، كما أن الذهب يخرج من الكير».

● **والخلاصة:**

أن الله تعالى يجزى المسىء بما عمل، فإن جازاه فى الدنيا كان ذلك خيرا له، وإن جازاه عليها فى الآخرة كان ذلك مما عليه.

– ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

هذا كرم من الله تعالى وإحسان منه إلى عباده جميعا ذكورا وإناثا بشرط واحد هو «الإيمان» فهو سبحان يجزيهم على عملهم الصالح أعظم الجزاء بحيث لا ينقص من جزائهم مقدار نقير (وهو النقرة التى فى ظهر نواة التمر) وأن هذا الجزاء هو الجنة، وحسب المؤمنين بذلك جزاء بل هو أحسن الجزاء.

– ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾.

● فى هذه الآية الكريمة بيان للإيمان الذى صاحبه العمل الصالح «وهو مؤمن» فادى بصاحبه إلى دخول الجنة.

وهذا الإيمان قد وصفه الله تعالى فى هذه الآية الكريمة بصفتين:

أولاهما:

إسلام الأمر كله لله بإظهار كمال العبودية والخضوع له سبحانه وتعالى، وذلك هو الاعتقاد الصحيح فى الله وفيما أمر به وفيما نهى عنه.

والأخرى:

أنه الدين الحنيف القيم الذى كان عليه إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

● أما الذين تتحدث عنهم الآية الكريمة فهم محمد ﷺ وأتباعه إلى يوم القيامة، فهم الذين أمروا باتباع ملة إبراهيم عليه السلام - الذى وصل مع الله إلى غاية ما يتقرب به إلى الله وهو درجة «الخلة» ﴿**وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾ والخلة: المودة والحب.

- ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا**﴾.

● هذه الآية الكريمة تقرر كمال قدرة الله تعالى وطلاقتها وأنه لا شىء يخرج منها.

كما تقرر الآية الكريمة كمال علم الله تعالى ﴿**وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا**﴾.

والمعنى أن كل ما فى السموات والأرض ملك له سبحانه وعبيد له ومخلوقات له، وهو المتصرف فى أمرهم جميعا، أمرهم كله دون معقب لكمال قدرته وعلمه وعدله وحكمته ورحمته.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة.

وهى كثيرة يتعلم المسلمون منها ما لاغنى لهم عنه فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة. ومن ذلك ما نذكر بعضه فيما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا**﴾ ما يلى:

أ - أن الدين والتدين ليس بالتمنى، كما أنه ليس بالادعاء أو التحلى الظاهرى، ولكنه

هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل، والعبرة فيه بالطاعة لله ولرسوله والاتباع لما فى شريعته – على لسان رسله – من أحكام وأخلاق، فما أيسر أن يقول أحدهم إنه مؤمن، ولكن الأمر ليس كلاما ولا دعاوى وإنما هو تصديق وعمل.

ب – وأن الجزاء على العمل ليس خاضعا لرغبات الناس ولكنه يخضع لميزان دقيق يزن الله به إيمان الناس وأعمالهم ثم يجازيهم عليها، ولا يتأثر ذلك الميزان بدعاوى المدعين من يهود أو نصارى بأن الجنة لهم وحدهم، وبأن من يدخل منهم النار لايبقى فيها إلا أياما معدودة، ولا بدعاوى بعض المسلمين القائلين بأن الله تعالى يغفر لهم حتى مع ارتكابهم الكبائر.

هذا الميزان لا يتأثر بهذه الدعاوى جميعا، وإنما هو عدل ورحمة ونظام ومساواة بين جميع من عملوا سوءا فى عقابهم.

جـ – وأن القاعدة العامة فى الجزاء هى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ والقاعدة الأخرى التى تكمل العدل والإنصاف هى:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

هذه القاعدة تطبق على جميع الناس، دون خرم لها مع أى أهل دين.

د – وأن من رحمة الله بالمؤمنين أن يجازيهم على ما عملوا من سوء فى الدنيا لينجيهم من عذاب الآخرة، بما يصيبهم فى الدنيا من هم أو غم أو حزن أو فزع أو نكبة أو نحوها، كما أكدت ذلك الأحاديث النبوية التى أوردناها آنفا.

هـ – وأن من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن أدخله الله الجنة، وهذه دعوته إلى الإيمان والعمل الصالح من لم يستجب لها فهو حقا من الغافلين.

٢ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ما يلى:

أ – أن أحسن الدين وأهداه وأقربه إلى رضا الله تبارك وتعالى هو أن يسلم الإنسان وجهه وأمره كله لله تعالى وأن يقبل على ما أمره به، وأن ينتهى عما نهاه عنه، فهذا هو الاعتقاد الصحيح فى الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر،

وقضاء الله وقدره، ويتبع ذلك صحة الاعتقاد فى الإنسان ومكانته فى مخلوقات الله تعالى، وحرمته حرمة دمه وماله وعرضه وأن يظلم أو يُهان، وصحة اعتقاده فى قوى الشر من شياطين الإنس والجن، وإنما يصبح الاعتقاد فى ذلك كله إذا تدبر الإنسان فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأقبل عليهما يأخذ بكل ما فيها، فهذا هو: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

- وأن من تمام حسن العقيدة وصحتها والاستسلام لله تعالى والخضوع لمنهجه أن يترجم عن ذلك بالعمل الصالح، ومعنى صلاح العمل أن يكون موافقا للشريعة فيه اقتداء بالمعصوم ﷺ.

ب – وأن هذه الآية الكريمة تصل بالمؤمن إلى نتيجتين:

إحداهما:

وجوب الإخلاص لله فى كل أمر وعلامة ذلك الاستسلام له ولمنهجه ونظامه وما شرع إيمانا واحتسابا، من أجل أن يصح باطن عمله، ويخلو من الرياء والنفاق.

والأخرى:

الالتزام بشريعة الله من أجل أن يصح ظاهر عمله ويخلو من الخلل والاضطراب.

- وعند فقد الإخلاص لله والالتزام بشريعته يبطل الإيمان ويفسد العمل، ويحل محل ذلك الكفر والفسوق والعصيان.

جـ – وأن من تمام الإيمان اتباع ملة إبراهيم عليه السلام لأن أولى الناس باتباع ملة إبراهيم هم محمد ﷺ وأمته وأتباعه إلى يوم القيامة، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[آل عمران: ٦٨].

ولا عجب فى هذا الاتباع فإن إبراهيم عليه السلام قد قام بجميع ما أمره الله به حتى هم بذبح ولده إسماعيل، فكان له فى كل مقام من مقامات العبادة حظ موفور، فكان لا يشغله جليل عن حقير ولا كبير عن صغير، فكان بذلك أُمَّةً قانتا لله حنيفا.

د – وأن الإنسان يجب أن يمتلئ قلبه وعقله بكمال قدرة الله تعالى وطلاقتها فهو سبحانه قادر على كل شيء وعلى كل أحد ومن امتلأ قلبه وعقله بذلك خاف

ارتكاب المعاصى وآثر أن يضع نفسه موضعا يرضى الله تعالى، فهو سبحانه ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ فأين يذهب الكافر أو العاصى وكيف يتوهم أنه يخفى عن الله عملا يقوم به؟ وكيف يتصور أنه لايعاقب على عمل سيئ اقترفه؟.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة إلى الله والحركة بهذا الدين فى الناس والآفاق.

وهى مواقف كثيرة وغنية، فكل آية من آيات القرآن الكريم تنفع الدعاة إلى الله وتعينهم على أداء عملهم لو أنهم أخذوا بها، إذ القرآن كله هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقهم الله ينفقون، ويؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل من قبله، وهؤلاء هم الدعاة إلى الله - ولا أزكى على الله أحدا وإنما أحسبهم كذلك والله حسيبهم - ومن الدروس التى يتعلمها الدعاة إلى الله من هذه الآيات الكريمة ما نذكر بعضه فيما يلى:

١ - يتعلم الدعاة إلى الله من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ ما يلى:

أ - أنّ عدل الله تعالى مطلق وأن عباده لايتفاضلون عنده بآبائهم وأجدادهم - ولو كان هؤلاء الآباء والأجداد من الأنبياء - وإنما يتفاضلون بطاعتهم لله واستجابتهم لأمره ونهيه.

وأن كل ما يخالف الله ادعاء باطل لا وزن له ولا مصداقية عند الله، وما ينبغى أن يكون له وزن ولا مصداقية عند الناس.

- إن على الدعاة إلى الله أن يرسخوا هذه الحقائق فى قلوب المؤمنين وعقولهم، ليستقيم لهم فهم الدين ولتصح لديهم العقيدة فى الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله.

ب - وعلى الدعاة إلى الله أن يؤكدوا للناس أن من عمل سوءا فقد خالف الله تعالى واستحق عقابه، فإذا عاقبه الله تعالى فلن يجد له من دون الله وليًّا يواليه ولا نصيرا ينصره، فيخفف عنه العقاب أو يلغيه، ومن ذلك الذى يوالى العصاة وينصرهم؟.

جـ - وأنّ التعبير عن الإيمان إنما يكون بالعمل الصالح، والعمل الصالح لابد أن يكون موافقا للشريعة الإسلامية، وأن هذا العمل لايجوز أن يكون مظهريا فقط وإنما يكون جوهره وحقيقته كشكله ومظهره، وإلا وقع صاحبه فى النفاق والرياء. وكل ذلك كامن فى قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ .

● والدعاة إلى الله هم المسئولون عن توضيح ذلك وعن تحبيب الناس فى التدبر فى كلام الله تعالى.

د - وأهم واجبات الدعاة إلى الله أن يعلموا الناس ويبصروهم بحقيقة الإيمان، وبحقيقة العمل، فبتوضيح تلك الحقيقتين يستقيم للمؤمن إيمانه وعمله الصالح.

● وأما حقيقة الإيمان فتتمثل فى أمور أهمها:

- الإيمان بعالَم الغيب:

بالله وملائكته واليوم الآخر.

- والإيمان بعالم الشهادة:

بكتب الله جميعا ورسله جميعا.

- والسلوك الاجتماعى الراشد:

بإعطاء المال - على وجه الصدقة - لكل مستحق له من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب.

- والالتزام بأركان الإسلام الخمسة.

- والوفاء بالعهود والمواثيق.

- والصبر فى البأساء والضراء وحين البأس.

تلك حقيقة الإيمان كما أوضحتها الآية الكريمة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

– والبأساء: الفقر، والضراء: المرض، وحين البأس: القتال – كما فسرها ابن مسعود رضى الله عنه.

وابن عباس رضى الله عنهما وعدد من مشاهير التابعين رحمهم الله.

● **وأما حقيقة العمل:**

فهى أن يتوافر فيه شرطان:

أحدهما:

الإخلاص فيه أى قصد وجه الله تعالى به دون سواه.

والآخر:

أن يكون موافقا لشريعة الله ومنهجه.

٢ – ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً** ﴾ ما يلى:

أ – أنّ كمال الإيمان لا يحصل إلا مع تفويض الأمر كله لله فى جميع الأمور، والاستسلام له فى كل شىء.

● ومعنى ذلك أن الاستعانة يجب أن تكون بالله وحده، لأن الاستعانة بغيره فساد فى العقيدة وفساد فى العمل بل فساد فى الأسباب.

● وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس ذلك وأن يضربوا لهم عليه الأمثال، وأمامهم فى هذا طائفتان يجب التنبيه إلى باطلهما واستعانتهما بغير الله، وهما:

المشركون.

والدهريّون.

● **أما المشركون:**

فقد استعانوا بأصنامهم ومعبوداتهم فكانوا يقولون عن هذه المعبودات – كما حكى القرآن الكريم عنهم فى قوله تعالى: ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ** ﴾ [يونس: ١٨]، وفى قوله سبحانه: ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا**

نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر : ٣] .

وتلك مقولة المشركين من لدن نوح عليه السلام وإلى يوم الناس هذا ، حيث لايزال بعض الناس يعبدون قطعا من الحجر ومن الشجر ، ويعبدون الحيوانات ، وكلهم يرون فى معبوداتهم ما يقربهم إلى الله!!!

● **وأما الدهريون :**

فهم الملحدون الذين لايؤمنون باليوم الآخر والبعث ، وهم الذين قالوا بقدم الدهر ، وأسندوا إليه الحوادث ، كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله تعالى : ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية : ٢٤] . وهم الذين ألغوا العبادات من حياتهم .

وقد قال عنهم الإمام أبو حامد الغزالى : « إنهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان وكذلك يكون أبدا »(١) .

● وأقرب ما يكون ما يقول به الدهرية إلى ما يقول به « الطبيعيون » .

ويرى الجاحظ أنهم فرقة يقوم مذهبهم على الأخذ بمبدأ اللذة ، وفى مذهب الطبيعيين ومذهب منكرى البعث يقول الجاحظ : « وإنما الصواب عنده - أى عند الدهرى - والحق فى حكمه أنه والبهيمة سيّان ، وأنه والسبع سيّان ، ليس القبيح عنده إلا ما خالف هواه ، وأن مدار الأمر عنده على الإخفاق والدَّرك ، وعلى اللذة والألم ، وإنما الصواب - عنده - فيما نال من المنفعة وإن قَتَل ألف إنسان » .

● وفى العصر الحديث اهتم كثير من الكتاب والعلماء بالرد على الدهريين وإبطال حججهم وبيان فساد مذهبهم(٢) .

ومن هؤلاء العلماء :

- السيد جمال الدين الأفغانى المولود سنة ١٢٥٤ هـ - ١٨٣٨ م ، والمتوفى سنة ١٣١٤هـ - ١٨٩٧م فى رسالة له اسمها : « الردّ على الدهريين » .

- وعلاء الدين البغدادى : المتوفى سنة ١٣١٣ هـ - ١٨٩٦ م فى رسالته : « الدرة السنية فى

---

(١) أبو حامد الغزالى : المنقذ من الضلال .

(٢) وانظر لنا : جمال الدين الأفغانى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه ، ط دار عكاظ - السعودية : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

الرد على المادية وإثبات النواميس الشرعية بالأدلة العقلية».

- وإبراهيم بن عيسى الحورانى الحلبى المتوفى ببيروت سنة ١٣٣٤ هـ - ١٩١٧م فى كتابيه: «مناهج الحكماء فى مذهب النشوء والارتقاء» و «الحق اليقين فى الرد على مذهب دروين».

وخلاصة ما يفهم من هذه الكتب أن الدهرية مرادفة للمادية، وقريبة من العلمانية وفيها إلحاد.

- إن على الدعاة إلى الله أن ينبهوا إلى هذه المذاهب الهدامة وأن يحذروا الناس منها، ومن أشهرها وأخطرها:

الدهرية، والقاديانية والبابية والبهائية والمادية والوجودية والعلمانية ونحوها[١].

- ومن المستعينين بغير الله:

اليهود والنصارى:

أما اليهود فيقولون بأنهم شعب الله المختار، وبأنهم لا يعذبون لأنهم أبناء الأنبياء، ولذلك استباحوا من الأعمال ما ليس من شأنه أن يباح.

واستعلوا على الناس واعتبروهم خداما لهم.

وهم كافرون بقولهم عزير ابن الله.

وقد قال النصارى بأن المسيح ابن الله، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة.

وقد أخبر الله تعالى عن ضلالهم واستعانتهم بغير الله تعالى:

- فى قوله تعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ [التوبة: ٣٠].

- وفى قوله تعالى: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣١].

- إن على الدعاة إلى الله أن ينبهوا إلى ضرورة كمال الإيمان بتفويض الأمر كله لله، والاستعانة به وحده والتوكل عليه مع الأخذ بالأسباب التى شرعها.

---

(١) انظر للمؤلف: الغزو الفكرى والعالم الإسلامى - ط دار المنار بالقاهرة.

ب - وأن الدعاة إلى الله فى هذا المجال من الآية الكريمة على أمرين جليلين هما الأصل فى تقبل الله تعالى للأعمال، وهذان الأمران هما:

- الإخلاص لله.

- والالتزام بما شرع.

وأمام الدعاة أوسع الفرص لشرح هذين الأمرين، ولديهما من النصوص ما يكفى ويفيض عن حاجتهم.

جـ - وأن يوضحوا للناس أن ملة إبراهيم عليه السلام كانت توحيد الله وعبادته وفق ما شرع آنذاك - مما لم يصل إلينا تفصيله - وإن كنا نعلم كثيرا مما حرم الله فى تلك الشريعة كالظلم والغش وقتل النفس والسرقة والزنى ونحو ذلك.

وأن ملة إبراهيم عليه السلام بعيدة كل البعد عن الشرك وأسبابه، والفساد والإفساد بكل أنواعه.

وأن إبراهيم عليه السلام الذى أقبل على كل ما أمر الله به، واجتنب كل ما نهى عنه، فكان له بذلك عند الله مكانة كبيرة فاتخذه الله خليلا، وهو بذلك أجدر أن يتبع وأن يتخذ إماما يقتدى به، وقد وصفه القرآن الكريم بصفات عظيمة منها قوله تعالى:

- ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧]، أى قام بجميع ما أمره الله به فى كل مقام من مقامات العبادة.

- وقوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أى كلفه بتكاليف فقام بها على أتم وجه.

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، أى كان بمثابة جماعة أو أمة فى عبادة الله تعالى.

وهى كلها صفات تشرف من يتصف بها وترفع قدره عند الله تبارك وتعالى.

٣ - ويتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ ما يلى:

أ - أن كل شيء في السموات وفي الأرض وفي البحار وفي كل شيء من خلق الله هو على وجه الحقيقة ملك لله تعالى وتصرفه فيه سبحانه لا معقب عليه ولا راد له.

ومن كان يقينه هكذا أحسن كيف يكون مسلما أمره كله لله، فتهدأ نفسه، وينقمع شيطانه، ويقبل على حياته الدنيا إقبال من يجعلها معبرا إلى الآخرة، مثله مثل رجل قال - أي قضى وقت القيلولة مستريحا - في ظل شجرة يوشك أن يفارق الظل أو يفارقه الظل.

ب - وأن من أيقن بأن كل شيء لله تعالى تعمق فيه الإحساس بالعبودية لله تعالى، لأنه هو لله وإلى الله يئوب.

ومن أحسن العبودية لله امتلأت نفسه سعادة ورضا وانشراحا، فأقبل على طاعة الله ورسوله بحب وشغف وتكشفت حقيقة الطاعة لله وأنها العز الذي لا عز يساويه، والأمن الذي يملأ نفسه وقلبه وعقله، فعبادة الله تعالى ذكر له سبحانه، وبذكر الله تعالى تطمئن القلوب وتسكن النفوس وترضى بكل ما يحيط بها من طاعة وعبودية لله ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨]، أي أن الطائعين الذين يرجعون إلى الله وإلى الحق هم الذين آمنوا وهم الذين تسكن قلوبهم عند ذكر الله تعالى بالعبادة وبتلاوة القرآن الكريم والأذكار ونحوها، وأن قلوبهم لا تسكن وتطمئن إلا بهذه الطاعة وهذا الذكر.

- وعلى الدعاة إلى الله أن يذكروا بأن المعاصي تورث الذل والقلق والاضطراب وهي مما كره الله فيها عباده كما كره إليهم الكفر والفسوق قال تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ [الحجرات : ٧].

وإنما ارتبطت المعصية بالذل والانكسار مهما كان معها من لذة لأن الله تعالى قال: ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء : ١٤]، وقال: ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦].

- إن هذه هي المجالات التي يصول فيها الدعاة إلى الله ويجولون ويأتون فيها بما يرقق القلب ويقوي الإيمان ويقمع الشيطان، وما يحبب المسلمين في الطاعة وما ينفرهم من المعصية، فهم الدعاة إلى الله ورثة الأنبياء، وورثة الكتاب: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ

عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

جـ - وأن على الدعاة إلى الله أن يؤكدوا لكل غافل أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، وأن علمه سبحانه مطلق من كل قيد وأنه محيط بكل شيء.

وهذا يعزز مراقبة الله تعالى لعباده، ومن شعر أن الله تعالى يراقبه كف عن المعاصي وأكثر من الطاعات، واستيقظ في نفسه معنى الإحسان الذى من معانيه التى ذكرها الرسول ﷺ المراقبة، فقد روى أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « .... ومن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ».

● إن الدعاة إلى الله والمتحركين بالإسلام فى الناس والآفاق لابد أن يربوا الناس على هذه المعانى، وإلا فكيف يصلون إلى التمكين لدين الله فى الأرض؟.

١٥ – الآيات الكريمة من الآية السابعة والعشرين بعد المائة إلى الآية الخامسة والثلاثين بعد المائة

أحكام فى التعامل مع النساء وقيم خلقية يجب أن تسود المجتمع

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧) وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨) وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٢٩) وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

اشتملت هذه الآيات الكريمة على عدد من الأحكام التى تتعلق بالنساء، نجملها فيما يلى:

– حكم خاص بكيفية تعامل رجل مع يتيمة فى حجره وهو ولى لها، ويريد الزواج منها، وهذا الحكم هو:

- أن يمهرها مهر مثلها من النساء ولا يستغل ولايته عليها.
- ألا يمنعها من الزواج من غيره – إن كان هو لا يريدها زوجة – خشية أن يشركه زوجها فى

المال الذى لها تحت يده.

– وحكم خاص بتوريث الصغار بنين أو بنات، إذ كانوا فى الجاهلية لا يورثون الصغار فامر الله تعالى بتوريثهم بنين كانوا أو بنات.

– وحكم خاص بالتعامل مع الزوجة فى حال النفور منها، أو الاتفاق معها.

– وحكم خاص بالتعامل مع الزوجة فى حال مفارقتها.

– وحكم خاص بميل الزوج إلى زوجة له دون الاخرى أو الاخريات.

– وتأكيد أن لله ما فى السموات والارض لا يشركه فى ذلك أحد.

– وتوضيح أن الله تعالى أوصى بالتقوى كل الذين أوتوا الكتاب من قبل كما أوصى المسلمين بذلك.

– وتهديد لمن كفر بالله تعالى، مع إعلان أن الله غنى عنه وعن إيمانه وعبادته، لانه يستطيع أن يخلق سواه ممن يخلصون فى عبادته.

– ودعوة إلى أن يكون القصد من كل عمل هو وجه الله، ليجزى الله المحسنين خير الجزاء فى الدنيا والآخرة.

– ونداء على المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط فى كل الظروف، سواء كان القسط لهم أو عليهم، وتهديد لمن لم يقم بالقسط.

وسنوضح ذلك فيما يلى والله المعين.

● **تفصيل القول فى شرح الآيات الكريمة:**

– **﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾**.

الاستفتاء: طلب الفتوى فيما هو مجهول للمستفتى أو مشكل عليه، ومن معانيه: تعبير الرؤيا، كما فى قوله تعالى: **﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ... ﴾** [يوسف: ٤٦].

● **وفى سبب نزول هذه الآية الكريمة قولان:**

أحدهما:

أن العرب قبل الإسلام كانوا لا يورثون النساء عموما استضعافا لهن، ولا الصبيان استضعافا لهم، فنزلت هذه الآية فوجب توريث هؤلاء وأولئك.

والآخر:

أن الآية نزلت فى توفية الصداق لهن، وذلك أنه كانت اليتيمة تكون عند الرجل - وهو من أوليائها - لكن يحل له الزواج بها، فإذا كانت جميلة ولها مال تزوج بها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها من التزوج حتى تموت فيرثها فأنزل الله تعالى هذه الآية لينهى عن هذا الظلم الذى يوقعه الأولياء بمن يلون عليهن أو عليهم.

● والمعنى: أنهم كانوا قد سألوا عن أحوال كثيرة من أحوال النساء، فما كان من هذه الأحوال غير مبين الحكم ذكر أن الله تعالى يفتيهم فيها، وما كان مُبَيَّن الحكم فى الآيات المتقدمة ذكر أن تلك الآيات المتلوّة تفتيهم فيها، وجعل دلالة الكتاب على هذه الأحكام إفتاء من الكتاب.

- ﴿ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾.

● والمعنى: أن ما يتلى عليكم فى الكتاب يفتيكم فى يتامى النساء وفى المستضعفين، وفى أن تقوموا لليتامى بالقسط، فلا تظلموا أحدا بأعمالكم.

وما تفعلوا من خير بما تلتزمون به من أوامر الله واجتناب نواهيه يجازيكم الله عليه أحسن الجزاء، لأنه سبحانه لا يضيع عنده أجر أحد من خلقه.

- ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾.

● هذا تشريع للتعامل بين الزوجين فى حال نفور الرجل من زوجته وتصالحهما على مال ونحوه من تنازلات تقدمها المرأة لتظل فى عصمة زوجها.

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ أى رأت أمارات من زوجها تجعلها تخاف منه على نفسها النشوز أى الإعراض والعبوس فى وجهها وإساءة عشرتها وترك مجامعتها.

● إذا حدث هذا من الزوج بسبب كبرها فى السن أو غير ذلك من الأسباب التى تجعله يطلقها، فإن لها أن تصالحه على أن تترك له بعض حقوقها مثل: جزء من مهرها أو من

مالها، أو تعفيه من المبيت عندها، على أن تظل فى عصمته، والزوج له أن يقبل هذا ولا حرج عليه.

● روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: نزلت فى المرأة تكون عند الرجل، ويريد الرجل أن يستبدل بها غيرها فتقول له: أمسكنى وتزوج بغيرى وأنت فى حل من النفقة والقسم.

وروى ابن أبى حاتم بسنده عن خالد بن عرعرة قال: جاء رجل إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه فسأله عن قوله تعالى: ﴿ **وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا....** ﴾ قال على رضى الله عنه: يكون الرجل عنده المرأة فتنبو عيناه عنها من دمامتها أو كبرها أو سوء خُلقها أو قذرها، فتكره فراقه، فإن وضعت له من مهرها شيئا حَلَّ له، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج».

● فالرجل والمرأة يصطلحان على ما يتفقان عليه، على أن تبقى المرأة فى عصمة زوجها دون طلاق، وهذا أصلح للزوجة، ولا بأس به للزوج.

﴿ **وَالصُّلْحُ خَيْرٌ** ﴾ لأن الطلاق بغيض عند الله، كما جاء فى الحديث النبوى الشريف فيما رواه أبو داود بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق».

﴿ **وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ** ﴾ والشح هو البخل وهو مجاور للنفوس لا يكاد يفارقها.

والشح من الزوج هو: أن يقضى عمره معها مع نفوره وإعراضه.

والشح من الزوجة هو: أن تشح بنصيبها وحقها فى النفقة والقسم.

فالزوج رافض شحيح بنفسه معها، والزوجة شحيحة بمالها وحقها فى النفقة والقسم.

● ﴿ **وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** ﴾ اى وإن تتحملوا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن وتقسموا لهن أسوة أمثالهن فإن الله عالم بذلك وسيجزيكم عليه أوفر الجزاء.

﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً** ﴾.

هذا تشريع للزوجين فى حال اتفاقهما، ومقتضاه الا يميل الزوج عن زوجته كل الميل.

● والمعنى: تقرير ان الرجل لا يستطيع ان يسوى بين زوجتيه او زوجاته فى ميل طبعه لبعضهن دون بعض، وما دام الرجال غير مستطيعين لهذا العدل فهم غير مكلفين به.

أو يكون المعنى: لن تستطيعوا ان تسووا بين النساء من جميع وجوه التسوية، لان ميل القلب بيد الله تعالى، مهما ساوى بينهن فى النفقة والقسم، إذ لا سبيل إلى المساواة بينهن فى المحبة والشهوة والجماع.

● وقد كان رسول الله ﷺ يجد نفسه أكثر حبا لعائشة رضى الله عنها مع عدله بينهن جميعا فى القسمة.

فقد روى أحمد بسنده عن عبد الله بن يزيد عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك».

- ﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾ أى إذا ملتم إلى واحدة منهن فلا تبالغوا فى الميل، لكى لا تبقى هذه التى كان الميل عنها كالمعلقة، أى: لا هى ذات زوج لانه مال عنها، ولا هى مطلقة لانها فى عصمته.

وقد حذّر الرسول ﷺ من ذلك، فقد روى أبو داود الطيالسى[1] بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقّيه ساقط».

﴿وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما﴾ أى إن عدلتم فيما تملكون العدل فيه وأصلحتم أموركم واتقيتم الله فى جميع الأحوال غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض.

● أو يكون المعنى: وإن تصلحوا ما مضى من ميلكم وتتداركوه بالتوبة، وتتقوا الله فى مستقبل أيامكم حتى لا تقعوا فى مثله ثانية غفر الله لكم ذلك.

﴿وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما﴾.

---

(١) هو سليمان بن داود بن الجارود الطيالسى (١٣٣ - ٢٠٤ هـ) فارسى الأصل سكن البصرة وتوفى بها، كان يُحدّث من حفظه، وله مسند معروف ينسب إليه مطبوع، سُمع يقول: «أسْرد ثلاثين الف حديث ولا فخر».

هذا تشريع للزوجين في حال الفراق بينهما .

ومقتضاه أن يكون الفراق بالحسنى، مع التوكل على الله، والثقة فيه وفي عدله وفي إغناء كل من الزوجين عن الآخر .

● والمعنى : أن الزوجين إذا رغبا في الفراق فإن الشرع يسمح لهما بذلك – على الرغم من أن الطلاق بغيض إلى الله – بل يعدهما الله تعالى – إذا كانت نية كل منهما خالصة – بأن يغني كل واحد منهما عن صاحبه بعد الطلاق، سواء أكان هذا الإغناء بإبدال كل منهما زوجا خير من الزوج الذي فارقه، أو كان معيشة هانئة عن المعيشة الأولى، فهو سبحانه واسع الفضل على عباده واسع الرحمة بهم، واسع العلم والحكمة .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ . . . ﴾ أي أنه سبحانه له هذا الملك الواسع، ويدبِّر شئون خلقه وفق علمه وحكمته .

﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ .

والمعنى : أن الله تعالى وصى عباده جميعا ممن آتاهم كتبا كما وصى المسلمين بتقواه سبحانه وتعالى . أي جعل أنفسهم في وقاية مما يُؤثِّم وذلك بترك ما نهى الله عنه، والناس جميعا مطالبون بأن يباعدوا بين أنفسهم وبين ما يغضب الله عليهم لمخالفتهم إياه سبحانه وتعالى .

﴿ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ .

● هذا تهديد لمن كفر بالله، وإخبار بأن الله تعالى غني عن إيمان عباده وتقواهم، حميد في كل أفعاله، فهو يجازي من كفر فلا يستطيع أن يفلت منه، فهو سبحانه رقيب حسيب، كفى به وكيلا في أي عمل .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴾ .

وهذا تكملة لتهديد الكافرين بأنه سبحانه قادر على أن يذهب بهؤلاء الكافرين ويأتي بغيرهم، ويكونون هم الخاسرين، وهذا المعنى ورد في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٨]، أي خيرا منكم .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ هذه الآية الكريمة توجه الناس إلى أن يكون رائدهم فى أقوالهم وأفعالهم الإخلاص لله وابتغاء الثواب عنده، فإذا صحت النية على ذلك أثابهم الله تعالى فى الدنيا والآخرة.

والمعنى: أن من طلب الدنيا بطاعة الله أعطاه الله الدنيا والآخرة.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾.

- روى أسباط عن السدى قال: نزلت فى النبى ﷺ؛ اختصم إليه غنى وفقير، وكان ضلعه مع الفقير، رأى أن الفقير لا يظلم الغنى، فأبى الله تعالى إلا أن يقوم بالقسط فى الغنى والفقير، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾.

- وفى الآية الكريمة أمر لجميع المكلفين بأن يكونوا مبالغين فى اختيار العدل والاحتراز عن الجور والميل.

- وأمر بإقامة الشهادة لوجه الله وكما أمر، ولو كانت الشهادة على أنفسكم أو آبائكم أو أقربائكم.

- ولا يجوز كتمان الشهادة بحال، أى إن يكن المشهود عليه غنيا أو فقيرا فلا تكتموا الشهادة إما لطلب رضا الغنى أو الترحم على الفقير. فالله تعالى أولى بالغنى والفقير.

- ﴿ فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ﴾ أى اتركوا متابعة الهوى لتكونوا موصوفين بالعدل.

﴿ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾.

تلووا: من قولهم: لواه حقه إذا مطله ودفعه.

وتعرضوا: أى عن أداء الشهادة وعن إقامة العدل.

- وفى الآية تهديد بأن الله تعالى سيجازى المحسن بإحسانه، والمسىء المعرض بإساءته.

- والمعنى العام للآية الكريمة أن الله تعالى يطالب المؤمنين بأن يكونوا قوامين بالعدل فى كل أمورهم حتى لو كان ذلك لا يوافق هواهم، وأن يؤدوا الشهادة كما أمروا بها لإحقاق الحق

حتى لو كان ذلك على أنفسهم أو ذويهم دون أدنى اتباع للهوى أيا كان مبعثه، ومن لم يكن كذلك فسوف يحاسبه الله ويعاقبه.

● المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة.

يتعلم المسلمون من هذه الآيات دروسًا اجتماعية هامة فى العلاقات العائلية خاصة، وفى العلاقات الاجتماعية عموما، بحيث ينال كل فرد فى المجتمع كله كامل حقه، سواء أكان يتيما أو صغيرا أو امرأة يستضعفها المجتمع الجاهلى قديما وحديثا فيهضم حقوقها، وتفصيل القول فى هذه الدروس على النحو التالى:

١ - يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا** ﴾ ما يلى:

أ - أن الأصل عند المسلمين أن يتوجه المستفتى بفتواه إلى الله ورسوله يطلب التوضيح ويلتمس الأحكام.

وبعد الرسول ﷺ يتوجه المسلمون فى فتاواهم إلى القرآن والسنة يستفتيانهما فيما يجد لهم من أمور أو ما يجهلون من أحكام.

ومن لم يستطع من المسلمين أن يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة اتجه إلى العلماء بالكتاب والسنة يطلب منهم الفتوى.

ب - وأن الأصل فى الالتزام بشريعة الإسلام أن يعمل كل مسلم ما وسعه من أجل أن يصل الحق إلى صاحبه مهما كان صاحبه ضعيفا لصغره أو يُتمه ولدا كان أو بنتا.

وهذا الالتزام هو الذى يحفظ الحقوق لأصحابها، ويحول بين الناس وبين أن يظلم قويهم ضعيفهم، أيا كان نوع هذا الظلم فإنه جميعه ظلمات يوم القيامة، لأن ظلم العباد بعضهم لبعض لا يتركه الله تعالى، فقد روى الطيالسى والبزار بسنديهما عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «الظلم ثلاثة، فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره، وظلم لا يتركه:

فأما الظلم الذى لا يغفره الله فالشرك، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ** ﴾

وأما الظلم الذى يغفره فظلم العباد أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذى لا يتركه الله فظلم العباد بعضهم بعضا، حتى يدبر لبعضهم من بعض».

جـ - وأن التزام المسلم بأحكام الشريعة فى التعامل مع نفسه ومع غيره هو من الخير الذى يقدمه الإنسان لنفسه أولا، لأن الله تعالى يكافئه على ذلك أحسن مكافأة، وهو خير يقدمه الإنسان لأصحاب الحقوق من النساء والمستضعفين من الولدان، وفى ذلك ثواب من الله عظيم، وهو خير للمجتمع كله بما يسهم به من رعاية لحقوق أفراده جميعا، وبخاصة من كان ضعيفا منهم كاليتامى وأمثالهم.

٢ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ما يلى:

أ - أن ما يطرأ على العلاقة الزوجية من أعراض تؤدى إلى نفور الرجل من زوجته وخوف الزوجة من الطلاق أو من سوء العشرة أو عدم العدل لو كان متزوجا بغيرها، لو حدث هذا فإن للمرأة أن تصالح زوجها على ما ترى أنه يحقق مصالحها كتنازل عن بعض حقوقها المادية أو المعنوية لتبقى فى عصمة زوجها دون طلاق.

وللرجل أن يقبل هذا دون حرج شرعى، وله أن يرفضه إذا كانت العشرة بينهما غير محتملة أو مؤدية لعدم العدل فيما يمكن فيه العدل، ولكنه فى كل الأحوال مسئول أمام الله عن سلوكه معها أو ظلمها أو التعنت معها لأن الله تعالى أمره أن يعاشرها بالمعروف والإحسان.

ب - وأن على الزوجين أن يصلحا ما بينهما على النحو الذى يحفظ لكل منهما حقه، ويلتزم بأداء واجبه، لأن المبدأ الإسلامى العام فى جميع أحوال التنازع هو ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ ومع هذا الخير تزول أسباب الخصام والنشوز والإعراض.

جـ - وأن كل زوجين مسلمين مطالبان بأن يحسن كل طرف منهما إلى الطرف الآخر، أى يتعامل معه بمقتضى الإحسان لا العدل فقط، والإحسان دائمًا درجة أعلى من العدل، والإحسان فى مجالات العلاقة الزوجية هو: أن يعطى كل طرف من الزوجين الطرف الآخر أكثر مما عليه بطيب نفس، وأن يأخذ منه أقل مما له، وقد أمر الله

بالإحسان بكل صورة من صوره وهى : الإنفاق، والمراقبة، والتفضل، لانه أمر به مطلقا من كل قيد فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] .

د - وأن الزوجين مطالبان بتقوى الله فى تعاملهما، وتقوى الله فى أوضح صورها وأبسطها هى خوف الوقوع فى الإثم والحرج، وما يوقع الإنسان فى الإثم والحرج إلا مخالفته سبحانه فيما أمر أو نهى .

وهذه التقوى فى التعامل بين الزوجين لابد أن تنعكس فى الابناء وفى كل من يعيشون فى كنف الأسرة، فيكون ذلك بالتاكيد فى صالح المجتمع كله .

٣ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ما يلى :

أ - أن الزوج لاثنتين أو أكثر لن يستطيع أن يعدل بينهما أو بينهن فى كل شىء وبخاصة فى مجال ميل القلوب والرغبة الجنسية التى تحركها فيه مئات الاسباب التى قد يتوفر بعضها فى زوجة ولا يتوفر فى أخرى، فإذا انساق الزوج وراء ميله وعاطفته وقع فى عدم التسوية فى الكلام أو النظر أو التعامل أو القسمة، وكل ذلك لا يجوز لانه مما يقدر عليه الإنسان، فعلى الزوج فى هذه الظروف الا يميل كل الميل، وذلك بأن يصلح من نفسه ومن شانه ما استطاع .

ب - وأن الزوج الذى يشعر بميل نحو إحدى زوجاته دون غيرها عليه شرعا ألا يميل كل الميل، وذلك هروبا من أن تصبح زوجته التى مال عنها كالمعلقة لا هى متمتعة بهناء الزوجية ولا هى مطلقة من زوجها، لعلها تجد فى سواه عزاء، وهذا حقها الذى شرعه الله لها بوصفها إنسانا من حقه أن يستقر مع زوج فى حياة عائلية . فإن لم يفعل ذلك وقع فى المحظور وهو أنه ترك زوجته معلقة لانه مال عنها كل الميل .

جـ - وأن الزوجين مطالبان - وبخاصة الزوج الذى بيده عقدة النكاح - بأمرين نصت عليهما الآية الكريمة وهما :

- أن يصلحا .

- وأن يتقيا الله فى التعامل .

وإنما كان ذلك على الزوج بالاولوية لان الله تعالى جعل له القوامة وجعل بيده عقدة النكاح، فلا يجوز له أن يترك الأمر بينه وبين زوجه بغير إصلاحه أو بغير تقوى الله تعالى، وهى مطالبة بذلك أيضا.

• والله تعالى يغفر ما يعجز عنه الزوج إذا صحت منه النية وصدقت العزيمة.

٤ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ ما يلى:

أ - أن الله تعالى الذى شرع الزواج وأحاطه بكل هذه الأسباب التى تؤدى إلى المحافظة عليه نقيا من الشوائب صافيا من الكدر، شرع أيضا الطلاق - مع أنه أبغض الحلال إليه - عندما تستحيل الحياة الزوجية بالمعروف والإحسان أو تشتمل على ظلم أحد الزوجين للآخر أو سوء معاملته، ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ يضع كل تشريع فيه صالح عباده.

ب - وأن الزوجين إذا افترقا، وقد أصلح كل منهما ما وسعه واتقى الله فى الطرف الآخر، ثم استحالت بينهما العشرة فإن الله تعالى سيجعل لكل منهما عوضا عن الآخر خيرا منه إذا حسنت نيته واتقى الله كما أمره.

٥ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ما يلى:

أ - أن الله تعالى له ملك كل ما فى السموات وما فى الارض وله الحكم وهو وحده الآمر الناهى - فإن أمر غيره بشىء فهو من المفتاتين على الله المخدوعين فى أنفسهم الذين أغوتهم الشياطين - وأن هذا شأن الله من لدن خلق آدم وإلى يوم الدين يأمر وينهى وله الحكم والامر، وأمره الخير وحكمه العدل. وهذا شأنه وتلك وصايته إلى كل من جاءهم رسول من عند الله وكتاب يحمله الرسول، وملخص أمر الله ونهيه وحكمه هو: «تقوى الله».

ب – وأن من لم يتق الله تعالى فى نفسه أو مع غيره فما أضر إلا نفسه، وما ضر الله فى شىء لأنه سبحانه غنى عن تقوى الناس وعبادتهم، وإنما هم المحتاجون إلى تلك التقوى والعبادة لتستقيم لهم معها حياة إنسانية كريمة.

● وأن تلك التقوى وهذه العبادات وتلك التكاليف ما هى إلا اختبار من الله لعباده ليطيع من أطاع ويعصى من عصى بعد إرسال الرسول وإنزال الكتاب، فتلزمه الحجة.

جـ – وأن الإخلاص لله تعالى فى قول وفعل وفى كل عمل وترك هو الذى يرفع من شأن الإنسان عند ربه، فيستحق على ذلك أحسن الجزاء، ويترجم هذا الجزاء الحسن أحيانا كثيرة بما يرضى الإنسان من رزق واسع وغنيمة باردة ومغفرة للذنوب.

وهذا ما يتمناه كل إنسان آمن وعمل صالحا واتقى الله فيما أمر وفيما نهى فأطاع.

٦ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ ما يلى:

أ – أن المؤمن مطالب من الله بأن يكون قواما بالعدل، لا مجرد عادل فقط، ولو كان قيامه بالعدل ضد نفسه أو والديه أو أهله، لأن الله تعالى جعل العدل فوق كل هذه العلاقات، بل فوق مصلحة النفس، وما ذلك إلا لأنه بالعدل تقوم الحياة الإنسانية الكريمة.

ب – وأن الشهادة بين الناس بالحق هى فى الحقيقة شهادة لله لا للناس، ولذلك كان كتمانها إثما عظيما وذنبا كبيرا.

● والشهادة بالحق يجب أن تؤدى وإن كانت ضد الشاهد نفسه، أو ضد والديه وذويه، فهى حق والحق يجب أن يعلو على كل اعتبار وكل قرابة.

والشهادة الحق هى ما كانت مطابقة للواقع خالية من التحريف والتبديل، والكتمان، مهما تكن مكانة المشهود عليه غنيا يرغب الناس عادة فى إرضائه أو فقيرا يرغب الناس عنه فى غالب الأحيان، والشهادة الحق هى عدل أو سبب فى تحقيق العدل، ولذلك أوجبها الله تعالى.

جـ - وأن يحـذر المسلمـون أمـورا فى الشـهـادة، مـا لـم يحـذروها وقـعـوا فى المحظور واستحقوا عقاب الله، وتلك الأمور التى يجب أن تحذر هى :

- عدم اتباع الهوى.

- وعدم المماطلة.

- وعدم الإعراض عنها أى كتمانها.

والتهديد بالعقاب عند وقوع ذلك كامن فى قوله تعالى: ﴿ **فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** ﴾ فهذا وعيد شديد وتهديد أكيد.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة :

١ - يتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً** ﴾ مايلى :

أ - أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هما ملاذ المؤمن ومرجعه الأساسى فى كل ما يعرض له فى الحياة من متغيرات.

﴿ **قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ** ﴾ والله تعالى يفتى عن طريق رسوله ﷺ فى حياته، وعن طريق كتابه وسنة رسوله ﷺ بعد موت الرسول صلوات الله عليه وسلامه.

- وكلما أهمل المسلمون اتخاذ الكتاب والسنة مرجعا أساسيا فى حياتهم، عند حاجتهم إلى الاحكام والآداب، ضعفوا وهانوا، وضاقت عليهم الارض بما رحبت؛ وذلك أن الكتاب ما فرط الله فيه من شيء والسنة أوتيها الرسول ﷺ لتفصل الكتاب وتفسره، وتوضح مفردات ما أجمله.

والتمسك بالكتاب والسنة على مرّ تاريخ المسلمين كان ولا يزال وسوف يستمر سببا فى قوتهم وعزهم ونصرهم على عدوهم.

- وتلك مهمة الدعاة إلى الله يقلبون فى صفحات التاريخ ويستخرجون منها للمسلمين العبر والدروس، ويغرونهم بالتمسك بالأخذ عن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومراجعة أهل العلم.

ب - وأن على الدعاة أن يوضحوا للناس عموما - فى مواجهة من يتهمون الإسلام بظلم المرأة أو حرمانها من حقوقها - أن الإسلام عامل المرأة بوصفها إنسانا كرمه الله وأعطاه من الحقوق وفرض عليه من الواجبات مثل ما فعل مع الرجل سواء بسواء باستثناء ما يتصل بطبيعة المرأة فى بعض الأحكام التى خفف الله عنها فيها بسبب الحيض والحمل والولادة والإرضاع والحضانة.

● وأن الإسلام رعاها رعاية كاملة من طفولتها إلى أن تلقى الله، وحافظ لها على كل حقوقها المادية والمعنوية على نحو ما أوضحنا - ونحن نشرح هذه الآيات بل هذه السورة الكريمة كلها - بما لا نظير له فى نظام أو حضارة سابقة أو لاحقة.

● ومن العجب العجاب أن الذين يتهمون الإسلام بهضم حقوق المرأة لا يورثونها إطلاقا، ويحرمونها إذا تزوجت من أن تستقل بتصرف مالى إلا بإذن زوجها حتى لو كان ذلك التصرف فى مالها الخاص!!!

ويسلخونها من النسب إلى أبيها وينسبونها إلى زوجها، ولا يطالبون الزوج بالإنفاق عليها!!!

● وحسب من أراد أن يصدق الغرب فى دعاواه وأكاذيبه فى اتهام الإسلام بهضم حقوق المرأة أن يزور الغرب فى كل أقاليمه فى أوربا وأمريكا وكندا وغيرها ليعرف عن قرب كيف تعامل المرأة هناك، وأى النظامين أحفظ لحقوق المرأة؟ أنظام الإسلام أم نظام الحضارة الغربية.

● إن الحضارة الإسلامية النابعة من الكتاب والسنة جعلت احترام حقوق المرأة بنتًا وأختا وزوجًا وأما وجدة وخالة وعمة جزءاً من الدين يثاب على فعله ويعاقب على تركه.

جـ - وأن من لم يستطع الذهاب إلى الغرب اكتفى بالقراءة عن تعامله مع المرأة من خلال القوانين المكتوبة، ثم من خلال الواقع العملى المشاهد، وما نريد أن نتهم أحدا ولكننا نريد ردّ التهم والافتراءات الموجهة ضد الإسلام.

٢ - ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ ما يلى:

أ - أن الصلح خير فى كل الأمور الناشبة بين متخاصمين أو متنافرين، الصلح خير مطلقا، وليس الصلح خيرا بين الزوجين فقط، وفى تراثنا الفقهى قول من قال: «يُدْرَك بالتراضى ما لا يُدرك بالتقاضى».

● وفى نصوص ديننا:

- قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠].

- وقوله: ﴿ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]

- وقوله: ﴿ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٤].

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٢].

● ودلالة هذه النصوص القرآنية الكريمة على وجه الإجمال: أن الله تعالى يطالب المسلمين بالعفو والصفح والغفران والصلح والإصلاح، وتذكر الفضل فيما بينهم، وكل ذلك يجب أن يكون عمل الراغبين فى الحصول على الأجر من الله الطامعين فى مغفرته ورحمته.

● وهذا العفو والصفح والتسامح والمغفرة للهفوات والزلات بين سائر المسلمين واجب، فما بالنا به بين زوجين أفضى بعضهم إلى بعض؟.

إنه عفو أوجب وآكد، وأكرم وأدعى إلى الاستمرار فى حياة زوجية كريمة، تمد المجتمع بالعناصر الطيبة الصالحة التى نشأت فى ظل أسرة عرفت معنى الحب والعفو والصفح والمسامحة. وتلك مهمة الدعاة إلى الله.

ب - ويتعلم الدعاة من الآية أن من طبائع النفوس أن يخالطها الشح ﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾.

فالزوجة قد تشح بمالها ونصيبها لتتصالح مع زوجها فى حالة نشوزه وإعراضه عنها.

والزوج قد يشح بأن يصبر على معاشرة امرأة ملَّها ونفر منها لسبب من الأسباب.

ومن أراد أن يتقى الله ويرضيه من هذين الزوجين لم يشح على الآخر وإنما يصلح ما بينه وبين زوجه، ويتقى الله فيه، إذ الصلح مطلب شرعى قرآنى دلت عليه آيات كثيرة، والتقوى كذلك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٥] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الأنفال: ١].

والزوجان أولى بذلك من سائر الناس.

٣ – ويتعلم الدعاة إلى الله والمتحركون بالإسلام فى الناس من قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ما يلى:

أ – أنّ القدرات الخاصة بالإنسان محدودة، وأنه لن يستطيع أن يبلغ درجة الكمال فى أى صفة من صفاته، وذلك أن الكمال لله وحده.

وقد علم الله تعالى ضعف الإنسان، وقصوره فى صفاته، فلم يكلفه بما ليس فى وسعه ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولم يؤاخذه على شىء من ذلك رحمة به.

- هذه الحقيقة يجب أن تلهج بها السنة الدعاة إلى الله، فبها يدفعون عن الدين ما يتهمه به أعداؤه من كثرة تكاليفه وكثرة أوامره ونواهيه. ويقولون: إن الأوامر كلها أوامر بما هو غير محبب إلى النفوس كالصلاة والزكاة والجهاد ونحوه، والنواهى كلها نواهٍ عما يستلذه الإنسان كشرب الخمر ولعب الميسر والزنى واللواطة!!!

ويزعمون أن كلا من الأوامر والنواهى قيود على حرية الإنسان فى أن يفعل ما يشاء!!!

- وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن الله لم يأمر بشىء إلا فيه مصلحة للإنسان فى دنياه وأخراه ولم ينه عن شىء إلا لما فيه من ضرر بالإنسان فى دنياه وأخراه، مصلحة للفرد والمجتمع وضرر للفرد والمجتمع.

- وهذه الآية الكريمة تقرر أن الإنسان لا يستطيع أن يعدل بين زوجتيه أو زوجاته فى الحب وميل القلب، والزوجة أو الزوجات أقرب إلى الإنسان من أى أحد وأكثر إنسان يجلب إلى زوجه طرفه الآخر أسباب السعادة والرضا، فكيف بهذا الإنسان أن يعدل فى حب الآخرين والميل إليهم وهم بكل تأكيد أبعد عنه من الزوجة أو الزوجات.

- ومن رحمة الله بالإنسان وبره به أن قبل منه بعض الميل ولم يحاسبه إلا على كل الميل لما فيه من الإضرار الأكيد بالطرف الآخر.

ب – وعلى الدعاة إلى الله أن يؤكدوا للناس أن من بيده القدرة على الحب والميل يجب أن يحترم حق الزوجة فى الحياة الزوجية فلا يتركها كالمعلقة لا هى متزوجة ولا مطلقة. لأن هذا ظلم حرمه الله تعالى، والظلم هنا أخذ شكل عدم المساواة بين زوجتين أو زوجات فيما يملك الإنسان أن يساوى فيه.

● وقد رُوى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث إلى أزواج رسول الله ﷺ بمال، فقالت عائشة رضى الله عنها : إلى كل أزواج رسول الله ﷺ بعث عمر بمثل هذا؟ فقالوا : لا . بعث إلى القرشيات بمثل هذا، وبعث إلى غيرهن بغيره، فقالت لرسوله : ارفع رأسك وقل لعمر : إن رسول الله ﷺ كان يعدل بيننا فى القسمة بماله ونفسه، فرجع فأخبره فأتمّ لهن جميعا .

● إن على الدعاة إلى الله أن يوضحوا للذين يزعمون أن الإسلام قد هضم حقوق المرأة، أنه قد حافظ لها على حق معنوى نفسى وهو أن يحبها زوجها وألا يميل عنها أو يحرمها من هذا الحب الذى إذا حرمت منه أضرها فى حياتها مع زوجها، وحرمها من زوج آخر إذا هى طلقت . . تحظى عنده بالحب والرعاية، والذى يحافظ على هذا الجانب المعنوى النفسى، يحافظ بكل تأكيد - كما أوضحنا فى آيات هذه السورة- على كافة حقوقها المادية .

جـ - وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا أنه من وقع منه جور على زوجته أو زوجاته ثم أصلح هذا الخلل واتقى الله فى تعامله معها أو معهن، فإن الله تعالى غفور رحيم، يقبل التوبة والرجوع عن الخطأ والإثم، فهو سبحانه التواب الغفار الرحيم المحب لعباده الرفيق بهم الذى لا يكلفهم مالا يطيقون ولكنه لا يقبل منهم الظلم والضرر والإضرار .

٤ - ويتعلم الدعاة إلى الله من قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ ما يلى :

أ - أن عقدة النكاح وثيقة ومرعية ومحاطة بكل أسباب الاحترام والتقدير، إلا أن الهدف من توثيقها ورعايتها أن تستقر الحياة الزوجية وتستمر هانئة سعيدة بعيدة عن أسباب القلق والاضطراب، حتى تنتج للمجتمع أفرادا صالحين .

● ومع أن عقدة النكاح كذلك إلا أنه عندما يحدث ما يهدد أمنها النفسى - كفقد الحب بين الزوجين - أو أمنها الاجتماعى - كفقد العدل فى الإنفاق ونحوه - فإن حَلَّ هذه العقدة الوثيقة بالطلاق والتفريق بين الزوجين يكون أوجب وأحسن من الاستمرار فى حياة زوجية تفقد الأمن النفسى والأمن الاجتماعى أو أحدهما .

● وتلك هى واقعية التشريع الإسلامى وحرصه على ألا يظلم أحدٌ أحداً .

ب - وأن الله تعالى - عند التفريق بين زوجين بما يرضى الله تعالى - كفيل بأن يغنى

كلا منهما عن صاحبه، وأن يبدله خيرا منه، وتلك من المبشرات لو اتقى الناس الله فى تعاملهم مع زوجاتهم ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ﴾.

جـ - وعلى الدعاة إلى الله أن يطمئنوا الناس عموما والأزواج خصوصا - عند الفرقة والطلاق - أن الله تعالى واسع العطاء حكيم فى عطائه وفى تشريعاته، وأنه سوف يغنى كلا من سعته بشرط واحد هو أن يكون كل من الزوجين قد اتقى الله فى تعامله مع الطرف الآخر.

فهو سبحانه الذى قال: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وقال: ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤].

ولابد من ملاحظة أن هاتين الآيتين من سورة الطلاق وأن الله تعالى جعل فى القرآن سورة خاصة سماها رسول الله ﷺ: سورة الطلاق.

٥ - ويتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ مايلى:

أ - أن على الدعاة إلى الله أن يؤكدوا للناس أن الله تعالى عندما أمر بالعدل والإحسان والإصلاح والتقوى وإيصال الحقوق إلى أصحابها مهما كانوا ضعافا أوصغارا أو يتامى أو نساء، ما أمر بذلك لحاجته إليه أو إلى طاعة الطائعين، وإنما أمر به لصالح الناس فى دينهم ودنياهم، لتحسين علاقاتهم وتمكينهم بهذه التشريعات من أن يحيوا حياة إنسانية كريمة تلائم تكريمه سبحانه إياهم: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾ فكيف يحتاج إلى طاعة أحد أو عبادته وهو يملك السموات والأرض وما فيهن؟

● إن على الدعاة إلى الله أن يرسخوا هذه الحقيقة فى نفوس الناس، وأن يؤيدوها بالأحاديث القدسية التالية:

- روى ابن ماجه بسنده عن أبى سعيد بن أبى فضالة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

«إذا جمع الله الاولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد: من كان أشرك فى عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله اغنى الشركاء عن الشرك» فهو سبحانه لا يشركه فى ملكه أحد، فله ما فى السموات وما فى الأرض.

- وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى: «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، واقرأوا إن شئتم: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وفى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها، واقرأوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] وموضع سوط أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما فيها، واقرأوا إن شئتم: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فهو سبحانه يجزى أكرم الجزاء وأدومه.

- وروى مسلم بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم حراما فلا تظالموا، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم، ياعبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم، ياعبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم، ياعبادى لن تبلغوا ضرى فتضرونى، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته مانقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلايلومن إلا نفسه».

ومعنى ذلك الحديث القدسى الجامع فى إيجاز: أن الله تعالى وضع للناس حدودا ومعالم ينبغى أن يلتزموا بها، ليسعدوا بهذا الالتزام فى دينهم ودنياهم.

ب- وأن الكافرين والمعاندين لله تعالى، وعصاته والمتجرئين على حدوده، كل أولئك:
ليس لهم أن يتصوروا ولو للحظة من الزمن أنهم بهذا الكفر والعناد والعصيان والتمرد قد يضرون الله بذلك شيئاً، وإنما يضرون أنفسهم والمجتمعات التى يعيشون فيها.

● وأن الله تعالى قادر على أن يبيدهم ويأتى بغيرهم من المؤمنين الذين هم أفضل منهم عبادة لله وطاعة له، ولكنها رحمة الواسعة التى يتيحها لعباده ليراجعوا أنفسهم ويكفوا عنها شياطين الإنس والجن فيتوبوا إلى الله فيقبل الله منهم توبتهم.

جـ- وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن طاعة الطائعين وعبادة العابدين، لن تزيد فى ملك الله ولا فى سلطانه شيئاً ومع ذلك فإنه يجزيهم عليها أحسن الجزاء، فيكافئهم فى الدنيا بالنصر والتأييد والتوفيق، ويكافئهم فى الآخرة بجنة عرضها السموات والأرض تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا.

٦- ويتعلم الدعاة إلى الله من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ مايلى:

أ- وهذه الآية الكريمة فرضة عظيمة للدعاة إلى الله، يوضحون من خلالها كثيرا من الحقائق الجوهرية الهامة فى حياة الناس والمجتمعات البشرية.

وتلك الحقائق هى- كما جاء فى الآية الكريمة-:

- القيام بالقسط أى العدل.

- وأداء الشهادة على وجهها حسبة لله تعالى.

- وعدم اتباع الهوى لأى سبب من الأسباب.

● أما القيام بالقسط:

فهو أن لايكون عادلا فى نفسه بل عادلا مع غيره.

واقسط: أعطى قسط غيره ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]. وقسط أى ظلم فهو قاسط: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥].

● والقيام بالقسط درجة فاضلة ولكن المطلوب أن يكون قوّاما بالقسط أى مبالغا فى ذلك كأنه صفة ملازمة له.

● وبغير أن يكون المؤمنون قوامين بالقسط يمتلىء المجتمع بالظلم وضياع حقوق أصحاب الحقوق، وهدف الشريعة الواضح بين أهدافها الاجتماعية هى إقرار العدل وإحقاق الحق وأن يكون المؤمنون قوامين بالقسط.

● وأما أداء الشهادة على وجهها:

فتلك أمانة يعاقب الله تعالى من كتمها أو غيَّر فيها، لأنها إحدى وسائل إقرار العدل وإحقاق الحق، ولذلك وصفت الشهادة بأنها لله، فمن أقامها على وجهها فقد قدم عملا جليلا لله تعالى.

والشهادة إنما تكون لله إذا استجمعت شروطا هى:

- أن يكون أداؤها لوجه الله.
- وألا تكتم أويكتم شيئًا منها.
- وأن تكون صحيحة لا لبس فيها فضلا عن خطأ أو انحراف.
- وأن تكون خالية من كل ما من شأنه أن يضيع حقا على صاحب حق.

فالشهادة بهذه الشروط تكون لله تعالى، وتحقق الأمن للمجتمع وتحفظه من أسباب التعادى والصراعات.

● وأما عدم اتباع الهوى فى الشهادة:

فيعنى أن من أدى الشهادة لايجوز له أن يحابى بها أحدا ولايتحدى بها أحدا، لأنه إن فعل شيئا من ذلك لم تكن الشهادة لله وإنما كانت لهوى فى نفسه، والله تعالى يقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ ...﴾

ب- وأن على الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن انتماءهم للحق وحرصهم عليه وعلى أن يكونوا من أهله أهم من انتمائهم لآبائهم وذويهم وأقربائهم وأصدقائهم، لأن الحق ثابت ودائم، والوالدان والأقربون ماضون ولايملكون لمن شهد لهم نفعا أمام الله الحق العادل.

● وهذا درس عميق يعلمه الدعاة للناس حيث يجب أن يكون الانتماء والاعتزاز بالأبقى

والأقوى والأنفع فى الدنيا والآخرة، وليس ذلك إلا ما أمر الله به أو دعا إليه، وليس ذلك إلا الحق، وليس ذلك إلا ترك الهوى، وليس ذلك إلا قصد وجه الله تعالى بكل قول أو عمل أو صمت أو ترك.

وتوضيح ذلك كله من صميم عمل الدعاة إلى الله، وأمامهم القرآن الكريم والسنة النبوية يتزودون منهما بمالاينفد من الزاد والله يوفقهم ويفتح عليهم ويهديهم سواء السبيل.

جـ- وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا أن جوهر الإسلام هو العدل والحق، وأن إقرار العدل والحق واجب المسلمين الثابت الذى لاينفك عنهم ولايجوز لهم أن ينفكوا عنه حتى لو كان تعاملهم مع أعدائهم.

وقد روى علماء السيرة النبوية أن عبد الله بن رواحة رضى الله عنه لما بعثه رسول الله ﷺ يخرص[1] على أهل خيبر ثمارهم وزرعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال لهم: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلىَّ ولأنتم أبغض إلىَّ من أعدائكم من القردة والخنازير، وما يحملنى حبى إياه وبغضى إياكم على أن لا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض.

● إن على الدعاة إلى الله أن يؤكدوا للناس أن من أخَل بالعدل أو بالشهادة لله فإن الله تعالى سوف يحاسبه ويجازيه على هذه المعصية لأنه تعالى ختم هذه الآية بتهديد من أضَلَّ فى قوله: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾.

---

(١) خَرَص اى قدَّر وحزر بالظن. وفى الحديث أنه ﷺ «أمر بالخرص فى النخل والكرم خاصة».

١٦ - الآيات الكريمة من السادسة والثلاثين بعد المائة

إلى الثانية والخمسين بعد المائة

حديث ضاف عن الإيمان والكفر والنفاق

وبيان حكم الجهر بالسوء من القول

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا (١٣٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (١٤٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن

﴿يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

● اشتملت هذه الآيات الكريمة على حديث ضاف عن المؤمنين والكافرين والمنافقين، وعلى بيان لحكم الجهر بالسوء من القول ومتى يجوز؟ مما نجمله فيما يلي:

– مطالبة المؤمنين بالثبات على الإيمان.

– ومطالبة الذين أوتوا الكتاب- وهم اليهود والنصارى- بأن يؤمنوا الإيمان الكامل، أى يؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالدين الذى جاء به محمد خاتم المرسلين ﷺ.

وتهديدهم بأن من لم يدخل منهم فى الإيمان بهذا المعنى فقد ضل ضلالا بعيدا واستحق عقاب الله تعالى.

– وتوضيح المواقف والتصرفات التى تفسد الإيمان، مثل الدخول فى الإيمان ثم العودة إلى الكفر ثم الدخول فى الإيمان ثانيا، وهكذا، فإن من كان كذلك فإنه لايهتدى إلى الحق أبدا.

– وحديث عن المنافقين وصفاتهم وجزائهم.

– ونهى عن القعود مع من يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها، لان هؤلاء إما كفارا أو منافقين، وهم جميعا يتربصون بالمؤمنين الدوائر مع توضيح لصفات المنافقين.

– ونهى عن موالاة الكافرين دون المؤمنين، ومن فعل فقد أغضب الله تعالى وجعل للكافرين على المؤمنين سلطانا.

– وحديث عمن تاب وأخلص من المنافقين وأصلح واعتصم بالله فكان بتلك الصفات من المؤمنين المأجورين.

– وبيان أن الله تعالى ليس بحاجة لان يعذب من آمن بالله وشكر نعمه.

– وبيان للظروف التى تجيز للمؤمن أن يجهر بالسوء من القول.

– وبيان لمجمل أعمال الخير وهى أمران:

صدق مع الحق.

وخُلُق مع الخلق.

ونفصل هذا الإجمال فيما يلى والله الموفق.

تفصيل القول فى شرح هذه الآيات الكريمة:

– **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ.... ﴾**

● الخطاب فى هذه الآية الكريمة للمسلمين لان لفظ **﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾** إذا أطلق لايراد به غير المسلمين.

فكيف طلب الإيمان من المسلمين وهم مؤمنون؟.

قال العلماء:

– المراد: ياأيها الذين آمنوا دوموا على الإيمان واثبتو عليه، أى: يا أيها الذين آمنوا فى الماضى والحاضر استمروا على ذلك فى المستقبل.

– أو المراد: يا أيها الذين آمنوا على سبيل التقليد آمنوا على سبيل الاستدلال.

– أو المراد: يا أيها الذين آمنوا بحسب الاستدلال الجُملى آمنوا بحسب الاستدلال التفصيلى.

● وقيل الخطاب فى هذه الآية موجه لأهل الكتاب من اليهود الذين أنزلت عليهم التوراة، والنصارى الذين أنزل عليهم الإنجيل، والآية تأمرهم بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ والقرآن الكريم.

● وقيل الخطاب فى الآية موجه للمنافقين الذين يؤمنون باللسان ولاتؤمن قلوبهم، فطولبوا بالإيمان الحقيقى، ويعزز هذا قوله تعالى عنهم فى آية أخرى: **﴿ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾** [المائدة: ٤١].

● وقيل الخطاب موجه للمشركين وتقديره: يا أيها الذين آمنوا بالأصنام والأوثان واللات والعُزّى آمنوا بالله تعالى.

– وفى سبب نزول الآية قيل: إن جماعة من أحبار اليهود وهم عبد الله بن سلام وأَسَد وأُسَيْد

ابنى كعب وثعلبة بن قيس وجماعة من مؤمنى أهل الكتاب، جاءوا إلى النبى ﷺ فقالوا: يارسول الله: إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «بل آمنوا بالله وبرسله وبمحمد وبكتابه القرآن، وبكل كتاب كان قبله، فقالوا: لانفعل فنزلت هذه الآية، فكلهم آمنوا.

● والإيمان المطلوب فى هذه الآية هو الإيمان بأربعة أصول، هى:

- الإيمان بالله تعالى.

- والإيمان برسوله محمد ﷺ.

- والإيمان بالكتاب الذى نزل على محمد ﷺ.

- والإيمان بالكتاب - أى جنس الكتاب- الذى أنزل الله من قبل القرآن الكريم.

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا ﴾

● الكفر الذى يؤدى إلى الضلال البعيد فى هذه الآية هو الكفر بخمسة أركان وأصول هى:

- الكفر بالله تعالى.

- والكفر بملائكته عليهم السلام.

- والكفر بكتبه.

- والكفر برسله.

- والكفر باليوم الآخر.

والمعنى أن من لم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فليس بمؤمن بل كافر ضل عن الإيمان والحق ضلالا بعيدا.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً ﴾.

● والمعنى المشهور بين العلماء لهذه الآية الكريمة هو: أن الذين يتكرَّر منه الإيمان ثم الكفر، فإنه غير مؤمن ولم يدخل الإيمان قلبه فضلا عن أن يتمكن من قلبه، بدليل عودته إلى الكفر بعد الإيمان، ثم تكرار ذلك.

- وقيل إن المقصود بالآية هم اليهود الذين آمنوا بالتوراة وبموسى عليه السلام، ثم كفروا بعزير، ثم آمنوا بداود، ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفرا بعد بعث محمد ﷺ إذ كفروا به.

- وقيل: المراد بهم المنافقون، فقد آمنوا بإظهارهم الإسلام وهو الإيمان الاول وكفروا فى الحقيقة وهو الكفر الاول، والإيمان الثانى أنهم كلما لقوا المسلمين أظهروا الإسلام، والكفر الثانى أنهم إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة: ١٤]، واجتهادهم فى الكفر هو جدهم واجتهادهم فى استخراج أنواع المكر والكيد للمسلمين.

- وقيل المراد: طائفة من أهل الكتاب قصدوا تشكيك المسلمين فى دينهم، فكانوا يظهرون الإيمان تارة والكفر أخرى، كأولئك الذين كانوا يؤمنون وجه النهار ويكفرون آخره، ثم زاد كفرهم حتى بلغوا جد السخرية والاستهزاء بالإسلام والمسلمين.

● وهؤلاء جميعا يموتون على الكفر، ومن مات على الكفر، لم يكن الله ليغفر له أو يهديه سبيلا لعلمه تعالى أنه من أهل الكفر والضلال.

- ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾

● تبشير المنافقين بالعذاب تهكم بهم لأن البشارة تكون بما يَسُرُّ والعرب تقول على سبيل التهكم: تَحِيَّتُك الضرب وعتابك السيف.

● ومن صفات المنافقين أنهم يوالون الكفار ويسرون إليهم بالمودة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم: إنما نحن معكم ونحن نستهزئ بالمؤمنين بما نظهر لهم من موافقة.

وقد اتفق المفسرون أغلبهم على أن المراد بالذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين هم المنافقون.

وأن المراد بالكافرين فى هذه الآية: هم اليهود.

فقد كان المنافقون يوالون اليهود ويقول بعضهم لبعض: إنَّ أمْر محمد لايتم، فيقول اليهود: بأن العزة والمَنَعَة لهم.

وكان المنافقون يطلبون العزة أى المنعة والقوة بسبب اتصالهم باليهود، فأبطل الله تعالى عليهم هذا التوجه بتقريره سبحانه أن العزة لله جميعا، كما جاء فى هذه الآية وفى الآية

الاخـرى التى تقـول: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِـزَّةُ وَلِرَسُـولِهِ وَلِلْمُـؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِـقِينَ لا يَعْلَمُـونَ ﴾ [المنافقون: ٨]

- ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾

- كان المشركون فى مكة يخوضون فى مجالسهم فى ذكر القرآن ويستهزئون به فأنزل الله تعالى فى مكة: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ... ﴾ [الأنعام: ٦٨]

- وكان أحبار اليهود فى المدينة يفعلون فعل المشركين فى مكة، وكان القاعدون معهم والموافقون لهم على ذلك الكلام هم المنافقون فأنزل الله تعالى فيهم- فى المدينة- هذه الآية: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا... ﴾ الآية.

- **والمعنى**: النهى عن الجلوس مع الذين يستهزئون بآيات الله، ومن لم ينته عن ذلك الجلوس فهو مثل هؤلاء المستهزئين أى كافر مثلهم، والله تعالى يجمع المنافقين والكافرين جميعا فى جهنم.

- وقد استدل العلماء بهذه الآية على أن من رضى بالكفر فهو كافر ومن رضى بمنكر يراه ويخالط أهله- وإن لم يباشره - كان فى الإثم بمنزلة مَنْ باشره، ولايستثنى من ذلك إلا أحوال الاضطرار بشرط أن يكون قلبه منكرا لمايقال إذا لم يستطع أن ينكره بلسانه أو بيده.

﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾

- وهذه صفات المنافقين، أى ينتظرون مايحدث من خير أو شر، فإن كان للمؤمنين ظهور على اليهود قالوا للمؤمنين: ألم نكن معكم؟ أى اقسموا لنا من الغنيمة.

وإن كان للكافرين- أى اليهود- ظهور على المؤمنين، قالوا لليهود: ألم نتمكن منكم ومن

قتلكم فلم نفعل، بل منعناكم من المسلمين بأن ثبطناهم عنكم؟ فأعطونا نصيبنا مما أصبتم من المسلمين.

﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى بين المؤمنين والمنافقين، أى أنه سبحانه ما وضع السيف عن المنافقين فى الدنيا بل أخر عقابهم إلى يوم القيامة، حيث الفصل بينهم وبين المؤمنين.

﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ أى يوم القيامة.

وقيل: فى الدنيا أى لن يجعل للكافرين قدرة على استئصال المؤمنين، لأن العاقبة للمؤمنين والنصر لهم بإذن الله، وربما انتصر الكافرون على المؤمنين فى جولة أو نحوها.

وقيل: لن يجعل للكافرين على المؤمنين حجة.

● وقد استدل الشافعى بهذه الآية الكريمة على أمور ثلاثة هى:

- أن الكافر إذا استولى على مال المسلم فى دار الحرب لم يملكه.

- وأن الكافر ليس له أن يشترى عبدا مسلما.

- وأن المسلم لايقتل بالذمى.

- ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾

إذ يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، والله خادعهم أى مجازيهم بالعقاب على خداعهم.

﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ... ﴾ أى يقومون متثاقلين متباطئين يستثقلونها فى الحال، ولايرجون ثوابها أو خوف عقاب تركها فى المآل، فهم يقومون بها رياء وسمعة لاتدينا.

﴿ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أى أنهم إذا خلوا بأنفسهم لم يصلوا، أو كانوا ساهين عن صلاتهم لايذكرون الله إلا قليلا. أولايذكرون الله عموما فى صلاة أو غيرها إلا ذكرا قليلا نادرا.

﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ... ﴾ أى متحيرين بين الكفر والإيمان، أو بين الكافرين والمؤمنين، أى ليسوا مؤمنين مخلصين ولامشركين صرحاء، فهم مذمومون بترك الإيمان، مذمومون باختيار النفاق طريقا لأنه أخبث من الكفر، ولذلك فإن الله تعالي

ذم الكفار فى سورة البقرة فى آيتين (١)، وذم المنافقين فى ثلاث عشرة آية (٢)، وماذاك إلا أن طريقة النفاق أخبث من طريقة الكفر.

﴿ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ والمعنى: أن مَنْ صرفه الله عن طريق الهدي فلن تجد له وليا ولامرشدا ولامنقذا، والمنافقون أضلهم الله تعالى عن سبيل النجاة لعلمه بما سيكون منهم.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا﴾

● ينهى الله تعالى المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وإنما تكون موالاة الكفار باتخاذهم أصدقاء ونصحاء يسرون إليهم بالمودة أو بإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة لهم.

ومن فعل ذلك أو شيئاً منه فقد عصى الله تعالى وجعل لله عليه حجة فى عقابه.
والسلطان – فى القرآن– بمعنى الحجة، كما قال ابن عباس رضى الله عنهما.

﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ جزاء لهم على خبيث أعمالهم فهم فى أسفل النار، لأن النار دركات كما أن الجنة درجات.

وقيل هى: بيوت فى النار تطبق عليهم فيوقد من تحتها ومن فوقها.

﴿ولن تجد لهم نصيرا﴾ ينقذهم من الله أو يخرجهم من العذاب.

﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما﴾

● هذه الآية الكريمة تعطى للمنافقين فرصة ليزول عنهم عقاب الله تبارك وتعالى، وذلك بشروط أربعة أوضحتها هذه الآية وهى:

– التوبة عن القبيح.

– وإصلاح العمل– أى الإقدام على العمل الصالح الحسن–.

---

(١) هما الآيتان: ٦، ٧ ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ⑥ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾.

(٢) وهى الآيات: من الثامنة إلى العشرين: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿... إن الله على كل شيء قدير﴾.

- والاعتصام بالله، وهو ان يكون الغرض من التوبة ومن إصلاح العمل هو مرضاة الله تعالى، لاطلب مصلحة وقتية أو دفع ضرر.

- والإخلاص؛ أى ان يكون كل ما تقدم من توبة وإصلاح واعتصام بالله تعالى خالصا لوجه الله تعالى.

إذا حدث تحقيق هذه الشروط، فإن المنافقين عندئذ يصبحون مع المؤمنين، ويجرى عليهم مايجرى على المؤمنين من جزاء وثواب.

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾

- **والمعنى**: ان الله تعالى لايعذب أحدا من أجل التشفى فيه، أو من أجل نفع يتحقق لله تعالى، «أو ضرر يندفع عنه سبحانه، وإنما هو سبحانه يعذب من يعذبه لمخالفته وجرمه، والمقصود بذلك هو حمل المكلفين على فعل الحسن والاحتراز عن القبيح، فمن عمل الحسن واجتنب القبيح، فكيف يعذبه الله تعالى؟.

- وتدل هذه الآية على أن الله تعالى ماخلق خلقاً لاجل العقاب والتعذيب ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ﴾ وفيها دليل على أن الإيمان والشكر يدفعان عن الإنسان العذاب والتعذيب، فعلى الإنسان العاقل أن ينظر فى نفسه وفيما حوله من مخلوقات فتمتلئ نفسه إيمانا بالله وشكراً له على ما أحاطه به من نعم لاتعد ولاتحصى.

- والإنسان الشاكر موعود من الله تعالى بأحسن الجزاء، ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، والله تعالى أمر بالشكر أمرا صريحاً: ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٦].

والشاكر موعود من الله تعالى بأن يزيده من نعمه: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ... ﴾ [إبراهيم: ٧] وإذا كان الشكر قد حدث من رسول الله ﷺ الذى غفر له ماتقدم من ذنبه، أفلايكون واجبا على كل مسلم؟.

روى أحمد بسنده عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حتى تورّمت قدماه، فقيل له: يارسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك فقال: «أو لا أكون عبداً شكورا».

﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ أى مجازيا على الشكر شكرا، والشكر من الله هو الثواب العظيم.

﴿ لا يُحبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾

• هذه الآية الكريمة تقرر مبدأ هاما هو: أن الله تعالى ستَّار يحب الستر، ولايحب إظهار القبائح والفضائح إلا في حق من عظُم ضرره فكثُر مكره بالمسلمين وكيده لهم، فقد روى الحكيم الترمذي في: نوادر الأصول، وروى الطبراني في: الأوسط، وروى ابن عدي في: الكامل، والبيهقي في: سننه، رووا بأسانيدهم عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أترعوون عن ذكر الفاجر؟ متى يعرفه الناس؟ اذكروا الفاجر بمافيه يحذره الناس».

وكان أسلافنا من العلماء يقولون: ثلاثة لاغيبة لهم: الإمام الجائر، والمبتدع، والمجاهر بفسقه.

وروى البيهقي بسنده- في سننه- عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَلْقَى جلباب الحياء فلا غيبة له».

﴿ إِلاَّ مَن ظُلِمَ... ﴾ أي: إلا أن يجهر بالسوء مَنْ ظُلِم، أو بمعنى أن الله تعالى لايحب المجاهر بالسوء إلا من ظُلم فله أن يجاهر.

• وجهر المظلوم بالسوء هو أن يرفع صوته بالدعاء عليه، أو أن يخبر بظلم ظالمه له، أو أن الناس جميعا لايجوز لهم أن يجهروا بالسوء من القول لأن ذلك غيبة، ويستثنى المظلوم فله أن يجهر بأنه سرق أو غصب.. إلخ.

﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ يتضمن هذا الجزء من الآية تحذيراً من التعدي في الجهر بالسوء المأذون فيه، أي ليتق الله ولايقل إلا الحق، ولايقذف مستورا بسوء، فهو بذلك جهر، يكون عاصيا لله تعالى، والله سميع لما يقوله عليم بما يضمره.

﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾

• هذه الآية الكريمة تتضمن جميع أعمال الخير التي لها علاقة بالإنسان وذلك أن أعمال الخير لاتخرج عن أمرين:

أحدهما: صدق مع الحق وصبر عليه، وفي هذا خير للناس جميعا.

والآخر: خُلُق حسن في التعامل مع الناس، وهذا من شأنه أن يدعم العلاقات الاجتماعية ويشجع التعاون على البر والتقوى.

● والتعامل مع الناس:

- إما أن يكون بجلب النفع لهم فى العَلَن كالنصرة والعدل والإحسان والصدقة الواجبة أو المستحبة ونحو ذلك، وهو معنى ﴿إن تُبْدُوا خَيْرًا﴾.

أو بجلب النفع لهم فى السِّرّ مثل ألا تعلم شماله ما أعطت يمينه وهو معنى ﴿أو تُخْفُوهُ﴾.

- وإما أن يكون بدفع ضرر عنهم فى العلن كالنجدة ودفع شر ظالم أو صائل ونحوه، أو يكون دفع ضرر فى الخفاء كالقيام سرًّا بأى عمل من شأنه أن يدفع الشر والضرر عن المسلمين، وفى كل هذه الأعمال فإن من يفعل ذلك ينميه الله تعالى.

- وقد يكون التعامل الحسن مع الناس بالعفو عن الظالم أو المعتدى حسبة لوجه الله تعالى وحرصا على دوام حب الناس والصبر على أذاهم، ولذلك عند الله أجر عظيم.

﴿كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أى أن هذه صفتان من صفات الله تعالى، فخذوا منهما ما استطعتم، فاعفوا مع قدرتكم على العقاب، كما يفعل ربكم سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾

● هذه الآية الكريمة تتحدث عن بعض مذاهب اليهود والنصارى ومناقضاتهم وأباطيلهم، فمن ذلك مانشير إليه فيما يلى:

- إيمانهم ببعض أنبياء الله تعالى دون بعض فهؤلاء يكفرون برسل الله تعالى، كما آمن اليهود بموسى وبالتوراة وكفروا بعيسى وبالإنجيل، وبمحمد ﷺ وبالقرآن.

وكما آمن النصارى بعيسى وبالإنجيل وكفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن.

- وتفريقهم بين الإيمان بالله والإيمان برسله، مع أن المؤمن بالله يؤمن برسله أجمعين.

- ورغبتهم فى أن يتخذوا لأنفسهم سبيلا وسطا يتيح لهم الإيمان ببعض الرسل والكفر ببعض كما تملى عليهم أهواؤهم.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ أى هم كافرون كفرا حقيقيا كاملا ثابتا يقينيا، كما أخبر عنهم القرآن الكريم.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ فى الآخرة بالإضافة إلى ما قد يصيبهم من ذل فى الدنيا وانكسار أمام المسلمين- كما حدث فعلا فى أكثر من موقعة، وكما يفهم هذا من قوله

تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٦١]. أي كان ذلك ويكون في الدنيا والآخرة.

- ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

● والمقصود بهؤلاء أمة محمد ﷺ الذين يؤمنون بالله ورسله جميعا دون تفريق بين الرسل، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]

وهؤلاء لهم جزيل الثواب وعظيم الأجر وواسع المغفرة والرحمة.

● **المواقف التربوية العامة في هذه الآيات الكريمة:**

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة دروسا وقيما ومعايير لابد منها لكى يعيش الإنسان حياته سعيدا بدنياه آمنا مطمئنا لآخراه، وماذلك إلا بأن تكون العلاقة بين الناس قائمة على التعاون على البر والتقوى، وأن تسودها قيم الإسلام التى يحفظ التمسك بها لكل إنسان حقه ويلزمه بأداء واجبه.

ولتوضيح ذلك نقول:

١- يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا ﴾ مايلى:

أ- أنَّ أمر الله للمؤمنين بأن يثبتوا على إيمانهم ويستمروا عليه يعنى: أن الإيمان الوقتى أو الإيمان غير الراسخ لايكفى لكى يكون الإنسان مؤمنا بالله ورسوله وبالقرآن الكريم والكتب التى انزلها الله جميعا، فلابد من تجديد الإيمان وترسيخه بمزيد من العمل الصالح واليقين الراسخ والتوكل على الله والاستمداد منه، وهذا معنى الآية.

ب- وأن المسلمين يجب أن يعلموا أن الإيمان سلسلة موصولة الحلقات من لدن أرسل الله رسله وأنزل كتبه إلى أن نزل على خاتم رسله خاتم كتبه، لافرق بين رسول وآخر ولا بين كتاب وآخر، لأن الكل من عند الله.

ومعنى ذلك: أن التَّلقِّي يجب أن يكون عن الله وحده فيما بلغ به عنه خاتم رسله محمد ﷺ، ومعنى ذلك أن الاستجابة يجب أن تكون لأوامره سبحانه، وأن الاجتناب يجب أن يكون لمناهيه.

جـ- وأن النجاح والفلاح والهدى، والخروج من الحيرة والضلال إنما يكون بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومعنى ذلك: وحدة الإله سبحانه وتعالى ووحدة الدين وهو الإسلام لله رب العالمين، ووحدة المنهج ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الانعام: ١٥٣] ووحدة المصير إليه سبحانه اليوم الآخر ماسيكون فيه من حساب وجزاء، كل ذلك حق يجب الإيمان به للخروج من الكفر والحيرة والضياع.

د - وأن الكفر بالله تعالى ضلال بعيد عن الحق وعن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فهي فطرة تدعو صاحبها إلى الإيمان بالله الواحد الأحد الخالق الرازق الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأرسل من قبله رسلا مبشرين ومنذرين يحملون كتبا منه سبحانه تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

فالإيمان مقتضى العقل ومقتضى الفطرة السوية بل مقتضى الحياة الإنسانية الكريمة.

فمن كفر بذلك أو بشيء منه فقد أمعن في الضلال وأبعد وخرج بذلك من العقل إلى الهوى، ومن الحق إلى الباطل، ومن المنهج الصحيح والصراط المستقيم إلى المناهج الخاطئة والطرق المعوجة المضلة.

٢- ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ مايلي:

أ- أن الله تعالى يحذر الناس من أن يتخذوا الدخول في الإيمان والخروج إلى الكفر أسلوبا؛ يؤمنون عند الحاجة ويكفرون عند فواتها، لأن ذلك من الأدلة على عدم وجود الإيمان أصلا فلو وجد حقا ما عدل عنه المؤمن ولو قذف في النار، ولو شُق من قمة رأسه بالمنشار، ولو... ولو... لأن الإيمان القوي الراسخ لاتزحزحه الأحداث، ولايصاحبه خوف من بطش باطش ولاظلم ظالم.

ب- وأن من الناس من تشتد بهم الغفلة ويتضاعف عندهم الغباء وقصور العقل حتى يتلاعبوا بالإيمان فيزدادوا بذلك كفرا، ظنا منهم أن الله غافل عما يعملون، أو أنه سبحانه خلقهم عبثا دون حساب وجزاء!!!

وهؤلاء الذين يزدادون كفراهم أشقى الناس وأتعسهم حظا عند الله تعالى فهم بهذا الكفر المتكرر بعد الإيمان حكموا على أنفسهم ظالمين إياها بأن يكونوا موضع عقاب الله، فأغلقوا بذلك أمام أنفسهم باب التوبة والإنابة والرجوع إلى الحق فخسروا دنياهم وأخراهم.

حـ- وانّ الكافر الذى يؤمن ثم يكفر ثم يؤمن ثم يكفر ثم يزداد كفرا، يشهد الناس على نفسه بأنه فاسد العقل والقلب والأخلاق والسلوك.

وهؤلاء قد علم الله منهم أنهم سوف يكونون كذلك، فكان أن قضى بألا يغفر لهم هذا الكفر، وألا يهديهم سبيل النجاة لما لديهم من إصرار على الكفر، بل على الازدياد من الكفر.

٣- ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ مايلى:

أ- أن هؤلاء الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا منافقون يظهرون خلاف مايبطنون، وأنهم بذلك يستحقون من الله تعالى العذاب الأليم، **جزاء على كفرهم ونفاقهم**، وتلاعبهم بالإيمان وخروجهم إلى الكفر، واستهزائهم بالإيمان والمؤمنين.

والمنافقون أشد ضررا على المؤمنين من الكافرين لأنهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وهذا أخبث وأضر من العدو الصريح لأن المؤمنين يتقون العدو الصريح وأما العدو المنافق فلا سبيل إلى اتقاء شره.

ب- وأن من علامات نفاقهم أنهم يوالون الكفار ويتخذونهم نصراء وأعوانا وأصدقاء دون المؤمنين، يزعمون لهم أن المسلمين سوف ينهزمون إذا خذلوهم وتولوا عنهم، ويعدون الكفار بأنهم سوف يتخلون عن المسلمين- كما فعلوا فى غزوة الأحزاب- طالبين بذلك ولاء الكفار ونصرتهم على المسلمين.

وتلك أمانىّ الكفار والمنافقين من يوم تحالفوا ضد الرسول ﷺ وأصحابه فى معاركهم مع الكفار، وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

ولكن الله تعالى فوّت عليهم ماكانوا يأملون، ونصر رسوله والمؤمنين، وسيفعل هذا مع المؤمنين إلى يوم الدين.

حـ- وإذا كان المنافقون بموالاتهم الكافرين يبتغون عندهم العزة والمنعة، وفهم واهمون في ذلك كل الوهم، فتلك العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، يمنحها من شاء من عباده، فهو سبحانه مسبب الاسباب وناصر المؤمنين مهما كانوا قلة على أعدائهم مهما كانوا كثرة، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٤٩]

فاثبتت الحقائق أن العزة لله جميعا ولكن المنافقين لا يعلمون.

٤- ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا** ﴾ مايلي:

أ- أنّ بعض المجالس يحرم على المسلمين ارتيادها والقعود فيها، وهي مجالس متنوعة يجمع بينها أنها تُمارس فيها معصية الله تعالى، أيا كانت هذه المعصية كشرب الخمر وغيره من المسكرات، وكلعب الميسر ونحوه، وكمجالس الفسق والفجور ونحوها.

ومنها المجالس التي يستهزأ فيها بآيات الله كما كان يفعل يهود بالمدينة المنورة قديما، وكما يفعل الملحدون والعلمانيون ومن إليهم ممن يتهمون نصوص القرآن والسنة وينادون بوجوب مراجعتها وتصحيحها وهي ظاهرة معاصرة لنا في هذا الزمان الذي تحالف فيه على الإسلام اليهودية والصليبية والملحدون والعلمانيون وبعض المسلمين بحكم أسمائهم وشهادات ميلادهم، فهؤلاء جميعا يحرم على المسلمين الجلوس في مجالسهم التي يخوضون فيها في آيات الله ويكفرون بها ويستهزئون، حتى يخوضوا في حديث غيره.

- وهذا ضبط لسلوك المسلم يجب أن يتبعه في كل مجلس يغشاه حتى لايعد مشاركا لهؤلاء الكافرين المستهزئين.

ب- وأنَّ من يغشى مجالس هؤلاء شريك لهم ومشابه لهم في هذه المعاصي ومنسوب إليهم، إلى الكفار أو إلى المنافقين أو إلى العصاة الفاسقين، وفي كل شبه بينه وبينهم في هذه الصفات بخس له وفسق وعصيان وخسارة للدنيا والآخرة، فهذا النهي عن القعود في مجالسهم علته ألا يكون مثلهم، فيجمع معهم في جهنم.

حـ- وأن الله تعالى وإن أمهل هؤلاء الذين كفروا بآياته أو استهزأوا بها من الكفار

والمنافقين وعصاة المسلمين، فإن هذا الإمهال لايعنى إهمال عقابهم، وإنما يجمعهم في جهنم جميعا يوم القيامة، والعبرة باليوم الآخر وما يحدث فيه، إذ العذاب فيه أليم أبدى يخلدون فيه إلى مالانهاية له من الزمان.

٥- ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً** ﴾ مايلي:

أ- أن من صفات المنافقين صفات يجب أن يعرفها المسلمون ويعاملونهم على أساسها، فبالإضافة إلى صفات النفاق التي ذكرت لهم في السنة النبوية من الكذب في الحديث، وخلف في الوعد، وخيانة للأمانة، كما روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان»

فإن لهم في هذه الآية الكريمة صفات أخرى يجب أن يعرفها المسلمون وهي:

- التلون والتذبذب، وحبهم أن يحمدوا بما لم يفعلوا: ﴿ **فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾.

- وخداعهم الله ورسوله وتوهمهم أنهم يخدعونه سبحانه وتعالى بإظهارهم الكفر وإسرارهم الإيمان: ﴿ **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ** ﴾.

- وقيامهم إلى الصلاة كسالى عزوفا عنها واستثقالا لها. ﴿ **وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ** ﴾.

- والرياء: فهم يراءون الناس بأعمالهم بل بظاهر أعمالهم، وإن كانوا على غير ما يظهرون ﴿ **يراءون الناس** ﴾.

- أنهم لا يذكرون الله إلا قليلا، وإنما تلهيهم الدنيا عن ذكر الله وعن الصلاة، ﴿ **وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً** ﴾ أى في أوقات قليلة.

- وأنهم متحيرون في أمرهم لايقبلون على الإيمان بإخلاص ولايأخذون جانب الكفر بصراحة: ﴿ **مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ** ﴾.

ب- وفي الآية الكريمة دليل على أن المسلمين لهم دائماً عدو يتربص بهم كل أنواع

الشر، وأنه يحالف أعداءهم، ويخذلهم فى كل موقف يحتاج فيه المسلمون إلى عون . وتلك طبيعتهم قديما وحديثا وفى كل حين .

والمسلمون يجب أن يتنبهوا إلى أنهم على الدوام لهم عدو يتربص بهم كل دائرة .

حـ- وفى الآية الكريمة بشارتان للمسلمين :

إحداهما : أن الله تعالى لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا أو سلطاناً .

والأخرى : أن الله تعالى علم من أعداء المسلمين من كفار ومنافقين كفرهم ونفاقهم فأضلهم .

٦- ويتعلم المسلمون من قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾** مايلى :

أ - أنّ الموالاة والمصادقة والموادّة لاتكون من المؤمن إلا لمؤمن، وأن غير المؤمنين من كفار ومنافقين ليسوا أهلا لهذه الموالاة، فمن والاهم فقد عصى الله : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾** ومن تدبر فى صفاتهم التى ذكرنا آنفا علم لماذا نهى الله عن موالاتهم، وإن كان أمر الله ونهيه لايحتاجان إلى تبرير، إذ فى كل أمر وفى كل نهى مصلحة للمؤمنين فى الدنيا والآخرة .

ب- وأن الآية تهدد كل من اتخذ منهم أولياء أو أصدقاء من دون المؤمنين فقد أخطأ وبهذا الخطأ قد أعطى الله تعالى سلطانا مبينا عليه ودليلا على معصيته ومخالفته مانهى عنه، كما يعطى نفس السلطان لرسول الله ﷺ وللمسلمين فى أى زمان على نفسه . أى جعل نفسه بمنزلة من يواليهم من الكفار وغيرهم .

حـ- والآية الكريمة تستنكر على أى مؤمن أن يكون ولاؤه لغير المؤمنين، لأنه بذلك يضر نفسه ويضر المسلمين، ولم يبح الله ذلك لأحد من المسلمين، ويفهم هذا الاستنكار من الاستفهام فى قوله تعالى : **﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾** أى ماينبغى أن يكون ذلك منكم أبدا .

٧- ويتعلم المسلمون من قوله تعالى : **﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾** مايلى :

أ- أن جزاء المنافقين عند الله هو أسوأ جزاء إذ هو أسوأ مافى جهنم لأنه قعرها وهو أشد ماتكون النار تعذيبا لمن فيها، فالمنافق أشد عذابا من الكافر، لأنه مثله فى الكفر وأسوأ منه بالنفاق، لمايتيحه له النفاق من الاطلاع على نقاط ضعف المسلمين وأسرارهم ثم تقديم ذلك لأعداء المسلمين، مما يضاعف المحنة على المسلمين، فلهذا كان المنافق أشد عذابا من الكافر، وهو بذلك جدير.

ب- وفى الآية الكريمة تهديد للمنافقين بأنهم لن يجدوا لهم من دون الله وليا ولانصيرا، ولاشفيعا يشفع لهم عند الله.

أما النصير فمن المحال أن يوجد من ينصر عدو الله على الله سبحانه وتعالى، فمن ذا الذى ينصر المخلوق على الخالق، وأما الشفيع يوم القيامة فهو محمد ﷺ، وكيف يشفع لهم وقد ماتوا على الكفر؟ والشفاعة لأهل المعاصى من المؤمنين.

● إن ذلك معناه أن المنافق أشر خلق الله وأشدهم عذابا.

٨- ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ مايلى:

أ- أن رحمة الله تعالي باب مفتوح دائماً، وأنها تتسع لكل خلقه حتى من كفر منهم أو نافق إذا تاب.

وأنه سبحانه يقبل توبتهم بشروط معروفة- ذكرناها عند شرحنا لهذه الآية، وعددناها أربعة شروط، وأن هذه المنحة الإلهية قائمة مستمرة إلى يوم الدين لأى كافر أو منافق أو مؤمن عاص، والحمد لله رب العالمين.

ب- وأن من قبل الله توبته من هؤلاء الكفار والمنافقين لتوافر شروطها، فإنه سبحانه بكرم منه وفضل سوف يجمعه مع المؤمنين فيحظى بهذه المعيّة، وهؤلاء لهم عند الله اعظم الاجر ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ نعسى أن يناله من ذلك شرف الصحبة، والقرب من أولياء الله وأحبائه.

حـ- وأن المؤمنين عند الله يوم القيامة لهم أعلى مكانة وأعظم رتبة، وسوف يتشرف بهم كل من جمعه الله إليهم، لانه كان على مثل صفاتهم رجَّاعا إلى الحق توابا منيبا، حتى لو كان قبل ذلك من الكفار أو المنافقين مادام قد تاب التوبة النصوح.

٩- ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ مايلي:

أ- أن الله تعالى ليس يستفيد شيئاً لو عذب أحدا من خلقه فهو سبحانه أرحم الراحمين، وهو سبحانه لايخسر شيئاً لو أنه أدخل الناس جميعا الجنة.

وإنما منهجه ونظامه- من أجل صالح الناس فى معاشهم ومعادهم- قد اقتضى تعذيب العاصى وإثابة الطائع، وتلك سننه فى التعامل مع الإنسان الذى حمل الأمانة، فكلفه الله بهذه التكاليف؛ تلك سننه ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾.

● ومن هنا يتعلم المسلمون قيمة الطاعة وجزاءها، وأثر المعصية والعذاب الذى تجره على صاحبها، فيختار كل منهم لنفسه ما يشاء من تكريم أو إهانة.

ب - ويتعلمون أن العقاب لايُعفى منه إلا من آمن بالله وشكره، وشكر الله ثلاثة أنواع:

الأول: شكر القلب وهو تصور النعمة وإظهارها.

والثانى: شكر اللسان وهو الثناء على المنعم.

والثالث: شكر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها.

● والشكر لله مكمل للإيمان به فالمؤمن غير الشاكر ناقص الإيمان غير معترف بنعم الله التى لاتحصى على الإنسان، وحسبه نعمة العقل والكلام والبصر والسمع والذوق والشم، فإذا نظر الإنسان إلى تلك النعم امتلأت نفسه بهذا الشكر وأصبح به قادرا على تعميق إيمانه وترسيخه واستمراره.

ولهذا عطف الله الشكر على الإيمان وجعل تعذيب المؤمن الشاكر بعيدا كل البعد، بل هو المستحيل حسب وعد الله تعالى.

١٠- ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ مايلى:

أ- أن المسلم محظور عليه أن يجهر بالسوء من القول، لأن ذلك الجهر بالسوء يبغضه الله ويبغض صاحبه، وذلك لتطهير المجتمع المسلم من البذاءة والفحش والكلام

السيىء والطعن واللعن ونحو ذلك مما يؤدى إلى فساد المجتمع ، فالله تعالى لايحب الجهر بالسوء من القول .

- ومن أجل ذلك كانت أبرز خصائص الإنسان المسلم الكلمة الطيبة وعفة اللسان والبعد عن الفحش والبذاءة، وعفة العين واليد والأذن، وسائر الجوارح، وهناك أحاديث نبوية توضح هذه الخصائص وتؤكد وجوبها ، ومن ذلك مارواه مسلم بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذىء» .

ب - يستثنى من الخطأ والإثم من جهر بالسوء وكان مظلوما، فقد رخَّصَ الله له أن يدعو على ظالمه، فكيف لايذكر ما أساء به إليه، فالله تعالى يقول: ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى: ٤١].

- وعلى من يجهر بالسوء من القول إن كان مظلوما أن يتقى الله فى قوله وفعله، فالله تبارك وتعالى يسمع ويرى كل مايصدر عن الإنسان ، فلو تجاوز ما أحَلَّ الله فإن الله: « . . . كان سميعا عليما » .

جـ - وأنَّ مما يُقَرِّب الإنسان إلى الله تعالى: أن يظهر فعل الخير فى الناس ليأتى به الآخرون، أو يخفى هذا الخير خوفا من الرياء والسمعة- أو أن يعفو عمن أساء إليه، فكل ذلك مما يقربه إلى الله تعالى، ويجله موضعا لجزيل الثواب من الله تعالى.

- والذى يعفو عمن ظلمه أو أساء إليه فهو فى منزلة عالية إذ العفو صفة من صفات الله تبارك وتعالى.

وقد روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ .

١١- ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ مايلى :

أ- ان الإيمان بالله تعالى يقتضى الإيمان برسله أجمعين دون تفريق بينهم.

وفيما فعلت اليهود عبرة لمن اعتبر فقد آمنوا ببعض أنبياء الله وكفروا ببعض لمجرد الهوى والعصبية، وزادوا كفرا بكفرهم بخاتم الأنبياء محمد ﷺ.

والأصل المعتمد فى هذه المواقف انَّ مَنْ يكفر بواحد من أنبياء الله تعالى فقد كفر بسائرهم.

ب- وان الأنبياء جميعا من عند الله، ومناهجهم جميعا تقوم على توحيد الله وعبادته، فالكفر بأحد هؤلاء الأنبياء كفر بهم جميعا وكفر بالله تعالى.

حـ- وانه لامبرر لرفض أحد الأنبياء فضلا عن جميعهم، أيا كان هذا المبرّر سواء ما أثاره اليهود أو النصارى وغيرهم من مبررات الهوى والعصبية.

- فقد آمن اليهود بجميع الأنبياء ماعدا عيسى ومحمدا ﷺ.

- والنصارى آمنوا بالأنبياء ماعدا خاتمهم محمدا ﷺ.

- والمجوس آمنوا بنبى واحد هو: «زارادشت».

- والسامرة آمنوا بيوشع خليفة موسى بن عمران عليه السلام ولم يؤمنوا بأحد بعده.

- ومشركو العرب كفروا بالأنبياء جميعا بحجة أنهم وجدوا آباءهم على أمة وهم على آثارهم مهتدون أو مقتدون.

- وكل هؤلاء لايعدون من المؤمنين، لان شرط الإيمان كما قلنا أن يكون بالله وأنبيائه جميعا، وإنما يحرك هؤلاء نحو الكفر بالأنبياء الهوى والتعصب والحسد والتشهى.

- وهؤلاء المؤمنون ببعض الأنبياء الكافرون ببعضهم ليسوا من الإيمان فى شىء، وإنما هم الكافرون حقا، كما وصفتهم هذه الآية الكريمة، ولهم بناء على ذلك عذاب مهين عند الله تعالى.

د - وان الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم، هم المؤمنون الذين يؤتيهم الله أجورهم، ويغفر لهم ما كان منهم من ذنوب، فهو سبحانه الغفور الرحيم.

- وذلك ان وحدة الأنبياء أكيدة ومصدرهم الذين تلقوا عنه واحد، وبالتالى فإن الإيمان بالله ورسله وعدم التفريق بين أحد من رسله هو الإيمان الكامل، وأصحابه هم الذين يؤتيهم الله

أجرا عظيماً.

● **المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة بالإسلام فى الناس والآفاق.**

يتعلم الدعاة والحركيون من هذه الآيات الكريمة كثيرا من الدروس التى يستعينون بها على شق طريقهم فى الدعوة والحركة، وبدونها يظلون قاصرين ومقصرين، ومن ذلك ما نشير إليه فيما يلى:

١- يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾** مايلى:

أ - أن على الدعاة إلى الله أن يهتموا اهتماما كبيرا بقضية تجديد الإيمان فى نفوس الناس وفى أخلاقهم وسلوكهم، وذلك بأن يوضحوا أن الإيمان قد يصدأ وقد يبلى ويموت إذا فقد المتعبد روح الإقبال عليه والإخلاص فيه، وإذا غشيته المعاصى ورانت عليه الرتابة والأداء البارد لأركانه وأعماله.

● وتجديد الإيمان إنما يكون بالإقبال على الله بالطاعات وبالإخلاص فى كل طاعة وابتغاء وجه الله تعالى بها.

- وعلى الدعاة إلى الله أن يؤكدوا أن الإيمان ليس مجرد أعمال شخصية وسلوك ذاتى وأخلاق تخص صاحبها وحده وإنما الإيمان يقتضى أعمالا وسلوكا وأخلاقا اجتماعية بكل ماتعنيه كلمة «اجتماعية» من معنى:

● فالإيمان بالله ورسله إحساس بالمسئولية أمام الله وأمام النفس وأمام المجتمع، وليس بمؤمن من اعتزل الناس وعاش فى صومعة كأنه راهب، وإنما الإيمان دعوة وحركة وإيجابية وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

ذلك هو ما يجدد الإيمان، وهذا هو الذى يجعل للعبارة القرآنية **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ﴾** دلالتها ونفعها وإيجابيتها، وينفى عن الإيمان الصدأ والرتابة والبلى.

ب- ومن أبرز مهام الدعاة إلى الله أن يركزوا على قضية الإيمان بالرسل ليسهموا بذلك فى تجلية حقيقة الإيمان بالله، فالرسل رسل الله وهم جميعا أمة واحدة، فقد قال الله تعالى عنهم: **﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**

﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون ٥١، ٥٢].

● فالرسل جميعا من عند الله دينهم واحد وربهم واحد وهم مثل البشر مطالبون بالأكل من الطيبات وبالعمل الصالح والله رقيب عليهم، وهم جميعا أمة واحدة وحَّد بينهم المنهج القائم على عبادة الله وحده.

وكل ما طولب به الأنبياء عليهم السلام كلفوا بأن يبلغوه ويطلبوه من الناس، والناس جميعا عند التدبر أمة واحدة وحد بينهم أن إلههم واحد وخالقهم واحد ودينهم واحد وغايتهم واحدة وهى عبادة الله تعالى.

● ومادام الناس ذلك فلابد من الإيمان بالرسل جميعا دون تفريق أو تعصب ليصح الإيمان بالله وليتجدد وليستمر، ولتترسخ ثوابته فى نفوس الناس.

● وعلى الدعاة أن يوضحوا للناس أن ثوابت الإيمان هى:

العقيدة الصحيحة فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر.

- والعبادة السليمة وفق ما أمر الله تعالى ومانهى.

- والأخلاق التى زكاها الإسلام وأمر بالتحلى بها.

تلك ثوابت الإيمان، وماعداها متغيرات يدخل فيها الاجتهاد والتغيير والتبديل حسب كل زمان ومقتضياته وحسب كل مكان وظروفه.

حـ- وهذه الآية الكريمة تجعل من واجب الدعاة إلى الله وهم علماء الإسلام أن يوضحوا للناس الفرق بين الضلال والضلال البعيد.

● فالضلال:

هو الترك أو الخروج أو العدول عن الصراط المستقيم، وضده الهداية، سواء أكان هذا الخروج أو العدول عمدا أو خطأ أو نسيانا، وسواء أكان قليلا أو كثيرا.

فالضلال معناه واسع يشمل كل ما أشرنا إليه، وبهذا المعنى للضلال يفهم قول الله تعالى فى شأن محمد ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] أى وجدك غير مهتد لما ساقه الله إليك من النبوة فهداك إليها، وقوله تعالى فى شأن يعقوب عليه السلام: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] أى خارجا عن الصواب فى حبه لولده يوسف ورجائه فى لقائه.

● والضلال البعيد :

هو الخروج عن الحق عمدا مع معرفة أنه الحق، كالضلال فى معرفة الله تعالى والكفر به، والضلال فى معرفة النبوة والكفر بها أو ببعض الأنبياء، والضلال فى معرفة كتب الله التى أنزلها على رسله، والكفر بها أو ببعضها، والضلال فى معرفة ملائكة الله والقول بأنها بنات الله، والضلال في معرفة اليوم الآخر، وإنكاره وإنكار مافيه ، أو التندر على المؤمنين به وبعالم الغيب: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ وقد وصف الضلال بأنه بعيد فى آيات القرآن الكريم لاقترانه بالشرك بالله(١) واقترانه بالكفر(٢)، واقترانه بالصد عن الله وعن سبيله(٣) واقترانه بالكفر باليوم الآخر(٤)، واقتران الضلال البعيد بالعمل الفاسد الخالى من الإيمان(٥).

٢- ويتعلم الدعاة إلى الله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ مايلى:

أ - أنّ على الدعاة إلى الله أن يفتحوا أمام المقصرين والمخطئين والعصاة باب الأمل والرجاء فى أن الله تعالى يغفر لهم تلك الذنوب إذا تابوا وأنابوا، وذلك أن الذنوب التى لا يغفرها الله هى الشرك به- كما دلت على ذلك آيات القرآن -.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله تعالى لايغفر ذنب التلاعب بالإيمان والكفر بعد الإيمان ثم الكفر والازدياد فى الكفر، فهذه الأعمال لم يكن الله تعالى ليغفر لأصحابها ولا ليهديهم سبيلا.

وأما وراء ذلك من الأعمال الخاطئة فإن الله تعالى يغفرها ما دامت حدثت التوبة بشروطها.

ب- وأن على الدعاة إلى الله أن يوضحوا رحمة الإسلام وحرصه على الحياة للإنسان حتى بعد أن يكفر، فإن من كفر بعد إيمانه يعتبر مرتدا، والمرتد يجب أن يقتل كما

---

(١) فى الآية: ١١٦ من سورة النساء، وفى الآية: ١٢ من سورة الحج.

(٢) فى الآية: ١٣٦ وهى الآية التى نتحدث عنها، والآية: ١٦٧ من نفس السورة، والآية: ٢٧ من سورة ق. والآية: ١٨ من إبراهيم.

(٣) وذلك فى الآية: ٣ من سورة إبراهيم.

(٤) وذلك فى الآية: ٨ من سورة سبأ. والآية : ١٨ من سورة الشورى.

(٥) وذلك فى الآية: ١٨ من سورة إبراهيم وفى هذه الآية اقترن الضلال البعيد بالكفر وبالعمل الفاسد.

وردت بذلك أحاديث نبوية كثيرة، ولكن قتله لايكون إلا بعد استتابته، أى طلب التوبة منه ورد الشُّبَه التى كفر من أجلها إن كان كفر لشبهة، ومدة الاستتابة ثلاثة أيام كما قال على بن أبى طالب وعبدالله بن عباس رضى الله عنهما.

● بل إن بعض العلماء قالوا: لا حد للمدة التى يستتاب فيها المرتد، وإنما يستتاب كلما ارتد، ولو كان ارتداده أكثر من مرة[1].

● وماهذا الصبر على المرتد إلا من سماحة الإسلام وإعطاء أكثر من فرصة لمن أغواه الشيطان فأخرجه من الإيمان إلى الكفر، وما منْ قائل من العلماء إن المرتد يقتل بمجرد أن يعلن ارتداده، كما يهذى بذلك الذين لايعلمون من الأعداء.

حـ- وعلى الدعاة إلى الله أن ينبهوا إلى سبب ارتداد المرتد، كائنا مايكون فإن على العلماء أن يزيلوا شبهته فى فترة استتابته.

حتى قال بعض العلماء إن المرتد عن شبهة إذا لم يستطع العلماء دفع شبهته فإنه لايجوز قتله، وهذا الرأى وإن كان افتراضيا- لأنه لاتوجد شبهة يعجز علماء الأمة عن دفعها - لكنه يدل على أن المرتد عن شبهة يناقش ويحاور وتزال له كل شبهة ويصوب له كل رأى أدى به إلى الارتداد.

وتلك سماحة الإسلام وسعة صدر المسلمين حتى مع المرتد حتى تدفع شبهاته ويستتاب.

٣- ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ مايلى:

أ- أن واجب الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن النفاق أسوأ صفة يتصف بها الإنسان، إذ هى دليل جبنه وخسته وحبه للشر، وعقد نيته على الغدر عندما تسنح له أول فرصة، ولذلك فهو من أشر الناس وأشدهم عداء للمسلمين، ولذلك أيضاً أعد الله له عذابا أليما موجعا يوم القيامة جزاء عادلا على ما كان يوقع بالمسلمين من آلام فى إظهار عدوهم عليهم.

---

(١) للمرتد أحكام عديدة تلتمس فى كتب الفقه الإسلامى وكتب الحديث النبوى الشريف.

ب- وعليهم أن يوضحوا للناس أن المنافق عدو نفسه أولا لأنه بنفاقه يوبقها أمام الله تعالى ويعرضها لعذابه.

وأنه عدو ربه لأنه سبحانه حرم النفاق وجعله من الجرائم الكبرى التى تستحق أشد أنواع العذاب، إذ جعل المنافقين فى الدرك الأسفل من النار.

وأنه عدو المجتمع المسلم يريد أن يعرف نقاط الضعف فيه ثم يخبر بها عدوه، ليأخذه العدو على غفلة ويحاربه عن علم بنقاط الضعف فيه.

وأنه عدو للمجتمع الإنسانى كله، لأنه غاش وخدَّاع وجبان وما كانت هذه الصفات فى أفراد مجتمع إنسانى إلا تسببت للمجتمع كله فى المعاناة والتراجع والخراب.

حـ - وأن على الدعاة أن يهتموا ببيان أن موالاة الكافرين دون المؤمنين تراجع عن الحق الذى آمنوا به، وخيانة له، وإضعاف للاعتزاز بالإيمان والمؤمنين، وإنهاك للانتماء إلى الدين الحق وإلى أهله وحراسه.

● ولايتقدم المجتمع المسلم فى شتى مرافق الحياة إلا بأن يعتز أفراده بدينهم، ويعطو ولاءهم لله ولرسوله وللمؤمنين، فذلك مما يكمل إيمانهم ويزكى إسلامهم، ويسهم فى أن يكون للمسلمين قوة ومنعة ومكانة تمكنهم من نشر دين الله فى الأرض كما توجب ذلك نصوص الإسلام من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة.

د - وعليهم أن يحرروا فى أذهان المسلمين معنى العزة والقوة والكرامة وأنها أصلا لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن المؤمن يستمدها من الله وحده ثم من رسوله ﷺ، ومن منهجه المتكامل الذى رضيه للبشرية كلها دينا.

● ومن البدهيات المعروفة فى الإسلام أن من ابتغى العزة من غير الله ورسوله ومنهجه والمؤمنين الصالحين، فقد أخطأ الطريق وضل عن الحق وخاب مسعاه.

● ومهمة الدعاة إلى الله فى هذا المجال جد خطيرة إذ هى فى التحليل الصحيح تربية الناس تربية إسلامية شاملة متكاملة تتناول الثوابت التى تحدثنا عنها آنفا، وتجعل تحقيقها أهم الأهداف.

٤- ويتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا** ﴾ مايلى:

أ- أن كل قيمة خلقية فاضلة دعا إليها الإسلام وأمر بالتحلى بها، قد نزلها الله تعالى على رسوله الخاتم فى كتابه الخاتم، وهى قيم مستمرة مع المسلم إذ هى من الثوابت، وبها يتحقق للفرد وللمجتمع سعادة الدنيا والآخرة.

ب- وأن المتتبع لآيات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يستطيع أن يجد فيهما كل القيم الخلقية الفاضلة دون عناء[1] وأن كل قيمة منها مهما بدت أمام بعض الناس ثانوية أو غير ذات أهمية ومن دنيا درجات الإيمان كإماطة الأذى عن الطريق، فإنها فى الحقيقة أساسية فى بناء المجتمع الآمن المطمئن القادر على ممارسة الحياة الإنسانية الكريمة، المجتمع الذى أميط الأذى عن طرقاته ومسالكه.

حـ- وعليهم أن يدققوا فى كيفية قضاء المسلمين لوقت فراغهم.

وهنا يجب أن يوضحوا بعض الحقائق مثل:

- أن المسلم ليس عنده وقت فارغ من العمل، لأن واجبات المسلم أكثر من أوقاته، ومن كان عنده من المسلمين عنده وقت فيه فراغ من العمل الصالح فقد ضل طريق الإسلام، وأصبح أكثر ضلالا فى طريق الدعوة إلى الله والحركة بالإسلام فى الناس والآفاق.

- وأن المجالس التى يرتادها المسلم والأماكن التى يذهب إليها، يحدوه إليها حبه للعمل من أجل الإسلام والدعوة إليه، وليس منها على أى صورة من الصور مجلس أو مكان لايذكر فيه الله، ولا تمارس فيه الدعوة إليه، وعندما كان أسلافنا رحمهم الله على هذا الفقه فى العمل دانت لهم الدنيا وملأوها عدلا ورحمة وإحسانا.

- وأن مجالس اللهو والباطل وشرب الخمر ولعب الميسر، ومجالس الغيبة والنميمة، ومجالس التعاون على الإثم والعدوان، ومجالس التهجم على نصوص الإسلام بدعوى حرية الرأى والإبداع ومايهرف به الذين لايعرفون، كل تلك المجالس يحرم على المسلم أن يغشاها، فإن غشيها وسمع مايقال فيها دون إنكار فكأنه كافر أو منافق مثلهم، وهم وهو مجموعون فى جهنم جميعا ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

٥- ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ

---

(١) وانظر لنا كتاب: التربية الخلقية- حلقة من سلسلة مفردات التربية الإسلامية- نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية: ١٤١٥هـ.

بكُمْ فَإن كَـانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ مايلى :

أ- على الدعاة إلى الله أن يبصروا الناس بأن أعداء الأمة الإسلامية غير المصرحين بعداوتهم هم المنافقون وأن أسلوبهم فى العداوة يكاد ينحصر فى موقفين:

الأول منهما :

عندما تكون الأمة الإسلامية فى نصر وظفر وغنيمة، وعندئذ يتودد المنافقون إلى المسلمين زاعمين أنهم كانوا معهم.

والآخر :

عندما يقع بالأمة الإسلامية هزيمة أو بلاء، عندئذ يذهب المنافقين لأعداء المسلمين الذين انتصروا عليهم قائلين، لقد كنا معكم ومنعنا المسلمين من الانتصار عليكم، توددا إليهم أيضاً.

- تلك سنة المنافقين قديما منذ كانت للمسلمين معارك مع المشركين فى أحد والخندق وغيرهما، ولاتزال تلك سنتهم اليوم فى التقرب من إسرائيل وتطبيع العلاقات معها.. لأنها الدولة المنتصرة على المسلمين التى احتلت ديارهم واستولت على أموالهم واعتدت على أعراضهم وأهانت مقدساتهم.

- إن على الدعاة أن يكشفوا هذا النفاق للمسلمين اليوم، تُرى لو فعلوا هل يجدون أمة عربية أو إسلامية لم تهرول إلى إسرائيل وحاميتها أمريكا، لتقول لهما: « ... ألم نمنعكم من المسلمين فى السر، وإن حاربناكم فى العلن؟ ».

ب – وعليهم أن يؤكدوا للمسلمين حقيقة مبشرة مطمئنة هى أن الله تعالى لن يجعل للكافرين والمنافقين على المؤمنين سبيلا وسلطانا، وإن بدا انتصار للكفار والمنافقين على المسلمين، إلا أن ذلك لايعدو أن يكون جولة يأتى بعدها النصر بإذن الله للمؤمنين، لأن الله تعالى وعد بذلك فى أكثر من آية قرآنية، ووعده الصدق.

- إن إحياء هذه المعانى فى نفوس المسلمين اليوم يحول بينهم وبين الإحباط الذى يشعر به كثير منهم عندما يفكر فى مواجهة إسرائيل ومن ورائها أمريكا وأوربا وروسيا وغيرهم.
- إن على الدعاة إلى الله أن يوضحوا للمسلمين أن تحويلهم إلى شراذم يزيد عددها على خمسين دولة أو دويلة لم يأت عفوا أو دون قصد، وإنما كان ذلك تمهيداً لإنشاء إسرائيل وتمكينا لها من الانتصار على العرب فى فلسطين.
- وأعجب العجب أن من الفلسطينيين حتى اليوم من يرون أن المعركة مع إسرائيل معركة مع العرب لا مع المسلمين!!! وأمام هؤلاء المخدوعين ألف دليل ودليل على أن إسرائيل ومن وراءها يحاربون المسلمين فى أشخاص العرب.(١)

جـ - وإن على الدعاة أن يبصروا الناس بما يفعله المجتمع الدولى الذى تحركه أمريكا وتسيطر عليه بكثير من بلدان المسلمين ليدرك كل عاقل مخطط أعداء الإسلام فى ضرب هذه البلدان الإسلامية وحصارها ومنع طيرانها من التحليق، ولن يعجزهم أن يسهلوا لبعض الغافلين من الزعماء المغرورين العدوان على بلد مجاور ليقوموا بحماية ذلك البلد المعتدى عليه- كما حدث ذلك فى تشجيع مشئوم العراق على العدوان على الكويت، ثم كانت الطامة التى رسموا لها خطوطها وأبعادها، وليس ما يحدث فى ليبيا وإيران والسودان والصومال وإريتريا، والبوسنة والهرسك وألبانيا ببعيد عن أذهان من يراقبون الأمور(٢).

- إن تبصير الدعاة للمسلمين بالمنافقين وصفاتهم كما وردت فى القرآن الكريم والسنة النبوية أمر واجب، وهم أهل علم ودراية بالبحث عن هذه الآيات الكريمة وهذه الأحاديث النبوية الشريفة -وكما قلت آنفا- إن القرآن الكريم والسنة النبوية هما زاد الدعاة فى الدعوة والحركة والتمكين لدين الله.

---

(١) لمن أراد أن يتدبر: أكدت إذاعة B.B.C فى لندن أن إسرائيل من وراء تفجير الهند لقنابلها الذرية قهرا لباكستان، كما أذاعت أن إسرائيل تحاول التفاهم مع الأفغان ليقفوا فى وجه باكستان بعد أن فجرت قنابلها الذرية. ومن أراد التدبر الأعمق فلينظر إلى عقوبات الأمم المتحدة -أى أمريكا- للهند وباكستان على جريمة امتلاك القنبلة الذرية وتمكين إسرائيل من امتلاكها منذ أكثر من عشرين عاماً!!!

(٢) أنا على يقين من أن بعض الغافلين أو المنافقين سيقولون: هذا تفسير تآمرى لحركة الأحداث بمعنى أن المسلمين كلما ضعفوا وهانوا صرخ علماؤهم وكتابهم يقولون: إنها مؤامرة على الإسلام!!! أليس لهؤلاء عقول تدرك ما يحيط بالمسلمين، وماذا فعلت أمريكا ضد الصرب الذين أبادوا مسلمى البوسنة وهتكوا أعراض نسائها؟ أليس ذلك من التآمر على المسلمين؟ وماذا فعل المجتمع الدولى لكى يحول بين الصرب وبين الإبادة العرقية فى كوسوفو؟.

٦ – ويتعلم الدعاة إلى الله [illegible] الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ ما يلى:

أ – أن واجب الدعاة أن يوضحوا للناس معنى الموالاة لله ولرسوله وللمؤمنين، والنهى عن موالاة الكافرين، لأن هذه المعانى من أهم ما يجب أن يعلمه المسلم ليلتزم به فيسهم بذلك فى بناء المجتمع المسلم القادر على أن يُمكّن لدين الله فى الأرض.

● الموالاة هى المصادقة والموادة والمسارَّة، ويدخل فيها إطلاع من يواليه على بعض أحوال المؤمنين الباطنة.

وهذه الموالاة فى الأصل تكون لله ولرسوله وللمؤمنين، كما جاء ذلك فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥ – ٥٦].

● وأن الله تعالى قد نهى فى هذه الآية عن موالاة الكافرين كما نهى عن موالاتهم فى قوله تعالى: ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران: ٢٨].

● هذا الولاء بهذه الشروط هو الذى يجعل المؤمنين المتمسكين به من حزب الله، ذلك الحزب الذى وعد الله تعالى بنصره وبأن يجعله الغالب فى كل معركة، والله تعالى لا يخلف الميعاد، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾؟ [النساء: ١٢٢].

● وأن من يوالى الكافرين، فليس من الله فى شىء، وقد جعل لله عليه سلطانا مبينا أى أعطاه المبرر لعقابه أشد العقاب، وهذا ما أنكره الله على أى مؤمن وحذره منه.

ب – وأن كلمة الكافرين يجب أن يتضح مدلولها، حتى لا يقع المؤمنون فيما نهى الله عنه.

● معنى الكفر: هو الستر والتغطية والجحود، وأشد أنواعه ضرراً هو جحود الله الواحد، وجحود النبوة والشريعة وجحود نعمة الله الواجبة الشكر. فالكافر يستر كل ذلك ويغطيه ويجحده.

وقد يسمى الكافر فاسقا، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥] أى من جحد حق الله فقد فسق عن أمر ربه بظلمه.

وقد يطلق الكفر على السحر كما فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ... ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقد يطلق الكفر على أكل الربا واستحلاله كما فى قوله تعالى: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

كما يطلق الكفر على كل مخالفة لأمر الله ونهيه كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧].

ويطلق لفظ الكفر على الظلم والكافر على الظالم كما فى قوله تعالى: ﴿ ...وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ويطلق لفظ الكافر على من لم يحكم بما أنزل الله سواء أكان ذلك التعطيل لحكم الله فى الماضى أو فى الحاضر أو فى المستقبل، كما فى قوله تعالى: ﴿ ... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

كما يطلق على كل من يئس من فرج الله ورحمته كما فى قوله تعالى: ﴿ ... وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

كما يطلق لفظ الكفر على اليهود والنصارى والمشركين الذين كفروا بمحمد ﷺ كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ [البيّنة: ٦].

- إن هذه المعانى لكلمتى: الولاء، والكفر، لابد أن يعرفها المسلمون ويتدبروا فى معانيها، ويجعلوها وأمثالها من كلمات القرآن الكريم والسنة النبوية من حصيلتهم الثقافية وعلى ضوء فهمهم لها يجب أن يتعاملوا مع الناس.

جـ- وأن على الدعاة أن يوضحوا للناس أن الأمة المسلمة أمة متميزة فى ولائها وعدائها وصلحها وخصامها، فالأصل ألا يعطى أفرادهم ولاءهم إلا للمؤمنين، ولا يطمئنوا إلا إليهم ولا يصدقوا سواهم، استجابة لقوله تعالى: ﴿ ...وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ... ﴾ [آل عمران: ٧٣]. أى لا تصدقوا غير المؤمن ولا تطمئنوا إليه مهما زعم أنه صادق.

- إن المسلمين إذا تميزوا بذلك الولاء أطاعوا ربهم وجنبوا أنفسهم وأمتهم عناء الآثار السيئة

والأضرار الخبيثة التي تلحق بالأمة الإسلامية لو كان أولياؤها من غير المؤمنين، وانضمت إلى من ليس على دينها.

٧ – ويتعلم الدعاة إلى الله من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا** ﴾ ما يلي:

أ – أن المؤمن يجب أن يكون أبعد ما يكون عن النفاق، لأن المنافق فى الدرك الأسفل من النار وهو بنفاقه فى ذل وانكسار لا يجد نصيرا ولا شفيعا.

● إن على الدعاة إلى الله أن يُنَفِّروا المؤمنين من كل صفة من صفات المنافقين، وأن يعلموهم أن أول درجة من درجات التخلص من النفاق هى الإخلاص لله، لما يجلبه الإخلاص للمخلص من حب الله إياه ورضاه عنه.

ب – وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن الله تعالى لم يغلق الباب أمام المنافقين، وإنما سمح لهم بأن يكونوا مع المؤمنين إذا تابوا وأصلحوا أعمالهم واعتصموا بالله متمسكين بعهده وميثاقه، وأخلصوا لله دينهم وأعمالهم.

جـ – وواجب الدعاة إلى الله أن يعلموا الناس شكر الله، فمن آمن بالله وشكره فقد نجا من عذاب الله.

● وللشكر عباد مخلصون متميزون، وهم قلة دائما، لأن الإنسان كثيراً ما تنسيه النعم شكر المنعم متصوراً إنما أوتى تلك النعم على علم عنده، والله تعالى يقول: ﴿ **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ [سبأ: ١٣]، ويقول: ﴿ ..**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

● ولشكر الله تعالى جزاء دنيوى حسن وجزاء أخروى أحسن.

أما جزاء الدنيا فمقرر بقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ....** ﴾

[إبراهيم: ٧].

وأما جزاء الآخرة فمقرر بقوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

● **والشكر لله تعالى قد أمر الله تعالى به فى أكثر من آية قرآنية كريمة، كما فى قوله تعالى:**

﴿ ...وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢]. وقوله تعالى: ﴿ ...فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٧]. وقوله: ﴿ ...وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل: ١٤].

● هذا ما ينبغى أن يعلمه الدعاة إلى الله للناس فى موضوع الشكر ومكانته بعد الإيمان بالله تعالى، إنه مع الإيمان نجاة من عذاب الله تعالى -كما قلنا آنفا-.

٨ - ويتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ ما يلى:

أ - أنّ الإسلام دين اللفظ الجيد والكلمة الطيبة والقول اللين. وأنه دين عفة اللفظ وعفة القلب وعفة الجوارح، غير أنه يسمح لمن ظُلم أن يذكر ظالمه بالظلم وهو أسوأ السوء، بل له أن يدعو عليه، وإن كان الصبر على ذلك الظالم وأمثاله من المطالب الأساسية فى الإسلام، ويعززه التسامح والعفو عند التعامل مع الناس.

● ويدخل فى حكم المظلوم من نزل بقوم فلم يقروه، ومن أساء إليه جاره ولم يرع فيه حق الجار.

فقد روى أحمد بسنده عن المقدام بن أبى كريمة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليلة الضيف واجبة على كل مسلم، فإن أصبح بفنائه محروما كان دينا عليه فإن شاء اقتضاه وإن شاء تركه».

وروى أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال: إن لى جارا يؤذينى، فقال له: «أخرج متاعك فضعه فى الطريق، فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق، فكل من مرّ به قال: مالك؟ قال: جارى يؤذينى، فيقول: اللهم العنه اللهم أخزه، قال: فقال الرجل لجاره: ارجع إلى منزلك، والله لا أوذيك أبداً».

● فى المجتمع المسلم لا يضيع حق جار ولا ضيف، ولا حق لصاحب حق، ويستطيع الدعاة إلى الله أن يؤكدوا هذه المعانى بعديد من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية.(١)

---

(١) وأذكر الدعاة إلى الله فى هذا المجال بكتب السنة التالية:
- صحيح البخارى: باب الوصية بالجار، وباب حق الجار.
- وصحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، وباب الوصية بالجار والإحسان إليه، وباب اللقطة.
- وسنن أبى داود: باب الأطعمة. - وسنن الترمذى: باب البر. - وسنن ابن ماجة: باب الأدب.

جـ - وعلى الدعاة إلى الله أن يذكروا بأن المجتمع المسلم هو مجتمع فعل الخير مطلقا، فقد أمر الله تعالى بذلك في قوله تعالى: ﴿ ...وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج: ٧٧]، قال ابن عباس رضى الله عنهما: فعل الخير هو صلة الرحم ومكارم الأخلاق.

ومفردات فعل الخير أكثر من أن تحصى فمنها:

- إيصال النفع لكل مسلم ودفع الضرر عنه.

- والعفو عند المقدرة والتسامح.

- والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد فى سبيل الله.

- والعدل والإحسان.

- والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، والحركة بهذا الدين فى الناس والآفاق.

- وتربية الأبناء تربية إسلامية.

٩ - ويتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ ما يلى:

أ - أن الأديان التى جاءت من عند الله والرسل الذين بلغوها للناس، هذه الأديان واحدة، وأولئك الرسل على منهج واحد، هذه قضية لا تقبل جدلاً عند عقلاء الناس ومنصفيهم.

● أما أولئك الذين يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض فأولئك كافرون بالله كافرون برسله حتى بالذين آمنوا بهم من هؤلاء الرسل عليهم السلام.

● وهؤلاء الذين يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض إنما يحركهم إلى ذلك الكفر والجهل والتعصب والحقد والحسد، وليس لهم فى ذلك الموقف ما يبرره من إيمان أو عقل، فلو كانوا حقا يؤمنون بنبيهم إيمانا صحيحا لآمنوا بسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

● واليهود والنصارى يكفرون بمحمد ﷺ فهم بهذا كافرون بأديانهم وبأنبيائهم.

ب – وعلى الدعاة إلى الله أن يذكروا الناس بأن من آمن ببعض الرسل وكفر ببعض فقد كان كافراً حَقٌّ الكفر وأخبثه واستحق عند الله يوم القيامة العذاب المهين.

وحسب أى مجترئ على الله بأن يؤمن ببعض رسله دون بعض أن يكون فى اليوم الآخر فى موقع الإهانة، لأنه ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ... ﴾ [الحج: ١٨]، ومع ذلك سوف يصلى عذابا مهينا يضيع عليه كرامته ويخزيه.

- إن على الدعاة إلى الله أن ينبهوا الناس إلى تجنب إغضاب الله تعالى حتى لا يوقعوا أنفسهم فى الهوان وفى العذاب المهين.

١٠ – ويتعلم الدعاة إلى الله والمتحركون بالإسلام فى الناس من قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

أ – أن الذين سيؤتيهم الله أجورهم هم المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد من رسله.

- وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس صفات المؤنين كما جاءت فى الكتاب[١] والسنة[٢].

ب – وأن على الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس الأجر العظيم الذى سيؤتيه الله للمؤمنين، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ [البروج: ١١]، وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين: ٤ – ٦]، وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) واذكر الدعاة إلى الله هنا ببعض آيات القرآن الكريم وهى:
- البقرة: ٢٨٥، والأنفال: ٢ – ٤، والحجرات: ١٥.

(٢) ومن السنة اذكر بما يلى:
- صحيح البخارى: كتاب الإيمان.
- وصحيح مسلم: كتاب الإيمان.
- ومعظم كتب السنة فى أبواب الإيمان فيها.

أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ⑨ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

[يونس: ٩، ١٠].

وفى قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

[الأنعام: ٨٢].

وفى قوله: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾

[الرعد: ٢٩].(١)

● وأما الأحاديث النبوية فأكثر من أن تحصى هنا، ولكنى أذكر منها ما رواه مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: « إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: الا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: يا رب وأى شىء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً ».

وما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: « ينادى مناد، إن لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبتئسوا أبدا، فذلك قوله عز وجل: ﴿ **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾.(٢)

---

(١) وردت مثل هذه الآيات الكريمة فى السور المكية ستا وعشرين مرة، وفى السور المدنية أربعا وعشرين مرة، فتدبروا يا دعاة الله.

(٢) أذكر فى هذا المجال بما يلى:
- صحيح البخارى: كتاب الرِّقاق.
- وصحيح مسلم: كتاب الرقاق.
- وصحيح الترمذى: أبواب صفة الجنة.
- وسنن ابن ماجة: باب صفة الجنة.
- وسنن الدارمى: أبواب الجنة.

١٧ - الآيات الكريمة من الآية الثالثة والخمسين بعد المائة

إلى الآية الثانية والستين بعد المائة

تعنت اليهود مع رسول الله ﷺ

وبيان لأعمالهم ونتائجها، وإيمان بعضهم به

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

- اشتملت الآيات الكريمة على بيان لصفات اليهود، توضيح لتعنتهم مع رسول الله ﷺ، وسوء اقوالهم واعمالهم، وتحديهم لأنبيائهم عليهم السلام، وقتلهم بعض هؤلاء الأنبياء عليهم السلام.

وأخبرت الآيات الكريمة عن عقاب الله تعالى لمن كانت هذه صفاته وأقواله وأعماله.

ثم قارنت الآية بين كافرى اليهود والمؤمنين منهم الراسخين فى العلم الذين يؤمنون بالله

واليوم الآخر مما نجمله فيما يلي:

– تعنت اليهود –وهم أهل الكتاب– مع رسول الله ﷺ، عندما طلبوا منه كتابا كاملا لا مُنَجمًّا ينزل عليه من السماء كما نزلت الألواح التى فيها الوصايا العشر على موسى عليه السلام، أو طلبهم منه كتابا من السماء فيه اسم كل منهم ودعوته شخصيا إلى الإيمان.

وهذا التعنت ليس بمستغرب منهم، فقد تعنتوا مع موسى عليه السلام فقالوا له: أرنا الله جهرة، فعاقبهم الله تعالى ثم عفا عنهم ليتوبوا إلى الحق، فما تابوا ولكن اتخذوا العجل إلها، فعفا عنهم للمرة الثانية.

– وكان من تعنت اليهود وعنادهم للحق أن امتنعوا عن الالتزام بأحكام التوراة –وهى كتابهم– فكان أن رفع الله فوق رءوسهم الجبل حتى ظنوا أنهم واقع بهم، ولكن الله لم يسقطه عليهم، وأمرهم الله بدخول بيت المقدس سجدا قائلين حطة أى حُط عنا يا ربنا خطايانا فى ترك الجهاد، وأمرهم الله بحفظ السبت فلم يحفظوه وإنما تحايلوا.

– ومن أعمالهم: أنهم نقضوا ميثاقهم وكفروا بآيات الله.

– وأنهم قتلوا بعض الأنبياء.

– وادعاؤهم أن قلوبهم لا تعى.

– وقولهم على مريم بهتانا عظيماً وزعمهم أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

– وادعاؤهم أنهم سيؤمنون بالمسيح حين ينزله الله إلى الدنيا ليقاتل الدجال.

● والإخبار من الله تعالى عن عقابه اليهود بعد ممارستهم لأنواع الظلم والعدوان وأكلهم الربا وأكلهم أموال الناس بالباطل، عاقبهم فى الدنيا بأن حرم عليهم الطيبات التى كانت حلالاً لهم، وأعد لهم فى الآخرة عذابا أليما.

● والإخبار منه سبحانه بأن من اليهود قلة رسخ علمهم فآمنوا بمحمد ﷺ، وبما أنزل من قبله، والتزموا بأوامر الله تعالى وآمنوا باليوم الآخر وأن الله تعالى أعطاهم على ذلك أجراً عظيماً. مما سنفصله فيما يلى:

● **تفصيل القول فى شرح هذه الآيات الكريمة.**

– ﴿**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ...**﴾ المراد بهم اليهود، فقد سألوا رسول الله ﷺ متعنتين معه –لما رأوا القرآن ينزل عليه نجوما– أن ينزل عليهم كتابا من

السماء دفعة واحدة كما نزلت الألواح التى فيها الكلمات العشر على موسى عليه السلام، كان هذا الأمر بيد رسول الله ﷺ !!!

وقد يكون سؤالهم المتعنت معه ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء فيه صحف مكتوبة إلى فلان وفلان أن صدقوا بما جاء به محمد ﷺ، وهذا أشد تعنتا من سابقه وأمعن فى الكفر والتحدى.

- وكان كفار قريش قد سألوا رسول الله ﷺ علىٰ سبيل التعنت أيضا أمورا تدل على رفضهم الإيمان به، فقد قال المشركون له كما حكى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (٨٩) وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً** ﴾ [الإسراء: ٨٩ - ٩٤].

- وفى تعنت اليهود مع رسولهم موسى عليه السلام وإخبار الله تعالى رسوله بذلك، تسلية له ﷺ، لأن المتعنتين فى كفرهم سواء.

- ﴿ **فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ** ﴾ فقد كان من تعنت اليهود مع موسى عليه السلام أن سألوه أن يريهم الله جهرة وعلانية.

فكان أن أخذتهم الصاعقة فماتوا وكانوا سبعين اصطحبهم موسى عليه السلام معه، ثم أخذ موسى يدعو الله ويرجوه حتى ردّ الله إليهم أرواحهم، وكان ذلك بعد عبادتهم العجل. أخذتهم الصاعقة بسبب ظلمهم وتعنتهم واتخاذهم العجل من بعد ما جاءتهم البينات.

﴿ **وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا** ﴾ أى نصره الله عليهم على الرغم من لجاجهم وتعنتهم، وفى هذا طمأنة لرسول الله ﷺ أنه ستكون العاقبة له على المتعنتين معه.

- وفى اتخاذهم العجل إلها من دون الله بعد ما رأوا بأعينهم كيف نجاهم الله من فرعون وقومه، ثم عفا عنهم، وأيد موسى عليه السلام بالحجج والبراهين والكلمة النافذة

والانتصار.

● وقد فصلت قصة اتخاذهم العجل إلهاً فى الآيات القرآنية العديدة(١) فعاقبهم الله تعالى بأن أمرهم بأن يقتل الذين لم يعبدوا العجل الذين عبدوه ففعلوا فقتلوا أنفسهم ثم أحياهم الله وعفا عنهم ليتوبوا.

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا... ﴾ وذلك أن الله تعالى رفع الجبل فوق بنى إسرائيل تهديدا لهم لامتناعهم عن الالتزام بشريعة التوراة، حتى قبلوا والتزموا خشية أن يسقط عليهم الجبل، كما توضح ذلك آية: **﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ... ﴾** [الأعراف: ١٧١].

﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا... ﴾ أمرهم الله تعالى أن يدخلوا باب بيت المقدس ساجدين وهم يقولون: ربنا حط عنا خطايانا فى تركنا الجهاد ونكوصنا عنه حتى تُهنا بسبب ذلك فى التيه أربعين سنة.

ولكنهم اليهود وما يجيدونه من عناد وخداع، إذ دخلوا بيت المقدس يزحفون على استاههم قائلين: حنطة فى شعرة، فغضب الله عليهم لذلك.

- **﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾** نهاهم الله تعالى عن أن يتجاوزوا ما أمرهم به من العبادة فى يوم السبت، وأخبرهم بأن هذا التجاوز لما نهاهم الله عنه عدوان وأخذ عليهم فى ذلك كله ميثاقا مغلظا، ولكنهم خالفوا الله فيما نهاهم عنه، فغضب الله عليهم من أجل ذلك.

- **﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾**:

والمعنى:

- أنه بسبب نقضهم ميثاقهم الذى عاهدوا الله عليه، غضب الله عليهم.
- وبسبب كفرهم بآيات الله وحججه وبراهينه ومعجزات أنبيائه، غضب الله عليهم ولعنهم.
- وبسبب قتلهم كثيراً من الأنبياء ظلماً وعدواناً، غضب الله عليهم.

---

(١) جاء ذلك فى آيات سورة الأعراف: من ١٤٨ - ١٥٣. وفى آيات سورة طه: من ٨٣ - ٩٨.

- وبسبب قولهم: قلوبنا غلف أى محجوبة عن قبول ما تدعونا إليه، وهم فى ذلك كاذبون غضب عليهم، وطمس قلوبهم فلم يؤمن منهم إلا قلة.

- ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

والمعنى:

- أنه بسبب كفرهم واتهامهم مريم عليها السلام بالزنى، غضب الله عليهم.

- وبسبب قولهم: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، غضب عليهم، فهم كذابون، ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وإنما حماه الله فألقى شبهه على رجل فأخذوا الرجل وقتلوه وصلبوه، حتى إنهم قد اختلفوا فيما بينهم: هل المقتول عيسى أو غيره، وما كان لهم -وهم المضللون- أن يصلوا إلى تيقن وإنما هى ظنون منهم وأوهام.

- وقصة اليهود مع المسيح عليه السلام فى ذلك لخصها ابن كثير فى تفسيره قال: «وكان من خبر اليهود عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات التى كان يبرىء بها الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله، ويصور من الطين طائرا ثم ينفخ فيه فيكون طائرا يشاهد طيرانه بإذن الله عز وجل، إلى غير ذلك من المعجزات التى أكرمه الله بها وأجراها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه وسعوا فى أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبى الله عيسى - عليه السلام -لا يساكنهم فى بلدة، بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق فى ذلك الزمان- وكان رجلا مشركا من عبدة الكواكب وكان يقال لأهل ملته «اليونان»- وأنهوا إليه أنّ فى بيت المقدس رجلا يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه، فغضب الملك من هذا وكتب إلى نائبه بالمقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ويكف أذاه عن الناس.

فلما وصل الكتاب امتثل والى بيت المقدس ذلك، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذى فيه عيسى عليه السلام، وهو فى جماعة من أصحابه، اثنى عشر أو ثلاثة عشر، وقيل سبعة عشر نفرا، وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر، ليلة السبت فحصروه هنالك، فلما

أحَسَّ بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه، أو خروجه إليهم قال لأصحابه: أيكم يُلْقَى عليه شبهي وهو رفيقي في الجنة، فانْتُدب لذلك شاب منهم، فكأنه استصغره عن ذلك فأعادها ثانية وثالثة، وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب، فقال: أنت هو، وأُلْقَى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو، وفُتِحتْ رَوْزَنة - كوة غير نافذة - من سقف البيت، وأخذت عيسى عليه السلام سِنَةٌ من النوم، فرفع إلى السماء، وهو كذلك كما قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾.(١)

«فلما رفع خرج أولئك النفر، فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى فأخذوه في الليل وصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه، وأظهر اليهود أنهم سعوا في صَلْبه وتبجحوا بذلك، وسلَّم لهم طوائف من النصارى، وذلك لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع المسيح، فإنهم شاهدوا رفعه، وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح عيسى ابن مريم - عليهما السلام - ».(٢)

- ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾

أي أن كل أهل الكتاب من يهود ونصارى ممن كفروا بعيسى ووصفوه بما ليس فيه سيؤمنون بأن المسيح على حق، سواء أكان هذا الإيمان حين ينزل عيسى إلى الدنيا ليقاتل الدجَّال، أو كان عندما يغرغر الإنسان ساعة لا ينفع الإيمان، ويوم القيامة يشهد عليه السلام بأنه بلغ رسالة ربه وأنه عبده ورسوله.

- ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

والمعنى:

أنه بسبب الظلم الذي ارتكبه اليهود من الذنوب العظيمة التي اقترفوها، حرم الله عليهم كثيراً من الطيبات التي كانت حلا لهم.

● وهذا الظلم الذي ارتكبوه على أربعة أنواع:

---

(١) ابن كثير القرشي: تفسير القرآن العظيم: ١/ ٥٧٤ ط الحلبي.
(٢) السابق: ١/ ٥٧٤.

- ظلم للخلق الذى هو طبع فيهم لا يفارقهم لاستعلائهم على الخلق بالباطل، وظنهم أنهم أفضل من سواهم من الناس.
- وظلم بصد الناس عن دين الحق، وصد أنفسهم عنه، فهم أعداء الرسل عليهم السلام، وقد قتلوا عددًا كبيرًا منهم.
- وظلم بأكلهم الربا وقد نهوا عنه، والربا أفحش أنواع الاستغلال لحاجات المحتاجين.
- وظلم بأكلهم أموال الناس بالباطل أى الرشاوى وهى أسوأ أنواع التعامل بالمال. والربا والرشوة من الذنوب العظيمة التى لا تفارق اليهود.

● وقد عاقبهم الله تعالى على اقترافهم هذه الذنوب نوعين من العقاب هما:

- عقاب دنيوى:

بأن حرم عليهم ما كان قد أحل لهم، تضييقًا عليهم وعقابًا، وبيان ذلك أن جميع الأطعمة كانت حلالا لهم من قبل أن تنزل التوراة إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل وألبانها وقد أوضح القرآن هذه المحرمات عليهم فى قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

- وعقاب أخروى:

وهو إعداد عذاب أليم لهم فى جهنم جزاءً على ما خالفوا أمر الله ونهيه وقتلوا رسله وظلموا خلقه وصدوا عن دينه.

- ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

● هذه الآية الكريمة فى وصف الراسخين فى العلم من اليهود وهم المتمكنون من العلم الثابتون على الحق، وكان من هؤلاء:

عبد الله سلام، وثعلبة بن سَعْيه، وأسد بن سَعْيه، وأسد بن عبيد.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: أنزلت فيهم هذه الآية، وقد دخلوا فى الإسلام وصدقوا بما أرسل به محمد ﷺ، كما كانوا مؤمنين بما أنزل قبل محمد ﷺ.

● ومن صفات هؤلاء المؤمنين من اليهود:

- رسوخهم فى العلم وثباتهم فى الدين.
- وإيمانهم بما أنزل الله من كتب قبل محمد ﷺ.
- وإيمانهم بمحمد ﷺ وما أنزل عليه.
- وإقامتهم الصلاة التى هى عمود الدين وعماده.
- وإيتاؤهم الزكاة، وهى علاج للمزكى تطهر ماله، وعلاج لمن تخرج إليه تدفع عنه الحاجة.
- وإيمانهم بالله أى يصدقون بـ: «لا إله إلا الله».
- وإيمانهم باليوم الآخر أى بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء على الأعمال خيرها وشرها.

● هذه الصفات من مؤمنى اليهود - وكلها حسن - يؤتيهم الله على الاتصاف بها أجرًا عظيمًا وهو الجنة.

● والراسخون فى العلم أقسام ثلاثة:

القسم الأول:

أكابر العلماء وهم العلماء العاملون وهم أشرف هذه الأقسام الثلاثة.

والقسم الثانى:

هم العلماء بذات الله وصفاته وأحكامه.

والقسم الثالث:

هم العلماء بذات الله وصفاته.

واصطلحوا على تسمية القسم الأول؛ بالكبراء والثانى؛ بالحكماء والثالث؛ بالعلماء.

روى الطبرى فى الكبير بسنده عن أبى جحيفة: «جالس العلماء وخالط الحكماء ورافق الكبراء».

● وقال بعض العلماء:

الراسخون فى العلم هم المتواضعون لله المتذللون لله فى مرضاته لا يتعاظمون على من فوقهم ولا يحقرون من دونهم.

● وقال آخرون: الراسخون فى العلم هم الذين يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به، وإن لم يحيطوا علمًا بحقائق الأشياء على كُنْه ما هى عليه.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة.

يتعلم المسلمون من هذه الآيات دروسًا على درجة عالية من الأهمية فى التعامل مع الناس، وفى التحلى بالصفات الفاضلة والتخلى عن الصفات الرذلة، ويعرفون منها صفات اليهود وطبائعهم وتحديهم للحق واستعلائهم على الخلق واستغلالهم أسوأ استغلال، مما نشير إليه فيما يلى:

١- يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** ﴾ ما يلى:

أ- أن اليهود فى كل زمان ومكان أهل لجاجة وتعنت وعناد، وأنهم فى تعنتهم لا يقلون فظاظة عن المشركين، مع أنهم من أهل الكتاب، فكان الأجدر بهم أن يكونوا أهل طواعية وهداية. وقد تعنتوا مع الرسول ﷺ -كما أوضحنا آنفا- كما تعنت أسلافهم مع موسى عليه السلام.

ب- وأن اليهود فى تعنتهم مع نبيهم موسى عليه السلام عوقبوا بأن أخذتهم الصاعقة ولكن الله عفا عنهم وأحياهم ليتوبوا ويشكروا الله، ولكنهم لم يفعلوا شيئًا من ذلك وإنما استمروا على غيهم، وهذا يعلم المسلمين حقيقة صفات اليهود وأعمالهم.

جـ- وأن اليهود لا تقنعهم آية ولا تثنيهم عن غيهم معجزة، فقد أراهم الله تعالى على يد موسى عليه السلام كثيرًا من المعجزات كرؤيتهم البحر وقد انفلق وعبروا هاربين من فرعون وجنوده، ورؤيتهم كثيرًا من الآيات. ومع ذلك فإنهم اتخذوا العجل إلهًا من بعد ما جاءتهم البينات.

وكذلك معجزة الجبل الذى لم يسقط عليهم.

كل ذلك لم يصرفهم عن عنادهم بل ظلوا سادرين يستهزئون ويسخرون على الرغم مما أخذ الله عليهم من أغلظ المواثيق.

● هذا ما ينبغي أن يتعلمه المسلمون من صفات اليهود الملازمة لهم منذ زمن موسى عليه السلام وإلى زمن محمد ﷺ وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

٢- ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ ما يلي:

أ- أن اليهود لهم تاريخ عريق في ممارسات الباطل، من نقض عهود ومواثيق إلى كفر بآيات الله إلى تعنت وعناد، إلى ادعاء ما ليس لهم ولا فيهم إلى قتل الأنبياء والصالحين والمصلحين، إلى رمي المحصنات والأبرياء بالتهم بالباطل إلى زعمهم ما لم يقوموا به من عمل.

ب- وقصتهم مع المسيح ابن مريم عليهما السلام واتهام الطاهرة البتول بالزنى ووشايتهم بالمسيح عليه السلام وزعمهم أنهم قتلوه وصلبوه، ونقضهم مع الله العهود والمواثيق، كل ذلك يؤكد أنهم أشرار أعداء للحق وللخير ولكل ما مخالف لرغباتهم من باطل وجحود وكفران.

إنهم اليهود في كل زمان ومكان، وعلى من يتعامل معهم أن يتذكر صفاتهم التي لا تفارقهم أبداً.

جـ- وأن اليهود شيوخ كبار في النفاق، فهم يبطنون الإيمان بعيسى عليه السلام وبمحمد ﷺ الذي حدثتهم عنه كلمات الله في الإنجيل على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].(١)

---

(١) وللتوسع في ذلك انظر لنا: عالمية الدعوة الإسلامية: المبحث الثاني من الفصل الأول من الباب الثاني ص ٥٤ ط ٣ دار الوفاء ١٤١٢-١٩٩٢.

● وأن هؤلاء اليهود الذين كفروا بعيسى عليه السلام ما منهم من أحد إلا ويؤمن فى داخله بصدق المسيح وصدق رسالته، سواء أكان إيمانهم ذاك قبل أن تخرج أرواحهم من أجسادهم -كما يرى بعض المفسرين - أو كان يوم نزوله إلى الأرض ليقاتل الدجال - كما يرى ذلك مفسرون آخرون - إذ يملأ المسيح عليه السلام الدنيا عدلاً ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية حتى يفيض المال، كما ورد ذلك فى الحديث الصحيح فقد روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة خيرًا له من الدنيا وما فيها» ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه اقرأوا إن شئتم ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ وفى رواية أخرى قال أبو هريرة رضى الله عنه: موت عيسى ابن مريم ثم أعاده ثلاث مرات.

٣- ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أ- أن اليهود ظلموا أنفسهم - وكذلك كل مخالف لأمر الله ونهيه - بما ارتكبوا من ذنوب عظيمة وآثام كبيرة، مما أدى بهم إلى أن يعاقبهم الله فى الدنيا بتحريم ما كان حلالاً لهم، وذلك أنهم تأولوا فى كتابهم وتشددوا فحرموا على أنفسهم ما ليس محرمًا تعنتًا وتنطعا - وهذه صفاتهم.

● ومن ذلك يتعلم المسلمون ألا يتشددوا فى الدين ولا يتنطع بعضهم فيه، لأن الدين من عند الله وما كان الله ليشرع للناس ما يصعب عليهم.

ب- وأن أبرز صفات اليهود الرذيلة التى حرم الله الاتصاف بها على عباده أجمعين لما فى الاتصاف بها من شر وإثم وظلم للناس وسوء استغلال لحاجة المحتاج.

أبرز هذه الصفات هى:

– التبديل والتحريف والتأويل المعتسف لكلام الله.

– والصد عن سبيل الله، صد أنفسهم عن ذلك وصد غيرهم.

– وأكلهم الربا على ما فيه من قبائح ومآثم وظلم.

– وتعاملهم بالرشوة، وما تجره على الناس من ضياع حقوق بعضهم وأخذ بعضهم ما ليس من حقه.

وهذه كلها مما حرم الله فى كل دين وأعد للمتصفين بها عذابًا أليمًا.

جـ- وأن الرسوخ فى العلم والإيمان يؤدى إلى العمل الصالح وإلى الاتصاف بأحسن الصفات، وإلى الابتعاد عن كل شر وكل ظلم للنفس أو للغير.

وحسب الرسوخ فى العلم فضلاً وشرفًا أنه يؤدى إلى الإيمان بالله وبكتبه ورسله واليوم الآخر، وذلك يطهر الدنس من كل إثم وشر، ويكسب المجتمع أمنا واستقرارًا وسلامًا؛ وذلك أن الرسوخ هو الثبات والتثبيت، والرسوخ فى العلم هو التحقق واليقين الذى لا تعترضه شبهة ولا ريبة، والراسخون فى العلم هم الموصوفون بقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا..**﴾ [الحجرات: ١٥].

● ومن كانت صفاته نابعة من رسوخه فى العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فإن الله تعالى سوف يؤتيه أجرًا عظيمًا.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة.

وهى مواقف كثيرة معلمة وهادية لا يستغنى عنها الدعاة إلى الله ولا المتحركون بالإسلام فى الناس والآفاق حتى تبلغ دعوة الله إلى جميع عباده، وإلى أن يصبح الناس لا يعبدون غير الله، ومن ذلك ما نشير إليه فيما يلى:

١- يتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**﴾ ما يلى:

أ - أن أصحاب اللجج والعناد، والراغبين فى الجدل والمراء، والراغبين عن الهدى والاستقامة لهم - فى كل زمان ومكان - أسئلة متعنتة، لا يريدون الإجابة عنها، وإنما يطرحونها للتحدى والاستفزاز.

وهؤلاء هم اليهود قديمًا وحديثًا، والمشركون قديمًا وحديثًا، وكثير من الناس المعاصرين الذين يدعون العلم وما لهم منه إلا قشور ولحاء، أما الجوهر واللباب فهم عنه مبعدون. هؤلاء يطرحون من الأسئلة ما يدل على تعنتهم وجهلهم، من مثل قولهم لكل من يطالبون بتحكيم شريعة الله تعالى: إن الوقت لم يحن بعد، كأن الله تعالى جعل شريعته لزمان دون زمان!!

أو يقولون لمن يقول: إن الإسلام هو الحل لكل مشكلة: ضعوا القوانين والنظم واللوائح التى تلتزم فى كل مشكلة ليكون الإسلام حلا لها، وهذا تعنت منهم، لأن مثل هذا الذى يطلبون يجب أن تتضافر عليه جهود العلماء فى كل تخصص، وأن ترفده الدولة وترعاه، ولن تستطيع مجموعة من الناس أو جماعة منهم أن تقوم بذلك وحدها!! إنه التعنت فحسب.

ب- والدعاة إلى الله مطالبون بالصبر على هذا التعنت وذاك التحدى وذلك الاستفزاز، ولا يملكون أن يطرحوا عليهم أسئلة متعنتة تواجه أسئلتهم كقولهم: لماذا لم تفلح القوانين الوضعية فى حل مشكلات الناس بدليل أنها فى كل حين لاحق تتراكم وتتفاقم؟.

ولماذا تصرون على ألا تخطوا خطوة فى سبيل وضع القانون الإسلامى المفصل، وبيدكم الأمر والحل والإمكانات المادية والمعنوية؟ هل تحبون أن تحكموا بغير ما أنزل الله فتكونوا كفرة ظلمة كاليهود إذ عطلوا أحكام التوراة؟ أم فسقة كالنصارى إذ عطلوا أحكام الإنجيل؟ أم متبعين لأهوائكم وشياطينكم بوصفكم مسلمين معطلين للحكم بما أنزل الله فى القرآن الكريم؟.

إلى غير ذلك من الأسئلة المحرجة المتعنتة، لأن ذلك ليس سبيل الدعاة إلى الله، وإنما سبيلهم التعاون على البر والتقوى وطرح السؤال الذى لا يحرج أحدا، ولا تشق الإجابة عنه على أحد، فهم دعاة هداة زادهم الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن.

جـ- ويتعلم الدعاة إلى الله من سياق هذه الآيات أن الناس عرضة للانتكاس والبعد عن الحق

والعقل والمنطق، بل إن بعضهم عرضة للارتداد عن الدين كله، لا مجرد التعنت فى طرح الأسئلة والمطالب، ومع كل ذلك فلا يملك الدعاة أن يصفوا الناس بأنهم مجرمون أو كافرون أو مشركون أو فاسقون، وإنما عليهم أن يصبروا عليهم ويصابروهم ويلقنوا الفاحشين فى اتهام الناس درساً فى الصبر والتسامح والتأدب بآداب الإسلام، والتأكيد على أن الله تعالى لا يحب الجهر بالسوء من القول.

د- وأن معارضة ما جاء به الدين تكاد تكون سمة العصر الذى سيطر فيه الغرب على بلدان العالم الإسلامى سيطرة سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية وثقافية، ولا تزال هذه السيطرة تنشر أفكاراً وكلمات معادية للإسلام، تجد من الغافلين من يعجب بها ويتبناها.

ولنضرب بعض الأمثلة لهؤلاء للتحذير من أفكارهم وكتاباتهم، لا لنحكم عليهم بالكفر أو الشرك كما يفعل بعض الذين يستهينون بإطلاق هذه الأحكام.

فمن هؤلاء:

- السيد أحمد خان المتوفى ١٨٩٨م، وهو الهندى الذى لقب بالطبيعى، وكان على مذهب الدهريين، وتقرب إلى الانجليز الذين كانوا يحتلون شبه القارة الهندية آنذاك، وكان تقربه إليهم بإلحاده وتشويهه للإسلام، وقد رحب الانجليز بذلك كشأن الغرب كله فى احتضان من يتهجم إلى الإسلام وقد كافأه الإنجليز بإنشاء مدرسة أو جامعة تتبنى إضعاف صلة المسلمين بالإسلام وهى جامعة «عليكرة» الإسلامية بمدينة عليكرة بغربى برداش الغربية بالهند وكان إنشاؤها سنة ١٩٢١م والدراسة فيها مختلطة بين النساء والرجال.

- ومنهم: «ميرزا غلام أحمد القاديانى المتوفى ١٩٠٨م مؤسس القاديانية وهى فرقة منحرفة عن الإسلام يدعى مؤسسها أنه المهدى المنتظر، وأن عيسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام قد حلا فيه فهو نبى، ودعا إلى إبطال الجهاد وموالاة اليهود، ولقد ألف فيه وفى دعوته العالم المسلم الجليل - أمد الله فى عمره - الشيخ أبو الحسن الندوى أحد كبار علماء المسلمين فى الهند، كتاب: «القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والإسلام».

- ومنهم: «مولاى محمد على» الذى أسس الحركة الأحمدية أو جماعة لاهور، وهى امتداد للقاديانية فى أفكارها وعدائها للإسلام.

- ومنهم: طه حسين فى كتابيه مستقبل الثقافة فى مصر، وفى الشعر الجاهلى، حيث دعا

إلى الأخذ من الحضارة الغربية خيرها وشرها وحلوها ومرها دون تمييز، وزعم أن مصر أقرب إلى أوربا منها إلى الشرق والعرب.

ونسف الرواية والاسانيد فى كتابه فى الشعر الجاهلى واتهم الرواة والشعر الجاهلى بالانتحال.(١)

– ومنهم: الشيخ على عبد الرازق فى كتابه: «الإسلام وأصول الحكم» الذى ادعى فيه أن الإسلام دين لا دولة.(١)

– ومنهم: خالد محمد خالد –رحمه الله– الذى كان شيوعيًا فى كتابه: من هنا نبدأ الذى اتهم فيه الدين بالخرافة وبأنه مخدر.(١)

– ومنهم: مصطفى محمود.. الكاتب الإسلامى الذى كان شيوعيًا فى كتابه «الله والإنسان» الذى تهكم فيه بالدين والتدين وسماه حمقًا عندما يقول: «هل رأيت الخوف والذهول فى عين الكلب وهو يتأمل ورقة طائرة فى الهواء؟ إنه لا يرى الهواء، وأراهن أنه ينظر إلى مخلوق حى ويظن أن بها روحًا تحركها، إنه كلب متدين، وفى الماضى كان الإنسان أحمق إذ كان متدينًا مثل هذا الكلب» غفر الله لمصطفى محمود فقد تاب عن هذا الكلام كله.

– ومنهم: نصر أبو زيد الذى دعا إلى مناقشة نصوص القرآن الكريم وإعادة النظر فيها وفى صياغتها من جديد، ثم ثار عليه الناس وأدانه القضاء، ففتحت له هولندا أحضانها!!

– ومنهم سلمان رشدى الذى تهجم على الدين وعلى القرآن وعلى النبى ﷺ فى كتابه «آيات شيطانية» وأدانه الإمام الخمينى رحمه الله وأهدر دمه، فتكفلت انجلترا بحراسته والدفاع عنه واستضافته البلاد التى تحقد على الإسلام كأمريكا وفرنسا وغيرهما.

● كل هذه أنواع من العناد والتعنت والوقوف ضد الحق ودين الحق، بدأها اليهود منذ زمن سحيق منذ زمن موسى عليه السلام واستمروا بها حتى واجهوا محمدًا ﷺ، ولا يزال اليهود فى تعنتهم وعنادهم وحقدهم على الإسلام، ثم تعلمها منهم أهل الغرب الصليبيون، وتناقلتها أقلام بعض الكتاب من المسلمين!!

● ولقد كان للحروب الصليبية وما خلفته من استشراق ثم ما أعقب ذلك من استعمار وتنصير أثر بارز فى التهجم على الإسلام، ثم جاء الشيوعيون الماركسيون فاشتد الهجوم

---

(١) كل هؤلاء تابوا وأنابوا وأعلنوا تراجعهم.

حتى أخمد الله أنفاس الشيوعيين وانهاروا انهياراً مدوياً عقدت فيه الدهشة ألسنة المراقبين.

- إن الدعاة إلى الله عليهم واجب ضخم في مواجهة هذه الموجات المتعنتة، والرد على مفترياتهم وشبهاتهم بالقول اللين والحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

- ولقد وفرت الشيوعية والماركسية والاشتراكية بل اليسارية كل هؤلاء، وفروا على الدعاة جهوداً كانوا يبذلونها في الرد عليهم عندما انهار تفكيرهم وما كانوا يرون أنه إنقاذ للقوى العاملة والكادحين من الطلائع المناضلة من الرفاق.

وغدا -وبردود الدعاة حينما تتاح لهم فرص إعلامية كالتي أتيحت للشيوعيين- سوف تتهاوى دعاوى اليهود والصليبيين والحاقدين على الإسلام، وإن غدا لناظره قريب.

٢- ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون في الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ ما يلي:

أ- أن الله تعالى أرحم بالناس من أنفسهم، فقد أخذ العهود والمواثيق على اليهود، وأمرهم ونهاهم، وطالبهم بفعل كل ما فيه صلاحهم، ولكنهم نقضوا وغدروا وخانوا وقتلوا الأنبياء وأعرضوا عن كل ما دعاهم إليه الأنبياء في صلف وغرور وعندئذ طبع الله على قلوبهم فلا يؤمنون إلا قليلا، إذ علم عنهم من قبل أنهم لن يستجيبوا للحق ولا لدعاته.

- والدعاة إلى الله يتعلمون من ذلك أن الناس عموماً واليهود على وجه الخصوص ينقضون العهود والمواثيق ويتجاهلون ما أمر الله به وما نهى عنه، وذلك يجعل مهمة الدعاة أصعب ولكنها أرجى عند الله وأعظم ثواباً بإذنه وعلى قدر المشقة يكون الثواب - كما يقول أهل العلم.

ب- وأن الإيمان بالأنبياء جميعاً، وبصدقهم وعصمتهم، بأن المناهج التى جاءوا بها من عند الله هى الخير والهدى والحق، وأنها الأنفع فى الدنيا والآخرة.

وأن من كفر بأحدهم فقد كفر بسائرهم كما كفر بالله تعالى الذى أرسلهم.

● ويتعلم الدعاة من ذلك أن يوجهوا الناس إلى الأخذ بالدين كله دون الاستغناء عن شىء منه، لأنه الدين الخاتم الذى أتمه الله وأكمله ورضيه للبشرية كلها ديناً، ولأن منهجه هو المنهج الصحيح الذى جاء به جميع رسل الله تعالى إذ يقوم على دعائم ثابتة هى العقيدة والعبادة والأخلاق الفاضلة، فما من نبى إلا جاء بهذا المنهج من عند الله.

جـ- وعلى الدعاة إلى الله أن يكشفوا للناس زيف الدعاوى الباطلة التى تثار حول أى دين من الأديان من عند الله فاليهودية قامت على توحيد الله وعبادته وعلى القيم الخلقية والمسيحية مثلها فى ذلك والإسلام كذلك.

فكل من قال بغير ذلك فى أى دين فإن على الدعاة إلى الله أن يردوه إلى الصواب بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن.

٣- ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ما يلى:

أ- أن الظلم ظلمات وأن من يظلم نفسه أو غيره فقد عصى الله الذى حرم الظلم على نفسه وعلى عباده، ومن مارس الظلم بالكفر والعناد والتعنت والصد عن سبيل الله فإنه جدير بأن يضيق الله عليه عيشه فى الدنيا ويصليه ناراً فى الآخرة فتلك سنة الله عامل بها اليهود عندما ظلموا، ويعامل بها كل ظالم مُتحد لله ولنظامه ولمنهجه.

● وعلى الدعاة إلى الله أن يحذوا الناس من الاتصاف بصفات الظالمين وهى فى مجملها نقض العهود والمواثيق، والتعامل بالربا وأخذ الرشاوى، فمن اتصف بها تعرض لأن يضيق الله عليه فى الدنيا ويعاقبه فى الآخرة.

● وإن تنقية المجتمع من هذه الأصناف من الناس هى العمل الرشيد الذى يكفل للناس

جميعًا الأمن والطمأنينة.

ب- وعلى الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يحرروا للناس معنى الرسوخ في العلم وأن يشجعوهم على الاتصاف بصفات الراسخين فى العلم التى ذكرناها آنفًا.

وأن يستعينوا بهدى رسول الله ﷺ فى تعريفه للراسخين فى العلم، فقد روى ابن أبى حاتم بسنده عن عبيد الله بن يزيد -وكان قد أدرك أصحاب رسول الله ﷺ ومنهم أنس وأبو أمامة وأبو الدرداء وغيرهم - أن رسول الله ﷺ سئل عن الراسخين فى العلم فقال: «من بَرَّت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه، من عف بطنه وفرجه فذلك من الراسخين فى العلم».

والمعنى الذى يفهم من تعريف النبى ﷺ للراسخين فى العلم هو الاستقامة على الشريعة والالتزام بكل ما جاء فيها.

ومعنى ذلك أن كل مسلم يستطيع أن يكون من الراسخين فى العلم إذا برَّ قسمه وصدق لسانه وكان عفا فى بطنه وفرجه.

- ومن علامة الرسوخ فى العلم بكل معنى من معانيه، الإيمان بالله وبما أنزل على محمد ﷺ وهو القرآن الكريم، والإيمان بما أنزل على رسل الله صلوات الله عليهم وسلامه الذين سبقوا محمداً ﷺ فى التبليغ عن الله من كتب.

- وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن الراسخين فى العلم هم والمؤمنون سواء، وأنهم مثل المقيمين الصلاة والمؤتين الزكاة، والمؤمنين بالله واليوم الآخر، وكل هؤلاء - وهم أصناف خمسة - سيؤتيهم الله تعالى أجرا عظيمًا، والأجر العظيم هو الجنة والجنة أمل وهدف وغاية يسعى إليها كل مؤمن، ومن فاز بها فقد فاز فوزًا عظيمًا.

١٨ - الآيات الكريمة من الآية الثالثة والستين بعد المائة إلى الآية السبعين بعد المائة

إخبار من الله تعالى بأنه أوحى إلى محمد وإلى النبيين من بعد نوح وأمرهم بالتبشير والإنذار وشهادة من الله ومن ملائكته بذلك وإخبار بمصير الكافرين

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

اشتملت هذه الآيات الكريمة على عدد من الاخبار، وعلى أمر ونهي؛ على الإجمال التالي:

- الإخبار بأن الله تعالى أوحى إلى محمد ﷺ كما أوحى إلى من سبقه من الرسل نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحق يعقوب والأسباط[1] - وهم الأحفاد - وهم الأنبياء من ذرية يعقوب.. إلى آخر من ذكرتهم الآية الكريمة.

---

(١) السبط عند اليهود كالقبيلة عند العرب.

- وإخبار بأن الرسل أكثر فى العدد ممن قص الله تعالى قصصهم على رسوله الخاتم ﷺ ، وأن هؤلاء الرسل مبشرون لمن أطاع الله بالجنة، ومنذرون لمن عصاه بالنار، وذلك لقطع حجج الناس إن حوسبوا ولم تأتهم رسل.

- وإخبار بأن الله تعالى قد أوحى إلى محمد ﷺ القرآن الكريم بشهادة منه سبحانه، والملائكة يشهدون على ذلك وكفى بالله شهيداً، أى لا يضيرك يا محمد إن لم يشهد لك اليهود، لأن إنكارهم لا يغير الحقيقة وإنما يدل على اللجاج والعناد.

- وإخبار بأن الذين كفروا بمحمد ﷺ هم الكافرون سواء أكانوا من أهل الكتاب يهودا ونصارى أم من المشركين، وأنهم بهذا الكفر ظلموا أنفسهم وظلموا الرسول بتكذيبه وظلموا الناس بأن كتموا عنهم الحق الذى يعرفونه فى كتبهم فصدوا عن الدين، وهم بذلك لن يغفر الله لهم ولن يهديهم طريق النجاة.

- وفى الآيات أمر من الله تعالى للناس جميعًا أن يؤمنوا ليختاروا لأنفسهم جانب الحق والصواب والخير، فإن أبوا إلا الكفر فإن الله غنى عن إيمانهم وهو سبحانه مالك الملك عليم بخلقه حكيم فى صنعه.

- ونهى لأهل الكتاب عن الغلو فى الدين وعن افتراء الكذب على الله بزعمهم أن عيسى هو الله أو ابن الله، فإنما هو عبد الله ورسوله، ونهى لهم عن افتراء الكذب على عيسى عليه السلام وعن قولهم إن الآلهة ثلاثة.

- وإخبار بأن المسيح نفسه عليه السلام لن يترفع عن أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة أنفسهم يترفعون عن ذلك، وكل من ترفع عن عبادة الله تعالى فسوف يحشره الله إليه ويجازيه الجزاء العادل ولن يجد له من دون الله من ينصره.

- وإخبار للناس جميعًا بأنهم قد جاءهم برهان من الله على لسان محمد ﷺ وهو القرآن الكريم النور الهادى إلى الطريق القويم، فمن آمن بالله واعتصم به فسيدخله الجنة ويغمره بفيض رحمته ويشمله فى الدنيا بواسع فضله ويوفقه إلى الثبات على الصراط المستقيم.

- وتعليم من الله لنبيه ﷺ وللمؤمنين بميراث من مات وليس له ولد ولا والد، وهو الكلالة.

تفصيل القول فى شرح هذه الآيات الكريمة:

- **﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ...﴾**.

والمعنى: أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ إن كان صادقًا فى نبوته أن يأتيهم بكتاب من السماء -على نحو ما فصلنا فى طلبهم ذلك - وما طلبوا ذلك إلا تكذيبًا له وتعجيزًا وتعنتًا وعنادًا، فجاءهم الرد من الله تعالى بأن الله تعالى أوحى إلى محمد ﷺ كما أوحى إلى نوح وإلى النبيين من بعده.

- وإنما كانت البداية بنوح عليه السلام لأنه أول نبى شرع الله تعالى على لسانه الأحكام، وبيَّن الحلال والحرام.
- ولم يذكر موسى بين النبيين فى هذه الآية لأن اليهود قالوا للرسول ﷺ: إن كنت نبياً حقاً فأتنا بكتاب دفعة واحدة كما أتى به موسى - عليه السلام - فهم معترفون بنبوة موسى وبكتابه سواء أكان الألواح أم التوراة، ولذلك لم يذكر فى هذه الآية.
- وإنما خص الله تعالى هؤلاء الأنبياء الاثنى عشر بالذكر فى هذه الآية لأنهم أوتوا كتباً لم تنزل عليهم دفعة واحدة، وخص داود والزبور الذى أنزل عليه بالذكر دون كتب الآخرين لأنهم يعترفون أن الزبور لم ينزل دفعة واحدة.
- وهدفهم من هذا الطلب واضح وهو تكذيب النبى ﷺ والتعنت معه، ليبرروا لأنفسهم الكفر به.

- ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ أى أن رسل الله أكثر ممن ذكرت قصصهم فى القرآن الكريم، وفى أعدادهم كلمات كثيرة للعلماء.

- ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ هذا تشريف لموسى - عليه السلام - وليس فى ذلك تقليل من شأن الرسل الذين لم يكلمهم الله تعالى، وإنما هى خاصية لموسى - عليه السلام - كما خص محمدا ﷺ بالإسراء والمعراج مثلاً.

- ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

والمعنى: أن إرسال الرسل يقصد به تبليغ الناس وتبشيرهم بأنهم لو عبدوه وحده وأطاعوه نالوا الثواب والأجر الحسن، وإنذارهم بأن من كفر بالله أو عصاه استحق عقابه.

وإنزال الكتب على الرسل يساعدهم على تحقيق الغرض من الرسالة، وهو على الإجمال: الإعذار والإنذار، وهو حاصل فيما لو نزلت الكتب دفعة واحدة أو نزلت نجوماً.

- وفى إرسال الرسل عليهم السلام وفى إنزال الكتب السماوية قطع لحجج الناس الذين

يكفرون بالله ولا يطيعونه، وقد حكى القرآن الكريم عن ذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه: ١٣٤].

- ﴿ لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾.

● قال الواحدى فى كتابه «أسباب النزول»: قال الكلبى[1]: إن رؤساء أهل مكة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: سألنا عنك اليهود فزعموا أنهم لا يعرفونك فأتنا بمن يشهد لك أن الله بعثك إلينا رسولاً، فنزلت هذه الآية: ﴿ لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ ... ﴾.

● ونوع الشهادة التى شهد بها الله تعالى لمحمد ﷺ أنه أنزل عليه القرآن المعجز فى لفظه ومعناه ﴿ لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ﴾.

﴿ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ وعلم الله تعالى واسع لا حدود له، وقد أنزل القرآن على محمد ﷺ لعلمه أن فى القرآن سعادة الناس فى الدنيا والآخرة، وجعله مفرقاً ليكون من السهل على الناس الأخذ به شيئاً وراء شىء، حتى يعتادوا، فإذا اكتمل نزوله كانوا ملتزمين به جميعه، ودليل ذلك أن اليهود لما نزلت عليهم الألواح أو الوصايا دفعة واحدة استثقلوا التكاليف التى فيها، وتمردوا على موسى - عليه السلام -.

- ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ أى أنه: إذا كان الله تعالى قد شهد لمحمد بالنبوة، فإن الملائكة يشهدون بذلك، فهم كما وصفهم الله تعالى: ﴿ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

والمعنى: مَنْ صدّقه رب العالمين وملائكة العرش والكرسى والسموات السبع أجمعون لم يلتفت إلى تكذيب أخسّ الناس صفات وهم اليهود، وفى ذلك تثبيت للرسول ﷺ، وتهوين من شأن أعدائه، إذ حسبه أن الله شهيد على صدقه ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾.

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيدًا ﴾ المراد بهم اليهود فتلك صفاتهم فهم كفروا بمحمد ﷺ وصدوا غيرهم عن سبيل الله بإلقائهم الشبهات فى قلوبهم ومن هذه الشبهات قولهم:

---

(١) هو محمد بن السائب الكلبى المتوفى ١٤٦ هـ نسابة راوية عالم بالتفسير وأخبار العرب ولد ومات فى الكوفة صنف كتاباً فى تفسير القرآن، وابنه هشام هو مؤلف كتاب الأصنام وغيره من الكتب.

ـ لو كان محمد رسولاً لأنزل عليه القرآن جملة واحدة.

ـ وأن الله تعالى ذكر فى التوراة أن شريعة موسى لا تبدل ولا تنسخ إلى يوم القيامة.

ـ وأن الأنبياء لا يكونون إلا من ولد هارون وداود.

وهم بهذه المقولات الباطلة وبغيرها مما يقترفون قد ضلوا ضلالاً بعيداً.

ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾.

● والمعنى: أنهم ضلوا ذلك الضلال البعيد بكفرهم وظلمهم لمحمد ﷺ بكتمان ذكر نبوته فى التوراة، وظلموا الناس بإلقاء الشبهات فى قلوبهم ليصرفوهم عن الإيمان، هؤلاء علم الله تعالى منهم أنهم يموتون على الكفر، فلم يكن ليغفر لهم، ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم جزاء على كفرهم وظلمهم وصدهم عن سبيل الله، وهم إذا دخلوا جهنم خلدوا فيها، وكان ذلك على الله يسيراً.

ـ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

● الخطاب فى هذه الآية الكريمة للناس جميعاً: اليهود والنصارى والمشركين وسائر الناس، ليخبرهم أن محمداً ﷺ قد جاءهم بالهدى ودين الحق، وبالبيان الشافى من الله عز وجل.

● وكلمة الحق هنا تعنى: القرآن الكريم؛ ولأنه معجز فهو حق، ولأنه يتضمن خير البشرية كلها فى معاشها ومعادها فهو حق، أو لأن فيه الدعوة إلى عبادة الله وحده والإعراض عن غيره من المعبودات فهو حق، أو لأن العقل يدل على أنه حق.

ـ ﴿ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ... ﴾ اى فآمنوا بهذا الدين وهذا القرآن يكن إيمانكم خيراً لكم وأحمد عاقبة، مما أنتم فيه من الكفر.

ـ وإن تكفروا فإن الله غنى عنكم وعن إيمانكم، ولا يضره كفركم، كما لا ينفعه إيمانكم فهو مالك السموات والأرض، ومن كان كذلك لم يكن محتاجاً إلى شىء، لا إلى إيمان مؤمن ولا إلى طاعة مطيع، وقد قال موسى هذه المقالة لليهود، كما حكى ذلك القرآن الكريم: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٨].

- ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى لا يغيب عن علمه شئ من أعمال عباده المؤمنين أو الكافرين، وهو سبحانه حكيم لا يضيع عمل عامل منهم ولا يُسَوِّى بين مؤمن وكافر أو محسن ومسيء.

وهذه الآية الكريمة فى معناها الذى ذكرنا تشبه فى المعنى قوله تعالى فى آية أخرى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، أى لا يكون منا ذلك.

● **المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة:**

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة دروساً وعبراً يستطيعون فى هديها أن يشقوا طريقهم فى الحياة الدنيا مؤمنين بالله ورسله لا يفرقون بين أحد منهم، وفى توجيه هذه الآيات يحسنون أن يتعاملوا مع أهل الكتاب ومع الناس جميعاً مشركيهم وملحديهم وعلمانييهم وكفارهم وفجارهم، تعاملاً يكفل لهم ولغيرهم العيش فى وئام وسلام لتحقيق الأهداف الإنسانية التى شرعها الله للناس، لتسلم لهم حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة، مما سنوضحه فى النقاط التالية:

١ - يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ما يلى:

أ - أنّ الله تعالى قد أعذر إلى عباده بأن أرسل إليهم رسلاً وأنزل مع هؤلاء الرسل كتباً ليبلغوا الناس عن ربهم، من نوح - عليه السلام - إلى محمد ﷺ، فجاء محمد ﷺ خاتم الرسل، وجاء كتابه القرآن الكريم خاتم الكتب السماوية، ولكونه الكتاب الخاتم ففيه تفصيل كل شيء مما تحتاج إليه الحياة الإنسانية الكريمة، وفيه هدى ونور وموعظة وذكرى للمؤمنين والمسلمين والناس عموماً.

ب - وأن رسل الله عليهم السلام الذين قص الله على رسوله الخاتم قصصهم قليلوا

العدد بالنسبة لمن لم يقص عليه قصصهم فى القرآن الكريم، وهؤلاء الرسل جميعاً وظيفتهم واحدة فى تبشير من آمن بالله وأطاعه واتبع المنهج، وإنذار من عبد غير الله، أو عصاه أو اتخذ له منهجاً غير ما شرع الله.

- وأن التبشير والإنذار إنما الهدف منهما قطع الحجة على الناس، حتى لا يقولوا: عصينا ولم نعرف أنها معصية، أو عصينا ولم يَنْهَنَا عن المعصية الرسول، أو يقولوا يوم القيامة: عذَّبنا الله ولم يبعث فينا رسولاً يعلمنا، لهذا كان الرسل وكانت الكتب وكان التبشير والإنذار.

جـ - وأن الله تعالى يشهد على صدق محمد ﷺ فى رسالته وعلى أنه أنزل عليه القرآن، والملائكة أيضاً يشهدون على ذلك، وكفى بالله شهيداً.

- الله تعالى يشهد أنه أنزل القرآن بعلمه، أى فيه من علمه الذى أراد أن يطلع عليه الناس من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه لعباده ويرضاه منهم ولهم.

- فمهما كفر أهل الكتاب أو المشركون بمحمد ﷺ، ومهما كذبوه فتلك عادتهم، ولكن الله سبحانه يشهد بأن محمداً ﷺ رسوله، وأن القرآن الكريم هو الكتاب الذى أنزله عليه.

- وفى القرآن الكريم من العلم بالغيوب من الماضى والمستقبل وفيه من صفات الله تعالى مالا يعلمه أحد إلا أن يعلمه الله به، فأنَّى لمحمد أن يعلم ذلك إلا أن يكون من عند الله، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وروى ابن أبى حاتم عن عطاء بن السائب قال: أقرأنى أبو عبد الرحمن السلمى القرآن - وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: قد أخذت علم الله، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل، ثم يقرأ: ﴿ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾.

د - ويتعلمون من شهادة الملائكة صدق الرسول ﷺ فى نبوته وكذب أهل الكتاب وكل من أنكر نبوته ﷺ، قال محمد بن إسحاق، قال ابن عباس - رضى الله عنهما -: دَخَل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود، فقال لهم: «إنى لأعلم والله أنكم لتعلمون أنى رسول الله»، فقالوا: ما نعلم ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ... ﴾.

٢ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ما يلى:

أ – أن البعد الشديد عن الحق سببه أمران:

الاول: الكفر بالله تعالى ورفض اتباع الحق.

والآخر: صد الناس عن الإيمان وعن اتباع الحق.

وذلك واضح فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

ب – وأن الآيات الكريمة تحدثت عن جرائم ثلاث:

الأولى: الكفر وصد الناس عن الرسول ورسالته.

والثانية: الكفر وحده.

والثالثة: الكفر والظلم، ظلم الكافر لنفسه وظلمه للرسول الخاتم ﷺ وظلمه للناس حين كتم عنهم الحق.

● وهذه الثلاثة الجرائم قد ارتكبها اليهود، وربما ارتكبها سواهم فيما جاء بعد تعنتهم مع الرسول ﷺ، وهذه الجرائم قديماً وحديثاً عقوبتها عند الله واحدة لم تتغير وهى:

– أن الله تعالى لن يغفر لهم ما داموا على كفرهم.

– وأنه سبحانه لن يهديهم طريق النجاة.

٣ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ما يلى:

أ – أنّ الرسول الخاتم ﷺ جاء للناس أى للبشرية كلها بالحق الذى لا حق سواه ولا بديل عنه وهو القرآن الكريم، فمن كان من العقلاء آمن بهذا الحق، والحق أحق أن يتبع عند كل عاقل، ولا يحيد عن اتباعه إلا من ألغى عقله.

ب – وأن هذا الحق جاء به محمد ﷺ من عند رب الناس جميعاً المتكفل بمصلحة الموجودات كلها.

وهو سبحانه رب الناس الذى أنشاهم حالا بعد حال حتى سواهم فيما هم عليه من

أحسن تقويم، وكان كل واحد منهم نطفة فعلقة فمضغة فعظاما ولحما، ومن كان ذلك شأنه مع الإنسان فلن يرسل إليه إلا رسولا ينقذه من الضلال، وكتاباً يجمع له الخير كله.

جـ - وأن القضية الصحيحة هى أن يؤمن الإنسان بما جاءه من الحق مع محمد ﷺ، فذلك خير له فى دينه وخير له فى دنياه، ﴿فَآمِنُوا خَيْراً لَّكُمْ﴾.

د - وأن من كفر فقد أتى ما يضر به نفسه وغيره من الناس وأما زعمه أو دعواه أنه بكفره سوف يغيظ الله ورسوله فباطل بل أبطل الباطل، لأن الله تعالى - كما ذكرنا غير مرة - له ملك السموات والأرض وما فيهما والإنسان فيهما، فماذا يملك هذا المملوك ضد مالكه؟.

هـ - وأن من رحمة الله بالناس وحبه إياهم، فقد أمرهم بالدخول فى الإيمان، وحذرهم من الوقوع فى الكفر، وهدد من كفر كما يفهم هذا التهديد من تلك الآية ومن قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقوله: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

● وقد سبق علم الله وحكمته؛ عمله بمن سوف تكون منه الهداية فهداه إلى الخير والرشاد، وبمن سوف يكفر بالله فتركه وما هو فيه من ضلال وعناد.

وحكمته سبحانه وتعالى ماثلة أبدا فى جميع أقوانه أفعاله وشرعه ومنهاجه، وقضائه وقدره، فتعالى الله عن أى أمر خال من الحكمة علوا كبيرا.

● **المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة:**

هذه الآيات الكريمة غنية كغيرها من الآيات بالمواقف التى تزود الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية بما هو ضرورى فى عملهم. وما لا غنى لهم عنه فى كل خطوة يخطونها فى مجالات الدعوة والحركة والتنظيم والعمل على تمكين دين الله فى الأرض. مما سنفصله فيما يلى:

١ - يتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً

﴿ لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ ما يلى:

أ - يتعلم الدعاة إلى الله والمتحركون بالإسلام من الآية الأولى من هذه الآيات، أن المنكر والمتعنت والمكذب أحوج إلى الأدلة والبراهين والحجج التى تزيل ما فى قلبه من عناد، أكثر من احتياجه إلى قوة تأطره على الحق أطراً وتقسره عليه قسراً، ومن تدبر فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾ علم أن الله تعالى يتجه إلى إقناعهم بصدق نبوة محمد ﷺ وصحة كتابه بأكثر مما يهددهم ويتوعدهم.

وللدعاة إلى الله فى ذلك الأسلوب توجه، وعليهم نحو هؤلاء المتعنتين المعاندين المكذبين واجب هو إزالة ما فى أنفسهم من أسباب الشك والكفر والعناد!!! أليسوا دعاة إلى الله؟.

ب - وأن على الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن الرسل الذين وردت أسماؤهم فى القرآن الكريم هم:

آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، ويونس، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وذو الكفل - عند كثير من المفسرين - وخاتمهم محمد صلى الله عليهم جميعا وسلم تسليماً كثيراً.

روى ابن مردويه(١) فى كتابه: تفسير القرآن، بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله كم الأنبياء؟

قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا» قلت: يا رسول الله كم الرسل؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير» قلت: يا رسول من كان أولهم؟ قال: «آدم» قلت: يا رسول الله نبى مرسل؟ قال: «نعم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبيلا».

(١) هو أحمد بن موسى بن مردويه الأصبهانى (٣٢٣ - ٤١٠ هـ) حافظ مفسر مؤرخ، له فى الحديث الشريف «مسند» و «مستخرج» وله فى التفسير: «تفسير القرآن» وله كتاب فى التاريخ.

جـ - وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام قد أرسلهم الله تعالى إلى الناس مبشرين ومنذرين، وأن الدعاة إلى الله هم أهل العلم وورثة الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، فهكذا ينبغي أن تكون وظيفة الدعاة إلى الله مبشرين ومنذرين، ومن مجموع هذين العملين يكون الإقناع بالحق، وتكون إزالة الشبهة، ويكون قطع الحجج على المعاندين المتعنتين، أى يكون العمل الأساسى للدعاة إلى الله .

والقرآن الكريم والسنة النبوية فيهما إشارات إلى ذلك، ففى القرآن الكريم يقول الله تعالى : ﴿ .... لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص : ٤٦ ، ٤٧]، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : ١٥]، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه : ١٣٤] .

وأما الأحاديث النبوية فقد روى مسلم بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أحد أغير من الله؛ من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين » وفى لفظ آخر للحديث : « ومن أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه » .

٢ - ويتعلم الدعاة إلى الله من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ ما يلى :

أ - أن صدَّ الناس عن الحق وعن الله تعالى ورسوله كفر أو عمل كالكفر وجزاؤه كجزائه؛ لأن الكافر قد صد نفسه عن الله وعن الحق، فإن جمع إلى كفره صد الناس عن الله وعن الحق، فقد ضل بذلك عن الحق ضلالا بعيدا، وتلك طريقة الكافرين ما تخلفت فى عصر من العصور .

● وعلى الدعاة إلى الله أن ينبهوا إلى الارتباط الوثيق بين الكفر والصد عن سبيل الله؛ فقلما يكفر الكافر ويقصر كفره على نفسه، وإنما يُتبعه صدَّ غيره عن الله وإغراءه بالكفر، وقلما

تجد صاداً للناس عن الله ومنهجه ونظامه إلا وفي دخيلته كفر أو نفاق، وأفاع تحركها الشياطين.

● ولهؤلاء وأولئك معاملة خاصة تستهدف نقلهم بلطف من هذا الباطل الذى وضعوا فيه أنفسهم إلى الحق الذى يجب أن يعيشوا فيه، وتلك مهمة الدعاة إلى الله أصحاب الكلمة الطيبة.

ب – وأن الظالمين أقرب ما يكونون إلى الكافرين، فإن بين الظلم والكفر صلة وثيقة فكل كافر ظالم، وكل ظالم فقد كفر نعمة من نعم الله عليه كان واجبه ألا يكفرها.

روى الطيالسى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الظلم ثلاثة، فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره، وظلم لا يتركه، فأما الظلم الذى لا يغفره فالشرك، قال الله: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وأما الظلم الذى يغفره فظلم العباد أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذى لا يتركه فظلم العباد بعضهم بعضا، حتى يدبر لبعضهم من بعض».

والظلم وإن لم يكن مثل الكفر فى استحقاق صاحبه الخلود فى النار، فإن الظالم قد أساء إلى نفسه، فلا يبعد أن يخذله الله حتى يلقى ربه على الكفر فيستحق عقابه.

جـ – وأن من كفر لا يضر إلا نفسه، بينما من آمن ينفع نفسه وغيره فى الدنيا والآخرة، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ ... مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

● ومن كفر بالله فقد أنكر حق الله تعالى وهو الخالق الرازق فى أن يعبد وحده، وكذب أنبياء الله ورسله وكتبه واليوم الآخر، بل أنكر عبوديته لله تعالى، إذ لو اعترف بهذه العبودية لأطاع ربه، وهذا المغرور الغبى الذى ينسى أو يتناسى قول الله تعالى: ﴿إن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، أى مهما فعل فى الدنيا من شرك وكفر وظلم فإنه يأتى يوم القيامة ربه عبدا خاضعا ذليلا نادما على ما كان منه، يوم لا ينفع ندم.

٣ – ويتعلم الدعاة إلى الله من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ

﴿ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ما يلى:

أ - أن الرسول ﷺ قد ختم الأنبياء فى مجيئه بالحق من ربه، والحق هو القرآن والقرآن هدفه الأول أن يعبد الناس الله وحده، ولذلك كان كل نبى من الأنبياء عليهم السلام يطالب قومه بعبادة الله وحده؛ فذلك هو الحق.

- فقد قال ذلك نوح عليه السلام لقومه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ... ﴾ [هود: ٢٥، ٢٦].

وقالها هود عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ.... ﴾ [هود: ٥٠].

وقالها صالح عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .... ﴾ [هود: ٦١].

وقالها شعيب عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ... ﴾ [هود: ٨٤].

- وأن الذين جاءهم خاتم الرسل ﷺ بالحق من ربهم إنما جاءهم بأن يعبدوا الله ما لهم من إله غيره، ولذلك أمرهم الله تعالى بالإيمان: ﴿ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ﴾.

ب - وأن الدعاة إلى الله يجب أن يذكروا الناس بأن الفطرة السليمة التى فطرهم الله عليها والعقل السليم الذى جعله الله مناطا للتكليف، كل ذلك يقتضى الإيمان بالله تعالى.

- الدعاة إلى الله عليهم أن ييسروا للكفار طريق الإيمان وييسروا للعصاة طريق الطاعة، وييسروا للمتساهلين المتكاسلين طريق الالتزام.

وسبيل الدعاة إلى الله إلى ذلك كله هو الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن.

- وأن على الدعاة إلى الله أن يبينوا للناس أن الإيمان بالله خير لهم فى دينهم ودنياهم:

- أما أنه خير فى الدين:

فإن الله وعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأن لهم عند الله أعظم الأجر وأحسنه وهو الجنة التي هي غاية الغايات بالنسبة لكل إنسان.

- وأما أنه خير في الدنيا:

فإن الله تعالى وعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالنصر في معارك الدنيا، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧].

وأن الله تعالى وعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأن يستخلفهم في الأرض ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ويبدلهم بعد الخوف أمنا، قال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ... ﴾ [النور: ٥٥].

وإذا كان الإيمان بالله خيرا للإنسان في الدين والدنيا، فمن ذلك الأحمق الذي يرفض الإيمان بالله، أي يرفض الخير؟.

جـ - وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن الكافرين والعصاة من المؤمنين لن يضروا بكفرهم وعصيانهم الله شيئًا وإنما يضرون أنفسهم، بذلك جاءت آيات القرآن الكريم، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ⑬ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

وقوله تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ .... ﴾ [الزمر: ٧].

وقوله سبحانه: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [هود: ٥٧].

والله تعالى عليم لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء، وحكيم لا يضيع عمل عامل منهم ولا يسوي بين مؤمن وكافر أو طائع وعاص.

١٩ - الآيات الكريمة من الآية الحادية والسبعين

بعد المائة إلى الآية الثالثة والسبعين بعد المائة

نهى لأهل الكتاب عن بعض الخطايا وأمرهم بالإيمان

ومقارنة بين المؤمنين والكافرين

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ .

● اشتملت هذه الآيات الكريمة على خطاب لأهل الكتاب ينهاهم ويأمرهم، ويوضح لهم وجه الحق والصواب فى أمر عيسى عليه السلام. ويأمرهم بالإيمان بالله ورسله، ويقارن لهم بين المؤمنين الذى يعملون الصالحات، والكافرين الذين يستنكفون عن عبادة الله وحده، ويخبرهم بمصير كل فريق.

وسوف نوضح ذلك ونفصل القول فيما يلى:

● **تفصيل القول فى شرح هذه الآيات الكريمة:**

- **﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ... ﴾** أهل الكتاب هنا يقصد بهم النصارى، وقد نهاهم الله عن الغلوّ فى الدين، وهذا الغلوّ عندهم أخذ اتجاهين:

الأول منهما: أنهم بالغوا فى تعظيم المسيح عليه السلام حتى رفعوه فوق المنزلة التى أعطاه الله إياها، فنقلوه من منزلة النبوة إلى مقام الألوهية، فعبدوه من دون الله، وهم بذلك قد كفروا، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: **﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ**

﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ...﴾ [المائدة : ٧٢] .

والاتجاه الآخر : أنهم غلوا فى أتباع المسيح وأشياعه فزعموا أن لهؤلاء الأتباع العصمة، واتبعوهم فى كل ما قالوه، حقا كان أو باطلا، صحيحا كان أوكذبا، وفى ذلك قال تعالى : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ...﴾ [التوبة : ٣١] .

وكلا النوعين من الغلوّ فى الدين مرفوض بل هو كفر .

– ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ...﴾

أى : نَزِّهوا الله تعالى عن دعاواكم الباطلة فلا تقولوا : له صاحبة، أو له : ولد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ولا تصفوا الله تعالى بالحلول فى بدن إنسان أو روحه أو الاتحاد معه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فالحق أن الله تعالى واحد لا شريك له لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وليس كمثله شىء، وهو الموصوف بالكمالات التى وصف بها نفسه، والمسمىَّ بالأسماء التى سمى بها نفسه، ولا يجوز لأحد من خلقه أن يتجاوز ذلك، وإلا وقع فى الكفر.

– ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ...﴾

● حقيقة المسيح عليه السلام هى كما أوضحتها هذه الآية الكريمة :

– المسيح عبد من عباد الله وخلق من خلقه قال له : كن فكان .

– وهو رسول من رسل الله ليس أكثر من ذلك كما يدعى المغالون .

– وهو كلمة الله إلى مريم أى خلقه بالكلمة التى أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم عليها السلام، فنفخ فيها من روحه بإذن الله فكان عيسى عليه السلام، ولذلك قيل لعيسى : إنه روح الله وكلمته وليس له أب تولد منه فهو من غير نطفة ومن غير أب .

روى ابن أبى حاتم بسنده عن شاذ بن يحيى قال : ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى .

● وآيات القرآن الكريم الدالة على حقيقة المسيح منها :

قوله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران : ٥٩] .

وقوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

- ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أى صدقوا بأن الله واحد أحد، ولا ولد له ولا صاحبة، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله، فآمنوا به كإيمانكم بسائر الرسل ولا تجعلوه إلها.

- ﴿وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ...﴾ أى واحد بالجوهر ثلاثة بالأقانيم، فهم يقولون: إن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة، ودليل قولهم هذا ما حكاه القرآن عنهم فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

ومن قال منهم بذلك فقد كفر، كما قرر ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

- ﴿انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ...﴾

أى انتهوا عما تقولون من باطل وإفك فى شأن المسيح عيسى ابن مريم، يكن انتهاؤكم خيراً لكم عند الله تعالى، إذ تخرجون بهذا الانتهاء عن الكفر، وهو القول بألوهية المسيح أو القول بأنه ابن الله.

- ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ...﴾

أى: تعالى الله عن أن يكون له ولد علواً كبيراً، وهذه الآية الكريمة -كغيرها من آيات القرآن الكريم- تقرر توحيد الله وتؤكده، وتنزه الله تعالى عن أن يكون له ولد.

- ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾

أى: أن جميع ما فى السموات وما فى الأرض ملكُه وخلقُه وعبيده، وتحت تدبيره، وأنه سبحانه وكيل على كل شيء فكيف يتخذ من خلقه وعبيده صاحبة أو ولداً؟ لقد كانت تلك مقولات الكافرين، كما حكى عنهم قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

كما نفى الله تعالى عن نفسه اتخاذ الولد والصاحبة فقال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ

وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠١، ١٠٢].

- ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ...﴾

هذا إخبار من الله تعالى بأن المسيح نفسه الذي ادعوا انه إله أو أنه ابن الله، لن يمتنع فضلاً عن أن يستكبر أن يكون عبداً لله، ولن يمتنع أو يستكبر عن تلك العبودية لله الملائكة المقربون، على الرغم من أن الملائكة قد اتخذهم بعض الجهلة آلهة مع الله.

فالمسيح والملائكة المقربون عبيد من عباده وخلق من خلقه.

- ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾

هذا قانون عام يعامل الله به كل من استكبر عن عبادته سبحانه وتعالى وهو: جمع هؤلاء المستكبرين إليه سبحانه يوم القيامة حيث لا يملكون لانفسهم شيئاً، ليحاسبهم ويحاسب الناس جميعاً على ما قدموا فى دنياهم، كما جاء ذلك فى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾.

والمعنى: أنه يثيب المؤمنين الذين عبدوا الله وحده وعملوا الصالحات ويعذب الكافرين الذين استكبروا عن عبادته سبحانه وتعالى.

كما جاء فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أى صاغرين حقراء أذلاء، جزاء ما كانوا فى الدنيا مستكبرين عن عبادة الله.

● المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة.

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة دروسا فى الحياة وفى الفكر الصحيح، وفى التعامل مع العقل، مما يرسخ نظم المجتمع ويمكن الناس من ممارسة حياة إنسانية كريمة، مما سنوضحه فيما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ ما يلى:

أ - أن الغلو فى الدين مرفوض يعاقب الله تعالى عليه أشد عقاب لأنه يؤدى إلى الكفر، ويتعلمون من ذلك أن الغلو فى كل شيء يفسده، فالأصوب للإنسان أن يكون معتدلا متوازنا فى حكمه على الناس والأشياء.

ب - وأن توحيد الله تعالى بالألوهية والربوبية هو الأصل الذى يلائم فطرة الإنسان، وأن القائلين بغير التوحيد عليهم أن ينتهوا عن هذا الباطل، لأنهم بذلك يشركون بالله ما لم ينزل به سلطانا ويقولون على الله ما لا يعلمون، وإذا كان الله تعالى يعذب العصاة فما بالنا بمن أشرك بالله وقال إنه ثلاثة؟.

جـ - وأن كل الطوائف التى قالت إن الله ثلاثة كفرة مشركون لأن القول بالأقانيم الثلاثة فى المسيح - الأب والابن وروح القدس - باطل وكفر وشرك، وهذه الطوائف القائلة بذلك فى الضلال عن الحق فى المسيح سواء؛ وهم ثلاثة: الملكانية، واليعقوبية، والنسطورية. وإن كانت بينهم اختلافات فى كيفية ذلك كما اختلفوا فى اللاهوت والناسوت: هل اتحدا أم لم يتحدا، أو امتزجا أم لم يمتزجا.

كل أولئك نهاهم الله تعالى عن هذا الكفر والشرك فقال لهم: ﴿ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ وفى هذا تهديد لهم إن لم ينتهوا، وكيف لا ينتهون وهم فى ملك الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض؟.

٢ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ ما يلى:

أ - أن عبادة الله تعالى وحده هى الأصل، وأن أحدا من خلقه المكرمين لديه كالأنبياء والملائكة لا يمكن أن يستنكفوا عن أن يعبدوا الله بل هم يتشرفون بأن يكونوا عبيدا له سبحانه، المسيح ابن مريم والملائكة وأمثالهم.

ب - وأن الناس بما فيهم من فطرة سليمة وعقل سليم يتجهون إلى عبادة الله وحده متجاوبين فى ذلك مع الحق ومع الفطرة التى فطرهم الله عليها من عبادة إله واحد يحس الإنسان بوجوده وأثره فى نفسه وفيما حوله، لو تأمل وتدبر واستعمل ما أعطاه الله من حواسّ ومشاعر تهديه إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

جـ - وأن الله تعالى إنما خلق الجن والإنس وسائر مخلوقاته ليعبدوه اختيارا أو اضطرارا، وأن مخلوقات الله هى التى تحتاج إلى عبادته سبحانه لتستقر وتهدأ وتطمئن.

وأن من الضلال أن يتخذ الإنسان مخلوقا آخر يتقرب به إلى الله أو إلى عبادته، كما فعل المشركون إذ قالوا عن معبوداتهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر: ٣].

- وأن عبادة الإنسان لربه لا تحتاج وساطة، لأن الله تعالى أقرب إليه من كل وسيط: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦].
- وأن قانون الثواب للمؤمنين والعقاب للكافرين قانون عام لا يتخلف ولا يمكن أن تعطله وساطات معبودات شركية حتى لو كانت من الأنبياء أو الملائكة.
- **المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة.**

وهى كثيرة - كما قلنا غير مرة - وفيها للدعاة إلى الله والعاملين فى مجال الحركة الإسلامية زاد أى زاد ومتاع أى متاع فى رحلتهم الطويلة فى موكب الدعوة إلى الله، وسوف نشير إلى بعض ذلك فيما يلى والله المستعان.

١ - يتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ ما يلى:

أ - أن الجهلة والغافلين هم الذين يغالون فى تقدير الناس حتى يخرجوا بهم عما هيأهم الله له، وربما وصلوا من وراء ذلك إلى الكفر - كما فعل النصارى فى أمر عيسى ابن مريم عليه السلام - ولذلك حذَّر الرسول ﷺ من الوقوع فى هذا الجهل المؤدى إلى الخطأ والكفر، فقد روى أحمد بسنده عن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله».

وروى أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه أن رجلا قال: يا محمد يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس عليكم بقولكم، ولا

يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل».

- إن على الدعاة إلى الله أن يحذروا من هذه المبالغات، وتلك الإطراءات التى أضلَّت كثيرا من المسلمين، عندما سكت عن التحذير منها الدعاة إلى الله.
- ومن شأن هذه المبالغات والإطراءات أن توقع الطرفين المُطرِى والمُطرَى فى ضرر كبير:

أما المطرى:

فإنه يشعر وهو يبالغ ويطرى بأنه صغير بل حقير وذليل أمام من يطريه، والأصل فى المؤمن أن يكون عزيزا كريما لا يذل إلا الله وحده، ومن هنا يقع فى الخطأ والضرر.

وأما المُطرَى:

فإنه قد يغتر بالإطراء ويفسد، ويعان عليه الشيطان، فيتعالى على الناس، والأصل فى المؤمن التواضع ومقاومة كل أسباب الغرور.

ب - وأنّ مَنْ وحّد الله تعالى بالعبادة واستقام على منهجه ولم يغال فى الدين، فقد نجا، بل دخل من أى أبواب الجنة الثمانية، فقد روى البخارى بسنده عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» وزاد فى رواية: «من أى أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء».

فهذا الحديث يشرح لب قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾، وقوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾.

جـ - وأن الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية يجب عليهم أن يتوقفوا طويلا ويتدبروا - وهم أهل لذلك - قول الله تعالى: ﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ لينهلوا من دلالة هذه العبارة الوجيزة ما هم فى أمَسّ الحاجة إليه فى دينهم ودنياهم، فهذه العبارة وإن وجهت لأهل الكتاب المغالين فى دينهم، إلا أنها توجه إلى كل من قام بعمل يخالف ما أمر الله به أو نهى عنه، بأن ينتهى عن هذه المخالفات فيكون انتهاؤه عنها خيرا له فى دينه ودنياه.

وما أكثر المخالفين الذين يزين لهم الشيطان الإثم والفسوق والعصيان، فى كل عصر ومصر.

وعلى سبيل المثال:

- فإن المشركين والكافرين والملحدين والعلمانيين والمتهكمين على الدين والديّان، والساخرين من الإيمان والمؤمنين، والهازئين بالغيب وبمن آمن به، كل أولئك لو انتهوا عن ذلك لكان خيرا لهم، وباب الانتهاء عن الإثم والشر مفتوح برحمة من الله إلى يوم القيامة.

- وإن العصاة لله الداخلين بهذه المعاصى فى عذاب الله، الذين زين لهم الشيطان أعمالهم فأعماهم عن الطاعة وزين لهم المعصية، هؤلاء لو انتهوا عن طريق المعاصى لكان خيرا لهم.

- وإن المُقلّين من الطاعات، أو أولئك الذين يكتفون بأداء الفروض والواجبات المنصرفين عن النوافل والمندوبات لو انتهوا عن ذلك وأقبلوا على النوافل لكان خيرا لهم، حيث يحصلون بهذا الإقبال على حب الله وقربه، فقد قال سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى: « ... ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ... » الحديث.

فلو انتهى هؤلاء عن ترك النوافل لكان خيرا لهم، لو انتهى المقلون من النوافل عن هذا الإقلال لكان خيرا لهم.

- إن تلك هى وظيفة الدعاة إلى الله أن يوقظوا فى الناس حب الطاعات وكراهية المعاصى، وأن يذكروهم بما وعد الله به أهل الطاعات من ثواب عظيم، وما توعد به أهل المعاصى من عقاب، إلا من بادر منهم إلى التوبة عما كان منه.

٢ - ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ ما يلى:

أ - أن العبودية لله تعالى منزلة رفيعة ووصف بها المسيح عليه السلام والملائكة المقربون الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ووصف بها سبحانه عباده وسماهم عباد الرحمن، فأولى درجاتهم العبودية، ويظلون صاعدين فى درجات القرب من الله، حتى يجزيهم الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما[1].

وحسب العبودية لله مكانة ورفعة أن جعلها رسول الله ﷺ من أعلى المراتب إذ هى الإحسان، وذلك حينما سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان، فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

نعم لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ولا أى عاقل من الناس، إذ العبودية لله شرف، ومن ذا الذى يزهد فى الشرف.

- إن على الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس معنى العبودية لله، وأنها تدخل فيها أفضل صفات المؤمن وأحبها إلى الله مثل: الإخلاص والتوكل والمحبة والصبر والخوف والإنابة والرجاء وغيرها من الفضائل، فمن عبد الله حق عبادته وجب عليه أن يتصف بهذه الصفات.

ب - وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن من حدثته نفسه بترك العبودية لله أو بالتقصير فى واجباتها، فإنه سوف يحشر إلى الله تعالى يوم القيامة ليحاسبه على ذلك ويعاقبه.

جـ - وأن على الدعاة إلى الله أن يشوقوا المؤمنين الذين يعملون الصالحات إلى ثواب الله وجنته، وأن يركزوا على قوله تعالى: ﴿ ... **وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ** ﴾ فأى فضل ذاك الذى يزيد على توفيتهم أجورهم؟ إن فى هذا الفضل لمسرحا للقلب المؤمن، أيكون ذلك الفضل مزيدا من الأجر؟ أم يكون الجنة؟ أم يكون الشفاعة؟ أم يكون غفرانا غير محدود لذنوب كثيرة؟ أم يكون النظر إلى وجه الله؟.

إنها جميعا زيادة تتحرك إليها أشواق المؤمن فيجرى إليها فى طريق العمل الصالح لا يلوى على شىء من أعراض الدنيا التى قد تعوقه، فيكتفى منها بما لابدّ منه فحسب ويستكثر من الخيرات وصالح الأعمال.

تلك هى المهمة الحقيقية للدعاة إلى الله ترقيق القلوب ودعوتها إلى المبادرة إلى الخيرات.

---

(1) وذلك فى الآيات: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا .... ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ الآيات من [الفرقان: ٦٣ - ٧٥].

٢٠ - الآيات الكريمة من الآية الرابعة والسبعين بعد المائة

إلى الآية السادسة والسبعين بعد المائة

دعوة الناس جميعا إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ

وختم السورة بفتيا فى ميراث الكلالة

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (١٧٥) يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

- اشتملت هذه الآيات الثلاث على تعريف برسالة محمد ﷺ، وعلى دعوة الناس إلى الاعتراف بها والإيمان بمنهجها، ووعد بأحسن الجزاء لمن آمن بالله واعتصم به وبمنهجه، وفتيا من الله تعالى فى ميراث الكلالة وهو من مات وليس له ولد أو والد.

وسنوضح ذلك فى تفصيلنا لشرح الآيات الكريمة.

تفصيل القول فى هذه الآيات الكريمة:

- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

قال بعض المفسرين: البرهان هو محمد ﷺ، وإنما سماه الله برهانا لأن حرفته هى إقامة البرهان والدليل على إحقاق الحق وإبطال الباطل.

قال بعضهم: البرهان هو الدليل القاطع للعذر المزيل للشُّبَه كلها، وذلك ما جاء على لسان محمد ﷺ.

- ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾.

وهو القرآن الكريم، وسماه نوراً لانه سبب لوقوع نور الإيمان فى القلب، أو هو الضياء الموضح للحق، وفى الحق إن القرآن الكريم كاشف لكل غموض أو خفاء فيما يتصل بحياة الناس من حيث الحقوق والواجبات.

_ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾.

● آمنوا بالله: أى بما أنزل على محمد وما شرع وما أمر وما نهى. واعتصموا به: أى تمسكوا بمنهجه، وبما شرع لهم، وفى القرآن الكريم: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١].

﴿ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ﴾ أى جمعوا بين مقامى العبادة لله والتوكل عليه فى جميع أمورهم.

أو: آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن الكريم النور المبين.

أو: آمنوا بالله فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، واعتصموا بالله فى أن يثبتهم على الإيمان، ويصونهم عن نزغ الشيطان.

هؤلاء الذين آمنوا بالله واعتصموا به، وعدهم الله بثلاثة أنواع من الأجر هى:

الأول: الرحمة: وهى الجنة كما قال ابن عباس رضى الله عنهما.

والثانى: الفضل: وهو ما يتفضل الله به عليهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

والثالث: الهداية: أى هدايتهم إلى الصراط المستقيم، صراط الله والصراط المستقيم هو الطريق الواضح القصد الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف.

هذه صفات المؤمنين المعتصمين بالله فى الدنيا، وتلك أجورهم فى الآخرة، وقد عبرت عن ذلك الآية الكريمة:

﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾.

والمعنى: أنهم فى الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة فى جميع الاعتقادات والامور العملية، وفى الآخرة على صراط الله المستقيم المفضى إلى روضات الجنات مع الرحمة

والفضل.

- ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

● قال فخر الدين الرازى[1]: قال أهل العلم: إن الله تعالى أنزل فى الكلالة آيتين:

إحداهما: آية الشتاء وهى التى فى أول السورة.

والأخرى: فى الصيف وهى هذه الآية، ولهذا تسمى هذه الآية: آية الصيف.

● والكلالة فى هذه الآية: من مات وليس له ولد ولا والد، والآية تنص على أنه من لا ولد له، لكن يفهم من أحكام التوريث أنه من لا ولد له ولا والد، لانه إن كان له والد حجب الاخت، بإجماع الآراء.

فيكون معنى الكلالة من لا ولد له ولا والد.

- فإذا مات الكلالة وله أختٌ واحدة فلها نصف ما ترك، فإذا كانتا اثنتين أو أكثر فلهن الثلثان، وإن ترك إخوة رجالا ونساءً قسمت التركة بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين.

- وإذا كانت الكلالة امرأة ليس لها ولد ولا والد، لها أخ واحد ورث كل ما تركت وإن كان لها إخوة رجال ونساء كان للذكر منهم مثل حظ الأنثيين.

- ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ﴾.

أى: لكى لا تضلوا عن الحق بعد هذا البيان.

● وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: إنى لأستحى أن أخالف أبا بكر وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول هو: ما عدا الولد والوالد.

قال ابن كثير رحمه الله: وهذا الذى قاله الصديق هو ما عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة فى قديم الزمان وحديثه، وهو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة[2].

---

(١) فى كتابه: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب - مرجع سابق.

(٢) الفقهاء السبعة هم: سعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد بن أبى بكر، وعروة بن الزبير، وخارجة بن زيد بن ثابت، وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وعبيد الله بن عتبة بن مسعود، وسليمان بن يسار الهلالى. وكلهم من التابعين.

وقول علماء الأمصار قاطبة وهو الذى يدل عليه القرآن الكريم.

- ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى هو العالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيها من الخير لعباده، وعليم بكل ما يستحقه كل واحد من القرابات بحسب قربه من المتوفى، وهو المشرع لنظام المواريث بحيث يأخذ كل ذى حق حقه، ولا يبخس أحد من حقه شيئاً.

● **المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة.**

يتعلم المسلمون عموما من هذه الآيات الكريمة دروسًا وعبرًا ويعرفون منها حقوقهم وواجباتهم نحو أقربائهم، بل يدركون منها ما يستحقون من قراباتهم إذا ماتوا وما يستحق منها قراباتهم إذا جاءهم الموت؛ وكل ذلك فى آية الكلالة أو آية الصيف، بالإضافة إلى ما يعرفونه ويدركون أهدافه من اتباعهم للحق الذى جاء به محمد ﷺ، وسنوضح ذلك بالتفصيل فيما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ما يلى:

أ - أن الله تعالى تفضل على الناس وأنعم عليهم برسول خاتم معه البرهان والحجة والدليل على صدقه وصدق ما جاء به من عند ربه ونفعه للناس فى دينهم ودنياهم.

● ومعنى ذلك عند المتدبرين أن الله تعالى يطلب من الناس أن يعملوا عقولهم فى رسالة محمد ﷺ وما تضمنته من خير لهم، وأن يفكروا فيما تحمل من أدلة وبراهين على صدقها ومصداقيتها.

● وكلمة الناس - فى الآية الكريمة - أعم من كلمة المؤمنين فالبرهان لكل الناس، وليس للمؤمنين وحدهم، ولو استعمل الناس عقولهم لآمنوا.

ب - وأن القرآن نور مبين يوضح للناس ما يحتاجون إلى توضيحه من قضايا وأحكام وأخلاق وآداب، إنه يكشف عن الحق ويبين أبعاده، وقد وصفه الله تعالى بأنه نور فى أكثر من آية، كما فى قوله تعالى: ﴿.... فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقد أجمع العلماء على أن النور اسم من أسماء القرآن الكريم.

وإنما كان القرآن الكريم نورا لانه يضىء طريق الحق والهدى، والناس جميعا يحتاجون إلى الحق ليأخذوا ما لهم ويعطوا ما عليهم، ويؤمنوا عن بينة، ويحتاجون إلى الهدى ليتنكبوا طرق الباطل والضلال والظلام والحيرة والتخبط.

وقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور، قال الله تعالى: ﴿الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

جـ - وأن الذين آمنوا بالرسول ﷺ وبرسالته واتبعوا النور الذى أنزل معه هم الذين آمنوا بالله واعتصموا به، لأن الرسول ﷺ هو الذى علمهم الإيمان وأركانه والإسلام وأركانه، وعلمهم كيف يكون الاعتصام بالله وبالحق وبالقرآن الكريم فاعتصموا به، فنالوا بذلك عند الله الرحمة والفضل والهداية إلى الطريق المستقيم.

٢ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ما يلى:

أ - أن الشريعة الإسلامية شريعة كاملة، تكفل للناس إن تمسكوا بها حياة مليئة بالعدل والإنصاف لا يضيع فيها أدنى حق لأى أحد بعد أو قرب، وأن حكمة عظمى تكمن فى توريث التركة بحيث ينال كل منها بقدر إدلائه للميت بوشيجة القربى، وبقدر ما يتحمل من مسئولية فى الحياة، وأن جعل نصيب الرجل مثلى نصيب المرأة عند التوارث إن اجتمعا على مال مورث وأدليا إليه بنفس القرابة، هو صميم العدل الاجتماعى - على نحو ما بينا فى أول السورة الكريمة - وذلك إنصاف للمرأة حين التأمل والتدبر.

ب - وأن الله تعالى بيَّن هذه الوثائق وفصل تلك التفاصيل فى التركات حتى لا يضل الناس فيها فيأخذ من لا يستحق ما لا يستحق، ويمنع من يستحق ما يستحق، وكل تشريعات الله تعالى تقوم على إحقاق الحق، ورفع الظلم، وتمكين الناس عموما من حقوقهم مع إلزامهم بواجباتهم.

● وأن المسلمين - وهم يتقبلون هذا النظام فى الميراث - عليهم أن يؤمنوا بأن الله تعالى قد وضع هذا النظام بناء على علمه الواسع بما يصلح للناس دنياهم ودينهم.

جـ - ويتعلم المسلمون من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى هو مصدر العلم والفتيا، وأنه علم رسوله ذلك العلم وتلك الفتاوى، وأن المسلمين بعد رسول الله ﷺ ينبغى أن يتجهوا فى فتواهم إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة إن كانوا من أهل النظر والقدرة على فهم الكتاب والسنة، فإن لم يكونوا كذلك اتجهوا إلى أهل العلم، ممن لهم القدرة على فهم الكتاب والسنة وفق الشروط والآداب التى يجب أن تتوافر فيمن يفتى الناس.

● **المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة بهذا الدين فى الناس وفى الآفاق.**

وتلك المواقف - كما قلت أكثر من مرة - كثيرة ومتنوعة ومعلمة وهادية، ولابد منها لكل من يعمل شيئًا من أجل هذا الدين، وسنوضح ذلك فيما يلى والله المستعان:

١ - يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ما يلى:

أ - أن الرسول ﷺ الأسوة والقدوة قد كان يحمل برهانا ودليلا على نفسه وعلى كل ما يقول يؤكد به صدقه ومصداقية ما جاء به.

ومعنى هذا أن الدعاة إلى الله يجب أن يتسلحوا دائمًا بالعلم والبرهان والدليل، وأن يخاطبوا العقول قبل العواطف وأن يحشدوا من الأدلة والبراهين ما يزيلون به كل شبهة توجه للإسلام وما يدحضون الباطل والمفتريات والمعوقات التى يضعها أعداء الإسلام فى طريق الإسلام.

● غير أن ذلك لا يعنى أن يتحول الدعاة إلى الله إلى جدليين أقرب ما يكونون إلى الفلاسفة، وذلك أن الإيمان الذى يدعون إليه عمل القلوب مع العقول، واستجابة الفطرة والنظرة معًا.

وتقديم الدليل والبرهان أعون على تحقيق الأهداف فيما يحتاج إلى نظر وتفكير.

ب - وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن أكبر نعم الله عليهم وأبقاها وأنفعها لهم هى القرآن الكريم، فهو النور والهدى، وجلاء العقول من الحيرة والضلال.

- فقد روى الإمام أحمد بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أتانى جبريل فقال: يا محمد أمتك مختلفة بعدك، قال: فقلت له: فأين المخرج يا جبريل؟ قال: فقال: فى كتاب الله، به يقصم كل جبار، من اعتصم به نجا، ومن تركه هلك، قالها: مرتين، قول فصل ليس بالهزل، لا تخلقه الألسن، ولا تفنى عجائبه، فيه نبأ ما كان قبلكم، وفصل ما بينكم وخبر ما هو كائن بعدكم».

- وروى الدارمى بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فتَن»، قلت: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله، كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذى مَنْ تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الردّ، ولا تنقضى عجائبه، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا، وهو الذى من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

- وروى الدارمى بسنده عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيبه، وإنى تارك فيكم الثقلين:

أولهما: كتاب الله فيه الهدى والنور، فتمسكوا بكتاب الله وخذوا به، فَحَثَّ عليه ورَغَّب فيه ثم قال: وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى» ثلاث مرات.

- وروى الدارمى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: يجىء القرآن يشفع لصاحبه يقول: يارب لكل عامل عمالة من عمله وإنى كنت أمنعه اللذة والنوم فأكرمه، فقال: ابسط يمينك فيملأ من رضوان الله ثم يقال: ابسط شمالك فيملأ من رضوان الله، ويكسى كسوة الكرامة ويحلى حلية الكرامة ويلبس تاج الكرامة.

- وروى الدارمى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله أهلين من الناس»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «أهل القرآن».

جـ - وأن على الدعاة إلى الله ان يعقدوا بين المسلمين وبين القرآن الكريم علاقة وثيقة تقوم على تعهده وحسن تلاوته والعمل بما فيه.

- روى مسلم بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت».

- وروى مسلم بسنده عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها طيب، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر».

- وروى مسلم بسنده عن سالم عن أبيه رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار».

- وروى مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران».

- وروى مسلم بسنده عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن فى الصفَّة[1] فقال:

أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان، أو إلى العقيق فيأتى منه بناقتين كوماوين فى غير إثم ولا قطع رحم، فقلنا: يا رسول الله، نحب ذلك. قال: أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل».

هكذا ينبغى أن يوثق الدعاة إلى الله صلة الناس بالقرآن الكريم، فإن ذلك مفتاح كل خير ومغلاق كل شر.

٢ - ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ

---

(١) مظلة فى المسجد كان فقراء المهاجرين يأوون إليها.

حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ما يلى :

أ - أن المسلمين يجب عليهم أن يستفتوا أهل العلم فى كل أمر من أمور الدين، فقد كان ذلك خلق الصحابة رضوان الله عليهم مع رسول الله ﷺ .

وبعد الرسول ﷺ كان الصحابة يستفتى بعضهم أهل العلم منهم.

وكان الخُلق السائد فيهم ألا يقطع أحد منهم برأى فى مسألة حتى يستفتى مَنْ يأنس منه علما وقدرة على الفتيا.

وهكذا يجب أن يكون خلق المسلمين فى كل زمان ومكان، لأن هذا مبدأ قرآنى يفهم من قوله تعالى : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُون﴾ [الأنبياء : ٧].

ب - وعلى الدعاة إلى الله أن يعلموا الناس بما يجب أن يكون عليه المستفتى من خلق وتأدب فى طلب العلم والفتيا، وما يجب أن يكون عليه المفتى من علم وورع وفقه فى الدين وفقه للدنيا والمتغيرات فى حياة الناس.

● وهذا النوع من العلم أو الفقه فى الإفتاء والمستفتى والمفتى يعرفه الدعاة إلى الله حق المعرفة، وعليهم أن ييسروه على الناس، فذلك أدب الإسلام فى العلم والعلماء والمتعلمين وهو واجب الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية فى كل زمان ومكان.

جـ- وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن حق المرأة فى الميراث قد كفله الإسلام بما لم يكفله لها نظام سابق على الإسلام أو لاحق.

ولأذكّر هنا بما يلى :

- فى موت الكلالة ترثه أخته ولها النصف فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان، وإن كانت مع أخ لها أو أكثر ورثت نصف مايرثه أخوها.

- وإن كان المتوفى لا ولد ذكرا له ، وله بنت فلها نصف ما ترك وإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان.

- وإن كانت أما أو جدة ورثت السدس.

- وإن كانت زوجة واحدة ورثت ربع ماترك زوجها إن لم يكن له ولد فإن كان له ولد ورثت الثمن، فإن كان قد ترك أكثر من زوجة قسم بينهما أو بينهن الربع أو الثمن.

● والمرأة لا تعدو أن تكون أما أوجدة أو زوجة أو أختا أو بنتا، وهى فى جميع الأحوال ترث ولها حق مفروض، فهل يقال بعد ذلك: إن الإسلام لم يعط للمرأة حقوقها؟ ألا كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا.

● وهذا البيان واجب الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية فى كل زمان ومكان- كما قلت ذلك آنفا- والله حسبنا ونعم الوكيل.

خـاتمـة الكتـاب

الحمد لله أولا وأخيرا، وفى البدء والختام، وأسأله سبحانه وتعالى أن ينفع بهذا الكتاب من يقرؤه، وأن يجعله فى ميزان حسناتى، إنه على ما يشاء قدير.

وسبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك

على عبد الحليم محمود

غرة ربيع الأول من عام ١٤١٩ هـ

الموافق ٢٥/٦/١٩٩٨ م

ثبت موضوعات الكتاب

الموضوع **الصفحة**

قائمة بأعمال المؤلف المنشورة

أولا :

فى الفكر الإسلامى وقضاياه :

١ – مع العقيدة والحركة والمنهج. نشر دار الوفاء بمصر.

٢ – الغزو الصليبى والعالم الإسلامى. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣ – المسجد وأثره فى المجتمع الإسلامى. نشر دار المنار بالقاهرة.

٤ – الغزو الفكرى وأثره فى المجتمع الإسلامى. نشر دار المنار بالقاهرة

٥ – التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى وطرق التغلب عليه. نشر دار الوفاء بمصر.

٦ – التعريف بسنة الرسول ﷺ، أو علم الحديث دراية. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٧ – نحو منهج بحوث إسلامى. نشر دار الوفاء بمصر.

٨ – السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. نشر دار عكاظ بالسعودية.

ثانيا :

أ – فى التربية الإسلامية :

٩ – تربية الناشئ المسلم. نشر دار الوفاء بمصر.

١٠ – منهج التربية عند الإخوان المسلمين. نشر دار الوفاء بمصر.

١١ – وسائل التربية عند الإخوان المسلمين. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية

ب – سلسلة التربية فى القرآن الكريم :

١٢ – التربية الإسلامية فى سورة المائدة. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٣ – التربية الإسلامية فى سورة النور. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٤ - التربية الإسلامية فى سورة آل عمران. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.
١٥ - التربية الإسلامية فى سورة الاحزاب. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.
١٦ - التربية الإسلامية فى سورة الانفال. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.
١٧- التربية الاسلامية فى سورة النساء نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

جـ - سلسلة مفردات التربية الإسلامية :

١٨ - التربية الروحية. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.
١٩ - التربية الخلقية. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.
٢٠ - التربية العقلية. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

ثالثًا :

فى فقه الدعوة الإسلامية :

٢١ - فقه الدعوة إلى الله. نشر دار الوفاء بمصر.
٢٢ - فقه الدعوة الفردية. نشر دار الوفاء بمصر.
٢٣ - المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله. نشر دار الوفاء بمصر.
٢٤ - عالمية الدعوة الإسلامية. نشر دار الوفاء بمصر.
٢٥ - التوثيق والتضعيف بين المحدثين والدعاة. نشر دار الوفاء بمصر.
٢٦ - فقه الأخوة فى الإسلام. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.
٢٧ - فقه المسئولية. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

رابعًا :

سلسلة فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا.

٢٨ - ركن فهم أصول الإسلام نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.
٢٩ - ركن الإخلاص فى مجال العمل الإسلامى. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.
٣٠ - ركن العمل أو منهج الإصلاح الإسلامى. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣١ - ركن الجهاد أو الركن الذى لا تحيا الدعوة إلا به. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٢ - ركن التضحية أو بذل النفس والمال وكل شيء فى سبيل الله تعالى. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٣ - ركن الطاعة. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٤ - ركن الثبات. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٥- ركن التجرد. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

خامسًا:

فى الأدب الإسلامى:

٣٦ - مصطفى صادق الرافعى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه. نشر دار عكاظ بالسعودية

٣٧ - جمال الدين الأفغانى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه. نشر دار عكاظ بالسعودية

سادسًا:

فى الدراسات الأدبية:

٣٨ - القصة العربية فى العصر الجاهلى. نشر دار المعارف بمصر.

٣٩- النصوص الأدبية، تحليلها ونقدها. نشر دار عكاظ بالسعودية.

سابعًا:

كتب معدة للنشر:

١ - التربية الإسلامية فى سورة التوبة.

٢ - التربية الإسلامية فى المدرسة.

٣ - التربية الإسلامية فى المجتمع.

٤ - باقى سلسلة فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا، وهى: ركن الأخوة وركن الثقة.

٥ - باقى سلسلة مفردات التربية الإسلامية